

الصّورة الفنّية
في الرّسائل الأندلسيّة في عهد الموحّدين
٥٤١ - ٦٦٨هـ —
دراسة وصفية وتحليليّة

إعداد
محمّد جاسر أسعد

الصّورة الفنّية في الرّسائل الأندلسيّة في عهد الموحّدين

٥٤١ - ٦٦٨ هـ —

دراسة وصفية وتحليلية

إعداد

محمّد جاسر أسعد

بحث متطلب مقدّم لنيل درجة الدّكتوراه في العلوم الإنسانيّة

(اللغة العربيّة وآدابها)

قسم اللغة العربيّة

كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانيّة

الجامعة الإسلاميّة العالميّة ماليزيا

نوفمبر ٢٠١٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال القاضي الفاضل: "إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتَبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِيهِ نَحْمَدُ: لَوْ كَانَ خَيْرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زَيْدٌ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنَ أَكْثَرِ الْعِبَرِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِغْلَاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ".^١

^١ يُنسَبُ هَذَا الْقَوْلُ خَطًّا إِلَى الْقَاضِي عِمَادِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ صَفِيِّ الدِّينِ الْأَصْفَهَانِيِّ (٥١٩ - ٥٩٧هـ)، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لِلْقَاضِي الْفَاضِلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ اللَّخْمِيِّ الْبَيْسَانِيِّ وَكَانَ قَدْ بَعَثَ بِهِ إِلَى الْقَاضِي الْأَصْفَهَانِيِّ. يُنْظَرُ: الزَّيَّيْدِيُّ، مَرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِيِّ الزَّيَّيْدِيِّ (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ)، إِتْحَافُ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ بِشَرْحِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ (بِירוْت: دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، ط١، ١٩٨٩م)، ١: ٤٠.

ملخص البحث

هذا البحث الذي يحمل عنوان (الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية في عهد الموحدين - دراسة وصفية وتحليلية) يهدف إلى تحديد عصر الدولة الموحدية وبيان أوضاع الأندلس خلال ذلك العصر، كما يهدف إلى بيان الآراء المختلفة لمفهوم الصورة الفنية وتبني رأي واضح ليكون مدخلاً للدراسة، ثم استعراض مراحل تكوين الصورة الفنية اعتماداً على ذلك الرأي. كما يهدف البحث إلى التعريف بكتاب الرسائل الأندلسية في عهد الموحدين، وبيان أنواع رسائلهم وأغراضها ومضامينها. وبعد ذلك ينتقل البحث لدراسة الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية التي كتبت في عهد الموحدين، حيث يتعرض للمصادر المادية والثقافية وللأنماط الحسية التي استقى منها الكتاب مادة الصورة الفنية في رسائلهم. ويتعرض البحث أيضاً لدراسة التشكيلات البيانية والبديعية التي حوتها الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية، مبيّناً أنواع تلك التشكيلات وأثرها على شكل الصورة الفنية ومعناها. ويأتي البحث على دراسة أبرز الظواهر التي ظهرت في الصورة الفنية في الرسائل، حيث برزت ظواهر في لغة الصورة الفنية في الرسائل، وظواهر أخرى في بنائها. وختم البحث بذكر أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، وبإيراد مجموعة من التوصيات التي ينبغي الإشارة إليها، والتي قد تُفيد الباحثين الذين يرغبون في الاستمرار بالبحث في مجال الأدب المغربي عامة، وفي النثر خاصة.

ABSTRACT

This research aims at identifying the era of Almohad sovereignty, describing the situation in Andalusia in that era, exploring the different views on the artistic image, adopting a clear view to be a gateway into this study and presenting the stages of artistic image formation based on that particular view. This research aims also at introducing the authors of Andalusian essays in the era of Almohades, demonstrating the types of essays as well as their objectives and contents. The research then moves to studying the artistic images in these Andalusian essays, whereby it exposes the physical and cultural sources and the sensory patterns from which authors derived the artistic images that they used in their essays. The research also studies the forms related to the figures of speech and embellishments that are contained by the artistic images in Andalusian essays, with a demonstration of their types and effects on a particular artistic image and its meaning. The research also studies the most remarkable phenomena that appeared in the artistic image of the essays, as many phenomena related to the language of artistic images of the essays and their formation have emerged. The research is concluded by stating the most important findings and a set of recommendations, which may be useful for researchers who want to continue researching in the field of Maghrebian literature in general and prose in particular.

APPROVAL PAGE

The thesis of Mohammad Jaser Jabali Asad has been approved by the following:

Munjid Mustafa Bahjat
Supervisor

Nasr El Din Ibrahim Ahmed Hussein
Co-Supervisor

Faisal El-Hadad
Internal Examiner

Waleed Qassab
External Examiner

Mostafa Alian
External Examiner

Mohammad Elwathig Mirghani
Chairman

DECLARATION

I hereby declare that this thesis is the result of my own investigation, except where otherwise stated. I also declare that it has not been previously or concurrently submitted as a whole for any other degrees at IIUM or other institutions.

Mohammad Jaser Jabali Asad

Signature:.....
.....

Date:

الإهداء

إلى الوالد العزيز الذي علمنا حبّ العلم والإخلاص في العمل.
إلى روح الوالدة الساكنة في شغاف قلوبنا.
إلى خاليتي وقرّة عيني أمّ ضياء.
إلى فلذات كبدي وحيّات قلبي: ضياء ورجاء وجنى وغنى.
أهدي هذا البحث.

الشكر والتقدير

لا يسعني بعد اكتمال هذا البحث إلا أن أفف وأودي واجب الشكر لمشرقي الأول الأستاذ الدكتور منجد مصطفى بهجت أستاذ الأدب الأندلسي على توجيهاته ورعايته ونصحه، وما كان هذا البحث ليرى النور لولا ما بذله من جهد وتصويب ومتابعة.

كما اتقدم بالشكر للمشرف الثاني الأستاذ الدكتور نصر الدين إبراهيم حسين أستاذ البلاغة على توجيهه ومتابعته وملاحظاته.

والشكر موصولاً للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور فيصل الحداد ممتحناً داخلياً، والأستاذ الدكتور وليد قصاب من جامعة الإمام محمد بن سعود والأستاذ الدكتور مصطفى عليان من الجامعة الهاشمية ممتحنين خارجيين وذلك على القراءة الناقدة المفيدة وإبداء الملاحظات والتوجيهات البناءة.

إلى هؤلاء الأفاضل جميعاً أقدم جزيل شكري وعظيم امتناني راجياً أن أكون قد أفدت من علمهم الجَمِّ وخبرتهم الثرية وقدمت ما يستحق أن يكون لبننة جديدة في صرح الدراسات التي تُعنى بالأدب الأندلسي، وأسأل الله لي ولهم العفو والمغفرة.

محتويات البحث

ب	ملخص البحث.....
ج	ملخص البحث باللغة الانجليزية.....
د	صفحة القبول.....
هـ	صفحة الإقرار.....
و	صفحة حقوق النشر.....
ز	الإهداء.....
ح	الشكر والتقدير.....

١٧	الباب الأول: التمهيد.....
١٨	الفصل الأول: مدخل إلى البحث.....
١٨	المقدمة.....
٢١	مشكلة البحث.....
٢١	أسئلة البحث.....
٢٢	أهداف البحث.....
٢٢	أهمية البحث.....
٢٢	حدود البحث.....
٢٣	منهج البحث.....
٢٣	الدراسات السابقة.....
٣١	مصطلحات البحث.....
١٦	الفصل الثاني: الأندلس خلال العصر الموحدين ٥٤١ - ٥٦٦٨.....
١٦	الرسائل الأندلسية واثاق شاهدة على عصر الموحدين في الأندلس.....

٥٦	الباب الثاني: الصورة الفنية مفهومها وأطوار تكوينها
٤٠	الفصل الأول: مفهوم الصورة الفنية
٤٠	المفهوم اللغوي
٥٨	مراحل تحديد المفهوم لاصطلاح الصورة في التراث العربي القديم
٥٨	المرحلة الأولى: مرحلة الجاحظ
٥٩	المرحلة الثانية: مرحلة الرّماني
٦١	المرحلة الثالثة: مرحلة الجرجاني
٤٧	المرحلة الرابعة: مرحلة حازم القرطاجني
٤٨	المرحلة الخامسة: مرحلة الخطيب القزويني
٦٦	مفاهيم الصورة الفنية حديثاً
٦٧	أولاً: آراء تتصف بالغموض والإبهام
٥١	ثانياً: آراء تتصف بالتضييق والتخصيص
٥٢	ثالثاً: آراء تتصف بالتعميم والشمولية
٥٣	مفهوم الصورة الذي سيكون أساس الدراسة
٥٦	الفصل الثاني: أطوار تكوين الصورة الفنية
٥٦	الإدراك الحسي
٧٥	الخيال
٦٦	التصور
٦٨	التصوير
٧١	الباب الثالث: كتاب الرسائل لأندلسية وموضوعاتها
٧٢	الفصل الأول: كتاب الرسائل لأندلسية
٧٤	ابن عميرة
٧٦	الفازاري
٧٨	ابن الجناح أنصاري

٧٩	ابنمُغاور
٧٩	أبو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاش:
٨٠	صفوان بنِ ادريس
٨١	سعيد بن حَكَم
٨٢	ابن الأَبَّار
٨٣	ابنمَحْشَرَة
٨٣	أبو الحسن بن عِيَّاش
٨٤	أبو القاسمِ البَلَوِيّ
٨٤	أبو الحَكَم بن المُرْخِي
٨٥	إدريس المأمون
٨٦	ابن جُبَيْر
٨٦	أبو الحسن الأَشْبِيلِيّ:
٨٦	ابن سعيد
٨٧	ابن صِقْلَاب:
٨٧	ابن مَرْجَالِ الْكُحْل:
٨٧	الشَّقْنَدِي
٨٨	عَزِيز بن خَطَّاب
٨٨	كتّاب مجهولون
٨٩	الفصل الثاني: أنواع الرسائل لأندلسيّة وموضوعاتها
٩٠	أولاً: الرسائل الرّسميّة أو الدّيوانيّة
٩٠	موضوعات الرسائل الرّسميّة أو الدّيوانيّة
٩٠	البيعة
٩٣	الإخبار
٩٦	التّوجيه
٩٨	أحوال البلاد

١٠١	أمور تتعلق بالأوروبيين
١٠٦	موضوعات أخرى
١٠٨	ثانياً: الرسائل الأخوانية أو الشخصية
١٠٨	التهانيد والتعازي
١٠٩	الشفاعة
١١٠	العتاب
١١١	التشويق
١١٢	التندر
١١٣	موضوعات أخرى
١١٤	ثالثاً: الرسائل الوصفية
١١٥	وصف الطبيعة
١١٦	المفاخرة بين البلاد
١١٨	الرحلات

١٢٢	الباب الرابع: مصادر الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية وأنماطها الحسية
١٢٣	الفصل الأول: مصادر الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية
١٢٣	أولاً: الثقافة
١٢٤	الدين
١٣١	التاريخ
١٣٣	الأمثال
١٣٦	المظاهر الحضارية
١٣٩	علوم اللغة
١٤٠	ثانياً: الطبيعة
١٤١	الطبيعة الحية
١٤٤	الطبيعة الصامتة

١٤٧		الطبيعة المصنوعة
١٤٨		ثالثاً: المكان
١٥١		رابعاً: الزّمان
١٥٥		الفصل الثاني: الأنماط الحسية في الصورة الفنية في الرّسائل الأندلسية
١٥٧		النّمط البصريّ
١٦٣		النّمط السمعيّ
١٦٦		النّمط الشّمّيّ
١٦٩		النّمط الذّوقيّ
١٧٠		النّمط اللمسيّ
١٧٣		الباب الخامس: التشكيلا تالبيانية والبديعية في الرّسائل الأندلسية
١٧٤		الفصل الأول: التشكيلا تالبيانية في الرّسائل الأندلسية
١٧٥		أولاً: التّشبيه
١٨١		ثانياً: الاستعارة
١٨٨		ثالثاً: المجاز المرسل
١٩١		رابعاً: الكناية
١٩٧		الفصل الثاني: التشكيلا تالبديعية في الرّسائل الأندلسية
١٩٨		أولاً: السّجع
٢٠٣		ثانياً: الجناس
٢٠٨		ثالثاً: الطّباق والمُقابلة
٢١٣		رابعاً: التّورية
٢١٥		الباب السادس: ظواهر أسلوبية في الصورة الفنية في الرّسائل الأندلسية
٢١٦		الفصل الأول: ظواهر أسلوبية في اللغة
٢١٦		توطئة

أولاً: السّهولة.....	٢١٧
ثانياً: الإطناب.....	٢٢٣
الفصل الثاني: ظواهر أسلوبية في البناء.....	٢٣١
أولاً: هيكل الرّسالة.....	٢٣١
الافتتاح.....	٢٣٢
العرض.....	٢٤١
الخاتمة.....	٢٥٢
ثانياً: المزاوجة بين النثر والشعر في الرّسالة الواحدة.....	٢٥٦
إيراد الشعر منظوماً في ممتن الرّسالة.....	٢٥٧
إيراد الشعر محلولاً في ممتن الرّسالة.....	٢٦٣
نتائج البحث.....	٢٦٩
التّوصيات.....	٢٧١
قائمة المصادر والمراجع.....	٢٧٣
الملاحق.....	٣٠٠
الفهارس.....	٣٠٧

الباب الأول التمهيد

ويتكون من:
الفصل الأول: مدخل إلى البحث
الفصل الثاني: عصر الموحدين في الأندلس

الفصل الأول

مدخل إلى البحث

المقدمة

كانت الدولة الموحدية من أكبر الدول التي قامت في بلاد المغرب، حيث اتسع سلطانها ليشمل حيزاً كبيراً من الأرض في أفريقيا وفي الأندلس، وطال عمرها ليمتدّ مئة وسبعة وعشرين عاماً.

كان العصر الموحدي كغيره من العصور التاريخية قد اتسم بسماتٍ ميزته عن غيره من العصور الأخرى السابقة له واللاحقة به، وكانت تلك السمات سياسية واجتماعية وأدبية، أما السمات الأدبية فكان أهمها الحضور الكبير لفنّ النثر ولا سيما الرسائل التي كتبت على امتداد العصر من بداياته حتى نهاياته، حيث وصلتنا ثروة كبيرة من الرسائل التي كانت سجلات حافلة بمعلومات ومعارف عن أوضاع بلاد المغرب، كما حفظت لنا ثرائاً مهماً يتعلق بتاريخ تلك البلاد وأدبها.

كنت قد أعددت بحثاً في مرحلة الدراسة الجامعية الثانية عن الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، وقد استرعى انتباهي حينئذ أمر، وهو أن الأدب المغربي لم يحظَ بالاهتمام الذي يستحق وخاصة في البلاد الشرقية، حيث حصرَ جلُّ الباحثين دراساتهم في تاريخ المشرق وآدابه، أما القلة التي ولّت وجهها شطرَ الأدب المغربي فقد اهتمت بدراسة الشعر، ولم ينلِ النثر إلا نصيباً قليلاً من الدراسات بالرغم من ثراء الموروث النثري المغربي.

اتجهتُ نحو النثر المغربي، فوجدته زاخراً، ورأيت فيه قضايا كثيرة تستحق البحث والدراسة، ما تزال بكرة لم تخط فيها أقلام الباحثين من قبل، فوقع اختياري بعد الاستشارة والاستشارة على موضوع الرسائل الأندلسية التي كتبت في عصر الموحدين، وثمة أسباب جعلتني اختار هذا الموضوع، حيث كنت منجذباً نحو الأندلس منذ دراستي في المدرسة، وخلال دراستي الجامعية في المرحلتين الأولى والثانية، زاد تعلقي بالأندلس تاريخها وأدبها، وكنت حريصاً على اختيار موضوع أهواه لأبحث فيه بهمة وشوق.

أما السبب الثاني فكان كثرة الرسائل الأندلسية في عصر الموحدين، وقلة الباحثين في هذا الموضوع، حيث لم أجد فيما اطلعت عليه بحثاً واحداً أُفرد لدراسة الرسائل الأندلسية في ذلك العصر، وكانت الأبحاث - على ندرتها - تتناول موضوع الرسائل إما تناولاً جزئياً خلال دراسة النشر بعامّة، وإما تتناول الرسائل في العصر الموحديّ مُلحقةً بالرسائل في عصورٍ أخرى، وفي كلتا الحالتين كان تناول الموضوع سطحياً، كما غاب عن الباحثين كثيرٌ من الرسائل التي كانت مخطوطةً ونُشرت بعد تحقيقها وطباعتها، إضافةً إلى ذلك فإن تلك الأبحاث لم تنطلق من الصورة الفنيّة لتكون مدخلاً للدراسة والبحث.

وأمرٌ آخر دفعني إلى اختيار هذا الموضوع وهو رغبتني بالخوض في دراسة مفهوم الصورة الفنيّة، حيث غدا هذا المفهوم من أكثر المفاهيم الأدبية دوراً، وأكثرها غُموضاً، حيث رغبت في استجلاء غُموضه، وبيان أطوار تكوينه، ثم الدخول إلى البحث من خلاله.

بدأت العمل في جمع المادة العلميّة التي تخدم البحث منذ سنتين، ولجأت إلى ما يزيد على مئتين وسبعين مصدراً ومرجعاً، مغربيّة ومشرقيّة، قديمة وحديثة، ورقية ورقميّة، عربيّة ومترجمة، وبعدما أتممت جمع معظم المادة العلميّة وضعت تصنيفاً مُعيّناً، وعرضته على مُشرقيّ الفاضلين، فأبدوا ملحوظاتهما القيّمة، وبعد تعديل الملحوظات والحصول على مُوافقتيهما شرعت بالكتابة، وكنت أُلجأ إلى مصادر ومراجع جديدة كلما تطلّب البحث ذلك، وقد جاء تصنيفُ البحث في أبواب ستة: باب تمهيديّ، وخمسةٍ أُخرى، وكان كلُّ بابٍ منها يتكوّن من فصلين اثنين.

حوى الباب التمهيديّ قسمين: الأول كان مدخلاً للدراسة حيث يبيّن مشكلة البحث وأسئلته وأهدافه وأهميته وحدوده ومنهجه ومُصطلحاته، ثمّ عرّض الدراسات السابقة ذات الصلة بموضوع البحث، أمّا القسم الثاني فقد استعرض التاريخ الأندلسيّ خلال الحقبة الموحديّة من منظور الرسائل، حيث حدّد هذا التمهيدُ الإطار الزمانيّ للبحث، كما أعطى بُدّةً عن بعض أحوال الأندلس السياسيّة والاجتماعيّة.

وجاء الباب الثاني ليتناول دراسة الصورة الفنيّة، فكان الفصل الأول منه مُخصّصاً لدراسة مفهوم الصورة الفنيّة وتطوّر هذا المفهوم في التراث العربيّ، واختلاف الآراء حوله

في العصر الحديث، واستعراض تلك الآراء، ثم الخروج بتبني مفهوم واضح للصورة الفنية ليكون منطلقاً للدراسة، وكان الفصل الثاني مخصصاً لدراسة مراحل تكوين الصورة الفنية، حيث بين هذا الفصل أن الصورة الفنية بحسب المفهوم الذي تبناه البحث لا تأتي عرضاً، وإنما تمر بمراحل، وتسير بأطوار حتى تخرج مستويةً مكتملة.

وانقسم الباب الثالث إلى فصلين: الأول عرف بكتاب الرسائل الأندلسية خلال عصر الموحدين، وقد اتبع البحث منهجاً واحداً في التعريف بهم روعي فيه الإيجاز، والإشارة لأهم المصادر التي ترجمت لهم، وبيان الفترة الزمنية التي عاشوا فيها، وكان الفصل الثاني مبيناً لأنواع الرسائل ومضامينها وموضوعاتها.

وخصص الباب الرابع لدراسة مصادر الصورة الفنية في الرسائل وأنماطها، حيث عرض الفصل الأول المصادر التي استقى منها الكتاب صورهم الفنية، وعرض الفصل الثاني الأنماط مع بيان الفرق بين المصدر والنمط.

أما الباب الخامس فقد خصص الفصل الأول فيه لدراسة الفنون والتشكيلات البيانية، وخصص الفصل الثاني لدراسة الفنون والتشكيلات البديعية الواردة في الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية.

وجاء الباب السادس والأخير ليلقي الضوء على ظواهر أسلوبية بارزة، حيث اهتم الفصل الأول بدراسة الظواهر اللغوية، أما الفصل الثاني فقد اهتم بدراسة الظواهر البنائية التي برزت في الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية.

ثم ختم البحث بخاتمة بينت أهم النتائج التي خرج بها البحث، وبتوصيات كان من الضرورة ذكرها ليفيد منها الباحثون مستقبلاً في الأدب المغربي بعامة والنشر خاصة.

والله أسأل أن أكون قد وضعت بهذا البحث لبنَةً ولو صغيرة في صرح الأبحاث الإنسانية التي عنيت بدراسة الشق المغربي من الأمة أدباً وتاريخاً، وأسأله - جلّ في علاه - أن أنال أجرِي المجتهد الذي يجتهد فيصيب، إنه سميع مجيب، وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

مشكلة البحث

الصورة من أكثر المصطلحات شيوعاً في الدراسات الأدبية، وعلى الرغم من ذلك ليس من اليسير تحديد مفهوم لها، وبخاصة حين يجد الباحث نفسه بين مجموعة من المفاهيم والتعريفات التي قد تتفق أحياناً، وتختلف أحياناً أخرى لدرجة تصل إلى حد التنافض، إضافة إلى ذلك فإن بعض المفاهيم تتسم بالغرابة والغموض والإبهام، ولعل مراد ذلك يعود إلى تأثير المقاييس النقدية العربية الحديثة بالنظريات والآراء العربية حول الصورة، وقد تراوحت بعض تعريفات الصورة ما بين التخصيص الضيق والتعميم الفضفاض، وتضييقاً لدائرة البحث، وتلافياً من الوقوع في ضبابية المفاهيم المختلفة للصورة، وأمثالاً في الخروج بنتائج مرضية، كان من الضروري اختيار تعريف واضح للصورة ليكون منطلقاً للدراسة.

ولأن معظم الدراسات النقدية والأدبية في الأدب الأندلسي كان ميدانها الشعر، وقلت في ميدان النثر ولا سيما في عصر الموحدين فقد وجد الباحث التوجه إلى دراسة النثر مناسباً، وبخاصة النثر في الحقب الموحدية دراسة فنية تتركز حول الصورة الفنية في الرسائل، ذلك لأن الصورة الفنية هي مفتاح فهم النص الأدبي، وتذوقه ونقده سواء كان شعراً أو نثراً، بحيث يتم تبعا لرسائل التي أنشئت في الأندلس في عصر الموحدين والتعريف بكتابتها وبيان أنواعها وأغراضها، كذلك تتبع الصورة الفنية لتلك الرسائل ومعرفة مصادرها وأنماطها وتشكيلاتها البيانية والبديعية وأهم الظواهر الأسلوبية التي وجدت فيها.

أسئلة البحث

يسعى البحث للإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ١ - ما المقصود بالصورة الفنية، وما أطوار تكوينها؟
- ٢ - ما أنواع الرسائل الأندلسية في عهد الموحدين، ومن هم كتّابها؟
- ٣ - ما مصادر الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية في عهد الموحدين، وما أنماطها؟
- ٤ - كيف تجلّت التشكيلات البيانية والبديعية في الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية في عهد الموحدين؟
- ٥ - ما الظواهر الأسلوبية اللغوية والبنائية المميزة في الصورة الفنية في الرسائل؟

أهداف البحث

اعتماداً على ما سبق ذكره في مشكلة البحث وأسئلته فإن أهداف البحث تتضح فيما يأتي:

- ١ - تحديد تعريف للصورة الفنية يكون منطلقاً للدراسة، والتعريف على أطوار تكوين تلك الصورة.
- ٢ - التعريف بكتاب الرسائل وبيان أنواعها وأغراضها.
- ٣ - تحديد مصادر الصورة الفنية وأنماطها في الرسائل.
- ٤ - الكشف عن التشكيلات البيانية والبديعية في الصورة الفنية في الرسائل.
- ٥ - إبراز الظواهر الأسلوبية اللافئة في الصورة الفنية في الرسائل في اللغة والبناء.

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في الأمور الآتية:

- ١ - إثبات أهمية الرسائل بوصفها وثائق تاريخية مهمة.
- ٢ - بيان المفاهيم والآراء المختلفة حول الصورة الفنية، وتحديد تعريف واضح لها تنطلق منه الدراسة، وتسلط الضوء على الأطوار التي تمر بها الصورة الفنية - حسب التعريف المحدد - حتى تخرج مكتملة.
- ٣ - جمع الرسائل ولا سيما تلك التي ظهرت بعد تحقيق المخطوطات، والتعريف بكتابتها، ودراساتها دراسة موضوعية وفنية.
- ٤ - اعتبار الصورة الفنية مدخلاً لدراسة نصوص الرسائل.
- ٥ - استقرار الرسائل واستخلاص نتائج بحثية منها.

حدود البحث

ستقتصر البحث على فن الرسائل في بلاد الأندلس خلال عصر الموحدين (٥٤١-٥٦٦٨هـ) الذي استمر مئة وسبعة وعشرين عاماً، حيث إن هذا العصر شهد ازدهاراً في النشر عامة والرسائل بشكل خاص، وعلى الرغم من وجود بعض الدراسات في النشر وفي

الرّسائل فإنّهما لم يَنالا نصيبهما من البحث والتحليل في مُستويي الشّكل والمضمون، ممّا أدّى إلى وجود فجوةٍ تحوي الكثير من التّساؤلات التي سيُكون في إجابتها خدمةٌ للدراسات الأدبيّة الأندلسيّة.

منهج البحث

لن يتبع البحثُ منهجاً واحداً وإن كان المنهجُ لاستقراءيّ الوصفيّ التحليليّ هو العامّ الغالب، حيثُ يتمُّ تجميعُ نصوص الرّسائل من الكتب المطبوعة والمخطوطة وتفسيرُها وتحليلُها، والتعليقُ عليها جزءاً جزءاً، والإفادة من الدراسات السّابقة في المواضيع ذات الصّلة، ثمّ استخلاص النتائج والأحكام التي تخدمُ موضوعَ البحث.

كما سيتمُّ اتّباعُ المنهج التاريخيّ ربط سياق الرّسالة ومضمونها بالحِقبة التّاريخيّة التي أنشئت فيها، وكذلك اتّباعُ المنهج الجماليّ وبخاصّةٍ في تذوّق التّصوص الثّريّة ونقدها، وفي تحرّي السّمات الفنّيّة فيها، ويمكن أن يُستفادَ منمناهجاً أخرى بحسب ما تقتضيه طبيعةُ البحث.

الدراسات السّابقة

عُنيتُ معظم الدراسات التي تناولت الأدب الأندلسيّ في عصر الموحّدين بالشّعر، فتناولت بعضُ الدراسات شعر الجهاد^٢ والشّعر الصّوفي^٣ والمعارضات الشّعريّة^٤ والمضامين التّراثيّة في الشّعر^٥ وغيرها من الموضوعات التي اقتصرت على الجانب الشّعريّ.

أمّا النّثر الأندلسيّ بعامة فلم يحظَ بالاهتمام الذي حظي به الشّعر، ولكن لا يَعدُّ الباحثُ وجودَ دراساتٍ تناولت النّثر الأندلسيّ في العصور السّابقة لعصر الموحّدين ومنها

^٢ رقب، شفيق محمد، شعر الجهاد في عصر الموحّدين (عمّان: مكتبة الأقصى، ١٩٨٤م).

^٣ آقريبز، محمد، الشعر الصوفي بالأندلس في عصر المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير (سوريا: جامعة حلب، ١٩٨٦م).

^٤ العقيل، سعاد، المعارضات الشعرية في الأندلس في عصر الموحّدين، رسالة ماجستير (الأردن: الجامعة الأردنيّة، ٢٠٠٠م).

^٥ الجبوري، جمعة حسين، المضامين التّراثيّة في الشعر الأندلسيّ في عهد المرابطين والموحّدين (بغداد: دار الصادق الثقافيّة، ٢٠١٢م).

النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين لحازم خضر^٦، وملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري لمصطفى السيوفي^٧، والنثر الفني الأندلسي في عصر الخلافة الأموية لمنال سالم العقباني^٨، وقد أفدت من هذه الدراسات وبخاصة في المنهج المتبع فيها.

أطلع الباحث على دراسات سابقة في الصورة الفنية، وأما الدراسات التي اتجهت نحو النثر الأندلسي في عصر الموحدين والتي استطاع الباحث الاطلاع عليها فهي الدراسات التالية^٩ - مُرتبة حسب التسلسل الزمني -:

١ - النثر الفني في عصر الموحدين في الأندلس، أحمد أبو موسى .^{١٠}

افتتح الدارس هذه الدراسة بتسليط الضوء على التاريخ الأندلسي وبخاصة في ظل عصر الموحدين، والأحوال التي سادت في ذلك العصر سياسياً واجتماعياً وأدبياً، ثم تناول موضوع النثر وتطوره في المشرق ثم في الأندلس، بعد ذلك عرض الجوانب الأدبية التي ميزت عصر الموحدين في الأندلس ومنها ازدهار التأليف النثري فيه، فذكر أسباب هذا الازدهار، ثم قسم النثر في ذلك العصر - بحسب اجتهاده - إلى أقسام ثلاثة: نثر ديني، ونثر اجتماعي وسياسي، ونثر أدبي وفلسفي، وفرق بين النثر التألفي كتأليف الكتب والرسائل الأدبية والعلمية والدينية والفلسفية وبين النثر الفني، وبعد ذلك صنف نصوص النثر الفني في أصناف أربعة: الرسائل الفنية، الخطب، المقامات، والأمثال، ومثل على كل صنف بأمثلة، ثم عقد موازنة بين الفنون النثرية في هذا العصر، وبين الفنون النثرية في العصور التي سبقتة قبل أن يختتم البحث باستخلاص أهم سمات النثر الفني في عصر الموحدين، وفي معرض

^٦ خضر، حازم، النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨١م).

^٧ السيوفي، مصطفى، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس عشر (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥م).

^٨ العقباني، منال سالم، النثر الفني الأندلسي في عصر الخلافة الأموية، أطروحة دكتوراه (الأردن: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨م).

^٩ تشمل الدراسات المذكورة تلك التي اهتمت بالصورة الفنية وتلك التي نحت نحو النثر الأندلسي في عصر الموحدين.

^{١٠} أبو موسى، أحمد، النثر الفني في عصر الموحدين في الأندلس، أطروحة دكتوراه (سوريا: جامعة تشرين، ١٩٩٠م).

تَنَاولُ الدَّارِسُ لِسَمَات، تَعَرَّضَ لِلْجَوَانِبِ الْفَنِّيَّةِ وَلَكِنْ بِشَكْلِ مُوجَزٍ وَسَرِيعٍ، فَتَطَرَّقَ لِلْغَةِ وَالتَّشْبِيهِ وَالبَدِيعِ وَافْتَتَحَ النُّصُوصَ النَّثْرِيَّةَ الْفَنِّيَّةَ وَاحْتِمَامَهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَطَرَّقْ لِلصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ إِذْ إِنَّ اتِّجَاهَ الدِّرَاسَةِ لَمْ يَكُنْ يَنْحُو هَذَا الْمَنْحَى.

كَانَتِ الدِّرَاسَةُ فِي مُجْمَلِهَا دِرَاسَةً مُضَوِّعَةً، حَيْثُ اِهْتَمَّتِ الدَّارِسُ بِجَمْعِ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ نُصُوصٍ نَثْرِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ أُنْشِئَتْ خِلَالَ حِقْبَةِ الْمُوَحِّدِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَلَكِنْ غَابَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النُّصُوصِ الْآخَرِ الَّتِي ظَهَرَتْ لَاحِقًا بَعْدَ تَحْقِيقِ بَعْضِ الْمَخْطُوطَاتِ وَنَشْرِهَا^{١١}، وَقَدْ رَاحَ الدَّارِسُ بَيْنَ اتِّبَاعِ الْمَنْهَجِ الْوَصْفِيِّ التَّحْلِيلِيِّ وَالْمَنْهَجِ الْاسْتِقْرَائِيِّ. وَقَدْ أَفَدَتْ مِنْ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ فِي تَعْمِيقِ مَعْرِفَتِي بِالنَّثْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي عَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ، وَفِي التَّعَرُّفِ عَلَى مَصَادِرِ النَّثْرِ وَمَرَاجِعِهِ خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ.

٢- الصُّورَةُ الْفَنِّيَّةُ فِي الشَّعْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي عَهْدِي الْمُرَابِطِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ، عَبْدُ الْقَادِرِ قَرَّش^{١٢}.

افْتَتَحَ الدَّارِسُ دِرَاسَتَهُ بِتَحْدِيدِ الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ مَوْضِعِ الدِّرَاسَةِ، مُفَصَّلًا فِي وَصْفِ الْحَالَةِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي سَادَتْ تِلْكَ الْفَتْرَةَ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْأَزْدَهَارَ الثَّقَافِيَّ فِيهَا هُوَ اسْتِمْرَارِيَّةٌ لِلْأَزْدَهَارِ الَّتِي شَهِدَتْهَا الْعَصُورُ السَّابِقَةُ وَتَحْدِيدًا عَصْرُ مُلُوكِ الطَّوَانِفِ حَيْثُ انْتَعَشَ الشَّعْرُ انْتَعَاشًا كَبِيرًا، وَظَهَرَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْكِبَارِ الَّذِينَ اسْتَمَرُّوا فِي عَطَائِهِمُ الشَّعْرِيَّ خِلَالَ عَصْرِ الْمُرَابِطِينَ، ثُمَّ عَرَّضَ أَهَمَّ شُعْرَاءِ تِلْكَ الْفَتْرَةِ الَّذِينَ اسْتَقَى مِنْ اِتِّجَاهِهِمُ الشَّعْرِيَّ مَادَّةَ دِرَاسَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ.

^{١١} مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي أَظْهَرَتْ نِصُوصًا نَثْرِيَّةً أَنْدَلُسِيَّةً فِي عَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ كِتَابُ زَوَاهِرِ الْفِكْرِ وَجَوَاهِرِ الْفَقْرِ لِابْنِ الْمُرَابِطِ (السَّفَرُ الثَّلَاثُ وَهُوَ الْمَتَّبِقِيُّ مِنَ الْكِتَابِ)، تَحْقِيقُ: حَسَنُ فُلَيْفَلْ، رِسَالَةٌ دَكْتُورَاهُ (إِسْبَانِيَا: جَامِعَةُ غِرْنَاطَةِ، كَلِيَّةُ الْفَلَسَفَةِ وَالْآدَابِ، ١٩٩٢م)، وَيَحْوِي الْكِتَابُ الْكَثِيرَ مِنَ النُّصُوصِ الْأَدْبِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ وَالنَّثْرِيَّةِ، وَكِتَابُ وَلِبَابِ الْأَلْبَابِ مِنْ نِظْمِ الشُّعْرَاءِ وَنَشْرُ الْكِتَابِ، تَحْقِيقُ: حَسَنُ فُلَيْفَلْ (فَلَسْطِينُ: جَامِعَةُ الْخَلِيلِ، نَسْخَةٌ رَقْمِيَّةٌ جَاهِزَةٌ لِلطَّبَاعَةِ وَقَدْ أَفَادَ الْبَاحِثُ مِنْهَا بَعْدَ مُوَافَقَةِ الْمُحَقِّقِ) وَكَذَلِكَ رِسَالَتَانِ مُوَحَّدِيَّةَتَانِ جَمْعًا وَتَحْقِيقًا وَدِرَاسَةً، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدٌ حِيَارِي، رِسَالَةٌ دَكْتُورَاهُ (الْأُرْدُنُّ: الْجَامِعَةُ الْأُرْدُنِيَّةُ، ١٩٩٦م).

^{١٢} قَرَّشُ، عَبْدُ الْقَادِرِ، الصُّورَةُ الْفَنِّيَّةُ فِي الشَّعْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ عَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ، أَطْرُوحَةُ دَكْتُورَاهُ (الْجَزَائِرُ: جَامِعَةُ الْجَزَائِرِ، ١٩٩٣م).

بعد ذلك عرَّج الدَّارِس على تعريف الصورة الفنيَّة، ولكنَّ تعريفه كان مُقتَصِراً على بعض المراجع التي اهتمَّت بهذا المجال دونما تفصيل، ومن غير التَّطَرُّق إلى تطوُّر مفهوم الصورة، أو مراحل تكوينها، ثمَّ أتى بعد ذلك إلى ذكر أنواع الصورة البيانية فقط فقسَّمها إلى أقسام: الحسيَّة (سمعيَّة وبصريَّة وشميَّة وذوقيَّة)، والبيانيَّة (تشبيه واستعارة ومجاز)، والكنائيَّة (موصوف وصفة ونسبة) ومثَّل على كل قِسم من الأقسام المذكورة بأمثلة، وختَم الدَّارِس دراسته بالحديث عن موارد الصُّور وأساليبها اللغويَّة.

اتَّبَعَ في دراسته المنهج الوصفيَّ التحليليَّ بشكلٍ رئيس، والمنهجين الجماليِّ والتَّطبيقيِّ في بعض المواطن.

وسوفَ أفيدُ من هذه الدِّراسة في تبويب البَحْث، وسأحاولُ إكمال ما رأيته غير مُكتمِلٍ في الأمور المشتركة بين الدِّراسة وبين هذا البحث ولا سيَّما في الحديث عن الحِقْبة الموحدية، وفي تعريف الصورة الفنيَّة، وتطوُّر مفاهيمها في التُّراث العربيِّ، والاختلاف في تلك المفاهيم في العصر الحديث، وكذلك بيان مراحل تكوينها وإنشائها.

٣- الصورة الفنيَّة في شعر ابن دراج القسطلي الأندلسي، أشرف دعدور^{١٣}
بدأ الدَّارِس دراسته بمقدِّمة موجزة تناول فيها أمرين: تحديد مفهوم الصورة الفنيَّة في النِّقد القديم والحديث على نحوٍ يرتبط بموضوع الدِّراسة في الكشف عن الأبعاد الفنيَّة في موضوعات شعر ابن درَّاج وبناء صُوَره الفنيَّة، والأمر الآخر كان تعريفاً بالشَّاعر من حيث حياته، وثقافته، بما يُعِين على فهم شعره.

ثمَّ قسَّم الدَّارِس دراسته إلى باين: الباب الأول، يتناول فيه مصادر الصورة داخلية وخارجية، ومستويات الصورة الفنيَّة، فيقفُ عند المستوى الصُّوتيِّ للألفاظ، أو الموسيقى داخلية كانت أو خارجية، بوصفها عاملاً مؤثِّراً تعتمدُ عليه الصورة لأداء المعنى، ثمَّ يتطرَّق الدَّارِس للمستوى المعنويِّ، أو الدَّلاليِّ للألفاظ، أو علاقة الألفاظ بعضها ببعض وتركيبها على نحوٍ مُعَيَّن لأداء المعنى.

أمَّا البابُ الثاني فقد تناولَ الدَّارِس فيه مقدمة القصائد بين القدماء والمحدثين والتَّحديد فيها، ثمَّ انتقلَ إلى موضوع القصيدة، والمواضيع الغالبة في شعر ابن درَّاج، مثل

^{١٣} دعدور، أشرف، الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٩٤م).

وصفنه للمعارك والحروب أو تصويره للمعركة، ثم صورة المرثي، وصورة الطبيعة، ثم تطرق الدارس إلى خاتمة القصيدة كوحدة بنائية، وتنوعها بين حديث عن الممدوح وحديث عن ذات الشاعر.

اعتمد الدارس في دراسته على أكثر من منهج، ولعل أبرز تلك المناهج هو المنهج الوصفي التحليلي، كذلك سار على أساس منهج (عمودي أفقي). بمعنى أن هذا المنهج يتناول وحدات بناء القصيدة وما تحويه من أشكال وموضوعات كما هي من بداية القصيدة حتى نهايتها تناولاً عمودياً، وفي الوقت نفسه يتناولها على نحو أفقي في الديوان عامة، بحيث يصبح الديوان بمثابة قصيدة واحدة، وقد أفاد الدارس من هذا المنهج في إدراك الثابت والمتغير في إنتاج ابن دراج الشعري.

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تناولت الشعر إلا أنني قد أفدت منها، وبخاصة في مصادر الصورة الفنية في البيئة الأندلسية، وكذلك في مستوى الألفاظ، ودلالاتها، وعلاقة بعضها ببعض، وتركيبها على نحو معين لأداء المعنى.

٤- أساليب النشر في عصر الموحدين وارتباطها بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة.^{١٤}

عرض الدارس في بداية دراسته عرضاً موجزاً سريعاً أحوال عصر الموحدين، وتناول دراسة النصوص النثرية الموحدية سواء أكانت مغربية أم أندلسية، حيث ربط ما بين المظهر الحضاري وبين النص النثري، فكانت النصوص النثرية شواهد على واقع الموحدين الحضاري، فمثل بنصوص نثرية على الدعوة الموحدية بتفاصيلها، وعلى الجانب العمراني وما يرتبط به، وعلى العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع وما رافق تلك العلاقات من تعايش بين أفراد المجتمع أو صراع بينهم وكذلك احتفالاتهم ومناسباتهم ومكانة المرأة عندهم، كما تناول الدارس أنواع النشر المختلفة التي ظهرت في العصر الموحدي كالعلوم الدينية والتراجم والسير والعلوم اللسانية والتاريخ والجغرافيا والرحلات والخطب والرسائل.

^{١٤} الكساسبة، رضا عبد الغني، أساليب النشر في عصر الموحدين وارتباطها بواقعهم الحضاري، رسالة ماجستير (لبنان: جامعة القديس يوسف، ١٩٩٤م).

لم يَطرُق الدَّارِسُ في دراسته إلى الصُّورة الفنِّية أو ما يَعلُقُ فيها ألبَتَّة، وغابت عنه كثيرٌ من النُّصوص النَّثرية التي ظَهَرَتْ لاحقاً بعد تَحقيق المخطوطات، وكان اعتماده على المنهجين التاريخي والوصفي.

أفدَّت من هذه الدِّراسة في تَكوين تصوُّر عن طَبيعة الحياة الأندلسية في عصر الموحِّدين، والمظاهر الحضارية فيها سواءً أكانت ماديةً كالجنب العمراني أم إنسانيةً كالعلاقات بين أفراد المجتمع، ممَّا ينعكسُ إيجاباً على تَتبُّع مصادر الصُّور الفنِّية خلال ذلك العصر.

٥- أدبُ الرِّسائل في الأندلس من القرن السَّادس حتَّى سُقوط غرناطة، رشود بن محمَّد السلمي.^{١٥}

بدأ الدَّارِسُ دراسته بتمهيدٍ اشتمَلَ على دِراسةِ الحالة العامَّة لفترة الدِّراسة الزَّمنية، ثمَّ تَتبَّع تطوُّر الرِّسائل من الفتح الإسلامي حتَّى ابتداء القرن السَّادس، وبعد ذلك قَسَمَ الرِّسائل إلى الأقسام التَّالية: الديوانية، الإخوانية، الأدبية، ثمَّ صَنَّفَ اتجاهاتِ الرِّسائل خلال فترة الدِّراسة إلى خمسة: الاتجاه الديني، الاتجاه السياسي، الاتجاه الحربي، الاتجاه الاجتماعي، الاتجاه الوصفي، كذلك تناولَ الدَّارِسُ الخصائص الفنِّية لأدبِ الرِّسائل من حيثُ الشَّكل ومن حيثُ المضمون (الطول والقصر، الافتتاح والاختتام، الجمل الدُّعائية والاعتراضية، الألفاظ والتراكيب، الاقتباس والتَّضمين..). وقد مثَّلَ الدَّارِسُ على ذلك بأمثلة كثيرة، ولكنه لم يَتناول في بحثه دراسة الصُّورة الفنِّية بشكلٍ مُمنهج.

ختم الدَّارِسُ دراسته بتوصياتٍ منها: قِلَّةُ عناية الدَّارسين بهذه الفترة، وضالَّةُ البُحوث المتخصِّصة في دراسة أدبها بِصورةٍ عامَّة وأدبها النَّثري بِصورةٍ خاصَّة، كذلك كثرة نصوص الأدب النَّثري المخطوطة في هذه الفترة، وهي بحاجة إلى تَحقيق ونَشْر، لِتُسَهِّمَ في رَسْمِ صُورةٍ متكاملةٍ عن أدبِ ذلك العصر، وأتَّبَعَ الدَّارِسُ في دراسته المنهج الوصفي التحليلي بِصورةٍ رئيسة، كما استعان بالمنهج التاريخي والمنهج الاستقرائي في بعض أجزاء الدِّراسة.

^{١٥} السلمي، رشود بن محمَّد، أدب الرِّسائل في الأندلس من القرن السادس حتَّى سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراه (السَّعودية: الجامعة الإسلامية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

وقد أفدت من تقسيم الدّارس للرّسائل ومن تصنيفه لاتباعها في هذا البحث وبخاصّة في تتبّع أنواع الرّسائل، كذلك أفدت منه معنوياً عندما أشار إلى ضالة الدّراسات المتخصّصة في الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين، وأوصى بالاتّجاه لدراسته بشكل عام، ولدراسة النّثر خاصّة.

٦- النّثر الأندلسي في ظلّ الموحّدين، محمّد نازك الكفارنة^{١٦}

استهل الدّارس دراسته بالحديث عن الحياة العامّة في عصر الموحّدين سياسياً واجتماعياً وفكرياً، وبعد ذلك قسم الفنون الثّريّة إلى رّسائل وخطب ومقامات وأمثال، ثمّ درس كلّ قسم على حده دراسة فنيّة بشكل يكاد يكون متشابهاً في كلّ الأقسام، حيث تناول اللغة من حيث الافتتاح والاختتام، والجمل الاعتراضية، والتنويع بين الشّعر والنّثر، والاقتباس والتّضمن، والألفاظ والتراكيب، والسّهولة والوضوح، والرّقة والجزالة، والإيجاز والإطناب، وتنوّع الأساليب، والتّكرار، والموسيقى الدّاخلية والخارجية.

كما تناول الدّارس دراسة الصّورة ولكن بشكل سطحيّ اقتصر على الجوانب البيانيّة التّاليّة: الصّور التشبيهيّة، الصّور الاستعارية، والصّور الكنائيّة، ولم يفصل المؤلّف في هذا المجال حيث لم يتطرّق إلى جوانب أخرى غير الجانب البياني، كما أنّه لم يتطرّق إلى مصادر الصّورة أو أنماطها أو سماتها، كذلك فقد ارتكزت هذه الدّراسة على نصوص ثريّة فنيّة قليلة، ولم يأت على ذكر الكثير من تلك النّصوص سواء تلك المعروفة في المصادر القديمة، أو التي ظهرت من خلال تحقيق المخطوطات ونشرها، وقد اعتمد الدّارس في دراسته المنهج الوصفيّ التحليلي، وكذلك استعان بالمنهجين التاريخي والاستقرائي.

أفدت من هذه الدّراسة في الأساليب والسّمات اللغويّة التي تناولها الدّارس كالإيجاز والاطناب، والرّقة والجزالة، والاقتباس والتّضمن، وذلك من أجل ربطها بالصّورة الفنيّة في بحثي هذا، كما أفدت من دراسة الصّور التشبيهيّة والاستعارية والكنائيّة على الرّغم من السّطحيّة التي وسّمت دراسة تلك الصّور.

٧- النّثر الأندلسي في عصر الموحّدين، علي الغريب محمّد الشّناوي^{١٧}

^{١٦} الكفارنة، محمّد نازك، النّثر الأندلسي في ظلّ الموحّدين، أطروحة دكتوراه (مصر: جامعة عين شمس، ٢٠٠٠م).

^{١٧} الشّناوي، محمّد الغريب، النّثر الأندلسي في عصر الموحّدين (القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٠م).

بدأ الدارسُ دراسته بالحديث عن الأحوال العامة لعصر الموحّدين، ثمّ انتقلَ للحديث عن فنون النثر في عصر الموحّدين، فتناولَ الرسائلَ الفنيّة، وقسمها إلى أربعة أصناف: الرسائل الديوانيّة، الرسائل الأخوانيّة، المفاخرات البلديّة، والرسائل الوصفية، فبيّن المقصود بكلّ صنف، ثمّ قسم كلّ صنفٍ إلى أقسام، فتوزعتْ الرسائل الديوانيّة - على سبيل المثال - في خمسة أقسام هي: رسائل التهنئة، ورسائل الانتصارات والفتوح، ورسائل الاعتذار والعقاب والتوبيخ، ورسائل الشّان الداخليّ، والرسائل السياسيّة، وهكذا تعاملَ مع كلّ صنفٍ من الأصناف الثلاثة المتبقية، وتناولَ في نهاية الدّراسة الجانب الفنّي، حيثُ تطرّق إلى بناء النّصّ النثريّ، والجُمْل الدّعائيّة والاعتراضية، والتنويع بين الشّعْر والنثر، والإطناب، إضافةً إلى الاقتباس والتّضمن من القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف والأمثال الشعبيّة، ولم يتطرّق الدّارس في دراسته إلى الصّورة الفنيّة بشكلٍ مُفصّل، وإن كان قد تطرّق إلى بعض الأمور البيانيّة التي تُعدّ جزءاً يسيراً من الصّورة الفنيّة، حينَ ذَكَر التشبيه والاستعارة والطّباق والمقابلة بشكلٍ سريع (في سبع عشرة صفحة فقط) واللافت للنّظر أنّ الدّارسَ الذي عَنَوَنَ كتابه بـ (النثر الأندلسي في عصر الموحّدين) تناولَ الرسائل الفنيّة فقط ولم يتناول أيّ فنّ نثريّ آخرَ قطّ، وقد اعتمدَ الدّارسُ في دراسته هذه منهج التحليل والاستقصاء مستفيداً من المنهج التاريخي وغيره من المناهج الأخرى.

وأفدتُ من هذه الدّراسة في تقسيم الرسائل، وكذلك في الدّراسة الفنيّة، حيثُ سيُسَهّل ذلك عليّ تتبّع الصّور الفنيّة وبخاصّةٍ في مصادرها المختلفة.

٨- أدب الرسائل في المغرب العربيّ في القرنين السّابع والثامن الهجريين، الطّاهر توات^{١٨}.

بدأ الدّارسُ دراسته بمدخلٍ تاريخيٍّ استعرض فيه الحياة السياسيّة والفكريّة والثّقافيّة خلال القرنين السّابع والثامن الهجريين، وقد كان التركيزُ في الدّراسة بشكل عامّ على القسم الإفريقيّ من البلاد المغربيّة، حيثُ تعاقبت على حُكمه خلال تلك الفترة الزّمنيّة عدّة دُول، ثمّ مهّد الدّارسُ للدّراسة بتوضيح مُصطلح النثر والتّفريق بينه وبين الشّعْر، بعد ذلك انتقل

^{١٨} توات، الطّاهر، أدب الرسائل في المغرب العربيّ في القرنين السّابع والثامن الهجريين (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط ٢، ٢٠١٠م).

لدراسة الرسائل، حيثُ بيّن مكانتها بين الفنون الثّريّة، وبيّن مكانة الكتاب في المجتمع المغربيّ، وترجم لبعضهم، وتناول بالتحليل نوعين من الرسائل هما: الديوانيّة والإخوانيّة، حيثُ استعرض مواضيع الرسائل التي استشهد بها، وتطرق إلى بنيتها وأساليبها وروافدها الثّرائيّة والصّور البلاغيّة فيها، كما أتى على ذكر موضوعين أُخرين هما الرسائل والنّقد الأدبيّ، والتّقليد والأصالة في الرسائل، وألحق بالدراسة مجموعتين من الرسائل الديوانيّة والأدبيّة.

بالرّغم من اطلاع الدّارس على كثيرٍ من المصادِر المخطوطة والمطبوعة، فإنّه لم يَرَجِع إلى بعض المصادِر التي حوت كثيراً من الرسائل التي كُتبت وخاصّةً في القرن السّابع، كما لم يُترجم إلّا لأربعة من كُتاب الرسائل، وكانت جُلّ الرسائل التي استشهد بها قد صدّرت من القسم الإفريقيّ، كما أنّ الكاتب لم يأتِ على ذِكر الصّورة الفنّيّة في الرسائل، أو على الظّواهر اللّافِتة اللّغويّة أو البنائيّة التي وُجِدَت فيها، وتحدّث بإيجاز عن بنية الرسائل، وعن الفنون البديعيّة والبيانيّة فيها.

أفدّت من هذه الدّراسة في تتبّع الرسائل التي كُتبت في عصر الموحّدين في المصادِر التي أشار إليها الدّارس، كما أفدّت من آراء الدّارس وخاصّةً في بنية الرسائل وروافدها والفنون البديعيّة والبيانيّة فيها.

مصطلحات البحث

الصّورة الفنّيّة: المفهوم الذي تمّ تحديده للصّورة الفنّيّة ليكون مُنطلقاً للدراسة.

الرسائل: الرسائل التي كُتبت في الأندلس في عهد الموحّدين.

العصر: عصر الدّولة الموحّديّة ٥٤١ - ٥٦٦٨.

الباحث: مُقدّم هذا البحث محمد جاسر جبالي أسعد طالبُ مرحلة الدّكتوراه في قسم اللغة العربيّة وآدابها - الجامعة الإسلاميّة العالميّة في ماليزيا.

الفصل الثاني

الأندلس خلال عصر الموحّدين ٥٤١ - ٥٦٨هـ

الرسائل الأندلسية وثائق شاهدة على عصر الموحّدين في الأندلس^{١٩}

مئةٌ وسبعةٌ وعشرون عاماً فَصَلَتْ بين سنة ٥٤١هـ التي جازَ فيها الموحّدون البحرَ من المغرب إلى الأندلس، وبينَ سنة ٥٦٨هـ وهي السّنةُ التي شَهِدَتْ سُقُوطَ دولتهم وانتهاءَ سُلطانهم، وقد كانت هذه الفترةُ الزّمنيةُ الطّويلةُ شاهِدةً على وقائعَ عَظيمةٍ وأحداثٍ جسامٍ سواءً في المغربِ موطنِ الموحّدين، أم في الأندلس التي عَبَرُوها لِيَقْضُوا على ما تَبَقِيَ مِنْ نُفُوزِ الدّولةِ المرابطيّةِ فيها، وَلِيَقْدِّمُوا العَوْنَ والنّصْرَةَ لأهلها وَيَقْفُوا معهم صَفّاً واحِداً في الجِهَادِ ودَحْرِ العُدُوّان الذي ما انفكّت الممالكُ الأوروپيّةُ النّصرانيّةُ تَشْتَنّه عليهم.

عندما وَصَلَ الموحّدون الأندلس واجهوا تيارين مُعارِضين: الأول كان يترعّمه والي الأندلس المرابطيّ يحيى بن غانيّة، وكان هذا التّيارُ يدعو إلى التّمسكِ بالدّولةِ المرابطيّةِ،

^{١٩} رجع الباحث في دراسة تاريخ الدّولة الموحّديّة إلى المصادِر والمراجع التّالية: البيدق، أبو بكر بن علي الصّنهاجيّ الملقّب بالبيدق (ت قبل ٥٩٠هـ)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين (الرّباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧١م). ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة (٥٣٧ - ٥٩٤م)، تاريخ المنّ بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م). المراكشي، محي الدين بن عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (٥٨١ - ٥٦٤٨هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: خليل عمران (بيروت: دار الكتب العلميّة د.ت). ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (٧٣٢ - ٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن جاورهم من ذوي السّلطان الأكبر، ج ٦ (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦١م). التّاصري، أبو العبّاس شهاب الدّين أحمد بن خالد التّاصري السّلاوي (١٢٥٠ - ١٣١٥هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٣٠ وما بعدها، ج ٢ (الدّار البيضاء: منشورات وزارة الثقافة والاتصال المغربيّة، ٢٠٠١م). عنان، محمّد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحّدين، ص ١٥٦ وما بعدها، عصر الموحّدين (القاهرة، مطبعة الخانجي، ط ٢: ١٩٩٠م، مصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠٠٢م).

ومن الطبيعيّ أن لا يصمد هذا التيار طويلاً بعد أن سقطت دولة المرابطين في عقر دارها، حيث انتهى أمر هذا التيار بانضمام زعيمه إلى الدولة الموحدية^{٢٠}.

أما التيار الثاني فكان الأشد، وقد تزعمه محمد بن سعد بن مردنيش وحليفه إبراهيم بن همشك، وكان هذا التيار يدعو إلى الفكرة القومية الأندلسية وعدم خضوع الأندلس لحكم المغاربة سواء أكانوا مرابطين أم موحدين، وقد خاض دعاة هذا التيار معارك عديدة مع الموحدين الذين كانوا يتقدمون عليهم بالعدو والعدو، وانتهت مقاومة هذا التيار بانضمام ابن همشك للموحدين وبوفاة ابن مردنيش بعد ذلك، وتكشف لنا الرسائل التي وصلتنا جانباً من العلاقة المتقلبة بين الموحدين وبين دعاة هذا التيار، ففي رسالة أرسلها الخليفة الموحي الأول إلى ابن مردنيش سنة ٥٤٨هـ نجد الخليفة عبد المؤمن بن علي يدعو ابن مردنيش إلى الاعتبار من أعيان الأندلس وزعمائها الذين لم ينج منهم "إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى، واستبقى لنفسه من هذا الخير الأدوم الأبقى"^{٢١} ويدعوه للانضمام للدولة الموحدية "فنحن لا نريد لكم ولسائر من نرجو إنابته، ونستدعي قبوله وإجابته إلا الصلاح الأعم والتجّاح الأتم"^{٢٢} ويحذّره من عاقبة الاستمرار في مقاومة الموحدين واعتراض مسيرهم "وأما من أُخِلِدَ إلى الأرض واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى سواه، فقد علّم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتنقل به حادث الانتقام أحسر ما تنقل به، وحق عليكم - وفقكم الله ويسركم لما يرضاه - أن تحسنوا الاختيار، وتصلوا الأذكار والاعتبار، وتبتدروا الابتدار"^{٢٣}.

ولكن لم يستجب ابن مردنيش لدعوة الموحدين، بل لجّ في عناده واستمر في مقارعتهم حتى بعد وفاة الخليفة الأول، ففي رسالة أرسلها الخليفة الثاني يوسف بن عبد

^{٢٠} بقيت جزر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) تحت حكم آل غانية حتى استطاع الموحدين ضمها سنة ٥٩٩هـ.

ينظر: المراكشي، المعجب، ٣٢١. ابن خلدون، تاريخه، ٦: ٥١٦.

^{٢١} القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفزاري القلقشندي (٧٥٦ - ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣٣ - ١٩١٥م)، ٦: ٤٤٥. لم يُعرف كاتب الرسالة.

^{٢٢} المصدر السابق، ٦: ٤٤٥.

^{٢٣} المصدر السابق، ٦: ٤٤٥.

المؤمن إلى والي غِرْنَاطَة سنة ٥٦٣ هـ نَرَاهُ يُبْدِي نِيَّتَهُ بِالْجَوَازِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ لِمُوَاجَهَةِ ابْنِ مَرْدَنِيشَ وَحُلَفَائِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ الْأُورُوبِيَّةِ، وَيُعَرِّبُ الْخَلِيفَةُ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ عَنْ اهْتِمَامِهِ بِالْأَنْدَلُسِ وَحِرْصِهِ عَلَى أَنْ تَكُونَ جُزْءاً مِنْ سُلْطَانِ الْمُوحِدِينَ، لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهَا مُنَازَعٌ "وَأَنَّ أَمْرَ تِلْكَمُ الْجَزِيرَةِ - مَهَّدَهَا اللَّهُ - لَمَنْ أَكَّدَ مَا تَوَّجَّهَ بِهِ نَظَرُنَا، وَتَوَكَّلَ بِهِ اعْتِنَاؤُنَا، وَاشْتَغَلَ بِهِ فِكْرُنَا، لِمَصَاقِبَةِ الْأَعْدَاءِ الرُّومِيِّينَ وَالْمُجَسِّمِينَ^{٢٤} لِبِلَادِ الْمُوحِدِينَ بِهَا وَإِلْحَاحِهِمْ عَلَى جَنَابَتِهَا"^{٢٥}.

وَلَمْ يَبْقَ حِلْفُ ابْنِ مَرْدَنِيشَ مُتِمَّاسِكًا، حَيْثُ دَبَّ الصِّرَاعُ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ مَرْدَنِيشَ وَبَيْنَ صِهْرِهِ وَحَلِيفِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَمُّشُكٍ، وَتَكَشَّفَ لَنَا رِسَالَةٌ أَرْسَلَهَا الْوَالِي قُرْطُبَةَ إِلَى الْوَالِي غِرْنَاطَةِ سَنَةِ ٥٦٤ هـ "إِنَّ الشَّيْخَ أَبَا إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَمُّشُكٍ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الْعَزِيزَ هُوَ الْمَرْكَبُ الْمُنْجِي، السَّائِقُ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ الْمَرْجِي، الَّذِي لَا يُؤَخَّرُ عِثَارُ مَنْ صَدَفَ عَنْهُ وَلَا يُرْجَى، فَبَادَرَ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ بِدَارٍ مَنْ خَلَصَتْ سَرَائِرُهُ، وَطُوِيَتْ عَلَى مَوَدَّتِهِ ضَمَائِرُهُ، وَرَأَى أَنَّ ذَلِكَ تُمَحَى بِهِ خَطَايَاهُ وَتُغْفَرُ جَرَائِرُهُ، وَأَذَاعَ الدَّعْوَةَ الْمَهْدِيَّةَ فِي جَمِيعِ بِلَادِهِ، وَأَعْلَنَ بِهَا، وَأَبْدَى الْإِعْتِلَاقَ بِعِصْمَتِهَا وَالتَّمَسُّكَ بِسَبَبِهَا"^{٢٦}.

وَتُخْبِرُنَا رِسَالَةٌ أُخْرَى بِهَزِيمَةِ ابْنِ مَرْدَنِيشَ وَحُلَفَائِهِ الْأُورُوبِيِّينَ وَفِرَارِهِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ وَلُجُوءِهِ إِلَى مُرْسِيَّةٍ وَمَحَاصِرَةِ الْمُوحِدِينَ لَهَا، وَقَدْ صَدَرَتْ الرِّسَالَةُ عَنْ قَائِدِي الْجِيُوشِ الْمُوحِدِيَّةِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي حَفْصٍ وَلَكِنِّي الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ مِنْ ظَاهِرِ مُرْسِيَّةِ سَنَةِ ٥٦٠ هـ وَكُتِبَتْ عَنْهُمَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ عِيَّاشٍ وَجَاءَ فِيهَا مَا نَصَّهُ "وَهُنَالِكَ اسْتَوْضَحَ أَنَّ الشَّقِيَّ ابْنَ مَرْدَنِيشَ وَأَصْحَابَهُ النَّصَارَى - دَمَّرَهُمُ اللَّهُ - قَدْ خَرَجَ بِجُمْلَتِهِ الذَّمِيمَةِ مِنْ مُرْسِيَّةٍ إِلَى لُورَقَةٍ خَائِفًا عَلَيْهَا، بَعْدَ أَنْ اسْتَوْثَقَ خُرُوجَ أَهْلِ مُرْسِيَّةٍ وَشِيُوخِهَا، وَأَهْلَ التَّعِينِ فِيهَا مَعَ كَثِيرٍ مِنْ لَفِيفِهَا، لَمَّا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الرُّعْبِ الَّذِي تَقَدَّمَ إِلَيْهِ جَيْشُهُ، حَتَّى خَفَّ بِهِ طَيْشُهُ، فَلَمْ

^{٢٤} دَابُّ الْمُوحِدُونَ عَلَى وَصْفِ الْمَعَارِضِينَ لَهُمْ بِصِفَةِ التَّجْسِيمِ، وَقَدْ سَبَقَ لِلْمُؤَرِّخِ الْمُوحِدِينَ الْبِيذَقُ أَنَّ وَصْفَ الْمُرَابِطِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ أَخْبَارُ الْمَهْدِيِّ بْنِ تَوَمَرْتِ.

^{٢٥} عَزَاوِي، أَحْمَدُ، رِسَالَتُ مَوْحِدِيَّةٍ، (الْمَغْرِبُ: جَامِعَةُ ابْنِ تَفِيلٍ، مَنَشُورَاتُ كَلِيَّةِ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ، سَلْسَلَةُ نَصُوصٍ وَوُثَائِقُ ٢، د.ت)، ١١٧. لَمْ يُعْرِفْ كَاتِبُ الرِّسَالَةِ.

^{٢٦} الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ١٢٨.

يَزِدُّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ إِلَّا عَزَمًا مُجَدِّدًا فِي التَّصْمِيمِ إِلَى جِهَتِهِ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَى غَزْوِهِ فِي عُقْرِهِ إِذْ لَا لَهُ وَلَفْتُهُ.... وَلَاذَ الشَّقِيَّ الْقَلِيلِ فِي الْعَدَدِ الْقَلِيلِ إِلَى الْأَخْبِيَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْفَرَارِ لَا لِلْقَرَارِ، وَقَدْ خَبَرَ مِنْ حَدِّ السَّيُوفِ وَأَنْبَاءِهَا مَا أَغْنَاهُ عَنِ الْأَخْبَارِ، وَشَفَى اللَّهُ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْدَائِهِمُ الْكُفَّارِ"^{٢٧}.

لقد انتهى تيارُ ابنِ مَرْدَنِيْشَ بموته سنة ٥٦٧هـ، وَتَحَوَّلَ أَخِيهِ يَوْسُفُ بْنُ سَعْدٍ وَابْنَهُ هَلَالُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَانْضَمَّامَهُمَا لِلْمُوَحِّدِينَ، وَلَكِنَّ الْفِكْرَةَ الْأَنْدَلُسِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ ابْنِ مَرْدَنِيْشَ ظَلَّتْ فِي الْأَنْدَلُسِ بَعْدَهُ "وَمَا كَانَتْ الْجِيُوشُ الْمُرَابِطِيَّةُ ثُمَّ الْمُوَحِّدِيَّةُ تَبْذُلُهُ فِي سَبِيلِ حِمَايَةِ الْأَنْدَلُسِ وَمُحَارَبَةِ إِسْبَانِيَا النَّصْرَانِيَّةِ لِتَقْضِيَ تَمَامَ الْقَضَاءِ عَلَى الْفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ تَلْطُفُ مِنْ حِينَ لآخرَ جَذَوُثُهَا وَاضْطِرَامُّهَا"^{٢٨}.

الفترة الأولى: فترة الصعود.

لم تكن الفترة الموحّدية في الأندلس على حالٍ واحدة، بل يُمكنُ تقسيم تلك الفترة إلى قسَمين: فترةٍ أولى وهي فترةُ التّقدّم والتّوسّع والوحدة والقُوّة والازدهار، وفترةٍ ثانيةٍ مُناقِضَةٍ تَمَامًا لِلْفَتْرَةِ الْأُولَى، وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ الْعِقَابِ سنة ٦٠٩هـ فَاصِلَةً بَيْنَ الْمَرَحِلَتَيْنِ. تَعَاقَبَ عَلَى الْحُكْمِ فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى أَرْبَعَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ هُمْ:

٥٢٤ - ٥٥٨هـ ^{٢٩}	عبد المؤمن بن عليّ الكوميّ
٥٥٨ - ٥٨٠هـ	يوسف بن عبد المؤمن
٥٨٠ - ٥٩٥هـ	يعقوب بن يوسف (المنصور بالله)
٥٩٥ - ٦١٠هـ	محمد بن يعقوب (التّاصر لدين الله)

^{٢٧} المصدر السابق، ٩١ - ٩٣.

^{٢٨} عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحّدين: ٥٤. وسوف يمرّ بنا حديثٌ عن حركة محمد بن هود الذي عاد إلى هذه الفكرة وأراد توحيد الكلمة الأندلسية وتخليص الأندلس من حكم الموحّدين.

^{٢٩} تولى عبد المؤمن إمارة الموحّدين بعد وفاة محمد بن تومرت سنة ٥٢٤هـ، وكانت الدّولة المرابطية قائمةً في ذلك الوقت، حيث حلّت الدّولة الموحّدية محلّها بعدما دخل الموحّدون مراكش وقتلوا آخر أمراءها إبراهيم بن تاشفين سنة ٥٤١هـ.

وَتَكْشِفُ لَنَا الرِّسَالِ الْكَثِيرَ عَنْ أَحْوَالِ تِلْكَ الْفَتْرَةِ، حَيْثُ كَانَتْ تُخْبِرُنَا بِتَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ عَلَى الْخِلَافَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ وَمَبَايِعَةِ أَهَالِي الْأَنْدَلُسِ لِلْخَلِيفَةِ الْمُوَحَّدِيِّ^{٣٠}، وَقَدْ أَعْرَبَ الْخَلِيفَةُ يَوْسُفُ فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا عَنْهُ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ عِيَّاشٍ سَنَةَ ٥٦٣ هـ عَنْ تَقْدِيرِهِ لِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْأَنْدَلُسِيُّونَ مِنْ "انْعِقَادِ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ شُيُوخُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَأَعْيَانِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي أَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْمَبَايِعَةَ عَلَيْهِ، وَإِعْطَاءَ صَفَقَةِ الْيَدِ فِيهِ"^{٣١}.

كَمَا تُخْبِرُنَا الرِّسَالُ بِالْإِنتِصَارَاتِ الَّتِي حَقَّقَهَا الْمُوَحِّدُونَ تَبَاعًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالْجَمَاعَاتِ الْأُورُوبِيَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ نَصْبَ عَيْنِهَا اسْتِرْدَادًا الْأَنْدَلُسِ وَتَخْلِيصَهَا مِنْ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ^{٣٢}، لَقَدْ قَادَ الْخَلِيفَةُ يَوْسُفُ بِنَفْسِهِ الْجِيُوشَ الْمُوَحَّدِيَّةَ الَّتِي ضَمَّتِ الْمُوَحِّدِينَ وَالْعَرَبَ الْقَادِمِينَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِيِّينَ الْمُتَّحِدِينَ مَعَهُمْ، وَخَاضَ مَعَارِكَ كَثِيرَةً حَالِفَهُ النَّصْرَ فِي بَعْضِهَا وَلَمْ يُحَالِفْهُ فِي بَعْضِهَا الْآخَرِ، حَيْثُ مَكَثَ فِي الْأَنْدَلُسِ خَمْسَةَ أَعْوَامٍ مُجَاهِدًا، وَسَقَطَ شَهِيدًا فِي مَعْرَكَةِ شَنْتَرِينَ سَنَةَ ٥٨٠ هـ.

وَبَعْدَ وَفَاةِ الْخَلِيفَةِ يَوْسُفَ وَاصَلَ ابْنُهُ الْخَلِيفَةُ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ حَمَلَ رَايَةَ الْجِهَادِ، وَحَقَّقَ إِنْتِصَارَاتٍ بَاهِرَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ، حَيْثُ حَقَّقَ إِنْتِصَارًا مُؤَزَّرًا عَلَى الْمَمْلَكَةِ الْبَرْتَغَالِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَلِكُهَا أَلْفُونَسُو هَنْرِيكِيْزِ الْمُسَمَّى فِي الْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بَابْنِ الرَّيْقِ أَوْ ابْنِ الرَّئِيقِ قَدْ قَادَ مَعْرَكَةَ شَنْتَرِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي رِسَالَةٍ صَدَرَتْ عَنْ الْخَلِيفَةِ الْمَنْصُورِ سَنَةَ ٥٨٦ هـ وَكَتَبَهَا ابْنُ مَحْشُورَةَ، نَجِدُ تَفْصِيلًا لِمَجْرِيَّاتِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي "أَشْرَقَتْ ابْنُ الرَّيْقِ بِرَيْقِهِ، وَسَدَّتْ عَلَيْهِ مَسَالِكَ فَهْجِهِ وَطَرِيقِهِ، وَأَرْتَهَ شَجَى نَفْسِهِ، وَخَزِي يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ، فِي حِزْبِهِ الذَّمِّيمِ وَفَرِيقِهِ، وَقَذَفَتْ بِأَمْرِهِ الدَّابِرَ، وَجَمَعَهُ الْخَاسِرَ، فِي سَعِيرِ الْهَلَكِ وَحَرِيقِهِ، فَعُجْنَا إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ - مَهْدَهَا اللَّهُ - صُدُورَ الرِّكَابِ، وَثَنِينَا إِلَيْهَا زِمَامَ الرَّجْعَةِ وَالْإِيَابِ، شَاكِرِينَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا نَوَّلَ مِنْ نِعَمِهِ الْجَمَّةِ وَمِنْهُ الرِّغَابُ"^{٣٣}.

^{٣٠} ينظر: عزاي، أحمد، رسائل موحدية، بيعة أهل إشبيلية ١١١، بيعة أهل غرناطة ١١٢.

^{٣١} المصدر السابق، ١١٥.

^{٣٢} ينظر: المصدر السابق، رسالة الخليفة يوسف بانتصاره على جماعة جيرالدو ١١٨،

^{٣٣} بروفنصال، لافي، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية (الرباط: المطبعة الاقتصادية،

١٩٤١م)، ٢٢٧.

واستمرَّ المنصور في إحراز الانتصارات حتَّى توجَّهَ بالتَّصر العظيم في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ، حيثُ انتصر الموحدون على الجيوش الأوروبية التي اجتمعت من ممالك قشتالة وليون ونافارا وكانت بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة "وجاءت هذه الواقعة هنيئة الموقع عامَّة المسرة، كأكلة جائع أو شربة عطاش، فأنست كل فتح بالأندلس تقدِّمها، وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها"^{٣٤} لقد كسرت تلك الهزيمة شوكة الأوروبيين بعدما انهزم أقوى ملوكهم، وفتحت المجال أمام الموحدين للتقدِّم وإحراز مزيد من الانتصارات، وتنطَّق بذلك رسالة صدرت عن الخليفة المنصور سنة ٥٩٢هـ وخطها أبو عبد الله بن عيَّاش وجاء فيها "وإلى ذلكم - أوعزكم الله شكر النعمة - فإن الله سبحانه لما كسر طاغية الروم الكسرة التي أعزَّت الحنيفة، وأذلت النصرانية، وفتح من معاقله الآشبة ما فتح، ومنح عباده من أنفاله وأسلابه ما منح، أجفل - لعنه الله - إلى قشتالة - فتحها الله - إجفال الظَّليم، وقد أبقي منه سيفُ الله ما يُبقي الصِّباح من الصَّريم، والرياح من الهشيم، وفصل الموحدون وشكرُ الله ملءُ حقائبهم، وصنعه الكريم حسب رغائبهم.... فأول ما مررنا به حصن منت انتش، وهو حصن يتلَّع بالعنان، ويقتض الطائر بالسنان.... ثمَّ عمدنا إلى ترجالة قاعدة الثغر الشمالي، ثرضعه بدرها، وتدرِّبه على شرها.... واقتدى بهم في الفرار أهل شنتقروس، وهي القلعة الحسيبة في الامتناع، المجلوة على منصبة اليفاع، أول حصن بالجهة أهيئت فيه شعائر الله، وأخذ المسيح وأمه إلهين من دون الله.... ثمَّ أجزنا وادي تاجو.... ثمَّ سيرنا متعلِّلين في أرض الروم إلى مدينة إبلتانسية، وكانت مدينة تهالك في إنشائها برهة من السنين، ونقل إليها من أهل الشمال كل من تلقى راية الحرب باليمين.... ثمَّ عطفت الأعنة على أعمال طليبة فأوسع الله أرضها اعتسافاً، وأقواتها انتسافاً.... فتوارى في قشتالة بالجبال، ولفَّ فيها رأسه حياء من الكفر والضلال، وخلَّى البلاد والسيِّف يحكم فيها كيف شاء، ويُدعُ الإعدام والتدمير لا الإيجاب ولا الإنشاء، وجهده العَضُّ على يديه وكذلك يفعل الظَّالم، وكيف يُعصم وليُّ

^{٣٤} ابن عذارى، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عذارى المراكشي (ت ٦٩٥هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وليفي برونسفال (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٣م)، قسم الموحدين: ٢٢١.

الشَّيْطَانُ وَاللَّهُ هُوَ الْعَاصِمُ، فَكُلُّ مَا عَرَضَ لِحَزْبِ اللَّهِ فِي طَرِيقِهِ، أُلْحِقَ بِحَزْبِ الشَّيْطَانِ الَّذِي أَهْلَكَهُ اللَّهُ بِالْأَمْسِ وَفَرِيقِهِ" ٣٥

وإضافةً إلى الإخبارِ بالانتصاراتِ الموحَّديَّةِ، تخبرنا الرِّسائلُ بتعاملِ الموحَّدين مع الأوروبيين تَعامُلَ القويِّ العزيزِ مع الضَّعيفِ الدَّليلِ، فعندما حَاوَلَ ملكُ قِشْتَالَةِ أَلْفُونَسُو الثامن تَحْرِيزَ والي غِرْنَاطَةِ عبد الرَّحْمَنِ بالخروجِ على أخيه الخليفةِ المنصورِ سَارَعَ والي بالردِّ على الملكِ القِشْتَالِيِّ مُوبِّخاً ومُهِدِّداً إِيَّاهُ، حيثُ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ الَّتِي صَدَرَتْ سَنَةَ ٥٥٨٤ هـ وَكُتِبَتْهَا صَفْوَانُ بْنُ إِدْرِيسَ مَا نَصَّهُ "فَقِفْ فِي حَالَتِي وَرَدِّكَ وَصَدْرِكَ وَقِفَةَ الْعِيرِ، وَغُضَّ الطَّرْفِ إِنَّكَ... ٣٦ لَكَ بِيَاهِلَةٌ بَلَهَ غُمِيرٌ، لَسْنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمُنُّ يُقَعِّقُ لَهُ بِشِنَانٌ، وَيُقَادُّ إِلَى مِيدَانِ الْبَاطِلِ بِزِمَامٍ مِنَ الْغُرُورِ وَعِنَانٌ، وَمِنْ أَوْجِبَ مَا نُصَرِّحُ لَكَ بِهِ الْآنَ، إِنَّ هَلَاكَكَ قَدْ أَزِفَ وَآنَ، لِأَنَّا إِذَا أَخْبَرْنَا سَيِّدَنَا الْإِمَامَ بِكِتَابِكَ الذَّمِّيمِ، وَذَكَرْنَا لَهُ جُرْمَكَ عَلَى فَسَادِ ذَاتِ بَيْنِنَا بِالْجِدِّ الصَّمِيمِ، أَمَدُّونَا لِعَزْوِكَ بِجِيوشٍ تَرْجِعُ عَنْهُ خَاسِئَةً عَيُونُ النَّظَّارِينَ..... فَاجْعَلْ هَذَا الْكِتَابَ حَاجِزاً بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَاطْوِ عَنَّا زَوْرَكَ وَمَيْتَكَ، فَلَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَصَلَبْنَا رَسُولَكَ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ، وَلَأَرَيْنَاكَ فِيهِ بَطْشَةَ أَبِي الْأَشْبَالِ بِالسَّخْلِ" ٣٧.

وَفِي رِسَالَةٍ أُخْرَى أَرْسَلَهَا الْأَمِيرُ نَفْسُهُ إِلَى أَلْفُونَسُو الثَّامِنِ سَنَةَ ٥٦٠٧ هـ احْتَجَّ فِيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى قِيَامِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأُورُوبِيِّينَ قَدِمَتْ مِنْ أَرْضِي قِشْتَالَةِ وَاعْتَدَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَطْرَافِ جِيَانٍ وَسَلَبَتْ مِنْهُمْ دَوَابَّهُمْ، وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ نَلْحِظُ أَمْرَيْنِ: خُلُوءَ الرِّسَالَةِ - كَمَا الرِّسَالَةِ الَّتِي سَبَقَتْهَا - مِنْ عِبَارَاتِ التَّعْظِيمِ وَالتَّوْقِيرِ، وَالْإِمَامِ الْمُوَحِّدِينَ بِمَعْلُومَاتٍ دَقِيقَةٍ عَنْ عَدُوِّهِمْ، وَقَدْ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ الَّتِي كُتِبَتْهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْبُلُويُّ مَا

٣٥ المصدر السابق، ٢٢٨ - ٢٤١.

٣٦ كلمات مطموسة في المصدر لم يقدرها المحقق، والكلمتان المطموستان هما (من غير) لأنَّ الكاتب استشهد بالشَّعر في أكثر من موطن في الرسالة منها قول جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفُ إِنَّكَ مِنْ تُمِيرٍ فَلَا كَعْباً بَلَعْتَ وَلَا كِلَاباً

ينظر القصيدة في: جرير، أبو حرزة جرير بن عطية بن حذيفة الكلبي التميمي (٣٣ - ١١٠هـ)، ديوانه (بيروت، دار صادر، د.ت)، ٦٣.

٣٧ عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٨١.

نصه "كأنهم لا يرجعون إلى ملك يملكهم، ولا يخافون من حاكم يحكمهم، طغياناً منهم وعناداً، وخترًا بميثاق الموحدين - أعزهم الله - الذي لا يحمل لبساً ولا يقبل دخلاً ولا يحمل فساداً، وما يفعل أبداً في حال المحاربة والمقاتنة، أكثر مما فعل الآن في حال المسألة والمهادنة، وقد عوينوا وميزوا، وتحقق قواد هذه الجهات - أنجدهم الله - أنهم من رجالكم، وأنهم خرجوا من بلادكم، وأنه كان منهم الدليل فلان بن فلانة، والدليل فلان بن فلانة^{٣٨}.... وهذا الذي عرفناكم به لا جواب عند الفاعلين عليه إلا بحثكم عنهم، واشتدادكم في تعجيل الإنصاف منهم، فإن جريمتهم التي أجرموها ليست تدفع بالجحد والإنكار.... فقد ميزوا بأعينهم وأسمائهم، وعرفوا بقائدهم ودليلهم، وحفظوا بغدوهم ورواحهم ومآتاهم ومتقليهم^{٣٩}."

إن انتصارات الموحدين قد جعلت دولتهم مهابة الجانب منيعة عزيزة، فقد كتبت تلك الانتصارات شر أعدائهم الأوروبيين عن الأندلس ولو إلى حين، كما أعلت ذكرهم عند إخوانهم المشاركة الذين نظروا إليهم كقوة إسلامية مساندة يحسب لها الحساب، حتى إن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي استنجد بالموحدين ليؤازروه في الجهاد الذي كان يرفع لواءه ضد الصليبيين في المشرق، لقد كان استنجد الناصر صلاح الدين بالخليفة المنصور برسالتين كتبهما عنه القاضي الفاضل، أرسلت الأولى سنة ٥٨٥هـ، أما الثانية فقد أرسلت سنة ٥٨٦هـ وفي هذه الرسالة طلب الناصر صلاح الدين العون من المنصور بأية وسيلة، فإن تعذر إرسال الأسطول الموحدى إلى المشرق، فليس أقل من محاربة الممالك الأوروبية في الأندلس، لأن تلك الممالك والصليبيين ملّة واحدة، يُعين بعضهم بعضاً، وهزمتهم في جبهة الأندلس سيؤدي إلى هزيمتهم في جبهة المشرق، وجاء في تلك الرسالة

^{٣٨} لعل الأسماء كانت مذكورة في الرسالة ثم حُذفت وعُوّض عنها بفلان بن فلانة، وكان هذا الأمر شائعاً في الرسائل الأندلسية التي وصلت إلينا.

^{٣٩} المصدر السابق، ٢٥٨ - ٢٥٩.

^{٤٠} ينظر الرسالة في: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٥٢٧.

^{٤١} ينظر الرسالة في: ابن عثمان المقدسي، أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسيّ الدمشقيّ (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين التورانية والصلاحيّة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م)، ٢: ١٧٠.

ما نصُّه "وإن كانت دون الاسطول موانع، فالمعونات ما طريقها واحدة، ولا سبيلها مسدودة.... فلا ترضى همته أن يُعين الكُفْر الكُفْر ولا يُعين الإسلام، وما اختصَّ بالاستعانة إلّا لأن العدوَّ جارُه، والجارُ أقدرُ على الجار، وأهلُ الجَنَّةِ أولى بقتالِ أهل النار"٤٢.

إنَّ رسالتِي التَّجْدَةَ اللّتين صَدَرَتَا عن النّاصر صلاح الدّين كانتا بعد انتصاره على الصّليبيين في معركة حِطّين سنة ٥٨٣هـ، وقد بدأ أن الصّليبيين بعد تلك الهزيمة التّكراء قد وَهَنَتْ قُواهرهم، ولم يعودُوا قَادِرِينَ على مُزاوَلَةِ القِتَالِ، ولكنّهم استطاعُوا جَمَعَ صفوفِهم، واستدّعُوا المددَ من أوروبا، وقَدِمُوا إلى المشرقِ بِقُوَّةٍ كَبِيرَةٍ استَدَعَتْ مِنَ النّاصر صلاح الدّين أن يَطْلُبَ العَوْنَ من المسلمين، وتكرَّرَ ذاتُ الأمرِ في الأندلس، فكان انتصارُ حِطّين وما أعقبَهُ من معاهدات وهُدْنٍ، وما تَلَا ذلكَ مِن تَجَمُّعِ الصّليبيين وإعدادهم للحرب، ثمَّ ما حَصَلَ بعد ذلكَ من صِراعٍ بَيْنَ الأيوبيين أَنفُسِهِم مُشَابِهاً إلى حَدٍّ كَبِيرٍ لانتصار الأرك وما تَبِعَهُ من أحداثٍ ووقائعٍ.

إنَّ التّواصلَ بَيْنَ المشرقِ وَبَيْنَ المغربِ الإسلاميين كان له أثرٌ على نتائج الأحداث، حيث كان انتصارُ الأرك سنة ٥٩١هـ مُتِمِّماً لانتصارِ حِطّين الذي تلقَّاه المسلمون في المغربِ بالبُشرى "وكان له في النُّفوسِ مِنَ الفَرَحِ والجَدَلِ ما لا يَخْفَى"٤٣ فَقَوِيَتْ هِمَمُهُم وارتَفَعَتْ معنوياتُهم، ولعلَّ اطلاقَ الخليفة المنصور لَقَبِ النّاصر على ابنه وولي عَهْدِهِ مُحَمَّدٍ تَقْدِيرٌ لِلنّاصر صلاح الدّين وَتَيْمُنٌ بِهِ، حيثُ تُشِيرُ رسالةُ صَدَرَتْ عن المنصور سنة ٥٨٨هـ٤٤ إلى أن هذا اللَّقَبَ كان قد أَطْلَقَهُ على ابنِهِ قَبْلَ أن يُعَيِّنَهُ وَلِيّاً للعهد، وهذا ما لم يَكُنْ مَعْهُوداً مِن قَبْلُ حيثُ إِنَّ الألقابَ السُّلْطَانِيَّةَ يُطْلَقُهَا الملوِكُ على أَنفُسِهِم بعد أن يَحْوزُوا المُلْكَ، وتَسْتَقَرُّ لَهُمُ الأُمُورُ.

إضافةً إلى القُوَّةِ العسْكَرِيَّةِ الَّتِي مَيَّزَتِ المرحلةَ الأولى مِن عُمُرِ الدَّولَةِ الموحَّديَّةِ، كان هناك قُوَّةٌ اِقْتِصادِيَّةٌ، وكانت الغنائمُ الَّتِي اغْتَنَمَهَا الموحَّدون في مَعَارِكِهِم مَصْدَراً كَبِيراً من

٤٢ المصدر السابق: ٢: ١٧٢.

٤٣ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد عبد الحميد (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ١٩٨٥م)، ١٠٦.

٤٤ ينظر الرسالة في: عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٩١.

مصادر قوتهم الاقتصادية، حيث كانت تلك الغنائم تُذكر في معظم رسائل النصير التي كانت تُصدّر عن الموحّدين، ومنها رسالة صدرت عن الخليفة يوسف سنة ٥٦٨هـ وجاء في تلك الرسالة التي كتبها ابن المرخى ما نصّه "ومروا على الحصون التي على الوادي من ضفة الكنبانية"^{٤٥}، واستمروا ما بين استجة وقرطبة، فالفوا هناك غنائم مجموعة وشاء كثيراً، فاكسحوا جميعها"^{٤٦}.

لقد ظهر الازدهار الاقتصادي على الحياة العامة في عموم أرجاء الدولة الموحّدية "فزادت الأرزاق، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة، ودرت على الناس الخيرات دُروراً، وكثر المال في الأيدي"^{٤٧} ويُشير المراكشي إلى البحوث الاقتصادية التي كانت في أيام الخليفة يوسف الذي "تحولت أيامه كلها أعياداً وأعراساً ومواسم خصبة وسعة رزق"^{٤٨}.

كما إنّ الخلفاء الموحّدين في هذه الفترة الأولى كانوا يُزاولون السلطة بكفاءة واقتدار، وكانوا يُباشرون أمور العامة ويهتمون بأحوالها، ويحرصون على مصالحها، ومّا يُدلل على ذلك الأمر الذي صدر عن الخليفة عبد المؤمن للولاة بأن يريقوا الخمر، ويحاربوا الفساد، ويلاحقوا المرتشين وأكلي الربا، وأن لا يبيعوا السبايا حتّى يُخاطبوه بأحوالهم"^{٤٩}.

ومن ذلك أيضاً رسالة صدرت عن الخليفة يوسف سنة ٥٦١هـ وكتبها أبو الحسن بن عيَّاش وفي هذه الرسالة يأمر الخليفة الولاة "ألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم، ولا يهريقوها ببادٍ أو برأي من آرائهم، ولا يُقدّموا على سفكها بما يظهر إليهم، ويتقرّر فيما يرونه لديهم، إلا بعد أن تُرفع إلينا النازلة على وجهها، وتؤدّى على كنفها، وتُشرح حسب ما وقعت عليه، وتُنهى بالتوثيق والبيان إلى ما انتهت إليه، وتُقيّد بالشهود العدول،

^{٤٥} أشار المحقق إلى أن (الكنبانية) اسم لأحد أقاليم الأندلس.

^{٤٦} عزّازي، أحمد، رسائل موحّدية، ١٣٢.

^{٤٧} ابن صاحب الصلاة، المنّ بالإمامة، ٢: ٣٤٧.

^{٤٨} المراكشي، المعجب، ٣٣٠.

^{٤٩} ابن القُطّان، أبو محمّد حسن بن علي بن محمّد بن عبد الملك بن القُطّان الكتامي (ت قبل ٦٥٠هـ)، نظم الجمان، تحقيق: محمود علي مكي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م)، ٦: ١٥٠ - ١٦٩.

المعروفين في مواضعهم بالعدل والرضى الموجبين للقبول، وتُكتب أقوال المظلومين وحُججهم وإقرارهم واعترافهم، وحُجج الطالبين في مقالاتهم، واستظهارهم في بيناتهم، مُعطى كل جانب حقه، ومُوفى كل قائل قوله"^{٥٠}.

كما كان الخليفة يوسف حريصاً على مُتَابَعَةِ أمور الرعيّة، لا يترفع عن النَّاس، حيث كان يتقبَّل بنفسه شكاياتهم"^{٥١} مهمّاً كانت بسيطة، ومن تلك الشكايات رسالة من امرأة تشكو زوجها وجاء في تلك الرسالة ما نصّه "وقد اظطرنى"^{٥٢} بما سأمي من الحسف، وركبني به من العنف والعسف، حتى اختلعتُ به بكثيرٍ من مالي، ورضيتُ العدمَ ثمناً لرخاء بالي، فما أجابني إلى مَطْلوبي، ولا أَسْعفني في مَرغوبي، وعدلُكم - أدام الله تأييدكم - يَفُكُّني من إيساره، ويحلُّ عُنْقي من رِبْقَةِ اقتساره"^{٥٣}.

وكان الخليفة المنصور كوالده قريباً من رعيته، سخيّاً في البذل والعطاء "وكان الذي يُسهِّلُ عليه بذلَ الأموال - مع ما جُبِلَ عليه من ذلك - سِعةُ الخراج، وكثرةُ الوجوه التي تَنَحَّصَلُ منها الأموال"^{٥٤} وكان "كلمًا دَحَلَتْ السَّنةُ يأمرُ أن يُكْتَبَ له الأيتامُ والمنقَطعون فيُجمعون إلى مَوْضِعٍ قَرِيبٍ من قَصْرِه فيُخْتَنُون، ويأمرُ لكلِّ صبيٍّ منهم بِمِثْقَالٍ وثوب"^{٥٥}.

إنَّ قُوَّةَ الدَّولةِ الموحَّديَّةِ في المرحلة الأولى لم تأتِ عبثاً، بل تجمَّعتُ عناصرٌ من أجل تحقيقها وتعزيزها، وتمثَّلت تلك العناصرُ في القُوَّةَ العسكريَّةَ، والازدهارَ الاقتصاديَّ، وقيام الخلفاء الموحَّدين بمسؤولياتهم خيرَ قيام، ولكنَّ تلكَ العناصرَ لم تَدُم، إذ بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً لتبدأ المرحلةُ الثَّانيةُ التي شَهِدَتْ أَفْولَ نَجْمِ الدَّولةِ الموحَّديَّةِ، وانتهاءَ وجودِها.

بدأت المرحلةُ الثَّانيةُ سنة ٦٠٩ هـ بعدما هُزِمَ الموحِّدون في معركة العِقَاب، وقد حَصَلَتْ تلكَ التَّكْسَةُ التي لم تَقُمْ للموحَّدين بعدها قائمةٌ تُذَكِّرُ في عَهْدِ الخليفة النَّاصر

^{٥٠} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٩٦.

^{٥١} ينظر إلى خمس رسائل شكاية رفعت إلى الخليفة يوسف في: المصدر السابق، ٥٢٢، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧،

^{٥٢} كما جاء في المصدر والصواب اظطرنى.

^{٥٣} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٥٢٦.

^{٥٤} المراكشي، المعجب، ٣٢٨.

^{٥٥} المصدر السابق، ٣٦٤.

لدين الله، وكان نفسه يقودُ الجيوشَ الموحدية في هذه المعركة، وكان هذا الخليفة قد استهلَّ عهده بالسَّير على خُطى أبيه في الجهاد ومحاربة الممالك الأوروبية في الأندلس، وحقق انتصاراتٍ كبيرةً منها ما كَشَفَتْه رسالةٌ صدرت^{٥٦} عنه سنة ٥٦٠٨ هـ وكتبها أبو عبد الله بن عيَّاش وأخبرَ فيها بالنَّصر الذي أحرزه على القشتاليين وافتح حصن شَلْبَطْرَة الذي "بدَّل الله فيه النَّقوسَ بالأذان، وعادَت الكنيسةُ مسجداً على تقوى من الله ورضوان، ورأى المسلمون قُرَّةَ أعينٍ لم يروا مثلاً مُذْ أزمان"^{٥٧}.

ولكنَّ الخليفة النَّاصر انقطعَ عن مسيرة الجهاد في الأندلس وعادَ إلى المغرب ليقضيَ على حركاتِ التَّمرد التي حَمَلَ لواءها بنو غانية الذين ظلُّوا على ولائهم للمرابطين، وخاضَ معهم معاركَ وحروباً كثيرةً حتَّى استطاعَ في نهاية الأمرِ إخضاعَ حركاتهم واستعادةَ المدن التي كانوا قد استولوا عليها^{٥٨}، ويبدو أنَّ تلكَ الحروبَ والمعارك قد أرهقت الدولة وأضرَّت باقتصادها، كما أنَّ النَّاصر لم يكن مُهتماً بالرَّعية اهتمامَ أبيه وجدِّه، فاستعانَ ببطانةٍ تَمَقُّتُها الرَّعية في المغرب وفي الأندلس، وكان من تلكَ البطانة الممقوتة وزيرُه أبو سعيد بن جامع، كما إنَّ الخليفة كان مُستبدّاً برأيه ولم يُقِمَ للشورى وزناً^{٥٩}.

ومهما قيلَ عن أسباب الهزيمة فإنَّ انقطاعَ التَّواصل بين الخليفة ورعيته، وانعدامَ الثَّقة بينهما، والاستعانةَ ببطانةٍ ذَميمةٍ، إضافةً إلى الصُّعوبات الاقتصادية التي كانت تُعانيها الدولة الموحَّدية قد اجتمعتْ معاً لِتُؤدِّيَ إلى تلكَ الهزيمة المؤلمة، حيثُ ذهبَ ابنُ عَدَارَى إلى أنَّ الموحَّدين لم يُخلِصُوا في تلكَ الغزوة وذلك بسببِ استبداد الخليفة وقَتْلِهِ أشياخهم^{٦٠}، أمَّا المراكشي فقد عزا الهزيمة إلى اختلافِ قُلُوبِ الموحَّدين، والإبطاء في دَفْعِ الأعطيات لهم "فَنَسَبُوا ذلكَ إلى الوزراء، وخرَجوا وهم كارهون، فَبَلَغني عن جماعةٍ منهم أنَّهم لم يَسْلُوا

^{٥٦} صدرت هذه الرسالة بعد عودة الخليفة النَّاصر من المغرب بعدما قضى على تمرد بني غانية، حيث عاد إلى الأندلس سنة ٦٠٤ هـ. ينظر: ابن خلدون، تاريخه، ٦: ٢٤٩.

^{٥٧} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٦٨.

^{٥٨} ينظر: المراكشي، المعجب، ٣٩٨. ابن خلدون، تاريخه، ٦: ٢٤٩.

^{٥٩} ينظر: الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٢: ٢٢٠ - ٢٢١.

^{٦٠} ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ٢٦٣.

سيفاً، ولا شرعوا رحماً، ولا أخذوا من شيء من أهبّة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين ذلك^{٦١}.

الفترة الثانية: فترة الهبوط.

عاد الخليفة محمد الناصر إلى المغرب بعد هزيمة العقاب، وتوفي بعدها بعام واحد، وتعاقد على الحكم بعده تسعة خلفاء هم:

يوسف بن محمد الناصر (المستنصر)	٦١١ - ٥٦٢٠
عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن	٦٢٠ - ٥٦٢١
عبد الله بن يعقوب المنصور (العاقل)	٦٢١ - ٥٦٢٤
يحيى بن محمد الناصر (المعتصم)	٦٢٤ - ٥٦٢٧
إدريس بن يعقوب المنصور (المأمون)	٦٢٧ - ٥٦٢٩
عبد الواحد بن إدريس المأمون (الرّشيد)	٦٢٩ - ٥٦٤٠
علي بن إدريس المأمون (السعيد)	٦٤٠ - ٥٦٤٦
عمر بن إبراهيم ^{٦٢} (المرتضى)	٦٤٦ - ٥٦٦٥
إدريس بن أبي عبد الله ^{٦٣} (الواثق بالله)	٦٦٥ - ٥٦٦٨

وإذا كانت الدولة المرابطية قد انتهت بهزيمتها أمام الموحدين، وسقوط عاصمتها مراكش، ومقتل آخر أمرائها إبراهيم بن تاشفين على أيدي الموحدين سنة ٥٥٤١هـ، فإن نهاية الدولة الموحدية كانت مشابهة تماماً، حيث انتهت بهزيمتها أمام المرينيين، وسقوط عاصمتها مراكش، ومقتل آخر خلفائها الواثق بالله على أيديهم سنة ٥٦٦٨هـ^{٦٤}.

^{٦١} المراكشي، المعجب، ٤٠٢.

^{٦٢} هو عمر بن إبراهيم بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي.

^{٦٣} هو إدريس بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن بن علي الملقب بأبي دبوس، وتلقب بذلك (لأنه كان في بلاد الأندلس لا يفارقه الدبوس، فشهر به)، ينظر: مؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الثامن الهجري، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبد القادر زمامه (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ١٦٩.

^{٦٤} بعد سقوط الدولة الموحدية حاول بنو عبد المؤمن استجماع قواهم، فقبض عليهم المرينيون وقتلوهم سنة ٦٧٤هـ، وبذلك انقرض أمرهم. ينظر: ابن خلدون، تاريخه، ٧: ١٨٢.

إنَّ الرِّسَالَةَ الَّتِي أَخْبَرْتَنَا بِأَحْوَالِ الْفَتْرَةِ الْمُوحِدِيَّةِ الْأُولَى أَخْبَرْتَنَا أَيْضاً بِأَحْوَالِ الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَمَا أَخْبَرْتَنَا بِالْإِنْتِصَارَاتِ فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى أَخْبَرْتَنَا بِالْهَزَائِمِ فِي الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ، فَفِي رِسَالَةٍ صَدَرَتْ عَنِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ سَنَةِ ٦٠٩ هـ نَجِدُ إِخْبَاراً بِالْهَزِيمَةِ الَّتِي لَحِقَتْ بِالْمُوحِدِينَ فِي الْعِقَابِ، وَجَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ الَّتِي خَطَّهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشٍ مَا نَصُّهُ "فَإِنَّ صَاحِبَ قِشْتَالَةَ لَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ السَّالِفِ قَدْ ضَعُفَ عَنِ الْإِنْتِصَارِ، وَكَادَ يَخْفَى فِي بِلَادِهِ حَتَّى عَنِ الْأَبْصَارِ، رَأَى أَنْ يُضَارَعَ أَهْلَ مِلَّتِهِ ضِرَاعَةَ الْأَسِيفِ، وَيُصَانَعَهُمْ عَلَى مَعُونَتِهِ بِالتَّلَادِ وَالطَّرِيفِ، وَيُسْتَرْحَمَهُمْ عَسَى أَنْ يَجِدَ عِنْدَهُمْ رِقَّةَ الْقَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ، فَبَثَّ الْقَسِيسِينَ وَالرُّهْبَانَ مِنْ بُرْتُقَالٍ إِلَى الْقُسْطَنْطِينَةِ الْعُظْمَى، يُنَادُونَ فِي الْبِلَادِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ إِلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ: غَوْثاً غَوْثاً وَرُحْمِي رُحْمِي، فَجَاءَهُ عَبْدُ الصَّلِيبِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَمَكَانٍ سَحِيقٍ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ إِقْبَالَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَأَسْيَافِ الْبَحَارِ.... لَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُمَحِّصَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُيْلِي فِيهِ الْكَافِرِينَ، فَكَانَتْ عَاقِبَةُ الْيَوْمِ عَلَى الْخُصُوصِ لِأَهْلِ الصُّلْبَانِ، وَالْعَاقِبَةُ الْمَطْلُوقَةُ هِيَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ"^{٦٥}.

كَانَتِ الرِّسَالَةُ الَّتِي يُرْسِلُهَا الْمُوحِدُونَ لِلْأَوْرَبِيِّينَ فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى تَرْشُحُ بِالْعِزَّةِ وَالْأَنْفَةِ، وَلَكِنَّ رِسَالَةَ الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ كَانَتْ عَلَى النَّقِیضِ، فَفِي رِسَالَةٍ أَرْسَلَهَا وَزِيرُ الْمُسْتَنْصِرِ سَنَةِ ٦١٨ هـ إِلَى مَلِكِ قِشْتَالَةَ نَجِدُ عِبَارَاتٍ تَخْتَلِفُ عَنِ تِلْكَ الَّتِي عَهَدْنَا فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى، وَقَدْ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مَا نَصُّهُ "...وَكُلُّ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُتَقَبَّلاً، وَعَلَى أَحْسَنِ الْمَتَاوَلَاتِ مُتَأَوَّلاً - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَأَنْتُمْ بِحَوْلِ اللَّهِ تَقْفُونَ عِنْدَ حُدُودِ السَّلَامِ، وَتُحَافِظُونَ عَلَيْهَا، وَتُعَاقِبُونَ كُلَّ مَنْ هَمَّ بِإِذَايَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ الْوَفَاءَ شِعَارُ الْمُلُوكِ، وَعَلَيْهِمْ فِيهِ يَجِبُ السُّلُوكُ"^{٦٦}.

وَيَبْلُغُ الْهَوَانُ مَدَاهُ فِي رِسَالَةٍ أَرْسَلَهَا الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَنْصِرُ^{٦٧} إِلَى بَعْضِ ثَوَابِهِ فِي الْأَنْدَلُسِ دَاعِياً لِعَدَمِ قِتَالِ الْأَوْرَبِيِّينَ، وَمَحْذَرًا إِيَّاهُ مِنْ اسْتَفْزَازِهِمْ، وَيَشْعُرُ الْقَارِئُ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْمُوحِدِينَ اسْتَكَانُوا لِلْسَّلَامِ الْمَذَلِّ، وَأَغْلَقُوا بَابَ الْجِهَادِ، وَقَدْ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مَا نَصُّهُ

^{٦٥} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية. ٢٦٩ - ٢٧٠.

^{٦٦} المصدر السابق، ٣٠٦.

^{٦٧} كان الخليفة المستنصر طوال خلافته شاباً يافعاً حيث توفي عن خمس وعشرين سنة، وكان حاكماً صورياً ميّالاً للهوى بعيداً عن أمور الإدارة، وليس مستبعداً أن تكون هذه الرسالة صادرة عن وزيره ابن جامع وليس عنه.

"إِنَّكُمْ تُثِيرُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْ شَرِّ عَدُوِّكُمْ - قَصَمَهُ اللَّهُ - شَرًّا يَسْتَعِرُّ، وَضَرَرًا يَعْدُمُ فِيهِ الْمُنْتَصِرُ.... بل تَتَدَرَّعُونَ لَهُ الْفَرَارَ، وَتَتْرَكُونَهُ فِي مَخْلَفِكُمْ وَمَا اخْتَارَ، وَقَدْ جَرَبْتُمْ مَرَاتٍ أَنْكُمْ لَا تَرْزَأُونَهُمْ ذَرَّةً، إِلَّا رَزَأُوكُمْ أَلْفَ بَذَرَةٍ، وَلَا تُصِيبُونَهُمْ مَرَّةً، إِلَّا أَصَابُوكُمْ أَلْفَ مَرَّةً، وَإِلَى مَتَى تُنْهَوْنَ فَلَا تُنْتَهَوْنَ؟ وَحَتَّى تَنْبَهَوْنَ فَلَا تُنْتَبَهَوْنَ؟ فَإِذَا وَافَاكُمْ كِتَابُنَا هَذَا بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، فَأَدُّوا مَنْ أَسْرَمَ إِلَى مَأْمَنِهِ، وَرُدُّوا مَا انْتَهَبْتُمْ إِلَى مَسَرِّحِهِ، وَلَا تُمَسِّكُوا مِنَ الْأَسَارَى بِشَعْرَةٍ، وَلَا مِنَ الْمَاشِيَةِ بِوَبْرَةٍ، وَمَنْ سَمِعْنَا عَنْهُ - بَعْدَ وَصُولِ هَذَا الْكِتَابِ - أَنَّهُ تَعَدَّى هَذَا الرَّسْمَ، وَخَالَفَ هَذَا الْحُكْمَ، أَنْفَذْنَا عَلَيْهِ الْوَاجِبَ، وَحَكَمْنَا فِيهِ الْمَهْنَدُ الْقَاضِبُ"^{٦٨}.

وَكَمَا أَخْبَرْتَنَا الرِّسَائِلُ بِالرَّحَاءِ الْاِقْتِصَادِيِّ فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى أَخْبَرْتَنَا بِالْأَزْمَاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ فِي الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ، وَمِنْ تِلْكَ الرِّسَائِلُ رِسَالَةٌ رُفِعَتْ مِنْ وَالِي إِشْبِيلِيَّةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصِرِ^{٦٩}، وَجَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مَا نَصَّهُ "وَقَدْ تَقَدَّمَ الْإِعْلَامُ بِأَحْوَالِ الثُّغُورِ غَيْرَ مَرَّةً، وَشَرَحَ الْعَبْدُ مَا مَسَّهَا مِنَ الضِّيقِ وَالضَّعْفِ، وَغَلَاءِ السَّعْرِ وَعَدَمِ الطَّعَامِ وَكَثْرَةِ التَّشْكِيِّ بِقِلَّةِ الْإِنْصَافِ وَاحْتِيَاجِهَا إِلَى النَّظَرِ الْكَرِيمِ الَّذِي يُصْلِحُ أَحْوَالَهَا وَيُسِّطُ أَمَالَهَا، وَأَحْوَالَهَا الْآنَ بَاقِيَّةٌ عَلَى ذَلِكَ"^{٧٠}.

لَقَدْ اضْطَرَبَتْ الْأَوْضَاعُ الدَّاخِلِيَّةُ فِي الْأَنْدَلُسِ بَعْدَ هَزِيمَةِ الْعِقَابِ، فإِلَى جَانِبِ التَّرْدِي الْاِقْتِصَادِيِّ تُخْبِرُنَا الرِّسَائِلُ بِتَرَدِّ أَمْنِيٍّ، حَيْثُ انْعَدَمَ الْأَمْنُ فِي رُبُوعِ الْبِلَادِ، وَكَانَ مِمَّنْ يَعْثُ بِالْأَمْنِ وَيَعِثُ الْفَسَادَ الْعَرَبُ وَالْبَرْبُرُ الَّذِينَ قَدِمُوا مَعَ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ مِنَ الْمَغْرِبِ لِيُشَارِكُوهُ الْجِهَادَ، فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُوَحِّدُونَ فِي الْعِقَابِ، عَادَ الْخَلِيفَةُ إِلَى الْمَغْرِبِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعِدْ أَوْلَئِكَ الْعَرَبَ وَالْبَرْبِرَ مَعَهُ، فَبَقُوا فِي الْأَنْدَلُسِ يَعْثُونَ فِيهَا الْفَسَادَ، وَتُخْبِرُنَا خَمْسُ رِسَائِلٍ^{٧١} عَنْ الْعَيْثِ وَالْإِفْسَادِ الَّذِينَ قَامُوا بِهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي إِحْدَى تِلْكَ الرِّسَائِلِ الَّتِي أَرْسَلَهَا وَالِي إِشْبِيلِيَّةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصِرِ وَصَفُ مَرِيرٍ لِعَيْثِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ، حَيْثُ جَاءَ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي كَتَبَهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْبَلُويُّ مَا نَصَّهُ "وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِأَرْضِ إِشْبِيلِيَّةَ، يَقْتَحِمُونَ دِيَارَهَا، وَيَقْتُلُونَ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَيَسْلُبُونَ أَمْوَالَهُمْ.... وَقَدْ كَثُرَ مِثْلُ هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْهُمْ فِي

^{٦٨} القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٤٤٧.

^{٦٩} الرسالة غير مؤرخة، وكتبتها غير معروف.

^{٧٠} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٠٢.

^{٧١} ينظر إليها في: المصدر السابق، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٧.

هذا الوقت كثرةً ملأت قلوب الرعية خوفاً وجزعاً، فالتأس بسببهم ملهوفون، يضجون ضجيج الهلكى، ويستغيثون استعانة العرقى، ويمدّون أيديهم بالشكوى^{٧٢}.

ويشير الوالي في هذه الرسالة إلى أن الأوروبيين كانوا أقلّ إضراراً بأهل الأندلس من أولئك العرب والبربر "على أن هذه القرية لم يفرّ أهلها في القدم، إذ كان ابن الرنق^{٧٣} يُقاتل المسلمين بطريانة، ويحوسّ خلالها، بل كانت قرية سنت بس^{٧٤} حينئذ عامرة لم يبلغ الرعب بأهلها مبلّغه الآن من فلانة^{٧٥} لما سأموهم من العذاب، وفتحوا عليهم للمطالبة من الأبواب^{٧٦}".

ولم يقف الحدّ عند هذا المستوى من التردّي، بل اختلف الموحدون مع بعضهم واقتتلوا، ولجأوا إلى الأوروبيين ليستعينوا بهم على إخوانهم، وكان الملوك الأوروبيون يتقاضون ثمناً معلوماً ممن يلجأ لطلب معونتهم، وكان هذا الثمن قطعة من أرض الأندلس تُبذل دونما تحفظ^{٧٧}، فأخذت رقعة الأرض الأندلسية تتناقص شيئاً فشيئاً، وتسقط بأيدي الأوروبيين، وأمسى الزعماء المتنفّذون في الأندلس "نواطق بذاك لأول هاتِف بهات"^{٧٨}. أما خلفاء الموحدين في الفترة الثانية فكانوا دون خلفائهم في الفترة الأولى قوة وهيبةً واهتماماً بالرعية وشؤونها، فقد كان الخليفة المستنصر ميّلاً إلى حياة الدعة

^{٧٢} المصدر السابق، ٣٢٢.

^{٧٣} ابن الرنق أو ابن الرّيق هو الاسم الذي كان يطلقه الموحدون على ملك البرتغال.

^{٧٤} أشار المحقق إلى أن هذه القرية تقع شمال غرب إشبيلية وتبعد عنها بضع كيلومترات وتُسمى الآن (سانتي بونثي).

^{٧٥} في بعض الرسائل يصرح باسم قبيلة كومية وكان البربر القادمون من المغرب من أبنائها، ولعلّها هي نفسها المقصودة في هذا النصّ.

^{٧٦} عزاوي، أحمد، رسائل موحديّة، ٣٢٢.

^{٧٧} ينظر الشّروط المزرية التي اشترطها ملك قشتالة مقابل تقديم العون للمأمون في صراعه مع أخيه العادل في: ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (ت ٧٢٦هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢م)، ٢٥٠ - ٢٥١.

^{٧٨} وردت هذه العبارة في رسالة لابن الأبار ييكى فيها سقوط بلنسية، ينظر الرسالة في: المقرئ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن يحيى المقرئ التلمساني (٩٩٢ - ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م)، ٤: ٤٩٨.

والبطالة^{٧٩}، ولعلّ هذا الخليفة كان مشغولاً عن الدولة وشؤونها برياضة مُصارعة الثيران التي ما تزال منتشرة في شبه الجزيرة الأندلسية حتى يومنا هذا، حيثُ يذكرُ ابنُ أبي زرعِ الفاسي أن المستنصر توفي فجأةً عندما "ضربته بقرةٌ بقرنها على قلبه، فمات من حينه لأنّه كان مولعاً بالبقر والخيول"^{٨٠}.

أمّا الخليفة المأمون الذي خرّج عن أفكار محمد بن ثومرت، وقطع اسمه من الخطبة والعملّة، وتكرّر لعصمته ومهدويته^{٨١}، فقد خاض صراعاً على الحكم مع أخيه الخليفة عبد الله العادل ومع ابن أخيه الخليفة يحيى المعتصم حتى آلت إليه الخلافة، واستعان في سبيل ذلك بالقشتاليين النصارى، ويرى ابنُ أبي زرعِ الفاسي أن أيام الخليفة المأمون كانت كلها شقية "افترق الموحدون فيها فرقتين، فصارت الدولة دولتين، فكان محو دولتهم، وذهاب نخوتهم على يديه، لأنّه وضع السيف فيهم حتى أفناهم"^{٨٢}.

وفي سنة ٦٤٥هـ حاصر القشتاليون إشبيلية، فاستنجد أهلها بالخليفة علي السعيد "مخاطبات ومكاتبات يحنّ لسماعها الجماد....فما عرج على كتبهم ولا خاطبهم ولا رقى لحالمهم"^{٨٣}.

لم تقتصر حالة الخور والفساد في الفترة الثانية على الخلفاء، بل امتدت إلى الرعية، فتجاراً الناس على فعل المنكرات، حيثُ انتشرت في الأندلس بعد وفاة الخليفة المنصور المتنزّهات التي كانت تجري بها ضروب اللهو والخلاعة، ودب الفساد في القضاء، وتهاون القضاء في إقامة الحدود والعقوبات الرادعة، وقد عبّر أحد شعراء مرسية عن ذلك حين قال:

الحمدُ لله بلغنا المني لا حدّ في الخمر ولا في الغنا
قد حلّ القاضي لنا ذا وذا وإن شكرناه أحلّ الزنا^{٨٤}

^{٧٩} ابن خلدون، تاريخه، ٦: ٢٥٠.

^{٨٠} ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٣٤.

^{٨١} ينظر رسالة المأمون حول إلغاء رسوم المهدي في: عزوي، أحمد، رسائل موحّدية، ٣٨٤.

^{٨٢} ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٥٣.

^{٨٣} ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ٣٨٤.

وفي الفترة الثانية ضُعِفَتْ سُلْطَةُ الدَّوْلَةِ المُوَحَّدِيَّةِ فِي جَمِيعِ أَرْجَائِهَا وَخَاصَّةً فِي الأَنْدَلُسِ، وَقَامَ الخَارِجُونَ عَنِ المُوَحَّدِينَ بِالاستِقْلَالِ بِأَجْزَاءٍ مِنَ الأَرَاضِي الأَنْدَلُسِيَّةِ، وَنَصَّبُوا أَنْفُسَهُمْ حُكَّامًا عَلَيْهَا، وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ ابْنُ هُودٍ وَزَيَّانُ سَلِيلُ مُحَمَّدَ بْنِ مَرْدَنِيشَ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى وَمُحَمَّدُ بْنُ يُوْسُفَ بْنِ الأَحْمَرِ.

ثورة ابن هود

أَمَّا ابْنُ هُودٍ فَهُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوْسُفَ بْنِ هُودٍ الجُذَامِيُّ، سَلِيلُ مُلُوكِ سَرَقُسْطَةَ فِي عَصْرِ الطَّوَائِفِ (٤٢٢ - ٤٧٩هـ) وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ هَذَا قَدْ حَارَبَ المُوَحَّدِينَ، وَعَزَمَ عَلَى تَخْلِيصِ الأَنْدَلُسِ مِنْهُمْ وَمِنَ الأَوْرُوبِيِّينَ، وَأَعْلَنَ الدَّعْوَةَ العَبَاسِيَّةَ فِي الأَنْدَلُسِ بَعْدَمَا بَايَعَ الخَلِيفَةُ العَبَاسِيُّ، وَخَلَعَ عَلَى نَفْسِهِ الأَلْقَابَ السُّلْطَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَهْلُ بِهَا رِسَالَتُهُ، وَمِنْهَا رِسَالَةٌ كَتَبَهَا ابْنُ الجُنَّانِ عَنْ "مُجَاهِدِ الدِّينِ، سَيْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، عَبْدِ اللَّهِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ، أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، مُحَمَّدُ بْنُ هُودٍ"^{٨٥}.

كَانَ مَشْرُوعُ ابْنِ هُودٍ فِي بَدَايَةِ عَهْدِهِ يَهْدَفُ إِلَى تَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ، وَإِنْقَاذِ الأَنْدَلُسِ مِنَ الأَوْرُوبِيِّينَ الطَّامِعِينَ فِيهَا وَمِنَ المُوَحَّدِينَ الْعَاجِزِينَ عَنِ الدِّفَاعِ عَنْهَا "فَقَامَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِدَعْوَتِهِ، وَتَعَصَّبُوا مَعَهُ، وَقَاتَلُوا المُوَحَّدِينَ فِي الْبُلْدَانِ، وَحَصَرُواهُمْ فِي الْقِلَاعِ وَقَهَرُواهُمْ.... فَلَمَّا تَمَهَّدَ أَمْرُهُ أَنْشَأَ غَزْوَةً لِلْفَرَنْجِ عَلَى مَدِينَةِ مَارْدَةِ بِغَرْبِ الأَنْدَلُسِ، وَاسْتَدْعَى النَّاسَ مِنَ الْأَقْطَارِ، فَانْتَدَبَ الْخَلْقُ لَهُ بِحِدٍّ وَاجْتِهَادٍ وَخُلُوصٍ نِيَّةً"^{٨٦}.

خَاضَ ابْنُ هُودٍ صِرَاعًا مَعَ المُوَحَّدِينَ، وَاسْتَقْلَلَ بِشَرْقِيَّ الأَنْدَلُسِ، وَجَعَلَ مُرْسِيَةَ عَاصِمَةً لَهُ سَنَةَ ٥٦٢٥هـ، ثُمَّ حَارَبَ الأَوْرُوبِيِّينَ، وَلَكِنْ هَزَأَتْهُ أَمَامَهُمْ وَمَعَارَكَهُ مَعَ مُنَافِسِيهِ ابْنِ الأَحْمَرِ وَزَيَّانَ بْنِ مَرْدَنِيشَ جَعَلَتْهُ يُهَادِئُهُمْ، فَفِي رِسَالَةٍ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ وَكَتَبَهَا ابْنُ عُمَيْرَةَ عَنْ أَهْلِ شَاطِئَةِ نَجْدٍ إِشَارَةً إِلَى تِلْكَ الْمَهَادَنَةِ، حَيْثُ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مَا نَصَّهُ "وَقَدْ

^{٨٤} ابن سعيّد، أبو الحسن نور الدين علي بن موسى بن سعيد المغربي (٦١٠ - ٦٨٥هـ)، المُغْرِبُ فِي حُلَى الْمَغْرِبِ، تحقيق: شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م)، ٢: ٣٨٦.

^{٨٥} ابن المرباط، أبو العلاء محمد بن علي بن المرباط المرادي (ت ٦٦٣هـ)، زواهر الفكر وجواهر الفقر، تحقيق: حسن فليفل، رسالة دكتوراه (إسبانيا: جامعة غرناطة، كلية الفلسفة والآداب، ١٩٩٢م)، ٨٢.

^{٨٦} الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الإبرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٩، ١٩٩٣م)، ٢٣: ٢٠.

كان من جُمْلَةِ النَّظَرِ الْعَلِيِّ - أدامه الله تعالى - السَّلْمُ الْمُنْعَقِدَةُ مع ملك أَرْغُون، فإِثْنُهَا كَفَتْ عَادِيَةً ذَلِكَ الْجَانِبِ، وَاسْتَمَرَّتْ مِنْ حِفْظِ عَهْدِهَا وَحُدُودِهَا عَلَى الْوَاجِبِ^{٨٧}.

نَاصِرَ ابْنِ هُودٍ فِي بَدَايَاتِ دَعْوَتِهِ عُلَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ وَفُقَهَائُهَا، وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ عَزِيزُ بْنُ خَطَّابٍ، وَهُوَ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ مُرْسِيَّةٍ فِي الدِّينِ وَالزُّهْدِ، وَمِنْ أَمْثَرِ مُنَاصِرِي ابْنِ هُودٍ الَّذِي قَلَّدَهُ وَلايَةً مُرْسِيَّةً سَنَةَ ٥٦٢٥هـ، وَنَقِفُ عِنْدَ رِسَالَتَيْنِ مُهِمَّتَيْنِ: الْأُولَى كَتَبَهَا ابْنُ عُمَيْرَةَ إِلَى عَزِيزِ بْنِ خَطَّابٍ وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَصَفُ مُؤَثِّرٍ لِلْحَالَةِ الَّتِي كَانَ يَعْيشُهَا الْأَنْدَلُسِيُّونَ فِي ظِلِّ اخْتِلَافِ الْأَخَوَةِ وَتَأْهُبِ الْأَعْدَاءِ، وَقَدْ جَاءَ فِيهَا مَا نَصُّهُ "وَالْأَيْدِي إِلَى الْبَابِ الْكَرِيمِ تُمَدَّدُ، وَالْأَيَّامُ بِلُ السَّاعَاتِ لِيُغَيِّثَهُ نُعْدَدٌ، وَالِدَّعَوَاتُ قَدْ تَوَجَّهَتْ إِلَى جَنَابِهِ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهَا لَا تُرَدُّ، وَمَحَلُّ الْجُرَافِ مُشْفِقٌ مِنَ التَّلَافِ، عَائِدٌ بِالْإِجْمَاعِ مِنْ مَوَاقِفِ الْخِلَافِ، وَقَدْ حَدَقَتْ كُلُّ حَدَقَةٍ، وَجَدَّ الْإِسْتِصْرَاحُ بِكُلِّ طَبَقَةٍ، وَطَالَ التَّشَوُّفُ وَلَوْ إِلَى الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ عَنْ صَدَقَةٍ، كُلُّ يُرْشِدُ إِلَى الْمَسْلَكِ الْأَخْفَى، وَيَرَى الْأَمَدَ آخِذًا بِالْكَفِّ.... كَمَا أَنَّهُ لَا يُشَكُّ إِنَّ هَانَ السُّؤَالَ، وَكَانَ الْإِهْمَالُ، إِنَّهُ الْجَلَاءُ وَالْبَلَاءُ، وَالذَّاهِيَةُ الدَّهْيَاءُ، وَالْخَطْبُ الَّذِي تَبْكِي لَهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَالطَّالِبُ شَاهِبٌ^{٨٨} لِأَشَدِّ وَثْبَةٍ، مَجْهَزٌ فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ، قَدْ رَأَى خُلُوعَ الْخَيْسَةِ، وَإِمْكَانَ الْفَرِيسَةِ، فَمَا قُعُودَ الْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ وَإِدْلَالَهُ؟ وَأَيْنَ الْعَضْبُ لِلْإِسْلَامِ لَأَلِهِ؟ وَقَبْلَ الْعَطَبِ يَنْفَعُ الْغِيَاثُ، وَقَدْ لَجَّأُوا إِلَى الْحُلِّ الْأَعْلَى ضَارِعِينَ.... فَإِنْ صَدَقَ الرَّجَاءُ تَمَهَّدَتِ الْأَرْجَاءُ، وَتَمَّتِ النُّعْمَاءُ، وَإِنْ تَكُنْ الْأُخْرَى - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - بَرِيءٌ^{٨٩} الدَّاءِ، وَغَلَبَ الْأَعْدَاءُ"^{٩٠}.

أَمَّا الرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ كَتَبَهَا ابْنُ خَطَّابٍ نَفْسُهُ، وَأَرْسَلَهَا إِلَى أَحَدِ عُلَمَاءِ بَلَنْسِيَّةٍ الَّتِي كَانَ يَحْكُمُهَا حِينَئِذٍ زِيَانُ بْنُ مَرْدَنْيَشٍ، وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ شَكَأَ ابْنُ خَطَّابٍ مِنْ تَفَرُّقِ الْكَلِمَةِ، وَاخْتِلَافِ الْقُلُوبِ، وَنَوَّهَ إِلَى الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى عَاتِقِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَجْلِ جَمْعِ الْكَلِمَةِ وَتَوْحِيدِ الصِّفِّ، وَقَدْ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مَا نَصُّهُ "وَلَمْ يَثِقْ أَهْلُ مَدِينَةٍ مِنْهُمْ أَهْلَ

^{٨٧}ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٦٤.

^{٨٨}كما في الأصل، وصوبها المحقق بشاحب أو متأهب.

^{٨٩}كما في المصدر.

^{٩٠}ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٧١.

مدينة أخرى، في أن يستأثروا عنهم بما يخصهم، ولم يركنوا إلى مدبرٍ يصرفهم لتساوي عنايته بهم، هكذا يكونون عند التسالم توقُّعاً، فكيف عند ظهور استئثارٍ أو تغالبٍ أو تجاذبٍ.... ويجب على الصالحين من أهل الدين والرضا أن يسعوا في نظامها، ويدعوا إليه، ويؤكّدوا على المنفردة على الأكثر أن ترجع عن انفرادها لغير سبب ديني، ولا عدل مدني، ويعطوا المدبر والرؤساء في عدم اتباع الهوى، العائد عليهم بالخسر، المؤدّي إن داموا عليه إلى ابتئات رياستهم رأساً، وانقطاع كلمة الدين عن مدينتهم، على ידי عدو دينهم^{٩١}.

ويشير ابن خطّاب في رسالته إلى حرّص ابن هود على الأندلسيين وشكواهم من تفرّقهم، حيث يقول: "وأمر المسلمون - أيده الله تعالى - يرى أنّه لا يسعه تركهم، ولا تسوُّغ له إضاعتهم، ويكره أن يبطأ في أثناء أهل بلنسية، رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات، فتصيبهم معرةٌ بغير علم، فيتردّد ويرجع إلى الدُّعاء والضراعة إلى الله تعالى في رفع الفتن وجمع الكلمة، ويكي بمحضري بُكاءٍ مُبرِّحاً، رافّةً بالمؤمنين، وإشفافاً على ضعفاء المسلمين^{٩٢}".

ثم يدعو ابن خطّاب من يُراسلُه إلى دعوة أبي جميل زيّان بن مردنّيش إلى الانضمام لابن هود، والانضواء تحت راية الخلافة العباسية، لأنّ ذلك السبيل الوحيد لإنقاذ ما تبقى من الأندلس "والله إني لأنصح الناس للرئيس أبي جميل، وأدّلهم له على كلّ جميل، وأسعاهم في أن ينال في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وأنت بكذلك يُوجب عليك الدين، فتعال تتعاون على نصيحته، فقد جعله الله تعالى ممّن يُحب أهل الصّلاح والدين، ويأخذ في أموره أخذ المهتدين، فتلطّف في توصيل الموعدة إليه، واعرض نصيحتي عليه، فعسى الله تعالى أن ينظّم شمل المسلمين على يديه^{٩٣}".

لم تلق دعوة عزيز بن خطّاب المخلصة تجاوباً، إذ أصرّ زيّان بن مردنّيش على استقلاله، وأبى الانضمام لحركة ابن هود، ودارت بينهما معارك استمرت حتى بعد مقتل

^{٩١} المصدر السابق، ٦٦.

^{٩٢} المصدر السابق، ٦٧.

^{٩٣} المصدر السابق، ٧٠.

ابن هُود سنة ٦٣٥هـ^{٩٤}، حيثُ انتهى الصِّراعُ بين الطرفين بسقوطِ بِلنسيةِ قاعِدَةِ زِيَّان بن مَرْدَنيش بأيدي الأوروبيين، وبدخوله مَرْسية سنة ٦٣٦هـ وقضائه على حَرَكَةِ ابنِ هُود فيها، وكان زِيَّان قد أعلن البيعةَ لأبي زكرياء أميرِ الدَّولة الحفصية في تُونس، وفي رسالةٍ صَدَرَتْ عنه إلى الأمير الحفصيّ نَجِدُ أثراً لتلك البيعة، حيثُ جاءَ في تلك الرسالة التي كَتَبَهَا ابن الجَنَّان بأنَّ زِيَّان بن مَرْدَنيش "يَسْتَصِيحُ بِهَدْيِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ وَيَسْتَنْيرُ، وَيَسْتَمْنَحُ اللَّهَ تَعَالَى تَوْفِيقاً لِمُوَافَقَةِ مَا تَأْمُرُ بِهِ وَتُنْشِرُ، وَقَدْ ائْتَمَرَ ائْتِمَارَ التَّسْلِيمِ وَالانْقِيَادِ، لَمَّا أَمَرَهُ بِهِ مَوْلَاهُ مِنَ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، عَارِفاً قَدْرَ الرَّأْيِ الْجَمِيلِ فِيهِ وَالِاعْتِقَادِ، عَاكِفاً عَلَى الْمُرَاسِمِ الْكَرِيمَةِ فِي كُلِّ الْقَصْدِ وَالِاعْتِمَادِ، بِإِذِلَّا مُسْتَطَاعَهُ فِي الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، سَائِلاً اللَّهَ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى سَبِيلِ السَّدَادِ وَالرَّشَادِ"^{٩٥}.

لم يُعَثَّرْ على رسائلٍ في هذه الفَتْرَةِ (قبل سنة ٦٦٨هـ) تَعَلَّقُ بِابنِ الأَحْمَرِ، وَلَكِنْ لَا يُسْتَبَعَدُ أَنْ يَكُونَ ابْنُ هُودَ وَأَنْصَارُهُ قَدْ خَاطَبُوهُ بِمِثْلِ مَا خُوطِبَ بِهِ زِيَّان بن مَرْدَنيش، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعَوَاتِ الْوَحْدَةِ، حَيْثُ أَعَمَّتِ الْمَنَافَسَاتُ الشَّخْصِيَّةُ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا ابْنُ خَطَّابٍ فِي رِسَالَتِهِ السَّابِقَةِ أَبْصَارَ الْمُتَنَفِّذِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ عَنِ الْمَخَاطِرِ الَّتِي كَانَتْ تُهَدِّدُهَا، فَتَسَارَعَ تَهَاوِي الْمَدَنِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَسَقُوطُهَا بِيَدِ الْمَمَالِكِ الْأُورُوبِيَّةِ وَخَاصَّةً مَمْلَكَةِ قِشْتَالَةِ وَأَرْغُونِ، فَسَقَطَتْ بِلَنسِيَّةُ سنة ٦٣٦هـ بِيَدِ الْأَرْغُونِيِّينَ، وَبَعْدَمَا سَيَّمَتْ مَرْسيةَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَمِنَ الْفُرْقَاءِ الَّذِينَ حَكَّمُوهَا بَعْدَهُمْ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّهُمْ جَمِيعُهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ حِمَايَتِهَا مِنَ الشُّرُورِ الْحَدِيقَةِ بِهَا، رَأَى أَهْلُهَا أَنْ يَعْقُدُوا اتِّفَاقاً مَعَ مَلِكِ قِشْتَالَةِ سنة ٦٤٠هـ يَقْضِي بِأَنْ يَدْخُلُوا فِي طَاعَتِهِ، وَيُؤَدُّوا لَهُ الْجِزْيَةَ عَلَى أَنْ يَقُومَ الْمَلِكُ الْقِشْتَالِيُّ بِحِمَايَتِهِمْ مِنْ بَطْشِ مَمْلَكَةِ أَرْغُونِ، وَلَعَلَّ لِهَذَا الْإِتِّفَاقِ الْغَرِيبِ مَا يُبْرِرُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي ضَاقَتْ بِهِ الدُّنْيَا فِي وَجْهِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ عَامَّةً وَأَهْلِ مَرْسيةِ خَاصَّةً بَعْدَمَا فَقَدُوا التَّصِيرَ الْإِسْلَامِيَّ الْقَوِيَّ الْقَادِرَ عَلَى حِمَايَتِهِمْ، وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ أَمْرَانِ دَفَعَا أَهْلَ مَرْسيةَ إِلَى هَذَا الْإِتِّفَاقِ الْغَرِيبِ:

^{٩٤} قتل ابن هود على يد نائبه عبد الله الرميحي سنة ٦٣٥هـ، وتولى الأمر بعده ابنه محمد بن محمد بن يوسف ولقب نفسه الواثق بالله، ولكن أهل مرسية خلعوه بعد أشهر قليلة، واستدعوا ابن مردنيش لحكمهم. ينظر: ابن الخطيب، ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م)، ٢: ١٣١.

^{٩٥} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٦١.

الأول أن أرغون كانت أشدَّ بطشاً في الأندلسيين من قشتالة، ويدُلُّ على ذلك السُّقوط الدَّامي لجزيرة ميورقة بيد الأرغونيين سنة ٥٦٢٨هـ، حيثُ اقْتَحَمَ الأرغونيون الجزيرة ورفضوا السَّماح لأهلها بمغادرتها، وقتلوا واليها وأربعةً وعشرين ألفاً من أهلها^{٩٦}، أمَّا القِشتاليون فقد سَمَحُوا لأهل قُرْطُبة بمغادرتها عندما سَقَطَتْ بأيديهم سنة ٥٦٣٣هـ، ولم يَسْفِكُوا فيها الدِّماء بالقَدَرِ الذي قام به الأرغونيون في ميورقة، وقد تكون هذه الموازنة المؤسفة بين العدوين هي التي دَفَعَتْ أهلَ مرسية لاختيار أهون الشرَّين.

أمَّا الأمرُ الثاني فهو أن هذا الاتفاقَ الغريب لم يكن سَابِقَةً استحدثته أهلُ مرسية، بل سَبَقَهُم به حاكمُ جزيرة منورقة سعيد بن حَكَم بعدما سَقَطَتْ ميورقة وحذا أهلُ مرسية حذوه حيثُ "تَصَالَحَ مع النَّصارى على ضريبة معلومة واشترط أن لا يدخلَ جزيرته أحدٌ من النَّصارى"^{٩٧} وبذلك أنقذَ جزيرته من المصير الذي حلَّ بميورقة، كما ازدهرت الجزيرة في ظلِّ ذلك الاتفاقِ ازدهاراً لم تشهده من قبل، وأصبحت قبلةً للعلماء والأدباء، وقد جُمِعَتْ بعضُ الأعمالِ الشعرية والنثرية لأولئك الوافدين على منورقة إضافةً إلى بعضِ رسائلِ ابن حَكَم في كتابِ لُبَابِ الألباب من نَظْمِ الشعراء ونَثْرِ الكُتَّاب^{٩٨}، وتُطَالِعُنَا في هذا الكتاب رسالةُ كَتَبَهَا ابن حَكَم إلى أبي زكرياء أمير الحفصيين في تُونِسْ مُهَنِّئاً إِيَّاه بعدما قَضَى على تَمَرْدٍ استهدف حُكْمَهُ، وَنَسْتَشِفُّ مِنْ تِلْكَ الرَّسَالَةِ أَنَّ سَعِيداً بن حَكَم كان يَأْمَلُ أَنْ تَتَبَدَّلَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ خَارِجَ الْأَنْدَلُسِ، وَيَقْدِمُوا لِإِنْقَاذِهَا وَتَخْلِصِ أَهْلِهَا مِنْ قُبُودِ الْإِتِّفَاقِيَّاتِ الْمَذَلَّةِ الَّتِي عَقَدُوهَا مَعَ الْأَوْرُوبِيِّينَ، وَجَاءَ فِي تِلْكَ الرَّسَالَةِ مَا نَصُّهُ "وهذا الفتح — إن شاء الله — مَقْدَمَةٌ نَتِيجَتُهَا قَادِمَاتُ الْفَتْوحِ، وَمُقَدِّمَةٌ تَمَهِّرُ بَيْنَ يَدَيِ مُعَسِّكَرِ النَّصْرِ الْعَزِيزِ الْمُنُوحِ، وَمُبَشِّرٌ قَائِمٌ عَلَى قَدَمِ صِدْقٍ لِسَعَادَةِ الْفَتْحِ الْمَفْتُوحِ"^{٩٩}.

^{٩٦} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٧١. وقد استقى المقرئ معلوماته من كتاب تاريخ ميورقة لابن عميرة الذي لم يتسنَّ للباحث الاطلاع عليه.

^{٩٧} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٧١.

^{٩٨} مؤلف مجهول، لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكُتَّاب، تحقيق: حسن فليفل (فلسطين، جامعة الخليل، نسخة الكترونية جاهزة للطباعة أفاد منها الباحث بعد الحصول على موافقة المحقق).

^{٩٩} المصدر السابق، ٨٠.

ولكنَّ أملَ سعيد بن حَكَم لم يَتَحَقَّق، حيثُ لم تَأْتِ الجيوش الإسلاميَّة من خارج الأندلس لِإنقاذها، ولم يَلتَزِم الأوروبيون بالاتِّفاقات التي عَقَدُوها مع الأندلسيِّين، فَسَقَطَتْ مُثَوِّرة بيد الأَرغونِيِّين بعد وفاة ابن حَكَم مُباشرة سنة ٥٦٨٦هـ، وأُخرجُوا مَنْ كانَ فيها مِن سُكَّانها المسلمين.

سَاح الأندلسيُّون المُشرَدُّون في الأرض وهم في أسوئِ حَالٍ مِنَ الخوف والحيرة وَتَقَطَّعَ الأواصِر، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُّ وَجْهَهُ تَجَاهَ المَدَن الأندلسيَّة التي لم تَسْقُطْ بعدُ بِأَيْدِي الأورُوبيِّين، وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّجَهَ نَحْوَ المَغْرِب، وَكانَ الواصِلُونَ مِنْهُمْ إلى أرضِ آمِنَةٍ يَشْرَعُونَ بِالْبَحْثِ عَن أَقاربِهِمْ مِنْ أَجْلِ اسْتِقْدَامِهِمْ إِلَيْها، ففِي رِسالةٍ كَتَبها ابن عُميرة مِنْ رِبَاطِ الفَتْح سنة ٥٦٤٠هـ نَجَدُ تَعْبِيراً واضِحاً عَن ذَلِكَ، حَيْثُ يَسْعَى ابنُ عُميرة فِي تِلْكَ الرِّسالةِ إلى جَمْعِ شَمْلِ عائِلَتِهِ، وَحَثِّ المُتَبَقِّينَ مِنْها فِي الأندلس عَلى القُدومِ إلى المَغْرِب، وَجاءَ فِي تِلْكَ الرِّسالةِ ما نَصُّهُ "أَخْبِرْ سَيِّدِي عَن ابْنِي الأُخْتِ وَسَكَناهُمَا، ويا شَوْقِي لَأَنْ أَرَاهُمَا، وَقَدْ قُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ يَتَأَتَّى لهما هُنَا كُلُّ عَيْشٍ هَنِيٍّ، وَبالِ رَخيٍّ، فَمَا هَذَا القُعُودُ؟ وَالْفائِتُ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ لا يَعُودُ، وَأَحَدُ ابْنِي الحَسَنِ الَّذِي ذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَتَظَلَّمُ مِنَ الزَّمنِ، وَيَحْرِصُ عَلى الظَّنِّ، إِنَّ عَوَلَ فَها هُنَا أَيضاً لَهُ مَرادٌ وَمُرادٌ، وَعندي لَهُ مِنْ كُلِّ ما يُحِبُّ إِسعادٌ"١٠٠.

تُميِّزُ العَصْرُ المُوَحِّدِيَّ بِكَثْرَةِ الرِّسائِلِ، وَكانتْ جُلَّ الرِّسائِلِ التي وَصَلَتْنا كامِلَةً ومُؤرَّخَةً، وَشَهِدَتْ عَلى الأَحداثِ التي مَرَّتْ بالأندلس سِواءً فِي فَترةِ الصُّعُودِ الأوَّلِي أَمْ فِي فَترةِ الهِبوْطِ الثَّانِيَةِ، لِذا كانَتِ تِلْكَ الرِّسائِلُ وَثائِقَ تَاريخيَّةً وَمَصْدَراً مُهمَّاً وَموثوقاً مِنَ المِصادرِ التي يَنبَغِي الاطِّلاعُ عَلَيْها فِي دِراسةِ التَّاريخِ الأندلسيِّ خِلالَ فَترةٍ طَويلةٍ مِنْ فَتراتِهِ.

١٠٠ ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٨٥.

الصورة الفنية مفهومها وأطوار تكوينها

ويتكوّن من فصلين:

الفصل الأول: مفهوم الصورة الفنيّة

الفصل الثاني: أطوار تكوين الصورة الفنيّة

الفصل الأول

مفهوم الصورة الغنيّة

المفهوم اللغويّ

قبل الخوض بالمفهوم الاصطلاحي للصورة، يجدر بنا معرفة معناها اللغوي، حيث نجد في المعاجم العربية معاني عديدة للصورة منها: الشكل والنوع والصفة^{١٠١}، "نقول: تصوّرتُ الشيء أي توهمتُ صورته فتصوّر لي، والتّصاویر التّماثيل"^{١٠٢}، وشكّل الشيء صورته المحسوسة والمتوهّمة^{١٠٣}، ووردت كلمة صورة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ شَاءَ مَا صُوِّرَ أَيُّ فِي﴾^{١٠٤} أي يخلق الله الإنسان "على شكل حسنٍ مُستقيم معتدل تامّ، حسن المنظر والهيئة"^{١٠٥} وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة عن الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - ".....فكلّ من يدخل الجنّة على صورة آدم"^{١٠٦} أي على شكله وهيئته، "وصورة المسألة أو الأمر صِفَتُها، يُقال: هذا الأمر على ثلاث صور، وصورة الشيء ماهيته المجردة وخیاله في الذّهن أو العقل"^{١٠٧}.

^{١٠١} الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي (ت ٥٨١٧هـ)، القاموس المحيط (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٣٤م)، مادة صَوْر.

^{١٠٢} الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح في اللغة (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠م) مادة صَوْر.

^{١٠٣} ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٩٩٠م)، مادة شَكَلَ.

^{١٠٤} الانفطار، آية ٨

^{١٠٥} ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن الكريم (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، ط ٣، ١٩٦٩م) ٤: ٤٨٢.

^{١٠٦} البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري (بيروت: دار الجليل، الطبعة السلطانية، ١٣١٣هـ)، ٨: ٦٢.

^{١٠٧} أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط (بيروت: دار الأمواج، ط ٢، ١٩٨٧م)، مادة صَوْر.

عَرَفَ العربُ في تراثهم الأدبيِّ القديم (الصُّورة) بالمفهوم الفنّي معنًى، ولكنهم لم يستخدموها لفظاً، وكانت الصُّورة عندهم مَقْصُورةً على الجانب البيانيِّ وخاصةً التّشبيه، فهذا بشّار بن برد يقول: "لم أزلْ مُنْذُ سَمِعْتُ امرأَ القيس في تشبيهه شيئين بشيئين في بيتٍ واحدٍ حيثُ يقول:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرَهَا الْعِتَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

أَعْمَلُ نَفْسِي فِي تَشْبِيهِ شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ فِي بَيْتٍ حَتَّى قُلْتُ:

كَأَنَّ مَثَارَ التَّنْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ"^{١٠٨}

مراحل تحديد المفهوم الاصطلاحي للصُّورة في التراث العربي القديم

على الرّغم من وجود الكثير من ضروب التّصوير في الشّعر العربيّ في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ، وعلى الرّغم من وجود ملاحظاتٍ نقديةٍ عُنيَتْ بالصُّورة في ذاك العصرين فإنّ الحضور اللفظيّ لمصطلح الصُّورة الفنّية لم يكن مُستخدماً كما هو عليه الآن، وقد بدأ الاهتمام بهذا المصطلح منذُ العصر العباسيّ، ومَرَّ ذلك بمراحلٍ عديدةٍ شكّلت كلُّ مرحلةٍ منها مُنْعَظاً مُهمّاً في بلورة المفهوم أو المعنى الاصطلاحي للصُّورة، ويمكن إيجاز تلك المراحل بالتّالي:

المرحلة الأولى: مرحلة الجاحظ

بدأ في هذه المرحلة الاهتمام بالصُّورة بمفهومها الفنّي، حيث تمّ الفصل بين المعنى واللفظ، وجَرَتْ المفاضلة بينهما، وكانت آراء العلماء والنّقاد مُتباينة، فمنهم مَنْ تَحَيَّرَ للفظ وقَدّمه على المعنى، ومنهم مَنْ كان رأيُه مخالفاً، ويُعد الجاحظ (ت ٥٢٥هـ) أشهرَ أعلام هذه المرحلة، فكان أوّل مَنْ استخدم مُصطلح التّصوير، في مجال الشّعر حين قال: "إنّما الشّعر

^{١٠٨}الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي الأصفهاني (ت ٥٣٥٦هـ)، الأغانى، (بيروت، دار الكتب، مؤسسة جمال للطباعة، د.ت) ١٩٦:٣.

صناعة، وضربٌ من التسيج، وجنسٌ من التصوير"^{١٠٩}، كما فصلَ بين اللفظ والمعنى، وقدم اللفظ لأنَّ "المعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وأمَّا الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج"^{١١٠}.

وعلى خطواتِ الجاحظ سارَ قدامة بن جعفر (ت ٥٣٣٧هـ) الذي استخدم مُصطلح الصورة أيضاً في مجال الشعر، وظلَّ فاصلاً بين اللفظ والمعنى ورأى أنَّ "المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيه كالصورة، كما يوجد في كلِّ صناعةٍ من إنَّه لا بدَّ من شيء موضوعٍ يقبل تأثير الصورة فيها مثل الخشب للتجارة والفضة للصياغة"^{١١١}.

تأثر قدامة بالجاحظ، كما تأثر بالفلسفة اليونانية القديمة وخاصة فلسفة أرسطو التي فصلت بين الشكل والمهيولى (المادة)، ومثّلت على ذلك بالطاولة التي مادّتها الخشب والغراء، وصورتها التركيب المخصوص للخشب والغراء حتى يظهرَ في شكلٍ مُعين^{١١٢}. ونلاحظُ من آراء الجاحظ وقدامة أنَّ كليهما أرادا معنى واحداً للتصوير والصورة وهو الشكل أو الهيئة الخارجية التي يكون عليها النصّ الأدبي.

المرحلة الثانية: مرحلة الرّماني

جرى في هذه المرحلة تطويرٌ على فكرة التصوير الأدبي، وجاء هذا التطوير من ناحيتين: الرّبط بين التصوير والحسّ، وتطبيق ذلك على تشبيهات القرآن الكريم واستعاراته، ويُعد الرّماني (ت ٥٣٨٦هـ) رائد هذه المرحلة، فحينما عقّب على الآية الكريمة ﴿النُّورُ إِلَى الظُّلُمَاتِ مِنَ النَّاسِ لِيُخْرِجَ﴾^{١١٣} قال:

^{١٠٩}الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناي الملقّب بالجاحظ (ت ٥٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت)، ١٣٢:٢.

^{١١٠}المصدر السابق، ٣: ١٣١.

^{١١١}ابن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي (ت ٥٦٢٠هـ)، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٩٦٣م)، ١٤.

^{١١٢}البطل، علي، الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري: دراسة في أصولها وتطورها، (بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٢م)، ١٥.

^{١١٣}إبراهيم، آية ١

"والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يُدرك بالأبصار"^{١١٤}، وعندما تناول وجوه التشبيه جعلها أربعة، وكان الحس حاضراً في ذلك التقسيم، فالتشبيه يهدفُ إلى إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، وإخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، وإخراج ما لا يُعلم بالبدية إلى ما يعلم بالبدية، وإخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة"^{١١٥}.

ويجد الباحث رأياً يكاد يكون متشابهاً عند أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، ويرى أن الشواهد القرآنية التي استشهاداً بها هي نفسها تقريباً، ولأنَّ الرجلين كانا معاصرين لبعضهما، وعاشا في فترة واحدة، فيصعبُ الحكمُ في أيهما أثر في الآخر، على أي حال عقب العسكري على الآية الكريمة ﴿عُنُقُكَ إِلَى مَغْلُولَةٍ يُدْكُ تَجْعَلُ وَلَا﴾^{١١٦} قائلاً: "حقيقته لا تكون مُمْسِكاً، والاستعارة أبلغ لأنَّ الغلَّ مُشاهد، والإمساك غيرُ مُشاهد، فصور له قُبْح صورة المغلول ليستدلَّ به على قُبْح الإمساك"^{١١٧} فالناحية البصريَّة عنده معيارٌ لجمال الاستعارة وذلك لأنَّها تُخرج "ما لا يرى إلى ما يرى"^{١١٨}.

لم يُشغل العسكري نفسه في قضية التفاضل بين اللفظ والمعنى، فاعتبر أنَّ "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنَّما نراها بعيون القلوب، فإذا قدَّمتَ منها مؤخراً أو أخرتَ مُقدِّماً أفسدتَ الصورة وغيَّرتَ المعنى"^{١١٩}.

ونرى أنَّ مفهوم التصوير قد رُبط عند الرَّمَّانِّ والعسكريِّ بالحسِّ ولا سيَّما الحسَّ البصريِّ، كما نرى عندهما تركيزاً على الجانب البيانيِّ وخاصة التشبيه والاستعارة في الشواهد القرآنية الكريمة.

^{١١٤} الرَّمَّانِّي، أبو الحسن علي بن عيسى الرَّمَّانِّي (ت ٣٨٦هـ)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، (القاهرة: دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٨م)، ٨٥.

^{١١٥} المصدر السابق، ٧٤.

^{١١٦} الإسراء، آية ٢٩.

^{١١٧} العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قمحية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٧٤م)، ٣٠٣.

^{١١٨} المصدر السابق، ٢٩٩.

^{١١٩} المصدر السابق، ١٦٧ وقد نَسَبَ العسكري هذا القول إلى العتابي.

المرحلة الثالثة: مرحلة الجرجاني

تناول عبدُ القاهر الجرجاني (ت ٥٤٧١هـ) موضوعَ الصُّورةِ الفنيّةِ بعمقٍ لم يُسبقَ إليه، فقد وضعَ مفهومًا شاملاً وناضحاً للصُّورةِ في كتابه دلائل الإعجاز، وتناول عناصرَ الصُّورةِ وأدواتها وتشكيلاهما في كتابه أسرار البلاغة.

وضع الجرجاني نظريةَ النّظم^{١٢٠} (الصّياعة) وتتلخّصُ هذه النّظريّةُ في أنّ الشّكلَ والمضمونَ مُرتبطان لا ينفصلان، فالنّظمُ يُبرز المعنى ويُبرز التّصوير في آنٍ واحد، وأيّ تغيير في النّظم يتبعه حُكماً تغييرٌ في التّصوير، ولا يُمكن التّظر في التّصوير إلّا من خلال النّظم الذي يوضّح التّصوير كما يوضّح المعنى، واعتبر أنّ "سبيل الكلام التّصوير والصّياعة، وأنّ سبيل المعنى الذي يُعبر عنه سبيل الشّيء الذي يقعُ التّصوير والصّوغ فيه"^{١٢١}، ومثّل الجرجاني على ذلك بالأدوات التي تُصاغ من المعادن "فكما أنّ مُحالاً إذا أردتَ التّظر في صوغ الخاتم وفي جودّة العمل ورداءته أن تنظرَ إلى الفضةِ الحاملةِ لتلك الصّورة أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل، وتلك الصّنعَة، كذلك مُحالٌ إذا أردتَ أن تعرف مكان الفضل والمزيّة في الكلام أن تنظر في مجرد معناه"^{١٢٢}.

كما ابتكر الجرجاني مُصطلحَ (صُورة المعنى) عندما اعتبر أنّ التّصوير هو الهيئة التي تتشكّل فيها المعاني سواءً كانت حقيقيّةً أم مجازيّةً، وإنّ جمال التّراكيب اللغويّة وخاصّة التّشبيه والاستعارة والكناية لا يعود لألفاظها المختارة وإنّما لمقدرتها على التّعبير عن صور المعاني.^{١٢٣}

^{١٢٠} السّحّ ابن طباطبا إلى هذه النظرية قبل الجرجاني حين قال (فإذا أرادَ الشّاعر بناءَ قصيدةٍ مخّض المعنى الذي يُريد بناء الشّعْر عليه في فكره نثراً، وأعدّه له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلسل له القول عليه، فإذا اتّفق له بيتٌ يُشاكل المعنى الذي يرويه أثبتّه، وأعملَ فكره في شغل القوافي بما يقتضيه من المعاني) ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الحسني العلوي (ت ٥٤٢٢هـ)، عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد السّاتر (بيروت: دار الكتب العلميّة، ط ٢، ٢٠٠٥م)، ١١.

^{١٢١} الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن الجرجاني (ت ٥٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، (القاهرة: مطبعة المدني، ط ٣، ١٩٩٢م)، ٢٥٤.

^{١٢٢} المصدر السابق، ٢٥٥.

^{١٢٣} المصدر السابق، ٢٦٤-٢٦٥.

وعلى الرغم من أن اهتمام الجرجاني لم يَنْحصر بالجانب البياني بل تعداه إلى صيغ أسلوبية أخرى رأى أن لها تأثيراً على المعنى كالتقديم والتأخير والقصر وغيرها فإنه عدّ البيان أهم مكونات الصورة حيث قال عن التشابيه والاستعارات "هذه أصول كبيرة كان جُلّ محاسن الكلام متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرفاتها، وأقطارٌ تحيط بها من جهاتها"^{١٢٤}.

لم يكتفِ الجرجاني بربط الصورة بالحواس بل تعدى ذلك إلى إعطائها بُعداً عقلياً وقال في ذلك: "واعلم أن قولنا صورة إنما هو تمثيلٌ وقياسٌ لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا"^{١٢٥}، وقسم الصورة إلى قسمين: صورة عقلية تعتمد على العقل، وتكون من صميم الاستعارة، كاستعارة التور للبيان، والصراط للدين، وما شابه ذلك، وصورة حسية تعتمد على الحواس كالبصر والسمع واللمس وغيرها.^{١٢٦}

وأشار الجرجاني إلى أهمية الصورة الحسية "لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يَفْضَلُ المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة في غاية التمام"^{١٢٧}، كما أشار إلى أثر الصورة في النفس، ووازن بين التعبير بالحقيقة الذي "لا ترى له في نفسك هزة"^{١٢٨} والتعبير بالصورة الذي "يملاء نفسك سروراً"^{١٢٩}، لأنّ التعبير بالصورة يحتاج من المتلقي إلى بعض عناء لاكتشاف المعاني "والشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف"^{١٣٠}.

^{١٢٤} الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، شرح: محمد عبد العزيز خفاجي (بيروت: دار الجليل، ١٩٩١م)، ٢٠.

^{١٢٥} الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٥٠٨.

^{١٢٦} الجرجاني، أسرار البلاغة، ٤٩.

^{١٢٧} المصدر السابق، ١٠٢.

^{١٢٨} المصدر السابق، ١٠٨.

^{١٢٩} المصدر السابق، ١٠٨.

^{١٣٠} المصدر السابق، ١١٨.

وأرجع الجرجاني قوة تأثير الصورة إلى أمرين هما: الغرابة حيث إنّ النفوس تميلُ إلى الشّيء "إذا ظهرَ من مكانٍ لم يُعهدَ ظهورُهُ منه، وخرجَ من موضعٍ ليسَ بمعدنٍ له" ^{١٣١}، والتأليف بين المتباعدات لأنّ "التّباعدَ بين الشّيئين كلما كانَ أشدَّ كانَ إلى التّفوس أعجب، وكانت النفوسُ له أطرب" ^{١٣٢}.

لقد خطا الجرجانيّ بالصّورة الفنّيّة خطواتٍ واسعةً إلى الأمام، فأفهمى الجدلَ بين النّقاد حول قضية اللفظ والمعنى، ونظر إلى الصّورة ومفهومها وأنواعها وعناصرها وتشكيلاتها نظرةً عميقةً شاملةً، كما التفتَ إلى دلالتها فكرياً ونفسياً، ولو أنّ الجرجانيّ كانَ لَدَيهِ جُرأةٌ كبيرةٌ ^{١٣٣}، وتحرّرَ من قضيّة اللفظ والمعنى، وأعطى الخيالَ حقّه الذي يستحق، لكانتْ أفكارُهُ ناضجةً، وما زاد عليها اللاحقونَ شيئاً ذا قيمة.

وسار الزمخشري (ت ٥٥٣٨هـ) على نهج الجرجاني، ولكن دون أن يبلغَ مَبْلَغَهُ، فقد حاولَ إبراز المعاني الذهنيّة لآياتِ القرآنِ الكريمِ بصورةٍ حسّيّةٍ، فعندما فسّر الآيةَ الكريميّة ﴿وَالْأَرْضَ بِمِيزَانٍ مَطْوِيَةً وَالسَّمَوَاتِ الْقَيْمَةَ يَوْمَ قَبَضْتُهُ جَمِيعًا﴾ ^{١٣٤} بيّن أن الغاية من الآية الكريميّة تصوير عَظْمَةِ اللَّهِ تعالى بصُورةٍ حسّيّةٍ "من غير ذهابٍ بالقبضة ولا باليمين إلى جهةٍ حقيقيّةٍ أو جهةٍ مجازيّةٍ" ^{١٣٥}.

كما كان للزمخشري آراءٌ متقدمةٌ في موضوع الخيال، وطبّق تلك الآراء على آيات القرآن الكريم بشكلٍ جريءٍ.

^{١٣١} المصدر السابق، ١١١.

^{١٣٢} المصدر السابق، ١٠٩.

^{١٣٣} كان الجرجاني هائلاً في التعبير عن أفكاره، حريصاً على عدم إثارة حفيظة معاصريه، ويدل على ذلك قوله: (وليس العبارة بالصورة شيئاً نحن ابتدعناه، فينكره مُنكر، بل هو مستعملٌ مشهورٌ في كلام العرب، ويكفيك قولُ الجاحظ: إنّما الشّعر صياغة، وضربٌ من التّصوير) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٥٠٨.

^{١٣٤} الزمزم، ٦٧.

^{١٣٥} الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٥٣٨هـ)، الكشف عن حقائق التّزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: محمد العدوي (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ٤: ١٤٦.

المرحلة الرابعة: مرحلة حازم القرطاجني

كان حازمُ القرطاجنيّ (ت ٥٦٨٤هـ) من الأفذاذ الذين كان لأرائهم في موضوع الصّورة الفنّية أهمية كبيرة، وتمثّل اهتمامه في هذا الموضوع في محاور ثلاثة: فقد أقامَ علاقةً بين الصّورة الفنّية وبين الجانب التّفنّيّ للأديب، كما اهتمّ بتأثير الصّورة في نفسيّة المتلقي، إضافةً إلى اهتمامه بالخيال الذي سيأتي الحديثُ عنه في الصفحات القادمة.

رأى حازمُ القرطاجنيّ أنّ الشّاعر يُدرك المعنى بالحسّ، ويحتزل له صورةً في ذهنه، فإن أدرك معنًى مشابهاً استدعى تلك الصّور المختزلة في الذّهن، ثمّ عبّر عنها بألفاظٍ تستثير تلك الصّور في ذهن المتلقي وفهمه حيث يقول في ذلك: "إنّ المعاني هي الصّور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكلّ شيء له وجودٌ خارج الذّهن، فإنّه إذا أدرك حصلت له صورةٌ في الذّهن، تُطابق ما أدركه منه، فإذا عبّر عن تلك الصّورة الذّهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظَ المعبرَ به هيئة تلك الصّور في إفهام السّامعين وأذهانهم"^{١٣٦}. والأغراضُ الشّعريّة ينبغي التعبير عنها بالتّصوير الحسيّ، فيستعيد المتلقي بفعل المخيلة (الذاكرة) الصّور الحسيّة المُعبّر عنها، وهذه الصّور تثير الانفعال التّفنّيّ لديه، وهذا ما أطلق عليه القرطاجنيّ مصطلح (التّخييل).

وقدّم القرطاجنيّ المعاني التي تُدرك بالحسّ على تلك التي تُدرك بالذّهن لأنّ "المعاني التي تتعلّق بإدراك الحسّ هي التي تدورُ عليها مقاصدُ الشّعراء"^{١٣٧}. أمّا المعاني الذّهنيّة "فليسَ لمقاصدِ الشّعْرِ حولها مدار"^{١٣٨}.

^{١٣٦} القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن القرطاجني (ت ٥٦٨٤هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم:

محمد الحبيب بن خوجه (تونس: دار تونس، ١٩٦٦م)، ١٩.

^{١٣٧} المصدر السابق، ٢٩.

^{١٣٨} المصدر السابق، ٢٩.

المرحلة الخامسة: مرحلة الخطيب القزويني

عَدَّ الخطيبُ القزويني (ت ٥٧٣٩هـ) البلاغةَ في المتكلم "مَلَكَةً يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى تَأْلِيفِ كَلَامٍ بَلِيعٍ"^{١٣٩}، وعند النَّظَرِ في كتابي القزوينيَّ الإيضاح والتلخيص نجدُ أنَّه استخدمَ مُصطلحَ البلاغةِ بِكثرةٍ كما استخدمَ مُصطلحَ الصَّورةِ، ولعلَّ القزويني أرادَ بالمصطلحين معنًى واحداً، فالْبلاغةُ حسبَ رأيه هي تَكْوِينُ الصَّورةِ، ويظهر ذلكَ في تعريفه البلاغةَ التي اعتبرها "صفةً في الكلام والمتكلم فقط، فالْبلاغةُ في الكلام مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته وهو مختلف، فإنَّ مقاماتِ الكلام متفاوتةٌ ولكلِّ كلمةٍ مع صاحبها مقامٌ، وارتفاعُ شأنِ الكلام في الحُسْنِ والقبول بمطابقتها للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدمها، فمقتضى الحال هو الاعتبارُ المناسب"^{١٤٠}.

إنَّ البلاغةَ أو لنقل الصَّورةَ - كما يتضح من تعريف القزويني - تنحصر بالعمل الأدبي وبالأديب على حدٍ سواء، وجودُها مرتبطةٌ بالفصاحة من ناحية، وبمطابقتها لمقتضى الحال من ناحيةٍ أخرى، وهذا الرأي يستدعي من ذاكرتنا رأي عبد القادر الجرجاني ونظرية النظم التي ابتدَعها.

لكن ليس تعريف البلاغة هو الذي جعل القزويني يَتَّبِعُ مكاناً بين أولئك الذين كان لهم جهودٌ مميّزةٌ في دراسة الصَّورة وتطوير مفهومها، وإنَّما الفضلُ يعودُ إلى تقسيمه البلاغةَ في فروعٍ رئيسةٍ ثلاثةٍ هي علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، حيثُ كان لهذا التَّقْسِيمِ أهميةٌ كبيرةٌ في دراسة البلاغة عامّةً، وفي تتبع الصَّورة في العمل الأدبي بشكلٍ خاص.

بعد القزويني لا نكادُ نجدُ في موروثة النّقدِ البلاغيِّ رأياً ذا قيمةٍ يتعلّقُ بموضوع الصَّورة الفنّية، كما لا نجدُ متابعةً عند المتأخرين لآراء مَنْ سبقوهم وخاصة آراء الجرجاني والقرطاجي، ولو أنَّ العلماء المتأخرين تابعوا جهودَ هذين العالمين، وبنوا عليها،

^{١٣٩} القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٥٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق: عبد

المنعم الخفاجي (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٥م)، ٨٠:١.

^{١٤٠} المصدر السابق، ٨٠:١.

لتوصلوا إلى نتائج متقدمة لا تقل أهمية عن تلك التي توصل إليها الغربيون في العصر الحديث.

مفاهيم الصورة الفنية حديثاً

في العصر الحديث حصل تواصل بين الثقافات والآداب، وتأثر الأدب العربي بالآداب الأوروبية، وكان من الطبيعي أن يتأثر الدرس النقدي البلاغي بنظيره في العالم الغربي، وبما أن معنى مصطلح الصورة عند العرب يختلف عن معناه عند الغربيين، ودلالة هذا المصطلح ليست سواء في المذاهب الأدبية الغربية، فقد ظهرت تعريفات كثيرة، ومفاهيم عديدة لمصطلح الصورة الفنية، متأثرة بالمدارس الأدبية، والمناهج النقدية، وغدا هذا المصطلح من أكثر المصطلحات الأدبية شيوعاً وانتشاراً، ومن أكثرها غموضاً وضبابية في آن واحد، حيث يواجهه الباحثون بمئات المفاهيم المختلفة للصورة، يبدو بعضها متفقاً مع بعض، وبعضها مختلفاً اختلافاً طفيفاً أو كبيراً، وبعضها قد يصل إلى التناقض مع البعض الآخر.

إن مفهوم الصورة الفنية ليس من المفاهيم البسيطة السريعة التحديد، وإنما هناك عددٌ من العوامل التي تدخل في تحديد طبيعتها كالتجربة الشعرية والشعور والفكر والمجاز والإدراك والتشابه والدقة^{١٤١}، لذلك كانت الصورة الفنية من القضايا النقدية الصعبة "لأن دراستها لا بد أن تُوقع الدارس في مزالق العناية بالشكل أو بدور الخيال أو بدور موسيقى الشعر كما في المدارس الأدبية"^{١٤٢}.

ولكن يستطيع المعن النظر في الآراء المختلفة التي حاولت تعريف الصورة، أو تحديد مفهومها، أو وصفها، أن يضعها في أقسام ثلاثة، ويُصنّف كل رأي من تلك الآراء ضمن واحدٍ من التصنيفات التالية:

^{١٤١} دهمان، أحمد علي، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجاً وتطبيقاً (دمشق: دار طلاس للدراسات

والترجمة والنشر، ط ١، ١٩٨٦م)، ٢٦٩.

^{١٤٢} المصدر السابق، ٢٧٠.

أولاً: آراء تتّصف بالغموض والإبهام

ونستطيع القول أنّ معظم الآراء المتعلقة بالصّورة تتصفُ بهاتين الصّفتين، ولعلّ الغموض والإبهام "يرجعان إلى تعدد دلالات الصّورة بين دلالة لغويّة، وذهنيّة، ورمزيّة، وبلاغيّة، وفنيّة، فأدّى ذلك إلى تعدد مناهج دراستها، واختلاف المذاهب في تفسيرها"^{١٤٣}.

ومن هذه الآراء المبهمة الغامضة ما هو مُترجم عن اللغات الغربيّة كالتعريف الذي اعتبر الصّورة "إبداعاً ذهنيّ صرف، وهي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة، وإنّما تنبثق من الجمع بين حقيقتين واقعتين تتفاوتان في البعدِ قلةً وكثرةً، ولا يمكن إحداث صورة المقارنة بين حقيقتين بعيدتين لم يُدرِك ما بينهما من علاقاتٍ سوى العقل"^{١٤٤}.

ومنها ما هو مُتأثر بالاتّجاهات والمناهج التي تهمّ بدراسة الأدب وخاصة الاتّجاه النّفسيّ، ومن ذلك رأي عزّ الدين اسماعيل الذي اعتبر "الصّورة الفنيّة تركيبة عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع"^{١٤٥}.

وكذلك رأي السعيد الورقي الذي عرّف الصورة بأنّها "ما يُقدّم مركباً ذهنيّاً وعاطفيّاً في لحظةٍ من الزّمن، إنّها تقديم مركّب تُعطيك ذلك الإحساس بالتحرر المفاجئ، وذلك الإحساس بالتحرر من قيود الزمان والمكان، وذلك الإحساس بالنمو المفاجئ الذي نجده في حضرة روائع الفنّ العظيمة"^{١٤٦}.

وعرّف محمود أمين العالم الصّورة تعريفاً لا يبتعدُ عن الاضطراب والغموض فهي "حركةٌ مُتصلةٌ في قلب العمل الأدبيّ تنبصرُ به دوائره ومحاوره ومنعطفاته، وننتقلُ بها من مستوى تعبيريّ إلى مستوى تعبيريّ آخر"^{١٤٧}.

^{١٤٣} اليافي، نعيم، مقدمة لدراسة الصورة الفنية (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٢م)، ٤٨.

^{١٤٤} وهبة، مجدي، معجم مصطلحات الأدب (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٤م)، ٢٣٧. وقد نُقِلَ هذا التعريف عن الفرنسي بيار ريفردي.

^{١٤٥} اسماعيل، عزّ الدين، التفسير النفسي للأدب (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م)، ١٠٣.

^{١٤٦} الورقي، السعيد، لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنيّة وطاقاتها الإبداعية (القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٨٣م)، ١٠٣.

^{١٤٧} العالم، محمود أمين، في الثقافة المصرية (بيروت: دار الفكر الجديد، ط١، ١٩٥٥م)، ٥٨.

إنّ هذه الآراء ومثلها الكثير قد طَعَتْ عليها الضبابيّة وعدم الوضوح، وأدخلتُ القارئ في حيرة جعلته يعجز عن تحديد معنّى واضح للصّورة، بل إنّ تلك الآراء الغامضة قد تُشكّل عراقيل وعقائيل أمام الباحثين الذين ينطلقون من الصّورة لتكون مدخلاً لدراستهم الأدب شعراً كان أم نثراً.

ثانياً: آراء تتّصف بالتضييق والتخصيص

وقد قصّرت هذه الآراء الصّورة على العلاقات البيانيّة من تشبيه واستعارة وكناية، فإحسان عبّاس اعتبر الصّورة "جميع الأشكال البيانيّة"^{١٤٨} ووصفها بأنّها "خلقٌ جديدٌ لعلاقاتٍ جديدة"^{١٤٩}، وحسب رأيه فإنّ استخدام الصّورة بالمفهوم المجازي "يختلفُ من شاعرٍ لآخر، كما إنّ الشّعْر الحديث يختلفُ عن الشّعْر القديم في طريقة استخدام الصّور"^{١٥٠}.

أمّا مصطفى ناصف الذي كان كتابه (الصّورة الأدبيّة) أولَ دراسةٍ عربيّةٍ تحملُ مصطلحَ الصّورة فكان موقفه غريباً، إذ أنّه أنكرَ معرفةَ العرب للصّورة الفنيّة لأنّ "النّقد العربيّ القديم لم يعرف الاحتفال بالقوى النّفسيّة ذات الشّأن في إنتاج الشّعْر"^{١٥١}، لكنّه دعا إلى استخدام كلمة الاستعارة بدلاً من كلمة الصّورة حيث رأى أنّ "لفظ الاستعارة إذا حسُن إدراكه قد يكون أهدى من لفظ صورة"^{١٥٢} لأنّ مصطلح الصّورة "يُستعمل عادةً للدلالة على كلّ ما له صلة بالتّعبير الحسّي"^{١٥٣}، ثمّ نراه مرة أخرى يعود لاستخدام

^{١٤٨} عبّاس، إحسان، فن الشّعْر (عمّان: دار الشّروق، ١٩٨٧م)، ٢٣٨.

^{١٤٩} المصدر السابق، ٢٦٠.

^{١٥٠} المصدر السابق، ٢٣٠.

^{١٥١} ناصف، مصطفى، الصّورة الأدبيّة (بيروت: دار الأندلس، ط٣، ١٩٨٤م) ٩. (صدرت الطبعة الأولى من

الكتاب عن دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٨).

^{١٥٢} المصدر السابق، ٥.

^{١٥٣} المصدر السابق، ٣.

لفظ الصّورة ويعرّفها تعريفاً لا يخلو من غموض وإيهام "إنّها منهجٌ فوقَ المنطق لبيان حقيقة الأشياء" ^{١٥٤}.

ونرى في الآراء المترجمة ما اتّصف بالتّضييق والتّخصيص ومنها الرأي الذي نقله نصرت عبد الرحمن والذي يقول بأنّ "الصّورة ترادفُ أشكالِ البيانِ من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ ورمز، وهي مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً بالجانب الحسي" ^{١٥٥}.

والصّورة بمفهومها الضيق المخصص تنحصر أهميتها "فيما تُحدّثه في معنّى من المعاني من خصوصيّة وتأثير، ولكن أيّاً كانت هذه الخصوصيّة أو ذاك التأثير فإنّ الصّورة لن تُغيّر من طبيعة المعنى في ذاته، إنّها لا تُغيّر إلّا في طريقة عرضه وكيفية تقديمه" ^{١٥٦}.

ولا يخفى توافق هذه الآراء مع النظرة العربيّة القديمة للصّورة، حينما كان العربُ يحصرونها في الجانب البيانيّ، كذلك مع نظرة أرسطو الذي رفعَ من شأنِ الاستعارة وقال: "أعظم الأساليب حقاً هو أسلوب الاستعارة..... وهو آية الموهبة" ^{١٥٧}، لكنّ هذه الآراء تبقى قاصرةً عن تعريف الصّورة تعريفاً شمولياً واضحاً.

ثالثاً: آراء تتّصف بالتّعميم والشموليّة

اتّصفت بعضُ التعريفات والآراء بالتّعميم والشموليّة، وقد يكونُ رأي سي. دي لويس الأبلغ بين كلّ الآراء التي تتّصف بهذه الصّفة حيثُ عرّف الصّورة بأنّها "رسمٌ قوأمه الكلمات المشحونة بالعاطفة والإحساس" ^{١٥٨}، والكلمات التي أشار إليها سي. دي لويس تشملُ "كلّ الأدوات التعبيريّة مما تعودنا على دراسته ضمن علم البيان والبدیع والمعاني

^{١٥٤} المصدر السابق، ٨.

^{١٥٥} عبد الرحمن، نصرت، في النّقد الأدبيّ الحديث (عمّان: جهينة للنشر والتوزيع، ٢٠١١م) ٦٩. وقد نقل المؤلف هذا الرأي عن النقد الفرنسي الحديث.

^{١٥٦} عصفور، جابر، الصّورة الفنيّة في التراث النقديّ والبلاغيّ عند العرب (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م)، ٧.

^{١٥٧} أرسطوطاليس، فن الشعر، ترجمة محمد شكري عياد (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م)، ١٢٨.

^{١٥٨} لويس، سي دي، الصورة الشعريّة، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي وآخرون (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٢م)، ٣٤.

والعروض والقافية والسرد وغيرها من وسائل التعبير الفني"^{١٥٩} حسب المفهوم الذي وضعه الولي محمد.

أما عبد القادر القطّ فيبالغ في التعميم ويعتبر الصورة "الشكل الذي تتخذه العبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياقٍ بيانيٍّ خالصٍ يُعبرُ عن جانبٍ من جوانبِ التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مُستخدِماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والترادف والتضاد والحقيقة والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني"^{١٦٠}.

قدّمت هذه الآراء الصورة بشكلٍ شُموليٍّ، وأقامت وحدة بينها وبين العمل الأدبيّ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وفرضت على ذاكرتنا العودة إلى آراء عبد القاهر الجرجاني لتلمس التشابه بين نظريته في النظم من ناحية وبين هذه الآراء من ناحية أخرى.

مفهوم الصورة الذي سيكون أساس الدراسة

يُجدُ الباحثُ نفسه مائلاً للقسم الأخير من المفاهيم المتعلقة بالصورة، ذلك أن الصورة حسب هذه المفاهيم تدلُّ على الشكل أو الهيئة التي تُصاغ بها الكلمات لتكون عملاً جميلاً مُستعذباً من ناحية، ومُعبراً مؤثراً من ناحية أخرى، وقديماً "أقام الفلاسفة اليونانيون تداخلاً بين الرّسم والشعر، فالرّسام يرسم بالألوان، والشاعر بالكلمات، فالشعر صورة ناطقة، والرّسم شعرٌ صامت"^{١٦١}، فالصورة ضرورة للأدب كما هو الخط للرّسم.

ونجدُ في موروثنا الشعري أمثلةً على ذلك منها حوَلِيّات زهير بن أبي سُلمى الذي كان يَقْضي حَولاً كاملاً في نظم قصيدته، لقد كان زهير يُنفقُ هذا الوقت الطويل وهو يعتني بهيئة قصيدته، أو بمعنى آخر بصورتها الفنيّة.

^{١٥٩} محمد، الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٠م)،

١٠.

^{١٦٠} القطّ، عبد القادر، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر (القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٨٦م)، ٤٢٥.

^{١٦١} عبيد، كلود، جمالية الصورة في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط ١، ٢٠١٢م) ١٢.

وتكمن أهمية الصورة الفنية في كونها "الطريقة التي تعرض علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به"^{١٦٢}، باختلاف صورة الكلام يؤدي بالضرورة إلى اختلاف معناه بغض النظر عن درجة ذلك الاختلاف، كما يؤدي ذلك إلى اختلاف درجة التأثير في المتلقي، ومما روي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قوله: "إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار"^{١٦٣}، فكيف يكون الكلام ألحن؟^{١٦٤} وتأثيره أكبر؟

يكون ذلك بالاعتناء بهيئته أو بصورته لأن "الصورة بالمفهوم الفني لها تعني آية هيئة تُثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة مُعبّرة ومُوحية في آن"^{١٦٥}، وفصل نعيم اليافي ذلك بقوله: "يقوم التصوير الفني على قاعدة صورية تتعاقب فيها الوسائط وترتبط، ويؤدي بعضها إلى بعض، وتُشكّل في النهاية كلّاً واحداً هو الصورة العامة أو العمل ذاته، وسواء اعتبرنا القصيدة صورة قائمة بنفسها أي رمزاً، أم اعتبرناها حلقات متداخلة أو سلسلة من الصور، فإن بناءها في الحالتين لا يعدو أن يكون بناءً صورياً يُقدّم الفكرة المصورة"^{١٦٦}.

إن الصورة الفنية والتي تُعادل "اللوحة الفنية للرّسام، والتّمثال للنحات من أهم الأسباب في بلوغ الأدب ما يستطيع من التأثير في النفوس، وانتزاع الإعجاب من القراء والسّامعين، ومن أكبر العوامل في تقويم الأدب، وفي الاعتراف لطائفة الأدباء بالتفوق والامتياز، وفي القدرة على تأليف العبارة في شكل تبرز فيه الآثار الفنية التي ينبغي أن تتمثل

^{١٦٢} عصفور، جابر، الصورة الشعرية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، ٣٦٣.

^{١٦٣} مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، كتاب الأفضية (استنبول: دار الدعوة، د.ت) رقم الحديث ١٣٣٧.

^{١٦٤} ألحن بحجته: أفطن بها وأجدل، ابن منظور، لسان العرب، باب لحن.

^{١٦٥} الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في النقد الشعري: دراسة في النظرية والتطبيق (إربد: مكتبة الكتاني، ١٩٩٥م)، ٨٥.

^{١٦٦} اليافي، نعيم، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، د.ت)، ٢٦.

في الأعمال الأدبية^{١٦٧}، والصّورة بهذا المعنى تكونُ كُليّةً، تشمل العمل الأدبي كلّهُ، ناميةً بنموه، لا تنفصلُ عنه، ولا ينفصلُ عنها، إنّها الإخراجُ النهائي - بلغة الدّراما - للعمل الأدبيّ، فهي "تشكيلٌ لغويٌّ يستقيه خيالٌ فنانٍ لمعطيات الحواسِّ والنّفس والعقل"^{١٦٨}، كما أنّ الصّورة "قد تخلو من المجاز أصلاً فتكون عباراتٍ حقيقيّة الاستعمال، ومع ذلك فهي تُشكّل صورةً دالةً على خيالٍ خصبٍ"^{١٦٩}.

واعتماداً على رأي عبد القاهر الجرجاني قديماً وعلى الآراء التي نظرت إلى الصّورة من زاوية التّعميم والشموليّة حديثاً يستطيعُ الباحثُ أن يُحدد المفهوم التّالي للصّورة الفنيّة "هي شَكْلُ العمل الأدبيّ أو هيئته بما يحويه ذلك العمل من ألفاظٍ وتعبيراتٍ وأساليبٍ وأدواتٍ تجتمعُ لتنتقلَ إلى المتلقي الأفكارَ والمعاني التي يُريدها الأديبُ بطريقةٍ مُعبّرةٍ ومُوحيةٍ ومؤثّرةٍ في آنٍ".

أمّا الصّفة التي تُوصف بها الصّورة فهي صِفةٌ تخصّيصيّة، فالفنيّة والأدبيّة والشعريّة تخصُّ الفنّ والأدب والشّعر على التّوالي، وهي صفاتٌ تتسم بالشموليّة والتّعميم، أمّا الصّورة البلاغية فتقتصرُ على البلاغة وفروعها، ويضيق التّخصيص في الصّورة البيانيّة التي تخصُّ الجانب البيانيّ فقط في العمل الأدبيّ، والصّفتان الأخيرتان تختلفان عن الصّفات السّابقات لهما، حيث إنّهما لا يتسمان بالشموليّة من ناحية، وتَنحصر وظيفتهما في تزيين المعنى في العمل الأدبي وتزويقه من ناحيةٍ أخرى.

^{١٦٧} طبانة، بدوي، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م)، ٢٩١.

^{١٦٨} البطل، علي، الصورة الشعرية حتى أواخر القرن الثاني الهجري (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع،

١، ١٩٨٠م)، ٣٠.

^{١٦٩} المصدر السابق، ٢٦.

الفصل الثاني أطوار تكوين الصورة الفنية

لا تتكوّن الصورة الفنيّة عبثاً، وإنّما يقصدها الفنّان قصداً، فتخرج بشكلها النهائي بعدما تمرّ بأطوارٍ مُتتالية، ويمرّ الفنّان في سبيل تكوين صورته الفنيّة بتلك الأطوار، ولكن ليس بالضرورة أن يفصل بين كلّ طورٍ وآخر فاصلٌ ملحوظ، بل تتداعى الأطوار على خاطر الفنّان بشكلٍ لا إرادي حتى يفرغ من إتمام صورته، وتتمثل تلك الأطوار بالتّالي:

الإدراك الحسيّ

ميّز الفلاسفة بين نوعين من قوى الإدراك: قوى إدراكيّة حسيّة حيوانيّة، وتشمل البصر والسمع والشمّ والذوق واللمس، وقوى إدراكيّة عقلية إنسانيّة وتشمل الحسّ المشترك والخيال والتموّهة والتمخيّل والحافظة، ويشترك في القوى الأولى الإنسان والحيوان، أمّا القوى الثّانية فتخصّ الإنسان وحده.^{١٧٠}

ولا شك أن القوى الإدراكيّة الحسيّة هي الأهم، لأنّ القوى الإدراكيّة العقلية تُبنى عليها، وتلحق بها، ولولا الإدراك الحسيّ لانعدم الإدراك العقليّ، ثمّ إنّ الإنسان يتعرّف على العالم الخارجيّ ويدركه بالحواسّ، لذلك يقتضي الإدراك الحسيّ وجود الحاسة والمحسوس، ولا يتحقّق باختفاء أحدهما، كما لا يقتصر الإدراك الحسي على مجرد إدراك الخصائص الماديّة للمحسوسات، ولكنه يشمل إدراك المعاني والرموز التي لها دلالة بالنسبة لتلك المحسوسات.

^{١٧٠} وهابي، عبد الرحيم، حضور الشعر في مباحث الفلاسفة المسلمين حول النفس، فكر ونقد، مجلة محكمة (المغرب: عدد ٦٧، ٢٠٠٥م)، ومنشور في الموقع الرّقمي http://www.aljabriabed.net/n67_09wahabi.htm.

والإدراك الحسيّ أساسٌ في تكوين الصّورة الفنّية، فالفنّان لا بدّ "أن يكونَ قد رأى أو أدرك -حسّاً- ما استطاع أن يتخيّله"^{١٧١}، فالعنصرُ الحسيّ يُحرّكُ طاقةَ الخيال "وبعمل الخيال يُدرك الفنّان الحقيقةَ لا كموضوعٍ ولا كفكرةٍ وإنّما يُدركها كصورة"^{١٧٢}. وقد انتبه الفلاسفةُ الأقدمون لهذه الحقيقة، فرأى الفارابي (ت ٥٣٣٩هـ) أنّ "الحسَّ يُباشر المحسوسات فتحصل صورها فيه، ويؤديها إلى الحسّ المشترك حتى تحصل فيه، فيؤدي الحسّ المشترك تلك إلى التخيّل"^{١٧٣}، أمّا ابن رشد (ت ٥٥٩٥هـ) فرأى أنّ "جلّ المعقولات الحاصلة إنّما تحصل بالتّجربة، والتّجربة إنّما تكون بالإحساس أولاً، والتخيّل ثانياً، وإذا كان ذلك كذلك فهذه المعقولات إذن مُضطرّة في وجودها إلى الحسّ والتخيّل، فهي ضرورةٌ حادثّةٌ بحدوثها، فاسدةٌ بفسادِ التخيّل"^{١٧٤}، واعتبر ابن رشد أنّ الحاسّة شرطٌ للإدراك "لذلك من فاتته حاسّة ما من الحواس فاته معقول ما، فإنّ الأكمّة ليس يُدرك معقول اللون أبداً، ولا يمكن فيه إدراكه"^{١٧٥}.

والمدركات الحسيّة هي المادّة الخامّ التي يبنّي بها الفنّان أعماله "وكلّ أثر رائع من آثار الفنّ ليس إلّا تعبيراً بلغةٍ حسيّةٍ عن معنى رفيع، ولكن هذه الحسيّة لا تعني الانحصار في إطار حاسّة بعينها، ولا تعني محاكاة الإحساسات بشكلٍ عام، فهذا يجعل الصّورة الفنّية لا تُثير في ذهن المتلقّي صوراً بصريّة فحسب، بل تثير صوراً لها صلة بكلّ الإحساسات الممكنة التي يتكوّن منها نسيجُ الإدراك الإنساني ذاته"^{١٧٦}.

وهناك أهميةٌ كبيرةٌ أخرى للإدراك الحسيّ، فالفنّان يطّلع على الإبداعات والأعمال الفنّية للفنّانين الآخرين ويتلقاها بالحواس، فتنشأ لديه حافظة، وتتكوّن عنده ملكة، ثمّ

^{١٧١} تطاوي، عبد الله، الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٩٧م)، ١: ٢٦.

^{١٧٢} عبد البديع، لطفي، التركيب اللغوي للأدب (القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٧٠م)، ٥٥.

^{١٧٣} آل ياسين، جعفر، فيلسوفان رائدان -الكندي والفارابي (بيروت: الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٣م)، ١١٧.

^{١٧٤} ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (ت ٥٥٩٥هـ)، رسائل ابن رشد الفلسفية، رسالة النفس، (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤م)، ٢٠.

^{١٧٥} المصدر السابق.

^{١٧٦} عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ٢٤١.

يُحاكي الفنّان تلك الإبداعات والأعمال الفنيّة المختزنة في حافظته، وينسجُ على منوالها، فيبدع أعمالاً فنيّةً جديدةً تختلفُ عن تلك المحفوظة في ذاكرته، وإن كان الاختلافُ بدرجاتٍ متفاوتةٍ، ويكونُ الحفظُ علّةَ الإبداع في إنشاء الأعمال الفنيّة الجديدة "فمن كان خالياً من المحفوظ فنظّمه قاصرٌ رديءٌ، ولا يُعطيه الرّونق والحلاوة إلّا كثرةُ المحفوظ، فمن قلّ حفظه أو عُدِم لم يكن له شعرٌ، وإّما هو نظمٌ ساقطٌ، واجتنابُ الشعرِ أولى بمن لم يكن له محفوظٌ"^{١٧٧}.

الخيال

تعود كلمات الخيال والتخيّل والتخييل إلى الجذر اللغوي خَيَلَ ويجد الباحثُ معاني كثيرةً لهذا الجذر منها: الظنّ والاشتباه والإشكال والكِبَر والوَهَم والطّيف^{١٧٨}.

ويمكن القول إنّ هذه المعاني يجمع بينها معنى واحدٌ وهو الإيهام أو عدم مُطابقة الواقع، ونرى ذلك فيما أورده ابنُ منظور في معنى الخيال "خيال الطائر يرتفعُ في السّماء، فينظر إلى ظلّ نفسه، فيرى أنه صيد، فينقض عليه ولا يجدُ شيئاً"^{١٧٩}، أو في المعنيين اللذين أوردهما الفيروزآبادي (الخيال كِسَاءٌ أَسْوَدُ يُنْصَبُ على عودٍ، يُخَيَّلُ للبهائم والطّير فتظنّه إنساناً) و(الخيال ما تشبّه في اليقظة والحلم من صورة)^{١٨٠}.

أمّا بالمفهوم الفنّي فليس من السّهولة تعريف الخيال، إذ إنّهُ "ليس مجرد تصوّر اشياء غائبة عن الحسّ، وإّما هو حدثٌ معقّدٌ ذو عناصر كثيرةٍ، يُضيفُ تجاربَ كثيرة"^{١٨١}. وعند تتبع معنى الصّورة Image ومعنى الخيال Imagination نلاحظُ أنّ الغربيين قد أدركوا الارتباط الكبير بين المعنيين، وكأنّ الصّورة الفنّيّة هي ميدان الخيال التي يتجلى بها.

^{١٧٧} المرصفي، حسين، الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية (مصر: مطبعة المدارس العربية، د.ت)، ٤٦٨:٢.

^{١٧٨} ابن منظور، لسان العرب، مادة خَيَل.

^{١٧٩} المصدر السابق، مادة خَيَل.

^{١٨٠} الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة خَيَل.

^{١٨١} ناصف، مصطفى، الصورة الأدبية، ١٨.

يعود الاهتمام بدراسة الخيال إلى الثقافة اليونانية القديمة، حيث تناولها افلاطون وأرسطو، وعلى الرغم من الاختلافات في آرائهما فإنهما اتفقا على أمرين هما: أن الخيال تالٍ للإدراك الحسي، وإنه مهمٌ في إبداع الصورة، فرأى الأول أن "الخيال يرسمُ في النفس الأشياء المدركة بالحسّ..... وأن الخيال استرجاعٌ للصّور"^{١٨٢}، أمّا الآخر فرأى أن الخيال "يتولد من الإحساس ولا يمكن قيامه بدونه، وإذا لم يوجد الخيال والإحساس، فلا وجود للتصوّر"^{١٨٣}.

أمّا في التراث العربي فلم يكن هناك كبير اهتمامٍ لا بدراسة الخيال ولا بدراسة الجوانب النفسانية التي قادت إلى الإبداع، وإنّما كانت الآراء النقدية تهمّ - في الأعم الأغلب - بأمورٍ شكليةٍ كالألفاظ والمعاني وعمود الشعر والسّركات الشعرية وغير ذلك، كما إنّ الضوابط النقدية الصّارمة قيّدت الشاعر بالأشعار القديمة والذائقة القديمة، فالشعر القديم حسن، وما استساغه الأقدمون حسن، وكذلك بالنسبة للقبّح، الأمر الذي أدّى إلى تقييد الخيال، وعدم انطلاقه انطلاقاً يتجاوز ما وصل إليه خيال الأقدمين من الشعراء.

وعند النظر في آراء الأقدمين بالخيال أو التخيل نجد تبايناً واضحاً، فقد نظر إليه بعض العلماء والفلاسفة المسلمين نظرةً فيها اتّهام وريبة، فهذا ابن حزم يقول: "وأما التخيل فقد يُسمعك صوتاً حيث لا صوت، ويُريك شخصاً ولا شخص، قال تعالى: ﴿تَسْعَىٰ أَنهَاسِحْرِهِمْ مِنَ الْيُسْحَىٰ﴾"^{١٨٤} فأخبر الله بكذب التخيل، والعقل صادقٌ أبداً"^{١٨٥}.

في رأي ابن حزم هذا كثيرٌ من التّجني على الخيال واتّهام له، ومفاضلةٌ في غير موضعها بين الخيال وبين العقل، وإشارة إلى إبقاء الخيال تحت وصاية العقل أبداً، ثم إنّ الآية الكريمة التي استشهاد بها لا تدلّ على كذب الخيال بأيّ حالٍ من الأحوال.

^{١٨٢} عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ١٥-١٧.

^{١٨٣} نصر، عاطف جودة، الخيال مفهوماته ووظائفه (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م)، ٩.

^{١٨٤} طه، آية ٦٦

^{١٨٥} ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٥٤٥هـ)، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م)، ١٧٨.

لم يكن ابن حزم وحيداً في رأيه هذا، حيث كانت نظريته للخيال متفقة مع آراء علماء وفلاسفة آخرين، فهذا عبد القاهر الجرجاني الذي تقدم على سابقه بآراء نقدية قيمة يتحدث عن الخيال بنوع من التّحامل، حيث قسّم المعاني قسمين: عقلية وتخييلية، واعتماداً على هذا التّقسيم جعل الشّعْر نوعين: شعر صادق لأنّه "يجري من العقل على أصل صحيح"^{١٨٦}، وشعر كاذب لأنّه "يعتمد الاتّساع والتّخيل، ويدّعي الحقيقة فيما أصله التّقريب والتّمثيل"^{١٨٧}، وأعاد الجرجاني فكرته هذه حين قال: "الذي أريده بالتّخيل ها هنا ما يثبت فيه الشّاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً، ويدّعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه، ويربها ما لا ترى"^{١٨٨}.

كان هناك أسباب للنّظرة غير الإيجابية للخيال في الموروث العربي القديم، حيث كان النّقاد يؤلون مسألة الصّدق الواقعيّ أو الأخلاقيّ عنايةً كبيرةً، وكانت هذه المسألة من أهمّ المعايير النّقدية عندهم:

وإنّ أشعر بيتٍ أنتَ قائلُهُ بيتٌ يُقالُ إذا أنشَدته صدَقاً^{١٨٩}

والخيال لا يمكن له الالتزام بمعيار الصّدق الواقعيّ لأنّه لا ينسخ الواقع، ولا يُكرر مُعطياته بشكلٍ حرّفي، وإنّما يجنح بعيداً عن ذلك في عالم افتراضي ليُحقق غايةً ليست موجودةً في العالم الواقعيّ، وسبب آخر أدّى إلى تلك النّظرة وهو الخلط بين الوهم والخيال، وعدم التّفريق بينهما، فالوهم "سلبّيّ يَغترّ بمظاهر الصّور"^{١٩٠}، وهو دون الخيال مرتبة، حيث ارجعه الرومانسيون إلى "حالة من حالات الذاكرة تحررت من نسقي الزّمان

^{١٨٦} الجرجاني، أسرار البلاغة، ٢٣٧.

^{١٨٧} المصدر السابق، ٢٣٧.

^{١٨٨} المصدر السابق، ٢٣٩.

^{١٨٩} بن ثابت، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري (ت نحو ٥٣هـ)، ديوانه (بيروت: دار الفكر اللبناني،

٢٠٠٣م)، ١٣٥.

^{١٩٠} هلال، محمد غنيمي، النّقد الأدبي الحديث: مصادره الأولى - تطوره - فلسفاته الجماليه - مذاهبه، (القاهرة:

دار مطابع الشعب، ١٩٦٤م)، ٤١٠.

والمكان، وهو يستقبل موادّ الذاكرة بواسطة قانون التداعي^{١٩١}، وشبهوه "بالأخلاق التي تبقى الأجزاء فيها منفصلةً رغم تقاربها"^{١٩٢}.

ويُتَّضحُ من هذا الرأي أنّ الوهمَ مرحلةٌ أوليّةٌ من مراحل الخيال، يتمّ فيه استدعاء المدركات الحسيّة السّابقة من الذاكرة، كما تمّ إدراكها بصورةٍ عفويّةٍ بسيطةٍ دون أن يربطها رابطٌ أو يؤلفَ بينها نظام، أمّا الخيال فأمرُهُ مُختلفٌ تماماً.

في مقابل النظرة غير الايجابية نرى نظرةً أخرى مُنصفّة، فالصّوفيون اهتموا كثيراً بالخيال، وأعلّوا من مرتبته، ورأوا "إنّ الخيال إذا أدرك شيئاً فإنّما يُدرّكه بنوره، والثّور لا يُخطئ في كَشْفِهِ عن الأشياء"^{١٩٣}، وزاد محي الدين بن عربي على قوله السّابق بأنّ الخيال معصومٌ عن الخطأ لأنّه "من الأولى أن يُقال أخطأ العقل في فهم ما كشف الخيال عنه، حتى لا ينسحب الحكم بالخطأ والفساد إلى الخيال وهو بريء منه"^{١٩٤}.

أمّا الزمخشريّ فكان جريئاً في تناول موضوع الخيال، فقد نظر إليه بعيداً عن زاوية الصّدق الواقعيّ التي نظر من خلالها السّابقون، وحين طبّق أفكاره على آي القرآن الكريم وعقّب

على قوله تعالى: ﴿يَرْيَكُم أَلْسِنَتُهُمْ عَلَىٰ وَشْهَدَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَدَمَ بَنِي مِنْ رَبِّكَ أَخَذُوا﴾^{١٩٥} قال: "هذا من باب التخييل والتمثيل"^{١٩٦}، وأضاف أنّ هذا الباب "واسعٌ في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب"^{١٩٧}.

^{١٩١} نصر، عاطف جودة، الخيال ومفهوماته ووظائفه، ٦٥. نقل المؤلّف هذا الرأى عن الأديب الرومانسي الانجليزي

صموئيل كولردج

^{١٩٢} المصدر السابق، ٦٥.

^{١٩٣} قاسم، محمود، الخيال في مذهب محي الدين بن عربي (القاهرة: معهد الدراسات والبحوث العربية، ١٩٦٩م)،

٨. وقد نقل المؤلّف هذا الرأى والذي يليه عن محي الدين بن عربي.

^{١٩٤} المصدر السابق، ٨.

^{١٩٥} الأعراف، آية ١٧٢.

^{١٩٦} الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التزييل وعيون الأقاويل، ١٦٦:٢.

^{١٩٧} المصدر السابق، ١٦٦:٢.

لم يكن العلمان قاصدين الخيال في العمل الأدبي، وإنما كانت آراء ابن عربي تخصّ الفكر الصوفي الذي يتبعه، أمّا الزمخشري فقد اكتفى بتطبيق آرائه على القرآن الكريم ولم يتعداه إلى نصوصٍ أخرى.

يُعد حازم القرطاجي من العلماء القلائل الذين اهتموا بالخيال في العمل الأدبي ولا سيّما في الشعر، حيث رأى أنّ غاية الشعر "استجلاب المنافع، واستدفاع المضار، ببسطها النفوس إلى ما يراد من ذلك، وقبضها عما يراد لها فيه من خيرٍ أو شرٍّ"^{١٩٨}، وعندما عرّف الشعر اعتبر الخيال ركناً من أركانه إلى جانب الوزن والقافية، فالشعر في رأيه "كلامٌ موزونٌ مُقَفّى من شأنه أن يُحبب إلى النفس ما قصَدَ تحبيبه إليها، ويُكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخيل له"^{١٩٩}، كما نظر إلى الخيال في الشعر نظرةً بعيدةً عن الصّدق الواقعيّ أو الكذب لأنّ "التخييل هو المعترف في صناعته، لا كون الأقاويل صادقةً أو كاذبة"^{٢٠٠}.

في العصر الحديث اهتمّ الغربيون بالخيال اهتماماً كبيراً، فقد اعتبره الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت "أعظم قوى الإنسان على الإطلاق، وإنّ بقية القوى الأخرى لا تستغني عنه، وقلّما وعى الناس قدر الخيال وخطره"^{٢٠١}، وجعل الخيال في نوعين: انتاجيٍّ مجاله العلم، وجماليٍّ مجاله الفن^{٢٠٢}.

لقد أصاب (كانت) في نظريته للخيال، وتأكيدِه على أهميته، فالخيال أساسُ الإبداع، فالاختراعات العظيمة - على سبيل المثال - التي ينعم البشر بالإفادة منها، ما كانت لتظهر لولا الخيال، حيث إنّ تلك الاختراعات بدأت بأفكارٍ خياليّةٍ ما لبثت أن تحولت إلى أمرٍ واقعٍ، ولعل (كانت) قصد هذا النوع من الخيال عندما تحدث عن الخيال الإنتاجي العلمي.

^{١٩٨} القرطاجي، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ٣٣٧.

^{١٩٩} المصدر السابق، ٧١.

^{٢٠٠} المصدر السابق، ٧١.

^{٢٠١} هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ٤١٠.

^{٢٠٢} المصدر السابق، ٤١٣.

أما الخيال في الفن فيتمُّ باستدعاء المدركات الحسيّة السابقة -غالباً- من الذاكرة، وبإعادة تشكيل تلك المدركات ضمن علاقاتٍ جديدةٍ مختلفةٍ عن الواقع، وقد يكون الاختلافُ في تلك العلاقات الجديدة بأمورٍ منها الإضافة أو الحذف أو تغيير طبيعة العلاقة، ويجدر التمثيل على تلك العلاقات المبتكرة بأبياتٍ من الشعر، فعندما يقول ابن زيدون:

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ جَالَ النَّدى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
كَأَنَّ أَعْيَنَهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرْقِي بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَقاً^{٢٠٣}
نَجِدُ الشَّاعِرَ قَدْ اسْتَدْعَى مِنْ مُحِيلَتِهِ صُورَةَ الزَّهْرِ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ أَعْنَاقاً مَائِلةً،
وَعَيُوناً بَاكِيةً، ودموعاً ذارفةً.

أما المتنبي فتخيّل الجياد، لكنه حذف عنها القوائم ليُعبّر عن جيشِ الروم الذي قديم إلى ساحة المعركة وهو مدججٌ بالسّلاح:

أَتَوَكُّ يَجُرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّمَا سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهُنَّ قَوَائِمُ^{٢٠٤}
أما تغيير طبيعة العلاقة فيظهر في قول عنتره:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاخُ نَوَاهِلُ مَنِّي وَبِيضُ الْهَنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السَّيْفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كَبَارِقٍ تَغْرِكُ الْمُتَبَسِّمُ^{٢٠٥}
فارتأى عنتره تغيير طبيعة العلاقة بينه وبين السيف، فتخيّله إنساناً يودّ تقبيله، لأنّ لمعانه يُشبه لمعان ثغر محبوبته، كما يظهر تغيير طبيعة العلاقة فيما يُسمّى ترّاسل الحواسّ "وبه يَتَمُّ خَلْعَ وَظِيفَةٍ حَاسَّةٍ عَلَى حَاسَّةٍ أُخْرَى، فَتَسْمَعُ الْعَيْنُ وَتَرَى الْأُذُنُ"^{٢٠٦}.

^{٢٠٣} ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون (ت ٥٣٩٤هـ)، ديوانه ورسائله (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م)، ١٣٩.

^{٢٠٤} المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي (ت ٥٣٥٤هـ)، ديوانه (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر ٢٠٠٣م)، ٢٦٠: ٣.

^{٢٠٥} عنتره، عنتره بن شداد العبسي (ت نحو ٦٠٨م)، ديوانه، تحقيق: فوزي عطوي (بيروت، دار المعرفة، ط ١، ١٩٦٨م)، ١٦.

^{٢٠٦} أبو إصبع، صالح، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٧٩م)، ٤٤.

إنَّ الشعراء قد عَمِدُوا إلى استحداث هذه العلاقات الخياليَّة ليعبروا عن المعاني التي تحولُ في حوارهم بأسلوبٍ جميلٍ ومؤثِّرٍ يعتمدُ على الخيال "لأنَّ العملَ الفنِّيَّ كلّ مجالُه الخيال أي مادته، وموضوعه في الطَّبيعة، ولكن بعد تخيلها"^{٢٠٧}، ومخيلةُ الشعراء - كما يظهر في أبياتهم السَّابقات - تعتمدُ أصلاً على "قوة التَّذكر وهو تداعي المعاني وخطورها على الذَّهن بسهولة، وبعد أن تتراءى لها الصُّور بوسيلة التَّذكر، تستخلص منها ما يُلائم الغرض، وتطرَّحُ ما زاد على ذلك، فتفصل الخاطرات عن أزمئتها أو ما يتصلُّ بها ممَّا لا يتعلَّقُ به القصد من التَّخيل، ثمَّ تتصرَّفُ في مثل تلك العناصر بمثل التَّكبير أو التَّصغير وتألِّف بعضها إلى بعض حتى تَظهر في شكلٍ جديدٍ"^{٢٠٨}

لقد راق لبعض النُّقاد الغربيين تشبيه الخيال بالمركب الكيميائي، فهو "تلك القُدرة الكيميائيَّة التي بها تمتزج العناصر المتباعدة في أصلها، والمختلفة كلّ الاختلاف كي تُصيرَ مجموعاً متألِّفاً منسجماً"^{٢٠٩}.

وإبداع الخيال يمثِّل "المركب أو المزيج الكيميائي الذي تُفقد فيه الأجزاء هوياتها المنفصلة من أجل أن تُنصهر في جوهر جديد يتألَّف من هذه الأجزاء ولكنَّه يَختلفُ عنها"^{٢١٠}.

ولا شك أن الصُّورة مولود الخيال حيث إنَّ خيال الأديب "حافظٌ جماليٌّ روحيٌّ، فالخيال قرين الشَّعور، وهو الذي ينتج الصُّورة، تلك الصُّورة التي تنشأ بحافزٍ ما، لتؤدي قيمةً معلومةً"^{٢١١}، لذلك لا يمكن دراسة الصُّورة بعيداً عن الخيال فهو الذي "يكسر الحاجز الذي يبدو عصياً على الفعل والمادة، فيجعل الخارجيّ داخليّاً، والداخليّ خارجيّاً، يجعل من الطَّبيعة فكراً، ويُحيل الفكرة إلى طبيعة"^{٢١٢}، وهو كذلك "الملَكَة التي يستطيعُ بها

^{٢٠٧} العشماوي، محمد زكي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٠م)، ٦٨.

^{٢٠٨} حسين، محمد الخضر، الخيال في الشعر العربي (دمشق: المكتبة العربية، ط١، ١٩٢٢م)، ١٤٦.

^{٢٠٩} هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ٤١٢. وقد نقله الكاتب عن الإنجليزي وليام وردزورث.

^{٢١٠} نصر، عاطف جودة، الخيال مفهوماته ووظائفه، ٦٥. وقد نقله الكاتب عن الإنجليزي صموئيل تايلور كوليردج.

^{٢١١} الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في النقد الشعري، ٨٦.

^{٢١٢} ناصف، مصطفى، الصورة الأدبية، ٢٧.

الأدباء أن يُؤلفوا صورهم^{٢١٣}، وهذه الملكة قد تكون أحياناً عفوية "ليست مُدبرة تدبيراً إرادياً أو منطقياً بحيث تجمع الأوصاف انتظاراً لنتيجتها، وإنما تُخضع هذه الأوصاف لقانون التناسق الذي يُحقق أثرها على الوجدان، وتتداعى عناصرها المخزونة في الذاكرة لتتعاون على إسعاف المؤلف الأديب بما ينبغي"^{٢١٤}.

جعلت الآراء النقدية الغربية الخيال معياراً مهماً عند التفاضل بين فنان وآخر، فالخيال أساس الإبداع، لأن الابتكار والإتيان بالجديد من الأمور التي تُعطي الفن قيمة، ولولا الخيال لكان الانتاج الفني مُكرراً عن الواقع، خالياً من الابتكار والتجديد.

رأى معظم الذين تناولوا الخيال أنه تالٍ للإدراك الحسي، ومثل أرسطو على ذلك بالخاتم الذي يُنقش على الشمع "فالحسوس قد تغيب صورته عن الحس المشترك وتبقى صورته المتخيلة"^{٢١٥}، وحسب هذا الرأي فإن غير الحسوس لا يمكن تخيله، فالأصم -مثلاً- لا يستطيع تخيل الأصوات حيث لم يُدركها إدراكاً حسيّاً من قبل "لأنّ حال التخيل شبيه بحال الحواس، فإن كذبت الحواس كذب التخيل، وإن صدقت الحواس صدق التخيل"^{٢١٦}.

إنّ هذا الرأي صائبٌ في الغالب، لكنّه ليس مُطلق الصواب، لأننا نجد أنواعاً من الخيال ليست مُثبتة عن إدراك حسيّ سابق "إذ طلب النبي -صلى الله عليه وسلم- في مقام الإحسان أن نعبّد الله كأننا نراه، كما ورد ذلك في الحديث، وهذه الرؤية ليست بعين البصر لأنّها مستحيلة، وإنّما هي بعين الخيال"^{٢١٧}، وهذا الخيال الذي فطن إليه ابن عربي لم يُسبق بالإدراك الحسيّ، ومن ذلك أيضاً الخيال الفعّال الذي نلمسه في أشعار

^{٢١٣} ضيف، شوقي، في النقد الأدبي (مصر: دار المعارف، ١٩٦٢م)، ١٦٧.

^{٢١٤} الشايب، أحمد، في أصول النقد الأدبي (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م)، ٢١٣.

^{٢١٥} نصر، عاطف جودة، الخيال مفهوماته ووظائفه، ٩-١٠.

^{٢١٦} عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ٣٩.

^{٢١٧} قاسم، محمود، الخيال في مذهب محي الدين بن عربي، ٨.

الشّعراء غير المبصرين الذين استطاعوا أن يُصوِّروا أموراً لم يُدرِكوها بأبصارهم، وتقدموا في ذلك على أقرانهم من الشّعراء المبصرين^{٢١٨}.

التَّصوُّر

تَكُنْ أهمية التَّصوُّر للمتلقّي كما تكمن أهميته أيضاً للأديب، أمّا المتلقّي فيشارك الأديب مشاعره وأحاسيسه بالتَّصوُّر وذلك من خلال استدعاء صور ذات علاقة من مخزون الذاكرة، أو تأويل الصُّور التي تلقاها من العمل الأدبي، ويختلف استدعاء الصُّور أو تأويلها من إنسانٍ لإنسان، ومن جنسٍ لآخر، ومن ثقافةٍ لأخرى، ذلك أن "الصُّورة التي يتلقاها الإنجليزي ببرود قد يحدها العربيّ مليئةً بالحويّة، فكلمةُ النخيل مثلاً عندنا غيرها عند الأمريكيين، فهي تَحْمِلُ عندنا ثِقلاً وجدانياً لا يُمكن أن تحمله للأمريكي^{٢١٩}".

والاهتمام هنا سيكون بأهمية التَّصوُّر للأديب وليس بأهميته للمتلقّي، حيثُ إنّ التَّصوُّر طَوْراً مُهمٌّ من أطوار تكوين الصُّورة الفنّية في العمل الأدبيّ.

يعني التَّصوُّر "مرور الفكر بالصُّورة الطَّبيعيّة التي سَبَقَ أن شاهدها، وانفعل بها، ثمّ اختزنها في مُخيلته"^{٢٢٠}، ويكون التَّصوُّر باستحضار "صورة المدركات الحسيّة عند غيبتها عن الحواسّ من غير تصرّفٍ فيها بزيادةٍ أو نقصٍ أو تغييرٍ أو تبديلٍ"^{٢٢١} ويختلف التَّصوُّر عن التَّصوير بأنّ التَّصوُّر يكون سابقاً كما يكون عقلياً أو فكرياً، أمّا التَّصوير فيكون لاحقاً كما يكون عملياً أو شكلياً "فالتَّصوُّر إذن هو العلاقة بين الصُّورة والتَّصوير، وأدائه الفكر فقط، وأمّا التَّصوير فأدائه الفكرُ واللسانُ واللغة..... ولما كان لكلِّ صورةٍ جمالٌ ظاهرٌ

^{٢١٨} يُنظر رضا، جهاد، التصوير الفني في شعر العميان حتى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه (سوريا: جامعة حلب، ١٩٩٢م). والفيفي، عبد الله بن أحمد المغامري، الصورة البصرية في شعر العميان كلية الآداب (السعودية: منشورات جامعة الملك سعود، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

^{٢١٩} عبد الرحمن، نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث (عمان: مكتبة الأقصى، ١٩٧٦م)، ٢١.

^{٢٢٠} الخالدي، صلاح عبد الفتاح، نظرية التصوير الفني عند سيّد قطب (عمان: مطبعة حطين، ط ١، ١٩٨٣م)، ٤١.

^{٢٢١} عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي (بيروت: دار النهضة، ١٩٧٢م)، ٦٨.

وخفيّ كان لزماً على كلّ فتان أن يصنع تميّزه في تصوّر الجمال الخفيّ وإدراكه، حتّى يتسنى له التميّز والإبداع في التصوير^{٢٢٢}.

والتصوّر ضرورة للعمل الأدبيّ، إذ بدونه لا نستطيع اعتبار المادة المكتوبة أو المسموعة أدباً، لأنّ الأديب ينبغي أن يتصوّر العمل الأدبيّ بكلّ جوانبه قبل إنشائه، ثمّ يُعيد النظر فيه حتّى يصوّره تصويراً فنياً يرضى عنه، والتصوّر مُرتبطٌ بالخيال، ويحدثُ أحياناً تداخلٌ بينهما، حيثُ يُعطي الخيالُ التصوّر مداه المطلق، ولكن ليس بالضرورة أن يكون التصوّر خيالياً أو تخيلاً، لأنّ تصوّر نوع العمل الأدبيّ بتفصيلاته المختلفة كالوزن والقافية - إذا كان العملُ الأدبيّ شعراً - والألفاظ والأساليب والأدوات التي ينوي الأديب استخدامها - في الشعر والنثر - لا يدخل ذلك ضمن دائرة الخيال أو التخيل، والتصوّر بهذا الخصوص يختلف باختلاف نوع الجنس الأدبيّ، فالتصوّر اللازم لكتابة رسالة يختلف عن ذاك اللازم لنظم قصيدة.

إنّ اللغة هي المكوّن الأساسُ للعمل الأدبيّ، وبواسطتها ينقل الأديبُ مشاعره وأحاسيسه وأفكاره وتجاربَه ورؤاه للمتلقّي، لذا يجبُ على الأديب أن يتصوّر اللغة التي يصوّر بها عمله الأدبيّ، واللغة "مؤسّسة على مجموعةٍ من النماذج الذهنيّة الغريزيّة للجُمْل التي يستطيعُ أيُّ مُتحدّثٍ بأيّ لغة أن يستخلصَ منها عدداً غير مُتناهٍ من الجُمْل الصّحيحة بوسيلة قواعد التّحويل بالحذف أو بالإضافة أو بالتّبديل أو بالقلب أو بالتّرصيع"^{٢٢٣}.

يستطيع الأديبُ أن يحقق من خلال التّصوّر أمرين: إعطاء تماسكٍ داخليٍّ للنّص الأدبيّ قبل تصويره، وإضفاء سِمَة الجماليّة على ذلك النّص، والجمالُ المقصودُ هنا قد يكونُ جمالاً بالمعنى الدّقيق، وهو الذي يُرادف الحُسن المضاد للقُبْح، أو جمالاً بالمعنى العام وهو المقدرة على إثارة شعورٍ معيّنٍ في نفْس المتلقّي "وقد أفحصُ العملَ الأدبيّ، وأحكمُ عليه بأنّه جميلٌ لأنني لمستُ فيه صفاتٍ أو مواطنَ كما يُقال أحياناً من شأنها أن تجعله جميلاً، وهذا هو الحُكم الجماليّ بالمعنى الصّحيح، وقد أحكمُ عليه بأنّه جميلٌ لأنّه أثار في

^{٢٢٢} الخالدي، صلاح عبد الفتاح، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ٧٤ - ٧٥.

^{٢٢٣} بركات، وائل، مفهومات في بنية النص (دمشق: دار نصر، ١٩٩٦م)، ٣١..

نفسى شعوراً مُعِيناً، ولكنَّ هذا الحُكم ليسَ جماليّاً بالمعنى الدقيق، هو جماليٌّ بالمعنى العام^{٢٢٤}.

إنَّ التَّصوُّرَ "من أرقى مَلَكَاتِ النَّفسِ الْإنْسَانِيَّةِ"^{٢٢٥}، وهو عاملٌ مُهِمٌّ في إبداع الصُّورة إبداعاً يتصف بالتَّماسك والتَّأثير والإيحاء والجمال.

التَّصْوِير

الطُّور الأخير وهو "إبراز الصُّورة إلى الخارج بشكلٍ في"^{٢٢٦}، ويصوِّر الأديبُ النَّصَّ الأدبيَّ بصورةٍ تحتوي المعنى، وتُحدِثُ فيه تأثيراً لافتاً، وخصوصيّةً مُتميّزة، ويتمُّ ذلك من خلال سِلْسِلَةٍ من الإشارات والأساليب والأدوات اللغوية، فاللغةُ طاقةٌ خَلَّاقَةٌ لا تَخْضَعُ لتقنين المعنى، والعمل الأدبيّ الذي حَسُنَ تصويره يكون "قوةً ثانيةً للغة، وطاقةٌ سحرٍ وافتنان"^{٢٢٧}.

والتَّصْوِير يفرض على الأديب اختيار ألفاظٍ تُناسبُ المعنى الذي يتناولُه، وتخدم الفكرة التي يريدُها، فألفاظُ الأديبِ ينبغي أن "تتآخى مع معانيه، وتتلاءم مع افكاره، وكلما كان المعنى مما يرقص له الفؤاد، وتهتزُّ له الجوانح، استدعى لفظاً موسيقياً نابضاً بالجمال والإشراق"^{٢٢٨}، وبعد اختيار الألفاظ يقوم الأديب بنظمها في عباراتٍ وتراكيبٍ بتسلسلٍ منطقيٍّ يتألفُ بين طريقتيه بالتَّفكير وطريقته بالتَّصْوِير لتغدو "لغة الصُّورة هي الفنّ الذي يُجسِّد الفكرة، وعن طريق الانفعال الصَّادق يبرز مضمون الصُّورة"^{٢٢٩}.

ويلجأ الأديبُ في سبيلِ نَظْم تلك العبارات والتَّراكيب إلى المجاز، وقد انتبه العلماء العربُ الأقدمون إلى أهميّة المجاز حيثُ وَصَفَه سيبويه (ت ٥١٨٠هـ) بأنَّه "استعمالُ الفعلِ في

^{٢٢٤} إسماعيل، عزّ الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٤م)، ٦٠.

^{٢٢٥} نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، ١١.

^{٢٢٦} الخالدي، صلاح عبد الفتاح، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ٣٣.

^{٢٢٧} كوهن، جان، اللغة العليا، ترجمة أحمد درويش (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٥م)، ٩.

^{٢٢٨} خفاجي، محمد عبد المنعم، الشعر الجاهلي (بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ١٩٨٦م)، ١٨٢.

^{٢٢٩} عبيد، رجاء، دراسة في لغة الشعر: رؤية نقدية (الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٩م)، ٤٢.

اللفظ لا في المعنى لا تساعدهم في الكلام والإيجاز والاختصار^{٢٣٠}، ويتضح من هذا الوصف أنّ المجاز خروجٌ على المؤلف في التعبير اللغوي، ويُستخدم لأجل الاتساع والتفصيل، أو لأجل الإيجاز والاختصار، ومثل سيبويه عليه بأمثلة ثم قال: "وهذا الكلام كثيرٌ منه ما مضى، وهو أكثرٌ من أن أحصيه"^{٢٣١}.

وقد أحصى العلماء اللاحقون لسيبويه أنواع المجاز بحيث شملت تلك الأنواع ضروبَ البلاغة كلّها من البيان والبديع والمعاني، فهذا ابن قتيبة (ت ٥٢٧٦هـ) يقول: "إنّ ضروبَ المجاز عند العرب تشتملُ الاستعارة والتّمثيل، والقَلْب والتّقديم، والتّأخير والحذف، والتّكرار والإخفاء، والإظهار والتّعريض، والإفصاح والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، ومخاطبة الجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخُصوص لمعنى العموم، ولفظ العموم لمعنى الخُصوص"^{٢٣٢}.

وتوسّع ابن رشد (ت ٥٥٩٥هـ) حين عدّ المجاز خروجاً عن المؤلف في الصّيّغة والتركيب، ويتمّ هذا الخروج بتغييرات "تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتّشبيه، وبالجملّة بإخراج القول غير مخرّج العادة مثل القَلْب والحذف، والزيادة والتّقصان، والتّقديم والتّأخير، وتغيير القول من الإيجاب إلى السّلب، ومن السّلب إلى الإيجاب، وبالجملّة بجميع الأنواع التي تسمى عندنا مجازاً"^{٢٣٣}، ونجد ما يُشبه ذلك عند ابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) عندما يقول: "المجاز يشتمل على أنواعٍ كبيرةٍ كالاستعارة والمبالغة والإشارة والتّمثيل والتّشبيه وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعية للمعنى المراد"^{٢٣٤}.

^{٢٣٠} سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ٥١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت: دار القلم، د.ت). ٩٨:٢.

^{٢٣١} المصدر السابق، ٩٩:٢.

^{٢٣٢} ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٥٢٧٦هـ)، تأويل مشكل القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٩٨١م)، ٥.

^{٢٣٣} ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٥٩٥هـ)، تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر (ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو)، تحقيق عبد الرحمن بدوي (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣م)، ٢٤٣.

^{٢٣٤} ابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحرير التحبير، تحقيق حنفي محمد شرف (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٨٣هـ)، ٤٧٥.

إنّ لغة المجاز المستخدمة في التصوير والتي تخرج فيها الألفاظ عن دلالاتها المحدودة تُضفي على ذلك النصّ روعةً وجمالاً وإثارةً، كما إنّ العَرابة المتمثلة في اللغة المجازيّة تُحدِثُ لدى الأديب دهشةً وطرباً، وفي ذلك يقول الجرجاني: "وكذا تقول فلان إذا همّ بالشيء لم يزل ذاك عن ذكره وقلبه، وقصّرِ حواطره على إمضاء عزمه، ولم يُشغله شيء عنه فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن، ثمّ لا ترى له في نفسك هزة..... حتى إذا قُلت: إذا همّ ألقى بين عينيه همّ، امتلأت نفسك سُروراً، وأدركتك طُربة" ٢٣٥.

كما تتحقق المتعة لدى المتلقي عندما يكتشفُ المعنى المستور وراء اللغة المجازيّة، فيكون ذلك باعثاً على إثارته وانفعاله "ومن المركز في الطّبع إنّ الشيء إذا نيل بعد الطّلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف" ٢٣٦.

وعلى الرّغم من أهميّة المجاز في التّصوير فإنّه ليس شرطاً في بناء الصّورة، حيث إنّ المفهوم الكلّي الشامل الذي تبنّاه الباحث للصّورة الفنّية "لا يعني أنّ العبارات حقيقيّة الاستعمال لا تصلح للتّصوير، بل إنّنا نجد كثيراً من الصّور الجميلة الخصبّة جاءت من استخدام عبارات حقيقية لا مجاز فيها" ٢٣٧.

٢٣٥ الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ١٠٨.

٢٣٦ المصدر السابق، ١٠٨.

٢٣٧ نافع، عبد الفتاح صالح، الصورة في شعر بشار بن برد (عمان: دار الفكر، ١٩٨٣م)، ٥٨.

الباب الثالث

كُتّاب الرّسائل الأندلسيّة وموضوعاتها.

ويتكوّن من:

الفصل الأول: كُتّاب الرّسائل الأندلسيّة.

الفصل الثاني: أنواع الرّسائل الأندلسية وموضوعاتها.

الفصل الأول

كتاب الرسائل الأندلسية

يتفرعُ الأدب - في عُرْف المشاركة والمغاربة على حَدِّ سَوَاءٍ - في فرعين هما المنظوم والمنثور، وأشار ابن بسام إلى ذلك بقوله "فإنَّ ثمرَةَ هذا الأدبِ العالِي الرُّتب، رسالةٌ تُنْثَر وتُرْسَل، وأبياتٌ تُنْظَم وتُفْصَل، تَنْثَال ذلك انْثِيَال القِطَار على صَفَحَات الأزهار، وتَتَّصِل هذه اتِّصَال القَلَائِدِ على نُحُورِ الخَرَائِدِ"^{٢٣٨} والرسالةُ من ضروب المنثور، وهي قطعةٌ فنيَّةٌ يَغْلِب فيها النثر، يَخْطُهَا الكاتب أصالةً عن نفسه، أو نيابةً عن غيره، ويبيعتُ بها إلى طرفٍ آخر، وتتضمن الرسالةُ غرضاً واحداً أو أغراضاً متعددةً تختلف باختلاف نوع الرسالة. وتحدَّثَ المقرِّي عن مكانة الكتاب في المجتمع الأندلسي، حيث كان أعلاهم مكانةً "كاتب الرسائل، وله حظٌّ في العيون والقلوب عند أهل الأندلس..... وأهل الأندلس كثيرٌ الانتقاد على صاحب هذه السِّمة، لا يكادون يَغْفِلون عن عثراته لحظة، فإنَّ كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهُه ولا مكانُه من سُلْطانه من تَسَلُّط الألسُن في المحافل والطَّعن عليه وعلى صاحبه"^{٢٣٩}.

شاعتُ الرِّسائلُ في عصر الموحِّدين وانتشرتْ انتشاراً كبيراً، وكان لكتَّابها حضورٌ واسعٌ، وقد وردتْ في هذا البحث مئة واثنتان وسبعون رسالةً لكتَّاب عديدين مُكثِّرين ومُقلِّين، وفيما يلي قائمةٌ بأسماء الكتَّاب وعدد رسائلهم التي وردتْ في هذا البحث:

عدد رسائلهم

الكتَّاب

- | | |
|-------------|--------------------|
| أربعون | ١- ابن عميرة |
| أربع وعشرون | ٢- كُتَّاب مجهولون |

^{٢٣٨} الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٨م) قسم ١، مجلد ١: ١١.

^{٢٣٩} المقرِّي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن يحيى المقرِّي التلمساني (٩٩٢ - ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس للطيب، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م)، ٢: ٢١٧.

- | | | |
|-----|------------------------|-------------|
| ٣- | الفازازي | ثلاث وعشرون |
| ٤- | ابن الجنان | خمس عشرة |
| ٥- | ابن مُغاور الشَّاطِبي | اثنتا عشرة |
| ٦- | أبو عبد الله بن عيَّاش | عشر |
| ٧- | صفوان بن إدريس | عشر |
| ٨- | سعيد بن حكم | خمس |
| ٩- | ابن الأَبَّار | أربع |
| ١٠- | أبو الحسن بن عيَّاش | أربع |
| ١١- | أبو القاسم البلوي | أربع |
| ١٢- | ابن محشرة | أربع |
| ١٣- | ابن المرخى | ثلاث |
| ١٤- | الخليفة إدريس المأمون | ثلاث |
| ١٥- | ابن جبير | اثنتان |
| ١٦- | أبو الحسن الإشبيلي | اثنتان |
| ١٧- | ابن سعيد | رسالة واحدة |
| ١٨- | ابن صقلاب | رسالة واحدة |
| ١٩- | ابن مرج الكحل | رسالة واحدة |
| ٢٠- | ابن مُصادق | رسالة واحدة |
| ٢١- | أحمد بن محمد | رسالة واحدة |
| ٢٢- | الشَّقْندي | رسالة واحدة |
| ٢٣- | عزير بن خطَّاب | رسالة واحدة |

فرَّق دارسو الأدب قديماً بين التَّرْسَل والإرسال والمراسلة حيثُ إنّ "التَّرْسَل مِن ترسَّلتُ ترسَّلاً، وأنا مُترسِّل.... ولا يُقال ذلك إلا فيمَن تكرر فعله في الرِّسائل، ويُقال لمن فعل ذلك مرّةً واحدة: أرسل، يُرْسِل، إرسالاً وهو مُرْسِل والاسم الرِّسالة، أو راسَل

يُرَاسَلُ مُرَاسَلَةً وَهُوَ مُرَاسِلٌ وَذَلِكَ إِذَا كَانَ هُوَ وَمَنْ يُرَاسِلُهُ قَدْ اشْتَرَكَا فِي الْمُرَاسَلَةِ... وَأَصْلُ
الِاشْتِقَاقِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَلَامٌ يُرَاسَلُ بِهِ مِنْ بَعِيدٍ^{٢٤٠}.

وبناءً على هذا التعريف يكون الفعل (أرسل) أشمل من الفعلين (ترسلَ وراسلَ)،
فالفعل الأول يدلُّ على المبالغة والإكثار من كتابة الرسائل، أمَّا الثاني فيدلُّ على المشاركة
والمبادلة فيها، لذا كان الأنسبُ استخدامَ الفعلِ (أرسلَ) ومشتقاته الصِّرفية، وذلك لأنَّ
بعضَ رسائلِ البحثِ كُتِبَها كُتَّابٌ غيرُ مُكثَرينَ مِنَ الْكِتَابَةِ أَيَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُتْرَسِّلِينَ،
كما إنَّ بعضها أُرسلَ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ وَدُونَ مُبَادَلَةٍ أَيَّ لَمْ تَحْدُثْ مُرَاسَلَةٌ بَيْنَ طَرَفِي
الرسالة.

وَيَجْدُرُ بِنَا التَّعْرِيفُ بِكُتَّابِ الرِّسَالِ الَّذِينَ وَرَدَتْ رِسَالُهُمْ فِي هَذَا الْبَحْثِ،
مُرَاعِينَ فِي تَعْرِيفِهِمُ الْإِيْجَازَ، وَالتَّعْرِيفَ بِاسْمِ الْكَاتِبِ وَنَسَبِهِ، وَذِكْرَ أَهَمِّ الْمَصَادِرِ الَّتِي
تُرْجِمَتْ لَهُ، ثُمَّ تَحْدِيدَ الْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي عَاشَ فِيهَا، وَنَبْدَأُ بِأَكْثَرِهِمْ رِسَالَةً وَهُوَ أَبُو الْمَطْرَفِ
بْنُ عُمَيْرَةَ.

ابن عُمَيْرَةَ

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عُمَيْرَةَ المَخْزُومِيُّ، وَقَدْ تُرْجِمَ لَهُ كَثِيرُونَ
مِنْهُمْ: ابْنُ الْأَثَّارِ فِي تُحْفَةِ الْقَادِمِ^{٢٤١}، وَابْنُ سَعِيدٍ فِي الْمَغْرِبِ^{٢٤٢}، وَابْنُ الْخَطِيبِ فِي
الْإِحَاطَةِ^{٢٤٣}، وَالْمَقْرِي فِي نَفْحِ الطَّيْبِ^{٢٤٤}، كَمَا قَامَ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ مُحَمَّدُ بْنُ شَرِيفَةَ بِتَبْعِ
أَخْبَارِهِ وَحَقَّقَ بَعْضًا مِنْ رِسَالَتِهِ الْمُنْشُورَةِ وَغَيْرِ الْمُنْشُورَةِ وَجَمَعَهَا فِي كِتَابٍ^{٢٤٥}.

^{٢٤٠} ابن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب (١٢٥ - ١٩٧هـ)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق:
حنفي محمد شرف (القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٦٩م)، ١٩٢.

^{٢٤١} ينظر: ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأثير القضاعي البلسي (٥٩٥ - ٦٥٨هـ)،
المقتضب من تحفة القادِم، اختيار وتقييد: إبراهيم بن محمد البليقي، تحقيق: إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتاب
المصري، د.ت)، ١٠٨.

^{٢٤٢} ينظر: ابن سعيد، أبو الحسن نور الدين علي بن موسى بن سعيد المغربي (٦١٠ - ٦٨٥هـ)، المَغْرِبُ فِي
حُلِيِّ الْمَغْرِبِ، تحقيق: شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨م)، ٢: ٣٨٥.

^{٢٤٣} ينظر: ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ)، الإِحَاطَةُ فِي
أَخْبَارِ غُرْنَاطَةَ، تحقيق: محمد عبد الله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م)، ١: ٦٠.

تشير المصادر إلى أن ابن عُميرة ولد في حَزِيرة شُقُر سنة ٥٨٠هـ، وتنقل ما بين شُقُر وبلنسية وشاطبة ودانية ومُرسية طلباً للعلم، ثم عاد إلى بلنسية واستقر بها وكتب لواليهاموحي أبي عبد الله ثم لأبي حفص من بعده، وبعد ذلك تولى القضاء والكتابة لدى الثائرين بشرق الأندلس، فكتب لزيان بن مردنيش ومحمد بن هود ولما سقطت بلنسية بيد الأراغونيين سنة ٦٣٦هـ انتقل ابن عُميرة إلى المغرب، واستوطن رباط الفتح، وكتب للخليفة الرشيد، ومما كتب عنه الظهير الذي صدر عن الخليفة بخصوص توطين الأندلسيين اللاجئين في رباط الفتح^{٢٤٦}.

كان ابن عُميرة كاتباً فذاً وعالماً بالحديث والتاريخ حيث "اشتغل في الحديث والتاريخ والأخبار وبرع في جميعها"^{٢٤٧}، وكان "شديد العناية بشأن الرواية، فأكثر من سماع الحديث، وأحذه عن مشايخ أهله، ثم تفنن في العلوم، ونظر في المعقولات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب فبرع براعة عُدّ فيها من مُجيدي النظم، فأما الكتابة فهو فارسها الذي لا يُجارى، وصاحب عينها الذي لا يُبارى"^{٢٤٨} حيث أنشأ رسائل في مختلف المواضيع، وقد لاحظ ابن شريفة أن "أكثر الموضوعات دوراناً في رسائلها كان موضوع الوصايا، فقد عددت منها ما يقرب من أربعين رسالة أكثرها مكتوباً إلى رؤساء ووجهاء في حقّ لاجئين أندلسيين من مختلف الطبقات والأصناف يدعوهم إلى معونتهم والأخذ بيدهم، والواقع أنّي لا أعرف في تاريخ الأدب مُترسلاً كابن عُميرة استخدم جاهه وقلمه في إعانة ذوي الحاجات في قضاء حوائجهم، وقد عرف له مُعاصروه هذه الخصلة وأكبروا فيه هذه الروح البناءة"^{٢٤٩}.

^{٢٤٤} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٢: ٢١٧.

^{٢٤٥} ينظر: ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره (الرباط: المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٦م).

^{٢٤٦} ينظر نصّ الظهير في: عزاري، أحمد، رسائل موحدية، ٣٩٣.

^{٢٤٧} ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١: ٦٠.

^{٢٤٨} المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣١٣.

^{٢٤٩} ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ٩٢.

تَنَقَّلَ ابنُ عُمَيْرَةَ فِي الْمَغْرِبِ مِنْ رَبَاطِ الْفَتْحِ إِلَى بَجَايَةِ إِلَى تُونِسَ حَيْثُ تَوَلَّى قَضَاءَ قَابِسَ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ الْأَمِيرُ الْحَفْصِيُّ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللَّهِ بْنِ أَبِي زَكَرِيَاءَ (ت ٥٦٧٥هـ) وَصَارَ مِنْ خَوَاصِّهِ، وَبَقِيَ ابْنُ عُمَيْرَةَ فِي تُونِسَ حَتَّى تَوَفَّى فِيهَا سَنَةَ ٥٦٨٥هـ.

الْفَازَاذِيّ

هُوَ أَبُو زَيْدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَحْمَدَ بْنِ تَنْفِيلِيتِ الْفَازَاذِيّ، وَقَدْ تَرَجَّمَ لَهُ ابْنُ الْأَبَارِ فِي تَحْفَةِ الْقَادِمِ^{٢٥٠} وَفِي التَّكْمَلَةِ^{٢٥١} وَابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ^{٢٥٢} وَالْمَقْرِيّ فِي نَفْحِ الطَّيْبِ^{٢٥٣} كَمَا قَامَ عَبْدُ الْحَمِيدِ الْمَهْرَامَةُ بِتَحْقِيقِ مَخْطُوطَةٍ لَهُ تَحْوِي شِعْرًا وَنَثْرًا وَقَدَّمَ لَهَا بِتَعْرِيفٍ بِهِ وَبِأَعْمَالِهِ الشَّعْرِيَّةِ وَالتَّثْرِيَّةِ^{٢٥٤}.

وُلِدَ الْفَازَاذِيّ فِي قُرْطُبَةَ بِمَحْدُودِ سَنَةِ ٥٥٥٠هـ، وَانْتَقَلَ فِي صَبَاهُ إِلَى الْمَغْرِبِ حَيْثُ تَلَقَّى الْعِلْمَ فِي تِلْمَسَانَ وَفَاسَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَتَنَقَّلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ.

كَانَ الْفَازَاذِيّ مِنْ أَعْلَامِ الصُّوفِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ، وَقَدْ نَظَّمَ شِعْرًا كَثِيرًا كَانَ جُلُّهُ فِي الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ، أَمَّا النَّثْرُ فَقَدْ أَجَادَ فِيهِ إِجَادَتَهُ فِي الشَّعْرِ، حَيْثُ كَتَبَ رِسَائِلَ إِخْوَانِيَّةٍ، كَمَا كَتَبَ رِسَائِلَ دِيَوَانِيَّةٍ عَنِ الْوَلَاةِ الْمُوَحَّدِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ، فَكَتَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَنْصُورِ وَعَنْ أَخِيهِ أَبِي الْعَلَاءِ إِدْرِيسَ (الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ) قَبْلَ أَنْ تَوَوَّلَ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ، ثُمَّ حَصَلَتْ جَفْوَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُوَحَّدِينَ فِي أَيَّامِ خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ، فَأُلْزِمَ بِالْإِقَامَةِ فِي دَارِهِ، وَذَكَرَ مُعَاَصِرُهُ ابْنَ الْأَبَارِ ذَلِكَ عِنْدَمَا قَالَ: "دَخَلْتُ قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَّةَ فِي وَقْتَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ وَهُوَ بِهَمَا إِذْ

^{٢٥٠} ينظر: ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ١٣٣.

^{٢٥١} ينظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عزت الحسيني (مصر: مطبعة السعادة، د.ت)، قسم ١: رقم الترجمة، ١٧٢١.

^{٢٥٢} ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (٦٣٤-٧٠٣هـ)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ط ١، ١٩٧٣م)، ٥: ٢٧.

^{٢٥٣} المقري، نفع الطيب، ٣: ٥٢٢. ٤: ٤٦٨.

^{٢٥٤} المهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي (بيروت: دار قتيبة للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩١م).

ذاك فلم أقدر في أحدهما على الوصول إليه لإلزامه داره بجفوة نالته من السلطان سنة ٥٦٢٦هـ^{٢٥٥}.

أشار الفازازي إلى ما قاله ابن الأبار في رسالتين من رسائله، حيث كتب في الأولى ما نصه "وأنا للبيت حلس، وليس بيدي من أثمان الدين والدنيا فلس"^{٢٥٦}، وكتب في الثانية ما نصه "وها أنا الآن حلس البيت، وحي في معنى الميت، عاقتني عن لجج الطير عوائق، وحالت بيني وبين الحدائق"^{٢٥٧}.

لم تكشف لنا رسائل الفازازي تلك العوائق التي تحدث عنها، ولم تُشر إلى أسباب الجفوة بينه وبين المأمون، لكنَّ عبد الحميد الهرامة محقق آثاره رأى أنَّ الجفوة بينهما قد تكون "نجمت عن استعانة المأمون بالروم على قتالهم المسلمين، وإعطائهم شروطاً مهينة"^{٢٥٨} منها الموافقة على منحهم عشرة حصون، وبناء كنيسة لهم، أو بسبب تبرمه من الخدمة لدى السلطان، وإحساس أبي العلاء بثقل التبرم"^{٢٥٩}.

اختلفت المصادر في سنة وفاته، وقد رجَّح محقق آثاره عبد الحميد الهرامة أنَّها كانت في سنة ٥٦٢٧هـ.

^{٢٥٥} ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، قسم ١: ١٧٢١.

^{٢٥٦} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٥٧.

^{٢٥٧} المصدر السابق، ١٠٧.

^{٢٥٨} ينظر شروط الاتفاق بين المأمون وبين القشتاليين في: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٥٠.

^{٢٥٩} الهرامة، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٤.

ابن الجنان الأنصاري

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن الجنان الأنصاري الأندلسي، وقد ترجم له الغبريني في عنوان الدراية^{٢٦٠} وابن الخطيب في الإحاطة^{٢٦١} والمقري في نفح الطيب^{٢٦٢} وقام مُنجد مصطفى بهجت بجمع ديوانه وتحقيقه^{٢٦٣}، وتناول في القسم الأول من الديوان حياته وسيرته.

تحدثت المصادر عن صفات ابن الجنان الخلقيّة^{٢٦٤}، كما تحدثت عن علمه وأدبه، حيث كان من أهل الدراية في الحديث والبلاغة، وكان إضافةً إلى ذلك شاعراً مُجيداً وكاتباً بليغاً، وكان في الكتابة مُناظراً لابن عُميرة، وكثيراً ما كانا يتراسلان. بما يعجزُ عنه الكثير من البلغاء ولا يصلُ إليه إلّا القليل من الفُصحاء، وقد نقلَ لنا ابنُ المربط في زواهرِ الفكرِ بعضاً من تلك المراسلات، كما نقلَ رسائلَ ديوانيّة كتَبها ابنُ الجنان عن الثائرين بشرقيّ الأندلس أمثال ابن هُود ورسائل إخوانية أخرى.

انتقلَ ابن الجنان إلى المغرب بعدما أخذت مُدُنُ شرقيّ الأندلس تتهاوى بأيدي الأوروبّيين، حيثُ استدعاه والي سبّنة وأكُرم وفادته، ثمّ انتقلَ إلى ثونس وقضى فيها آخرَ سِنِي عُمُرِه، وتوفي في بَجاية، وقد رجَّح مُحققُ ديوانه أن وفاته كانت بين سنتي ٦٤٦-٥٦٤٨.

^{٢٦٠} ينظر: الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني (٦٤٤-٧٠٤هـ)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض (بيروت: منشورات لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٩م)، ٢١٣.

^{٢٦١} ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢: ٣٤٨.

^{٢٦٢} ينظر: المقري، نفح الطيب، ٧: ٤١٥.

^{٢٦٣} ينظر: ابن الجنان، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الجنان الأنصاري الأندلسي (توفي بحدود سنة ٦٥٠هـ)، ديوانه، جمع وتحقيق وتقديم: منجد مصطفى بهجت (العراق: جامعة الموصل، ١٤١٠هـ - ١٩٩١م).

^{٢٦٤} ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢: ٣٤٩. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٢م)، ٣: ٢٦٢.

ابن مُغَاوِر

هو أبو بكر عبد الرحمن بن عمر بن مُغَاوِر بن حَكَم بن مُغَاوِر السَّلَمِي الشَّاطِئِي، ترجمَ له ابن الأَبار في تحفة القادم^{٢٦٥} وابن سعيد في المغرب^{٢٦٦}، ونَجِدُ ذِكْرًا لابن مُغَاوِر وتَعْرِيفًا به في كتاب سِير أعلام النبلاء للذهبي^{٢٦٧}، وفي العصر الحديث اعتنى به محمد بن شريفة وجمَعَ رسائله وما تَبَقَّى من شعره في كتاب (ابن مُغَاوِر الشَّاطِئِي، حياته وآثاره)^{٢٦٨}، وقَدَّم لنصوص ابن مغاور النثرية والشعرية بدراسة في حياته وأدبه.

وُلِدَ في شَاطِئَة سَنَة ٥٥٠٢ هـ، وعاش فيها، وأشاد بها في بعض رسائله، كان عالماً فقيهاً، وبرَعَ في نَظْمِ الشعر وأجادَ في الكِتابَة، وكان بليغاً مفوّهًا له حظٌّ وافِرٌ من قَرَضِ الشعر، وتَصَرَّفَ في فنون الأدب، ومشاركةً في الفقه، كانت وفاته بشاطِئَة سنة ٥٥٨٧ هـ.

أبو عَبْدِ اللَّهِ بن عِيَّاش:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عِيَّاش التجيبي، ترجمَ له المراكشي في المعجب^{٢٦٩} وابن عبد الملك في الذيل والتكملة^{٢٧٠} وابن الخطيب في الإحاطة^{٢٧١}.

ولد سنة ٥٥٥٠ هـ، أصله من برشانة من أعمال ألمرية، كان كاتباً بارعاً فصيحاً، ملماً باللغات والآداب، كبير المقدار، حسن الخلق، تولى الكتابة للخليفة المنصور وكان بينهما صداقة شخصية، ولهما معاً أخبار كثيرة، وقد كتب أمر المنصور ضد ابن رشد، وبعد وفاة المنصور تولى الكتابة لولده الخليفة الناصر ثم لولده الخليفة المستنصر، كان أثيراً،

^{٢٦٥} ينظر: ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ١٥٠.

^{٢٦٦} ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢: ٣٨٥.

^{٢٦٧} ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢: ٤٥.

^{٢٦٨} ينظر: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطي، حياته وآثاره (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الحديثة، ط ١، ١٩٨٠م).

^{٢٦٩} ينظر: المراكشي، المعجب، ٢٦٣.

^{٢٧٠} ينظر: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ٥: ٣٣.

^{٢٧١} ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢: ٤٨٢.

رفيع المكانة لدى الخلافة الموحّدية، وكان أحياناً يستعمل في كتاباته حُوشي الألفاظ ممّا لا يستطيع استعمالها أو فهمها إلا حفاظ اللغة من أهل العلم، كانت وفاته سنة ٥٦١٨ هـ أو سنة ٥٦١٩ هـ حيث يقول المراكشي: "تركته حياً حين ارتحلت عن البلاد سنة ٥٦١٤ هـ، ثم اتصلت بي وفاته في شهور سنة ٦١٩ هـ وأنا بالديار المصرية"^{٢٧٢}، وبعد وفاته خلفه ولده أحمد في الكتابة للخليفة المستنصر.

صفوان بن إدريس

هو أبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن....التّجينيّ المرسّي، ترجم له ابن الأبار في تحفة القادم^{٢٧٣} وابن سعيد في المغرب^{٢٧٤} وابن الخطيب في الإحاطة^{٢٧٥}، واهتم به من المحدثين محمد بن شريفة حيث درس حياته وسيرته وجمع آثاره المنشورة والمخطوطة في كتاب (أبو بحر التّجينيّ، عُمر قصير وعطاء جزيل)^{٢٧٦}.

وُلد صفوان بن إدريس بمُرسية سنة ٥٥٦٠ هـ في أسرة عربية الأصل، ناهية بالعلم، وهو "ممن جمع تجويد الشعر إلى تحبير النثر مع سداد المقصد وسلامة المعتقد"^{٢٧٧} خطّ كتباً عديدة أشهرها زاد المسافر وغرة مُحيا الأدب السّافر^{٢٧٨} وقد جمع صفوان في كتابه هذا مختارات شعرية جُلّها لشعراء معاصرين له "ممن أدركته بعُمري، أو لحقه أهل عصري"^{٢٧٩}، كما تناول في كتابه هذا موضوع المعارضات الشعرية سواء معارضة الشعراء الأندلسيين لشعراء أندلسيين أو معارضة الشعراء المغاربة لشعراء من المشرق.

^{٢٧٢} المراكشي، المعجب، ٢٦٣.

^{٢٧٣} ينظر: ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ١٣٥.

^{٢٧٤} ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٢: ٢٦٠.

^{٢٧٥} ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢: ٨٣٢.

^{٢٧٦} ينظر: ابن شريفة، محمد، أبو بحر التّجيني، عمر قصير وعطاء جزيل (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الحديثة، ط ١، ١٩٩٩م).

^{٢٧٧} ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ١٣٥.

^{٢٧٨} ينظر: ابن إدريس، أبو بحر صفوان بن إدريس التّجيني (٥٦٠ - ٥٩٨ هـ)، زاد المسافر وغرة مُحيا الأدب السّافر (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠م).

^{٢٧٩} المصدر السابق، ٤٣.

أجاد صَفْوَان في النَّثر وكتابة الرِّسائل، حيثُ كَتَبَ رسائلَ في الإخوانيَّات والوصف، كما كَتَبَ رسائلَ ديوانيَّة لوالي مُرسِيَّة عبد الرَّحمن بن الخليفة يُوسُف، تُوفي وهو في ريعان الشباب دونَ عِلَّة سنة ٥٥٩٨هـ.

سَعِيد بن حَكَم

هو أَبُو عُثْمَان سَعِيد بن حَكَم بن عُمَر بن حَكَم القُرَشِيّ، ترجمَ له ابن الأَبَّار في الحُلَّة السِّيراء^{٢٨٠} وابن سَعِيد في اختصار القَدَح المَعْلَى^{٢٨١} وأبو العباس الغبرينيّ في عنوان الدِّراية^{٢٨٢} والمَقَرِّي في نفح الطَّيِّب^{٢٨٣} وفي العصر الحديث اهتمَّ بأخباره عصام سالم سيسالم في مَعْرِضِ اهتمامه بتاريخ جُزُرِ الأندلس الشَّرقيَّة وحكامها^{٢٨٤}.

ولد سَعِيد بن حَكَم في طَبِيزَة غرب الأندلس سنة ٥٦٠١هـ، وارتحل إلى المغرب، كان أديباً نحوياً مُتبحراً في مُختلف العلوم، كما أجادَ في الشَّعر والنَّثر، تولى الكِتابة لبعض الأمراء في ثونس وبجاية قبل أن يتوجَّه لجزيرة مَيورقة للعمل مع واليها الموحَّديّ، تولى أمر جزيرة مَنورقة، وضَبَطَها أحسنَ ضَبْط واستطاع أن يَكسِبَ قُلُوبَ أهلها بِحُسْنِ سياسته وخلقه وإحسانه، وأصبحت مَنورقة في عَهْدِهِ قِبْلَةً لأرباب الشَّعر والأدب، تُوفي سنة ٥٦٨٠هـ.

^{٢٨٠} ينظر: ابن الأَبَّار، الحُلَّة السِّيراء، تحقيق: حسين مؤنس (القاهرة: الشركة العربية، ١٩٦٣م)، ٢: ٣١٨.

^{٢٨١} ينظر: ابن سَعِيد المغربي، اختصار القَدَح المَعْلَى في التاريخ الخَلِي، تحقيق: إبراهيم الأبياري (القاهرة: المطابع الأميرية، ١٩٥٩م)، ٢٨.

^{٢٨٢} ينظر: الغبريني، عنوان الدِّراية، ٢٥٤.

^{٢٨٣} ينظر: المَقَرِّي، نفح الطَّيِّب، ٤: ٤٧١.

^{٢٨٤} ينظر: سيسالم، عصام سالم، جزر الأندلس المنسيَّة (التاريخ الإسلامي لجزر البليار ٨٩-٦٨٥هـ) (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، ٤٤٦، ٥٣٨.

ابن الأَبَّار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضاعيّ المعروف بابن الأَبَّار، ترجمَ له الغبريّ في عنوان الدَّراية^{٢٨٥} والمقرّي في نفع الطَّيب^{٢٨٦} وفي العصر الحديث اعتنى بدراسته ودراسة كُتبه الكَثيرة عبد العزيز عبد المجيد الذي أنشأ كتابَ (ابن الأَبَّار، حياته وكتبه)^{٢٨٧} ولكنّه اهتمَّ بدراسة كُتبه ولم يأتِ على ذكرٍ شِعْره.

وُلد ابنُ الأَبَّار في بَلَنسِيَّة سنة ٥٩٥هـ في أُسْرة علم وُبل، بَرَعَ في اللُّغة والأدب، وكان شاعراً ومؤرخاً وكاتباً، تولَّى الكِتابة لوالي بَلَنسِيَّة الموحّديّ أبي زيد، وفي سنة ٦٢٦هـ لجأ الوالي الموحّديّ إلى مملكة أرغون طالِباً نَجْدَتها ضد زيّان بن مرْدَنيش الذي ثارَ عليه، وكان ابن الأَبَّار يُرافقُ الوالي، ولكنَّ إقامته هُناك لم تَطُلْ، إذ عادَ إلى بَلَنسِيَّة بعدما نَصَرَ الوالي ووَضَعَ نفسه في خِدْمَةِ ملك أرغون، وفي بَلَنسِيَّة كتب ابن الأَبَّار لحاكمها الجديد زيّان ونالَ ثِقته، وقد أوفده إلى ثونس ليستنجدَ بالحفصيّين بعدما اشتدَّت اعتداءاتُ الأَرغونيّين المتحالِفين مع أبي زيد الوالي السَّابق على بَلَنسِيَّة، وقد ألقى بين يَدَي الأمير أبي زكرياء الحفصيّ قصيدته المشهورة والتي مطَّعُها:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِئِهَا دَرَسَا^{٢٨٨}

بعدما تَتَابَعَ سُقُوطُ المدن الأندلسيّة زَهَدَ ابنُ الأَبَّار بالإقامة في الأندلس، فَرَحَلَ إلى ثُونُس، ولاذَ بحكّامها الحفصيّين الذين قَرَّبُوهُ إليهم، ولكنَّ جَفْوَةَ حَدَثَ بينه وبين أميرها المُستَصر بن أبي زكرياء الحفصيّ أدَّتْ إلى مَقْتَلِهِ، حيثُ قُتِلَ قَعَصاً بِالرِّمَاح سنة ٦٥٨هـ.

ابن مَحْشَرَة

هو أبو الفضل بن محمد بن عليّ بن طاهر بن تميم، اشتهرَ بابن مَحْشَرَة، ترجمَ له المراكشيّ في المعجب^{٢٨٩} والغبريّ في عنوان الدَّراية^{٢٩٠}.

^{٢٨٥} ينظر: الغبريّ، عنوان الدَّراية، ١٨٣.

^{٢٨٦} ينظر: المقرّي، نفع الطَّيب، ٢: ٥٨٩.

^{٢٨٧} ينظر: عبد المجيد، عبد العزيز، ابن الأَبَّار، حياته وكتبه (المغرب: المطبعة الحسنية، ط ١، ١٩٥٤م).

^{٢٨٨} ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق: ليفي برونفسال (لبنان: دار المكشوف، ط ٢،

١٩٥٧م)، ٢٧٢.

وُلِدَ أَبُو الْفَضْلِ بْنِ مَحْشَرَةَ سَنَةَ ٥٤٠ هـ أَوْ قَبْلَهَا بِبَسِيرٍ فِي مَدِينَةِ بَجَايَةِ، وَكَانَ أَبُوهُ قَاضِيًا فِيهَا، وَكَانَ ابْنُ مَحْشَرَةَ ذَا عِلْمٍ وَاسِعٍ، مُتِمِّكُنَ الْمَعْرِفَةِ، وَجِيهًا مُشْرِفًا، اسْتَدْعَاهُ الْخَلِيفَةُ الْمَنْصُورُ إِلَى مَرَاكَشَ، وَوَلَاهُ الْكِتَابَةَ، وَرَحَلَ مَعَهُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ حَيْثُ كَتَبَ عَنْهُ رِسَالًا بَعْضُهَا صَدَرَ مِنْ إشبيلية^{٢٩١}، تَوَفِيَ سَنَةَ ٥٩٨ هـ.

أبو الحسن بن عيَّاش

هُوَ أَبُو الْحَسَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عِيَّاشَ بْنِ فَرَجَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ هَارُونَ الْأَزْدِيِّ الْقُرْطُبِيِّ، تَرَجَّمَ لَهُ ابْنُ الْأَبَّارِ فِي التَّكْمِلَةِ^{٢٩٢} وَابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الذِّيلِ وَالتَّكْمِلَةِ^{٢٩٣}.

يَعُودُ أَصْلُ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ عِيَّاشَ إِلَى مَدِينَةِ يَابِرَةِ غَرْبِيِّ الْأَنْدَلُسِ، سَكَنَ أَبُوهُ قُرْطُبَةَ، وَنَشَأَ هُوَ بِهَا، أَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ أَبِيهِ، وَعَنْ عُلَمَاءَ آخَرِينَ مِنْهُمْ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ بَشْكَوَالٍ، أَجَادَ فِي النِّظْمِ وَالتَّنْثِيرِ، حَيْثُ كَانَ شَاعِرًا بَلِيغًا، وَأَدِيبًا كَاتِبًا، بَارِعَ الْخَطِّ، جَمِيلَ الْوَرَاقَةِ، كَمَا أَلَمَّ بِالْفِقْهِ وَرَوَى الْأَحَادِيثَ، وَاتَّصَفَ بِالْوَرَعِ وَالزُّهْدِ، اسْتَكْتَبَهُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَمْدِينَ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ أَوَاخِرَ أَيَّامِ الْمُرَابِطِينَ، وَحَظِيَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةٍ كَبِيرَةٍ، وَعِنْدَمَا حَدَّثَتْ فِتْنَةٌ فِي قُرْطُبَةَ فَرَّ ابْنُ عِيَّاشَ إِلَى إشبيلية وَانْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ فِي بَعْضِ قَرَاهَا، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ عَامِلُ إشبيلية لِلْمُوحِدِينَ وَأَلْزَمَهُ الْكِتَابَةَ عَنْهُ، فَتَقَلَّدَ الْكِتَابَةَ عَلَى كُرْهِهِ، وَقَدْ ذَاعَ صَيْتُهُ، فَكَتَبَ لِلْأَمِيرِ أَبِي حَفْصَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، ثُمَّ لِأَخِيهِ الْأَمِيرِ أَبِي مُحَمَّدٍ بَعْدَ مَقْتَلِ كَاتِبِهِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ عَطِيَّةٍ، ثُمَّ لِأَخِيهِمَا الْأَمِيرِ أَبِي يَعْقُوبَ وَهُوَ وَالِإشبيلية.

كَانَتْ لَهُ عِنْدَ الْوَلَاةِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَنَالَ بِسَبَبِ ذَلِكَ دُنْيَا عَرِيضَةً، حَتَّى عَدَلَ عَنْ طَرِيقَتِهِ الْأُولَى فِي الزُّهْدِ، أَنْشَدَ فِي الْمَرَضِ الَّذِي تَوَفَّى بِهِ:

عَصَيْتُ هَوَى نَفْسِي صَغِيرًا فَعِنْدَمَا رَمَتْنِي اللَّيَالِي بِالْمَشِيبِ وَبِالْكِبَرِ
أَطَعْتُ الْهَوَى عَكْسَ الْقَضِيَّةِ لَيْتَنِي خُلِقْتُ كَبِيرًا وَانْتَقَلْتُ إِلَى الصَّغَرِ.

^{٢٨٩} ينظر: المراكشي، المعجب، ١٤٩.

^{٢٩٠} ينظر: الغبريني، عنوان الدراية، ٣٠.

^{٢٩١} ينظر الرسالتين في: بروفنصال، لافي، رسائل موحدية، ١٥٨، ٢١٨.

^{٢٩٢} ينظر: ابن الأبار، التكملة، قسم ٣: رقم الترجمة: ١٧٢١.

^{٢٩٣} ينظر: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ٥: ٢٧.

توفي بعد ذلك بثلاثة أيام، وكانت وفاته سنة ٥٥٦٨هـ.

أبو القاسم البلوي

هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القضاعي البلوي، ترجم له ابن سعيد في اختصار القَدَحِ المعلّى^{٢٩٤} وابن عبد الملك في الذيل والتكملة^{٢٩٥}.

ولد أبو القاسم البلوي في إشبيلية سنة ٥٥٧٥هـ، تولى القضاء والكتابة حيث كتب للولاة الذين تعاقبوا على إشبيلية مثل أبي زيد بن الخليفة عبد المؤمن وأخيه أبي موسى ثم لابنه أبي عمران بن أبي موسى، كما كتب لأبي إسحاق بن الخليفة يوسف، ولأبي إسحاق بن الخليفة المنصور وغيرهم، توفي سنة ٥٦٥٧هـ.

أبو الحكم بن المرخي

هو أبو الحكم بن أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن محمد اللخمي القرطبي، يُعرف بابن المرخي (كما ضبطه تلميذه ابن دحية)، ترجم له ابن دحية في المطرب^{٢٩٦} وابن عبد الملك في الذيل والتكملة^{٢٩٧}.

وُلِدَ أبو الحكم بن المرخي في قرطبة سنة ٥٥١٩هـ، في بيت عريق بالنباهة والأدب، فقد كان أبوه وزيراً جليلاً، بذّ أبو الحكم أهل وقته في الكتابة والأدب، حيث كتب للخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن زماناً، ثم إنَّ أبا يعقوب خيم بظاهر إشبيلية في غزوة من غزواته، ونهى أهل محله كلهم عن الدخول إلى إشبيلية، فدخل إليها أبو الحكم، فهجره أبو يعقوب ثم أقصاه ولم يعد إلى الكتابة، توفي سنة ٥٥٨٤هـ وقد شهد جنازته ابن دحية صاحب المطرب.

^{٢٩٤} ينظر: ابن سعيد، اختصار القَدَحِ المعلّى، ٦٥٨.

^{٢٩٥} ينظر: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ١: ٤٥٣.

^{٢٩٦} ينظر: ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي بن محمد بن دحية الكلبي الأندلسي (ت ٦٣٣هـ-)،

المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرون (بيروت: دار العلم للجميع، د.ت) ٢٨.

^{٢٩٧} ينظر: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ٥: ٣١٢.

إدريس المأمون

هو أبو العلاء إدريس بن الخليفة يعقوب بن الخليفة يوسف بن الخليفة عبد المؤمن بن عليّ الكومي، ترجم له ابن عذارى في البيان المغرب^{٢٩٨} وابن الخطيب في الإحاطة^{٢٩٩} كما نجد ترجمة له في الحلل الموشية^{٣٠٠}.

كان عالماً كاتباً أديباً فصيحاً كتَبَ بخطِّ يده رسائلَ عديدةً عندما كان والياً لإشبيلية، وعندما تولى الخلافة كتَبَ الرسالة الشهيرة التي تَبَرَّأ بها من عقيدة ابن تومرت وأمرَ بمحو اسم المهديّ من الخطبة والسكة وألغى السنن التي اختص بها ابن تومرت وأتباعه^{٣٠١}، تُوفي سنة ٥٦٢٩هـ.

ابن جُبَيْر

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكِنَانِي الأندلسي، ترجم له ابن الأثير في التكملة^{٣٠٢} وابن سعيد في المغرب^{٣٠٣} والذهبي في سير أعلام النبلاء^{٣٠٤} وابن الخطيب في الإحاطة^{٣٠٥} والمقري في نفح الطيب^{٣٠٦}.

وُلِدَ ابن جُبَيْر في بلنسية أو شاطِبة سنة ٥٥٤٠هـ، برَع في القراءات والحديث وفي الآداب، كما برَع في نَظْم الشعر وإنشاء النثر، كتب لوالي غرناطة، اتَّجَهَ إلى الزُّهد، وزار

^{٢٩٨} ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ٢٤٥.

^{٢٩٩} ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ١: ٤١١.

^{٣٠٠} ينظر: مؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الثامن الهجري، الحلل الموشية، ١٦٣.

^{٣٠١} ينظر رسالة المأمون في: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ٢٤٦. مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ١٦٤.

^{٣٠٢} ينظر: ابن الأثير، التكملة، قسم ٣: رقم الترجمة ١٥٨١.

^{٣٠٣} ينظر: ابن سعيد، المغرب، ٢: ٣٨٤.

^{٣٠٤} ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢: ٤٥.

^{٣٠٥} ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ٢: ٢٣٠.

^{٣٠٦} ينظر: المقري، نفح الطيب، ٢: ٢٨١.

المشرقَ ثلاثَ مراتٍ، وسجّل ملاحظاته ومُشاهداته في رحلته الأولى بأسلوبٍ بارعٍ شيق^{٣٠٧} توفي في رحلته الثالثة سنة ٥١٤ هـ في الإسكندرية.

أبو الحسن الأشبيلي:

هو أبو الحسن عليّ بن زيد بن النّجار الأنصاري الأشبيلي، ترجم له ابن الأبار في تحفة القادم^{٣٠٨}، وابن عبد الملك في الذيل والتكملة^{٣٠٩}.

كُتب أبو الحسن الإشبيلي رسائل ديوانية للخليفة يوسف بن عبد المؤمن، توفي بالطّاعون سنة ٥٧٢ هـ.

ابن سعيد

هو أبو الحسن نور الدّين علي بن موسى بن سعيد العنسيّ الغرناطيّ، تُوجد ترجمةٌ وافيةٌ له في صَدْر كتابه (المغرب)، كما تَرجمَ له المقرّي في نفح الطّيب^{٣١٠}.

وُلِدَ ابنُ سعيد في غِرْنَاة سنة ٥١٠ هـ، ونَشَأَ في بيتِ عِلْمٍ وأدب، كان كاتباً وشاعراً، كما كان مُؤرِّخاً، حيثُ أكملَ كتابَ المغرب في حُلَى المغرب الذي بدّاه أبوه وجدّه من قبله، قام برحلةٍ للمشرق، وكانت وفاته سنة ٥٨٥ هـ، وقد اختلّف بمكان وفاته، فقيل في دِمَشق، وقيل في تُونس.

ابن صِقْلاب:

هو أبو بكرُ يزيد بن محمّد بن صِقْلاب، ترجم له ابن سعيد في المغرب^{٣١١}، كما ورد ذكره في تراجم الأعلام للزركلي^{٣١٢}.

^{٣٠٧} دَوْن ملاحظاته ومُشاهداته في كتابه المعروف بـ (رحلة ابن جبیر) (بيروت: دار صادر، ١٩٥٩ م).

^{٣٠٨} ينظر: ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ١٠٨.

^{٣٠٩} ينظر: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ٥: ٢١٤.

^{٣١٠} ينظر: المقرّي، نفح الطّيب، ١: ٤٥٣.

^{٣١١} ينظر: ابن سعيد، المغرب، ٢: ٢٠٦.

^{٣١٢} ينظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢ م)، ٨: ١٨٧.

ولد أبو بكر بن صقلاب في ألمرية، وتقلد أعمالها بعد أبيه، كان كاتباً وشاعراً، توفي سنة ٥٦١٩.

ابن مَرَج الكُحل:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عليّ بن إبراهيم بن القاسم، المعروف بمرج الكحل أو ابن مَرَج الكُحل، ترجم له ابن الأثير في التكملة^{٣١٣}، وابن الخطيب في الإحاطة^{٣١٤}.
ولد أبو عبد الله بن مرج الكحل في بلنسية سنة ٥٥٥٤ وأقام في جزيرة شقُر، كان على هيئة أهل البادية، وكان شاعراً مطبوعاً وكاتباً حسناً، توفي سنة ٥٦٣٤.

الشَّقْنَدِي

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي، ترجم له ابن سعيد في اختصار القدح المعلى^{٣١٥} والذهبي في سير أعلام النبلاء^{٣١٦} والمقري في نفح الطيب^{٣١٧}.
ولد أبو الوليد في شقندة إحدى قرى قرطبة، تولى القضاء وكان شاعراً وكاتباً، اشتهر برسائله التي فاخر فيها بالأندلس، توفي في إشبيلية سنة ٥٦٢٩.

عَزِيز بن خَطَّاب

هو أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطّاب الأزدي، ترجم له ابن الأثير في الحلة السراء^{٣١٨} وابن سعيد في اختصار القدح المعلى^{٣١٩}.
وُلد عزيز بن خطّاب في مُرسية سنة ٥٥٩٦، كان في أول أمره عالماً زاهداً مُعرضاً عن الدنيا وأهلها، اختاره ابن هُوْدٍ ليتولى أمورَ مُرسية نيابةً عنه، وعِنْدما توفي ابن هُوْدٍ

^{٣١٣} ينظر: ابن الأثير، التكملة، قسم ٣: رقم الترجمة ١٦٥٦.

^{٣١٤} ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ٥: ٥١.

^{٣١٥} ينظر: ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، ١٣٨.

^{٣١٦} ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢: ٤٥.

^{٣١٧} ينظر: المقري، نفح الطيب، ٣: ١٨٧.

^{٣١٨} ينظر: ابن الأثير، الحلة السراء، ٢: ٢٤٩، ٣١٥.

^{٣١٩} ينظر: ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، ١٤٦.

استبدَّ بالحكم ولم تُحمد سيرته، توفي سنة ٦٣٦هـ قتلاً على يد حاكم بلنسية زيّان بن مردنيش.

وثمة كاتبان آخران هما أحمد بن محمد وابن مُصادِق، ولم أجد في المصَادِر التي اطلعتُ عليها ترجمةً لهما، وقد حَوَى هذا البحث رسالةً واحدةً لكلٍّ منهما.

كُتَابُ مَجْهُولُونَ

نَجِدُ في ثنايا البحث رسائلَ لم يُعرَف كاتبوها، وكانت تلك الرّسائل ديوانيّة، صدرَ بعضها عن الخلفاء أو الولاة، وكانت تلتزِمُ بمواصفات الرّسائل الدّيوانيّة التي خطّها الكتّابُ الكِبار، وصدر بعضها عن عامّة النّاس كرسائل الشّكاية التي كانت تُرْفَعُ إلى الحُكّام، ولعلَّ اهتمام المصَادِرِ بموضوع الرّسالة أو بَمَن صدرت عنه كان سبباً في إغفال ذِكرِ كاتبها.

الفصل الثاني

أنواع الرسائل الأندلسية وموضوعاتها.

تُبْرزُ الصُّورَةُ الفَنِّيَّةُ المضمون كما تُبْرزُ الشَّكْلُ في آنٍ واحدٍ وذلك بحسبِ نَظَرِيَّةِ النِّظْمِ (الصِّيَاغَةِ) الَّتِي وَضَعَهَا الجَرَجَانِي^{٣٢٠}، وبحسبِ مفهومِ الصُّورَةِ الفَنِّيَّةِ الَّذِي تَبَنَاهُ البَاحِثُ، وفي هذا الفصل يَذْهَبُ البَاحِثُ إِلَى تَسْلِيْطِ الضُّوءِ عَلَى مَضَامِينِ الرِّسَالَةِ الأندلسيَّةِ الَّتِي كَتَبَتْ فِي عَصْرِ المُوَحِّدِينَ.

الرِّسَالَةُ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ النِّشْرِ الفَنِّيِّ، وَتُشَكِّلُ جَنْسًا أَدَبِيًّا قَائِمًا بَذَاتِهِ، وَتَنْضَوِي تَحْتَ هَذَا الجَنْسِ أَنْوَاعٌ مِنَ الرِّسَالَةِ مَخْتَلِفَةٌ الْأَسَالِيبِ وَالْمَوَاضِيعِ وَالْأَغْرَاضِ، وَإِذَا اسْتُشْنِيَتْ الرِّسَالَةُ "الَّتِي خُصِّتْ فِي اصْطِلَاحِ الْعُلَمَاءِ بِالْكَلامِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى قَوَاعِدِ عِلْمِيَّةٍ، وَالْفَرْقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكِتَابِ عَلَى مَا هُوَ مَشْهُورٌ إِثْمًا بِحَسَبِ الْكَمَالِ وَالنَّقْصَانِ، فَالْكِتَابُ هُوَ الْكَامِلُ فِي الْفَنِّ، وَالرِّسَالَةُ غَيْرُ الْكَامِلِ فِيهِ"^{٣٢١} كَالرِّسَالَةِ الصُّوفِيَّةِ^{٣٢٢}، وَالرِّسَالَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ^{٣٢٣} الَّتَيْنِ تُعَدَّانِ بِحَسَبِ الْمَفْهُومِ السَّابِقِ كُتُبًا غَيْرَ مُكْتَمَلَةٍ، فَإِنَّ مَا تَبَقَّى بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ رِسَالَةٍ يَتَنَوَّعُ فِي أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَقَدْ تَعَدَّدَتْ الْأَرَاءُ فِي أَنْوَاعِ الرِّسَالَةِ، فَمِنْ رَأْيٍ أَسْهَبَ فِي أَنْوَاعِهَا فَقَسَمَهَا إِلَى دِيَوَانِيَّةٍ وَأَدَبِيَّةٍ وَسُلْطَانِيَّةٍ وَإِخْوَانِيَّةٍ وَرِسْمِيَّةٍ وَشَخْصِيَّةِ^{٣٢٤}، إِلَى رَأْيٍ آخَرَ اخْتَصَرَ فِي ذَلِكَ حَيْثُ جَعَلَهَا نَوْعَيْنِ: سِيَاسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةِ^{٣٢٥}، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ صُعُوبَةِ حَصْرِ أَغْرَاضِ

^{٣٢٠} الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٢٥٤.

^{٣٢١} التَّهَانَوِي، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّهَانَوِي (ت بعد ٥١٥٨هـ) كَشَافُ اصْطِلَاحَاتِ الْفُنُونِ (طهران: مطبعة تهراني، ١٩٩٤م) ١: ٤٥٩.

^{٣٢٢} مِنَ الرِّسَالَةِ الصُّوفِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ يَنْظُرُ: ابْنُ عَرَبِيٍّ، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَرَبِيٍّ (٥٦٠ - ٦٣٨هـ)، رِسَالَةُ ابْنِ عَرَبِيٍّ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ عَبْدِ الْكَرِيمِ النَّمْرِي (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م).

^{٣٢٣} مِنَ الرِّسَالَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ: يَنْظُرُ ابْنُ طَفِيلٍ، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ طَفِيلٍ (٤٩٤ - ٥٨١هـ)، رِسَالَةُ حَيٍّ بْنِ يَقْظَانَ، تَقْدِيمُ: عَلِيٍّ بَوْمَلَحَمٍ (بيروت: دار الهلال، ١٩٩٣م).

^{٣٢٤} ضَيْفٌ، شَوْقِي، تَارِيخُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، الْعَصْرُ الْإِسْلَامِيُّ (القاهرة: دار المعارف، ٢٤٤، ١٩٩٧م)، ١٢٩.

^{٣٢٥} أَبُو عَلِيٍّ، نَبِيلٌ، نَقْدُ النِّشْرِ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م)، ٢٦٧.

الرسائل بتقسيماتٍ مُحدّدة تفي بأغراضها، إلا أنّ الباحث ارتأى أن يُقسّم رسائل هذا البحث في أنواع ثلاثة هي: ^{٣٢٦}

أولاً: الرسائل الرّسميّة أو الدّيوانيّة

ويمكن تعريفها بأنّها (المكاتبات الرسمية الصادرة عن دواوين الدولة وإليها) ^{٣٢٧}، ويكون أحد طرفي تلك الرسائل ذا صفةٍ رسميّة في الدّولة، أو بمعنى آخر (هي الرسائل الصّادرة عن ديوان الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الوالي أو القائد، أو الرسائل الواردة إلى ذلك الديوان، وفي كلتا الحالتين يكون الكاتب مُتكلماً باسمه الشخصي، أو نائباً عن شخصٍ آخر أو أشخاص آخرين) ^{٣٢٨}.

موضوعات الرسائل الرّسميّة أو الدّيوانيّة

عند تتبّع هذا النوع نجد أنّ رسائله تتناول موضوعاتٍ عديدة أهمّها:

البيعة

البيعة لغة الصّفقة على المبايعة والطاعة ^{٣٢٩}، وهي "العهد على الطاعة كأن يُعاهد أميره على أنه يُسلّم له النّظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا يُنازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه" ^{٣٣٠} والأصل في البيعة أنّ الرجال المبايعين "كانوا إذا بايعوا الأمير، وعقدوا عهده، جعلوا أيديهم في يديه تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسُمّي بيعة، مصدر باع، وصارت البيعة مُصافحةً بالأيدي، هذا مدلولها في

^{٣٢٦} ينظر: ملحق رقم ٤.

^{٣٢٧} هجّت، منجد مصطفى، والسليقي، علاء الدين، معجم مصطلحات نظرية الأدب (كوالامبور: دار التجديد للطباعة والنشر، ط ٣، ٢٠١٣م)، ١٦٩.

^{٣٢٨} استنتج الباحث هذا التعريف بعد استقراء الرسائل الدّيوانيّة الواردة في البحث.

^{٣٢٩} ابن منظور، لسان العرب، مادة بيع

^{٣٣٠} ابن خلدون، تاريخه، المقدمة: ٤٦.

عرف اللغة، ومدلول الشرع"^{٣٣١}، ولكن كثرة المبايعين واتساع الدولة والبعد بين البلاد كانت أسباباً استدعت أن تكون طريقة البيعة مختلفة عن ذلك، فقد تكون البيعة بالتوكيل وقد تكون بالكتابة حيث عُرِفَت البيعة بالإنابة أو بالكتابة منذ بدايات التاريخ الإسلامي، ويدل على ذلك كتاب النجاشي ملك الحبشة إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي كتب فيه "...وقد بايعتُك وبايعتُ ابنَ عمِّك وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين"^{٣٣٢}.

كانت رسائل البيعة التي تصدر عن الأندلس تنطقُ بلسان المبايعين "الذين تحضُّرهم من الله حاضرة التوفيق، وَيَنْظُرُ إليهم نظراً الاقتداء والاهتداء مَنْ وراءهم مِنْ أهل الحقِّ والتَّحقيق"^{٣٣٣} وكانت بعض تلك الرسائل تتضمن تجديد البيعة للأمير يوسف بن عبد المؤمن بعد أن تلقب بلقب الخلافة (أمير المؤمنين) وجُددت له البيعة بمراكش سنة ٥٦٣هـ، فوجّه رسائل إلى الولايات يطلب تجديد البيعة له، فاهالت الرسائل على مراكش وكان منها رسالة أهل إشبيلية الذين أعلنوا "تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين - خلد الله أمرهم وأعز نصرهم - بالاسم المبارك الكريم، الذي أول مَنْ دُعي به الفاروق - رضوان الله تعالى عليه-.....فبايعنا على السمع والطاعة ببيعة إيمان وأمانة، وعدلٍ وعِبادَةٍ، والتزمناها في اليُسْر والعُسْر، والمنشط والمكره، واعتقدناها عصمة ديننا وذُخْر معادنا، وتمسكنا منها بالعروة الوثقى، والعصمة التي مَنْ تعلّق بجلها وآوى إلى ظلّها فقد اعتصم بالجانب الأيمن الأوقى، علماً إنّها البيعة الرضوانية، والدعوة التي تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها العناية الربانية، علينا بذلك عهدُ الله الأوكَد الأَلزم، وميثاقه الأعْلَظ الأعْظَم، وذمُّته التي لا يُقْطَع حبلُها على مرّ الزّمان ولا يُصرَم، مُستبصرين

^{٣٣١}المصدر السابق، المقدمة: ٤٦.

^{٣٣٢}ابن قَيِّم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجوزية (٦٩١ - ٧٥٢هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: حمدي بن نور الدين آل نوفل(القاهرة: مكتبة المورد، ٢٠٠٢م)، ٣: ٦٠٠.

^{٣٣٣}ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ٣٤٠. عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١١. والنص من رسالة بيعة أهل إشبيلية للخليفة يوسف.

في هذه البيعة الكريمة بنور الاهتداء، سالكين في التزام الطاعة على المحجة البيضاء، عارفين ما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء^{٣٣٤}.

وقد تكون البيعة لولي العهد، ومن الرسائل التي تضمنت ذلك الرسالة التي أرسلها "الملا بقرطبة وأعمالها - حرسها الله - من الطلبة والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية من حاضر منهم ومن باد^{٣٣٥} إلى الخليفة أبي يوسف يعقوب بن يوسف المنصور يبايعون فيها "للأمير الأجل السيد السعيد الأوحـد الأكمل الأفضل ولي العهد الكريم وذـي المجد الصميم أبو عبد الله محمد ابن سيدنا أمير المؤمنين^{٣٣٦}.

ويتضح من خلال هذه الرسائل أن البيعة كانت تتم استجابة لطلب الخليفة حيث أجمعت "طائفة الحق وأنصار الدين على سؤال سيدنا ومولانا أمير المؤمنين والرغبة إليه، وإعادة الطلب له، بما رجوه من الإسعاف لديه، في أن يعلق إيمانهم من هذا الأمير السيد السعيد بيمين، ويحمله عهده الكريم بتخصيص له لذلك المقام العظيم وتعيين^{٣٣٧}.

كما تتضح مراسيم البيعة، حيث كان المبايعون من مختلف فئات المجتمع يعلنون البيعة أمام الوالي ثم يكتب كتاب البيعة ويكتب المبايعون أسماءهم بخطوط أيديهم حيث "شهدوا الله على أنفسهم طائعين، وكتبوا عليها خطوط أيديهم على أحوالهم الموصوفة مبادرين ومُسارعين^{٣٣٨}، ويكون ذلك بحضور الوالي وشهادته فقد "كتب أهل غرناطة بيعتهم، وفيها إشهارهم على أنفسهم بخطوط أيديهم، وبمحضر الشيخ الأجل الحافظ المرحوم أبي عبد الله^{٣٣٩} ويختار الوالي وفداً منهم ليحملوا الكتاب إلى الخليفة، وعندما يعود الوفد يكون قد تحل كتابا من الخليفة للوالي يوصي بالرعية ويتواصى بالوفد فقد جاء في كتاب الخليفة يوسف "وقد انصرف هؤلاء الأشياخ المذكورون بعد إقامتهم بهذه

^{٣٣٤} المصدران السابقان، ٣٤٠، ١١١.

^{٣٣٥} عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ١٩٣.

^{٣٣٦} المصدر السابق، ١٩٤. النص من الرسالة السابقة.

^{٣٣٧} المصدر السابق، ١٩٤. النص من الرسالة السابقة.

^{٣٣٨} المصدر السابق، ١٩٥. النص من الرسالة السابقة.

^{٣٣٩} ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ٣٤٣. النص من رسالة بيعة صدرت عن أهل غرناطة.

الحضرة، ونيلهم بركاتها، فاعرفوا لهم حق وفادتهم، ومكان زيادتهم، وأحملوهم وكافة جيرانهم على الرعاية المتصلة، والمبرة الحافلة المشتملة^{٣٤٠}.

الإخبار

بعض الرسائل ذات طابع إخباري، حيث إن الرسالة تهدف إلى الإخبار والإعلام بأحداث حصلت، ومن هذه الأحداث النصر على الأعداء، ولعل الرسالة التي كتبها أبو الحسن بن عيَّاش تصلح للتمثيل على رسائل الإخبار بالنصر، فقد كتب ابن عيَّاش الرسالة عن أبي سعيد وأبي حفص ابني الخليفة عبد المؤمن وأرسلها إلى والي إشبيلية يُخبرانه بانتصار جيوش الموحدين على محمد بن سعد بن مردنيش الذي أبي الخضوع لدولة الموحدين، وظلّ خارجاً عليها، حتى استطاع الموحدون كسر شوكته، وفلّ جمعه، فكانوا كلمًا "مروا بمدينة من مدائنه، أو حصن من حصونه، انحمر الأشقياء الذين يضبطونها فيها انجحار الثعالب، وانزواء المغلوب بعزة الغالب"^{٣٤١}.

وتُخبر الرسالة بأن الموحدين جمّعوا الغنائم وعاثوا في أرض عدوهم الفساد فقد "أجال أولياء الله على الأرزاق الموجودة في نواحيها يتسّفون رَغدها، ويلحقون بيومها غدها، حتى كثرت نعم الله المؤيدة من الأطعمة والأعشاب وضروب الفواكه من الرطبة واليابسة"^{٣٤٢}.

كما تُخبرنا عن مكونات الجيشين: الموحدي الذي ضمّ البربر إلى جانب العرب حيث "بُعِثت خيلٌ مباركة من الموحدين والعرب لشنّ الغارة في الميمنة والميسرة من تلك الأقطار والجهات"^{٣٤٣}، والجيش المعادي الذي تكوّن من أتباع ابن مردنيش من أهل الأندلس، وجمع كبير من النصاري يُظاهرونهم ويُقاتلون معهم وكانوا قد "ترددوا بسفح الجبل زهاء ثمانية آلاف فارس أكثرهم أرغون، وقفوا يتشاورون ويتنازعون، ولم يجدوا

^{٣٤٠} ابن صاحب الصلاة، تاريخ المنّ بالإمامة، ٣٤٤. عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٩٥.

^{٣٤١} المصدران السابقان، ١١٥. ٩٠. والرسالة من إنشاء أبو الحسن بن عيَّاش.

^{٣٤٢} المصدران السابقان، ١١٥. ٩٠.

^{٣٤٣} المصدران السابقان، ١١٥. ٩٠.

مَحِيداً عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي ضَمَّتْهُمْ، وَلَا مَنَفَذاً إِلَّا فِي السَّاقَاتِ الَّتِي حَفَّتْ مُحِيطَةً بِهِمْ وَعَمَّتْهُمْ" ٣٤٤.

ثُمَّ يَأْتِي الْإِخْبَارُ بِنَتِيجَةِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَحَقَّقَ النَّصْرُ فِيهَا لِلْمُوحِّدِينَ "وَاجْفَلَ الْكَفَرَةُ مُنْهَزِمِينَ، وَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ مُدْبِرِينَ، وَالسَّيْفُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ، وَحَزَبُ اللَّهِ يَتَقَدَّمُ غَالِباً فَيَصْرَعُ وَيَصْدَعُ، وَقُتِلَ رِجَالُ الشَّقِيِّ وَمَشَاهِيرُهُ، وَالرُّومُ أَكْثَرُ الْقَتْلَى فِيهِمْ، فَخَرُوا "كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ"، وَعَجَّلَ اللَّهُ بِأَرْوَاحِهِمْ إِلَى نَارِهِ الْحَامِيَةِ، وَسَقَطُوا مِنْ مَهْوَاهِمُ إِلَى الْهَاطِيَةِ، وَلَاذِ الشَّقِيِّ الْفَلِيلِ، فِي الْعَدَدِ الْقَلِيلِ، إِلَى الْأَخْبِيَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْفَرَارِ، لَا لِلْقَرَارِ" ٣٤٥.

وَمِنَ الرِّسَالِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ هَذَا الْمَوْضُوعَ رِسَالَةٌ كَتَبَهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشٍ عَنِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ يُخْبِرُ فِيهَا بِفَتْحِ حَصْنِ شَلْبُطْرَةَ الَّذِي "عُلِّقَتْ بِهِ حَبَائِلُ الصُّلْبَانِ، وَتَأَلَّمَ بِبَقَائِهِ وَسَطَ الْبِلَادِ قَلْبُ الْإِيمَانِ، وَضَجَّ مِنْ نَاقُوسِهِ مَا فِي جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ مِنَ التَّكْبِيرِ وَالْأَذَانِ مَرْقُبُ الدَّوَى، وَعُقَابُ الْجَوِّ، الْعَلَمُ الْمَطْلُ عَلَى الْأَعْلَامِ، وَالتَّكْنَةُ السَّوْدَاءُ الَّتِي بَقِيَتْ فِي بَسَاطِ الْإِسْلَامِ" ٣٤٦ وَتُخْبِرُ الرِّسَالَةَ بِأَنَّ الْمُوَحِّدِينَ قَدْ حَاصَرُوهُ حِصَاراً شَدِيداً، وَرَمَوْهُ بِالْمَنْجَنِيقِ تَارَةً وَبِالنَّبْلِ تَارَةً أُخْرَى، حَتَّى "خَرَجَ أَهْلُ الْمَعْقِلِ الْمَذْكُورِ وَفَارَقُوهُ عَلَى تَسْلِيمِ الدَّارِ لِمَنْ لَهُ عُقْبَى الدَّارِ، فَنَبَذْنَا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ احْتِقَاراً، وَسَارُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَحْمِلُونَ هُمُوماً طَوَالاً وَآمَالاً قِصَاراً، وَعَلَى أَثَرِهِمْ طَهَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَعْقِلَ مِنَ الْأُرْدَانِ، وَبَدَّلَ اللَّهُ فِيهِ النَّاقُوسَ بِالْأَذَانِ، وَعَادَتْ الْكَنِيسَةُ مَسْجِداً عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ" ٣٤٧.

وَنَجِدُ رِسَالَةً أُخْرَى لِأَحَدِ الْخُلَفَاءِ ٣٤٨ يُبَشِّرُ شَيْخاً صَالِحاً بِالنَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ الَّذِي "أَعَانَ اللَّهُ عَلَى قَمْعِ شِدَّتِهِ، وَإِطْفَاءِ جَمَرَتِهِ، فَاَنْقَبَضَ تَبَسُّطُهُ، وَانْقَمَعَ تَسْلُطُهُ، وَعَادَتْ

٣٤٤ المصدران السابقان، ١١٦. ٩٢.

٣٤٥ المصدران السابقان، ١١٧. ٩٣.

٣٤٦ عزّاوي، أحمد، رسائل موحّدية، ٢٦٦.

٣٤٧ المصدر السابق، ٢٦٨.

٣٤٨ الرسالة كُتِبَتْ عَنِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ (مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ النَّاصِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ...) وَلَكِنْ تَارِيخُ الرِّسَالَةِ الْمَثْبُوتِ فِيهِ نَهَايَتُهَا كَانَ (مُنْسَلَخَ شَعْبَانَ الْمَكْرَمِ سَنَةِ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ وَسِتَّمِائَةٍ) أَيَّ بَعْدَ وَفَاةِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ الَّذِي تُوُفِيَ عَقِبَ مَعْرَكَةِ الْعِقَابِ سَنَةِ ٥٦٠٩ هـ، لِذَا فَقَدْ تَكُونُ الرِّسَالَةُ عَنِ النَّاصِرِ وَأَخْطَأَ النَّاسِخُ فِي كِتَابَةِ سَنَةِ التَّارِيخِ، وَهَذَا

صولته ذلة، وكثرته قلة، ووهن كيده، وضعف أيده^{٣٤٩} وكان هذا الشيخ قد دعا للخليفة بالنصر، فكان أثر الدعاء أكبر من الرجال وعدّتهم "فالله تعالى يعلم إن اعتقادنا بالدعاء فوق الاعتقاد بسمر الصّعاد، والبيض الحداد، وإن دعوة منكم آثر عندنا من مائة ألف بطل فوق مائة ألف جواد"^{٣٥٠}.

وكما أخبرت الرسائل بالنصر والفتح فقد أخبرت بالهزيمة أيضاً، فهذا الخليفة الناصر يُخبر بهزيمة الموحدّين المؤلمة في معركة العقاب، عندما تلاقت الفِتان "في الموضوع المعروف بالمرشة، فكان بين المسلمين وبين أعدائهم يوم ذو كواكب، نازعت فيه المواكب على المواكب، وموقف نرجو أن يراه الله لنا، وأن يقبل فيه عملنا، اشتدّ فيه الكفاح، وأرخصت فيه الأرواح، لكن أراد الله أن يمحّص المؤمنين، ويولي فيه الكافرين، فكانت عاقبة اليوم على الخصوص لأهل الصلّبان، والعاقبة المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان"^{٣٥١} ويُخبر الناصر رعيته بأن هذه الهزيمة لن تكون نهاية المطاف، فالموحدّون سوف يُعيدون الكرّة على عدوّهم "فلا تهنّوا فإنّا لا نهنّ"^{٣٥٢}، وانتظروا الكرّة على الكفار، والإمداد عليهم بجند الله الذين هم خير الأنصار، فما كان الله ليترك المؤمنين حتّى يأخذ أعداءهم أخذاً وبيلاً"^{٣٥٣}.

إضافة إلى الإخبار بالنصر والهزيمة فإنّ بعض الرسائل أخبرت باتفاقيات الهدنة مع النصارى، ومن هذه الرسائل ما كتبه أبو الحسن الأشبيلي عن الخليفة يوسف معلماً باتفاقية الهدنة والأسباب الموجبة لها "فوقعت المذاكرة في ذلكم والمفاوضة مع شيوخ الموحدّين - أعانهم الله - ونظر بحسب التّصبة حال الجزيرة - كالأها الله - وضعف أطرافها، واستيلاء الضنك والأزل على ثغورها، وهي التي كانت هذه الحركة السعيدة في

ما يرجّحه الباحث وذلك لوجود أوجه شبيهين هذه الرسالة والرسائل التي صدرت عن الناصر، وإما إن الرسالة صدرت عن المأمون الذي كان خليفة الموحدّين في ذلك الوقت، وكتب الرسالة غير معروف.

^{٣٤٩} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٧٠.

^{٣٥٠} المصدر السابق، ٣٧٠.

^{٣٥١} المصدر السابق، ٢٧٩. والرسالة من إنشاء أبي عبد الله بن عياش.

^{٣٥٢} كما جاءت في المصدر والصواب لا نهن.

^{٣٥٣} المصدر السابق، ٢٧١.

إغاثة مُستصرخيها، وجبرِ مُضطهديها، فوضَحَ وبَانَ أَنَّ تَلَكُمُ الأطرافُ — مهّدها الله — يُحتَاجُ جبرها، وما يُعَمَّرُ من خرابها، ويُسَكَنُ خاليها، وإنّما وحالتها تلك لا تحمل وطء الجيوش الحافلة، ولا يُتِمَكَّنُ بمناوشة العدوِّ صلاحُ أحوالها الحائلة، وإنّما بمهادنة العدوِّ تصلُحُ (.....)^{٣٥٤} للأمن مسالك تجارقتها، ومتصرفاتِ عمارتها، والاتّساع في أقواتها، والتّوصل لما تخرج الأرض من ثمراتها، وإنّما بذلك يُتِمَكَّنُ بناءُ معاقِلِها، ويترتّبُ الدُّخولُ إلى بلاد العدو منها، وتكتفّ أعدادُ حُماتها، ويعودُ إليها بالأمن روحُ حياتِها، وتقرّرُ أنّ ذلك هو الأنجع في علاجها، والأرفع في مداواتها"^{٣٥٥}.

أما ابن هود فقد رأى أن يُخَبِّرَ العباسيّين بأحوالِ الأندلسِ بأسلوبٍ آخر، حيثُ أعلَمَ الخليفةَ العباسيّ أنّ رسولَه في الأندلس على علمٍ ودِرايةٍ بالأحوالِ والظُّروفِ، وأنّ الرّسولَ سينقل ذلك إلى الخليفة بلسانٍ صادقٍ وبحجةٍ بينةٍ "ونشأتْ نواشئُ شرحِها طويل، وبرحُها لا يروى له غليل، واستيفاء ذكرِها ما إليه سبيل، وعند رَسولِ الدّيوَانِ العزيز — شرفه الله تعالى — تفسيرٌ لِحملِها وتفصيل، وهذا الفقيهُ العالمُ الصّدرُ الأمين أبو محمّد عبد الوهاب تاج الدين أدام الله رِفعتَه، وحفِظَ بالأبوابِ الشريفة رُتبته — قد اطلّع على الأحوال وأبصرها، وعَلِمَ مُستقصاها ومُستقصَرها، فهو بما أُوتِيَ من صِدقِ اللّهِجة، وبيان الحُجّة، ينهي إلى المقامات العظيمة، والمواقف الكريمة ما يحقّ إنهاؤه ويجب، ويبدو به وجه الحقيقة سافراً لا يَحْتَجِبُ"^{٣٥٦}

وكان ابن هود يَهْدِفُ من عرض أحوالِ الأندلس وظروفها إلى تبرير مهادنته للنصارى، وعدم قتالهم، فها هو يخبر مُعتذراً — في الرسالة التي كتبها عنه ابن الجُتّان — الخليفة العباسي بحالة السّلم مع النّصارى "فمَعذَرَةُ إلى الدّيوَانِ العزيز — قدّسه الله تعالى — وَتَفَضُّلٌ، وبراءةٌ إليه من قضيّةٍ لم يَرَوْ فيها من دمَاءِ الأعداء ذابِلٌ ولا ناصِلٌ، وضَرَاةٌ إليه في عَاطِفَةٍ من عَوَاطِفِ فضله العميم وتوسّل"^{٣٥٧}.

^{٣٥٤} كلمة مأروضة لم يقدرها المحقق.

^{٣٥٥} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٤٢-١٤٣.

^{٣٥٦} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٢٤.

^{٣٥٧} المصدر السابق، ٨١.

التوجيه

كان الخلفاء والحكام يوجهون ولاءهم وعمّالهم ويصدرون إليهم رسائل تتضمن تعليمات ووصايا، وكانت هذه الرسائل تهدف بالمقام الأول إلى خدمة الرعية، والحرص على مصالحها بحسب ما يراه الخليفة أو الحاكم، وكانت أول تلك الرسائل صادرة عن الخليفة عبد المؤمن يأمر فيها الولاة بعدم تنفيذ أحكام القتل إلا بعد استشارته^{٣٥٨} وكانت رسالة ابنه الخليفة يوسف تتضمن الأمر ذاته^{٣٥٩} وكلتا الرسالتين صدرتا من المغرب.

أما الرسائل الأندلسية ذات الصلة بالموضوع فكان منها رسالة أبي عبد الله بن عيَّاش التي أنشأها عن الخليفة المنصور بعد معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ وعمّمها على الولاة في مختلف ولايات الدولة، وجاء في هذه الرسالة تحذير من الفلسفة والفلاسفة الذين "خلّدوا في العالم صُحُفاً ما لها من خلاق، مسوّدة المعاني والأوراق، بعدها عن الشريعة بُعدَ المشرقين، وتباينها تباين الثقلين، يوهمون أنّ العقل ميزانها، والحقّ برهانها، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقا، ويسيرون فيها شواكل وفرقا، ذلك بأنّ الله خلقهم للنار، ويعمل أهل النار يعملون"^{٣٦٠} ويمضي الخليفة في ذكر مثالب الفلاسفة الذين هم "أضرّ من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب، لأنّ الكتابيّ يجتهد في ضلال، ويجد في كلال، وهؤلاء جهودهم التعطيل، وقصاراهم التمويه والتخييل"^{٣٦١}.

ويوجّه الخليفة ولاته إلى حرق كتب الفلسفة أينما وجدت، وإلى تعليم أولئك الذين تأثروا بالفلاسفة وآرائهم كي يبنذوها ويعودوا إلى جادة الصواب "فاحذروا - وفقكم الله - هذه الشرذمة على الإيمان، حذركم من السموم السارية في الأبدان، ومن عُثر على كتاب من كتبهم فجزأوه النار التي بها يُعذب أربابها، وإليها يكون مآل مؤلفه

^{٣٥٨} عزّاوي، أحمد، ٦١. ولم يعرف كاتب الرسالة.

^{٣٥٩} المصدر السابق، ٩٤. والرسالة من إنشاء أبي الحسن بن عيَّاش.

^{٣٦٠} ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ٦: ٢٦. عزّاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٠٦. والرسالة من إنشاء أبي عبد الله بن عيَّاش

^{٣٦١} المصدران السابقان، ٦: ٢٦. ٢٠٧.

وقارئه ومآبه، ومتى عُثر منهم على مُجرٍ في غلوائه، عمٌ عن استقامته واهتدائه، فليعاجل فيه التثقيف والتعريف^{٣٦٢}.

وعندما تولى المأمون الخلافة كتب إلى الولاة "صادعاً بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحض على الصلوات، وإيتاء الزكاة، وإيتاء الصدقات، والنهي عن شرب الخمر والمسكرات، والتحريض على الرعاية"^{٣٦٣} ووضع أساس التعامل بين والي والرعية "فالدّينُ أهْمُ أوّلِي، والتّهمُّ بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها أحقُّ أن يُقدّم وأحرى، وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع ونَدَع، وتتبّع السنن المشروعة ونذر البدع، ولنا أن لا ندّخر عنها نصيحة، ولا نغبنها أداةً من الأدوات مُريحة، ولنا عليها أن تُطيع وتسمع"^{٣٦٤}.

ثمّ يوجّه المأمون ولاته إلى المحافظة على الصلّاة، وربّما كان التهاون في أدائها فاشياً في المجتمع وقتئذٍ، حيثُ أطل المأمون الحديث في هذا الموضوع، مُستشهداً بأحاديث الرّسول - صلى الله عليه وسلم - وبأقوال السلف الحائّة على الصلّاة، المحذرة من التهاون فيها "وأول ما يتناول به الأمر النّافذ، الصلّاة لأوقاتها، والأداء لها على أكمل صفاتها، إظهاراً لشعائر الإيمان في جماعتها، فقد قال عليه الصلّاة والسّلام: أحبّ الأعمال إلى الله الصلّاة لأوقاتها، وقال: أول ما يُنظر فيه من أعمال العبد الصلّاة، وقال عمر: إن أهمّ أموركم عندي الصلّاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع....."^{٣٦٥}.

أحوال البلاد

كان الولاة يخاطبون الخليفة، ويُرسلون إليه الرّسائل التي تصف أوضاع ولاياتهم وبلدانهم، ولم تكن أوضاع الولايات على حالٍ واحدة، فقد تتضمن الرّسائل وصفاً لأحوال سيئة، وخاصّة في الجانبين الاقتصاديّ والأمنيّ، ومن تلك رسالة والي إشبيلية التي يشكو فيها ممّا

^{٣٦٢} المصدران السابقان، ٦: ٢٦. ٢٠٧.

^{٣٦٣} ابن الخطيب، الإحاطة، ١: ٤١٢.

^{٣٦٤} ابن الخطيب، الإحاطة، ١: ٤١٢. عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٨٢.

^{٣٦٥} المصدران السابقان، ١: ٤١٣. ٣٨٢.

مسّ الرّعية "من الضّيق والضعف، وغلاء السّعر وعدم الطّعام وكثرة التشكي بقلة الإنصاف"^{٣٦٦}، فاضطرّ النّاس إلى مُشاركة دوابهم في طعامٍ واحدٍ لم يَعهّدوه حيثُ "إنّ الله تعالى أغاثَ أهلها في هذا العام بالبلوط، فإنّ شجرها حمَلتُ حملاً كثيراً فاتّخذها أهلها قوتاً لأنفسهم ولدوابهم، وسدّت لهم مَسدّاً كبيراً حتّى لا يَكاذُ يوجد عندهم دقيقٌ إلّا منها"^{٣٦٧}.

إنّ الحالة الاقتصاديّة الصّعبة التي أشارت إليها الرسالة لها مُسبّبات منها تدهور الوضع الأمنيّ، وقد ساهمت أطراف عديدة في زعزعة الأمن منها الخارجون على الدّولة بعدما فقدت هيبتَها عقب معركة العقاب، ومن هؤلاء الخارجين "ناكثٌ غادرٌ، مُجرمٌ فاجر، ظهر فساده لكلّ إنسان، وابتدر الشّكوى منه كلّ لسان، وكان يهتصرُ أفنان الفتنة اهتصاراً، ولا يُحاشي من الإذاية مُسلمين ولا نصارى"^{٣٦٨}.

ومن هؤلاء أيضاً الكُوميون، وهم مجموعاتٌ من قبيلة كُوميّة، عَصبيّة الموحدّين والتي يُنسب إليها الخليفة الموحديّ الأوّل عبد المؤمن بن علي الكُوميّ، وكانت هذه العناصر قد دخلت الأندلس مع الخليفة الناصر للمشاركة في الجهاد، وعندما حصلت هزيمة العقاب، لم يستطع من نجا من هؤلاء الكُوميين العودة إلى مواطنهم في المغرب، ولم يستطيعوا العيش في الأندلس، "فعاثوا في هذه الجهات، وبالغوا في نكاية أهلها، واشتدت وطأتهم عليهم بالقهر والاضطهاد، والبسط في العُدوان والاشتداد"^{٣٦٩}.

وتتحدث الرّسائل عن ضروبٍ من إفسادهم فقد نهبوا المحاصيل "وتلمظوا للزرع تلمظ المستعدّين لانتهابه، المتأهبين لأن يحولوا بينه وبين أربابه... يجاذبونهم أنواع الغلات، وفوائد الثّمرات، ولا يتركون لهم إلّا الجزء الأقلّ منها"^{٣٧٠}، وبالغوا في الفساد حتّى "امتدت أيديهم إلى سفك الدّماء، وانتهاب الأموال واستغلاب للنساء، واقتحام الدّيار، والانتقام من الرّعية بأنواع الأضرار، والتّقتيل بالسّلاح والتّحريق بالنّار، وأحالوا

^{٣٦٦} عزّازي، أحمد، رسائل موحديّة، ٣٠٢.

^{٣٦٧} المصدر السابق، ٣٠٢.

^{٣٦٨} المصدر السابق، ٣٠٤. والنّص من رسالة لم يُعرف كاتبها صدرت من الأندلس.

^{٣٦٩} المصدر السابق، ٣١٦. والرّسالة من إنشاء أبي القاسم البلويّ.

^{٣٧٠} المصدر السابق، ٣١٦. والرّسالة من إنشاء أبي القاسم البلويّ.

أيديهم على الرّعية يسومونهم سوءَ العذاب، ويتسببون إليهم بشتى الأسباب، ويطلبونهم بمغارمٍ مُحجّفةٍ مُقلّقةٍ، ويتوعدونهم بإحراقِ الزّرع وإفشاء القتل إن توقفوا عن أدائها"^{٣٧١}.

وقد ضاق النّاس ذرعا من فساد هؤلاء الكوميين حتّى إنّ أهل بلدةٍ أقسموا للوالي "إنهم لولا تقيّدهم بالحبوب التي لهم فيها، وتعلّق نفوسهم بما يرجونه من تحصيلها لما بقوا فيها ساعة، ولخرجوا بالأهل والولد منها فارّين عنها لما لحقهم من الضّرر الذي لا صبرَ لهم عليه، ولا بقاءَ لهم معه، حيثُ تُقتَحَمُ عليهم الدّيار، وتُستغلب بنائهم الأبكار، وتُسلبُ أموالهم بالقهر والاقتسار، ويقتلون عليها سرّاً وعلانية بالليل والنّهار، وتخوّف قراهم تخويفا يضطرهم إلى الجلاء عنها والفرار"^{٣٧٢}.

وتشير الرّسائل إلى قوة هذه العناصر حيثُ يعجزُ الوالي عن كبّح جماحهم "وما لأحدٍ هنا طاقة بكفّ فلانة ولا اقتدار، فإنّ فلانة قد اشتغلوا بحصاد الزّرع قهراً في جميع الجهات التي حلوا بها، وقد فشا عيْثهم في كلّ مكان، وصار حديثاً للرّكبان، وأمرًا مُفزِعاً للرّجال والنّساء والولدان"^{٣٧٣}.

وتبيّن الرّسائلُ الهدفَ الذي يَسْعَوْنَ إلى تحقيقه بإفسادهم وعيْثهم "ويظهر من القوم — أدام الله عزّكم — ما قد أعلنوا به وصرّحوا، من أنّهم إنّما يقصدون المبالغة في الضّرر ليُسمَعَ خبرهم فيجازوا البحرَ ويُسرّحوا، فهم يتبحّرون في عدوانهم، بغايةٍ وسعهم، وجهدٍ إمكانهم، وقد ضجّت الرّعية ضجيجاً، وعجّت بالشكوى عجيلاً"^{٣٧٤}.

أما الأحوال الحسنة فقد تضمّنتها رسائلُ منها رسالة تناولت تغيّر وضع البلاد من الشدّة إلى الرّخاء "فقد كانت أصابت النّاس شدّةٌ ظاهرة في العام، بما كان من غلاء السّعر وعدم الطّعام، إلى أن تدارك الله المسلمين ببركة كفالتها الحميدة وإيالتها السّعيدة، فظهرت على هذه البلاد عُموماً، وعلى هذه الجهة خصوصاً بركة الحضرة الإماميّة وسعادتها، واطّردت لها — والحمدُ لله — طريقتُها، فالرّخاء هنا الآن والحمد لله كائنٌ موجود، والمقام

^{٣٧١}المصدر السابق، ٣٢٠.

^{٣٧٢}المصدر السابق، ٣٢٠. وهذه الرسالة أيضاً من إنشاء أبي القاسم البلوي.

^{٣٧٣}المصدر السابق، ٣١٨.

^{٣٧٤}المصدر السابق، ٣١٧.

الإمامي مشكور بكل لسان على التفاته الجميل ومحمود^{٣٧٥}، ورسالة أخرى تنحو ذات المنحى في وصف أحوال البلاد بعدما أصابَ المطرُ الأرضَ فأحيها "والنَّاسُ بما جاد الأرض من الحيا في استبشار، وللحادثة انبساطٌ في كلِّ ناحيةٍ وانتشار، وكلُّ ذلك بركةُ الخلافة السَّعيدة وسعادتها - وصل الله لها في السَّعود باطراد عادتها - وقد وثقوا بأنَّ سعادة الخلافة وثيقةُ المباني، ظاهرةٌ في كلِّ معنى من المعاني"^{٣٧٦}.

وُثِّبَتْ تلك الرِّسائل أن الزَّراعة كانت عِمادَ الاقتصاد في الأندلس، وكانت تعتمدُ في المقام الأول على مياه المطر، فإنَّ كان غزيراً مدراراً استبشَرَ القومُ باليسر "والخيرات الوافية، والهدنة المستمرة، والأمنة المستقرة، والاستبشار بكثرة الزَّرع في هذا العام وطيبه وصلاحه، واستيفائه من الغيث في وقته مُنتهى أمل الآمل واقتراحه"^{٣٧٧}.

أمور تتعلق بالأوروبيين

لم تكن العلاقةُ مع النَّصارى على وتيرة واحدة دائماً^{٣٧٨}، ففي أوقات السَّلم كان النَّصارى يتعايشون "وقد اتصلتُ رحالهم برحال المسلمين، وغنمهم بغنم المسلمين، فالكلُّ في هذا الأحواز مختلطون: كِلا الفريقين يَرتعي في المرعى الواحد، ويلتقي في العداة والعشي وهو لآياتِ السَّلم غيرُ جاحِد، والبلاد خلال ذلك تَرْتَضِعُ ثدي هذا الأمر الشَّامل، وتثَقُّ بما يصنع الله لخليفته في الأرض من الصَّنْع الجميل الكامل"^{٣٧٩}.

وصفت الرِّسالة السابقة العلاقة الشَّعبية بين الفريقين، أما العلاقة الرِّسمية فقد تناولتها الرِّسائل بكثرة، وعند الوقوف مُطولاً نكتشفُ أنَّ الرِّسائل تُنبئُ بحدوث تحوُّل كبيرٍ في العلاقة الرِّسمية بين الفريقين، واختلافٍ في مضامين الرِّسائل التي تطرقتُ لشؤون النَّصارى، حيث كانتُ معركة العِقَاب سنة ٥٦٠٩ ونتائجها المأساوية نقطة التَّحوُّل،

^{٣٧٥}المصدر السابق، ٢٧٧. الرسالة صدرت عن والي إشبيلية وكتبها غير معروف.

^{٣٧٦}المصدر السابق، ٢٧٩. الرسالة صدرت عن أحد ولاة الأندلس وكتبها غير معروف.

^{٣٧٧}المصدر السابق، ٢٨٥. والنص من رسالة صدرت عن والي إشبيلية وكتبها غير معروف.

^{٣٧٨}وقد أُشير إلى ذلك بإيجاز في التَّمهيد الذي تناول أهمية الرِّسائل كوثائق تاريخية مُهمَّة، ويأتي الحديث عنه هنا مُفصَّلاً.

^{٣٧٩}المصدر السابق، ٣٠٤. كاتب الرسالة غير معروف.

وكانت مضامينُ رسائلِ الموحدّين قبل المعركة مختلفة عن مضامينها بعد المعركة، حيث كانوا قبل العقاب ينطقون بلسانِ العزيز المنتصر، فهذا الخليفةُ يوسفُ يُخاطبُ مراكش من إشبيلية برسالةٍ كتبها عنه ابن المرخى مُعلِّماً بانتصاره في إحدى المعارك على الروم الذين كانوا "الشوكة التي لا تُخضد، والشّبة التي لا تُفلّ، والشررة التي لا تُطفأ، والحدّ الذي لا يُكسر"^{٣٨٠}، وبعد أن واجههم الموحدون "أذن الله تعالى في استئصال شأفتهم، وخضد شوكتهم.... وكان جميعهم للسيوفِ نهباً، وللرماح أهبا"^{٣٨١}.

وبذات النَّفسِ يخاطب والي مرسية أبو حفص بن الخليفة عبد المؤمن أهل ولايته من أرض المعركة "وسار الموحدون - أعزهم الله - بجِدٍّ وعَزَمٍ، وسَعَدَ محالِفُ مُلازمٍ، يقطعون السباسب والموامي، ويسددون على أعداء الله المرامي، ويدسّون لهم تحت التّرب الدّواهي، حتّى احتلوا بحبوبة بلادهم، ووطئوا على رغم الكفرة عالي شَرَفهم ومُنخَفَض وهادهم، من أرضٍ طال ما باض الشيطان فيها وفرّخ، ومذ ألقى كلّكّه عليها ما أفرج عنها ولا أفرخ"^{٣٨٢}.

وعندما حاول ملكُ قشتالة تحريضَ والي مرسية عبد الرحمن على أخيه الخليفة المنصور، ردّ عليه الوالي ردّاً توبيخياً جاء فيه "إنّ الملك - أرشده الله - في نهاية الاحتياج إلى تطبب يصلح من دماغه ما فسد، وينفق من مواد عقله ما تزيّف وكسد، حتى يميز بين العقد والحلّ، ولا تصدر عن مخاطباته ضحكةُ التّرحال والحلّ، ككتابة الذي صدر عنه إلينا، ووردَ به رسوله الفسلّ علينا، فمن مضمّنه أنا أنزلنا غير منزلنا في أن سووي في مجلس الأحكام بيننا وبين خصمنا.... رويدك، لا تصرف علينا كيدك، وعلى رسلك فلا حاجة لنا إلى امتراء رسلك، وحنانيك، إن كنت ذا طِبٍ فَطِبْ لعينيك، ديننا والحمد لله أمتن وأقوى، وسجيتنا أشدّ انقياداً للتّقوى،.... ويا قُبَحَ ما دعوتنا أن نركبَ من الغرور ونتسنّم، فنكون كمن أسس بُنيانه على جُرْفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنّم"^{٣٨٣}.

^{٣٨٠}المصدر السابق، ١٣١.

^{٣٨١}المصدر السابق، ١٣١.

^{٣٨٢}المصدر السابق، ١٧٠. وكاتب الرسالة غير معروف.

^{٣٨٣}المصدر السابق، ١٧٩ - ١٨٠. والرّسالة من إنشاء صفوان بن إدريس.

وخاطب الأمير عبد الرحمن ملك قشتالة برسالةٍ أخرى مُحتجاً على انتهاك بعض مواطنيه الهدنة وسلبهم الدّواب "كأنّهم لا يرجعون إلى ملك يملكهم، ولا يخافون من حاكمٍ يحكمهم.... وهذا الذي عرفناكم به لا جوابٌ عند الفاعلين عليه إلا بحثكم عنهم، واشتدادكم في تعجيل الإنصاف منهم، فإنّ جريمتهم التي أجرموها ليست مما يُدفع بالجدد والإنكار، ولا مما يصح أن يتبرأ منه ويُعزى إلى الأغيار" ^{٣٨٤}.

وإضافة إلى رسائل الموحّدين نجد رسائل للنصارى تُخاطب الموحّدين بإحلال واحترام، ومنها رسالتان من حكومة بيشة إلى الخليفة يوسف: الأولى تشكو أحد الولاة الذي اعتقل بعض تجار بيشة ^{٣٨٥} والثانية تشكو آخرَ غرّم بعض تجارهم ^{٣٨٦}، ويلتمس مُرسِلو الرّسالتين من الخليفة أن يَظْلُوا "هم وسواهم من من شملهم هذا الأمر الملتزم، والعهد التّافذ المحكم، مؤمّنين في أنفسهم وأموالهم في جميع بلاد الموحّدين لا نائبة تنوبهم، ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد أخذه منهم" ^{٣٨٨}.

كانت هزيمة العقاب قاصمةً، عقبت نتائج وخيمةً، حيث كُسرت الشّوكة، وفُقدت الهيبة، وتلاشت العِزة، وتسرب الذلُّ إلى النفوس، ونلمس كل ذلك في رسائل ما بعد العقاب، وللتّمثيل والتّدليل لا بأس بالاستشهاد برسالةٍ صدرت من مراكش عن الخليفة المستنصر يحذّر الأندلسيين من انتهاك الهدنة مع النّصارى "لأنّكم تثيرون على أنفسكم من شرّ عدوّكم - قصمه الله - شرراً يستعر، وضرراً يعدم فيه المنتصر، فليترككم إذ تحليتُم بالعصيان، ورضيتُم الغدر المحرّم في سائر الأديان، ثبتم للعدو إذا دهمكم، ولقيتموه بالجانب القوي متى زحّمكم، بل تتدرعون له الفرار، وتتركونه في مخلّفيكم وما اختار" ^{٣٨٩}.

^{٣٨٤} المصدر السابق، ٢٥٨ - ٢٥٩. والرسالة من إنشاء أبي القاسم البلوي.

^{٣٨٥} المصدر السابق، ١٦٣.

^{٣٨٦} المصدر السابق، ١٦٥.

^{٣٨٧} هكذا وردت في الأصل.

^{٣٨٨} المصدر السابق، ١٦٤.

^{٣٨٩} القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج ٦: ٤٤٦. عزاوي، أحمد، رسائل موحّدية، ٣٠٣. وكاتب الرّسالة غير معروف.

وبناء عليه فقد نَحَتْ مضامينُ الرِّسائلِ مَنَحَى آخر، فَمِنْ رسائلَ تتناول موضوع مُفَاوَضَةِ النَّصارى^{٣٩٠} واعتبار الهدنة معهم نعمةً ينبغي الحفاظُ عليها^{٣٩١} لأنَّ فيها "إذعان الأعداء، واستسلام الكفار، والثقة بما عوَّد الله أمره العزيز من حفظ الأمصار، وعزة الأنصار"^{٣٩٢} إلى رسائل أخرى تتضمَّن في ثناياها الحرص على رضى النَّصارى والتَّقرُّبِ منهم^{٣٩٣} حتى لو وصل الأمر إلى إعطاء بعض رهبانهم الحقَّ في استغلال المراعي الإسلامية "وأن لا يُذادوا في بلاد المسلمين في زمن حربٍ أو سلمٍ عن مَكْرَعٍ ولا مرعى، رعيًّا لما سعوا له واندبوا إليه من المأخذ الذي حبسوا له أنفسهم والمسعى"^{٣٩٤}، وعلى الرِّغم من كلِّ ذلك التَّردّي كانت بعضُ الرِّسائل تؤكد أنَّ البلاد في صلاح وأمن ورَغَدٍ عَيْشٍ "والناس مستبشرون بالرَّخاء، آمنون ليلاً ونهاراً حيثُ كانوا من الأرجاء، داعون في مظانَّ القبول لخليفتهم وإمامهم وسيدهم ومولاهم، الذي خولهم الله ببركة خلافته من الخير ما خولهم"^{٣٩٥}!

لم يَغْفِر الموحِّدون للنَّصارى هزيمَتهم في العِقَاب، ولم تُشَفَّ صدورهم، وظلُّوا يترَبِّصون بهم الدَّوائر، فإذا كانوا عاجزين عن قتالهم، فإنَّهم قادرون على مراقبتهم وترقُّب المصائب التي تحلُّ بهم، ومن ذلك ما تضمنته بعض الرِّسائل، ومنها رسالةٌ تُخَبِّرُ بموت الملك (الفونسو الثامن) المنتصر في العِقَاب "طاغية الكفار، المعجَّل بروحه إلى النار،

^{٣٩٠} ينظر: عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٩٣، ٢٩٦. والرسالتان صدرتا عن والي إشبيلية وكاتبهما غير معروف.

^{٣٩١} ينظر رسالة أهل شاطبة في: ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٦٤. ورسالة والي إشبيلية في: عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٠٠. كتب الرسالة الأولى عنهم ابن عميرة، أما الثانية فصدرت عن والي إشبيلية وكاتبها غير معروف.

^{٣٩٢} عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٤٢. النص من رسالة والي إشبيلية إلى وزير الخليفة المستنصر ولم يعرف كاتبها.

^{٣٩٣} ينظر: المصدر السابق، ٢٩١. والرسالة التي صدرت عن والي إشبيلية ولم يعرف كاتبها تتضمن استجابة لطلب الخليفة المستنصر بضرورة الاعتناء برسل ملك قشتالة.

^{٣٩٤} المصدر السابق، ٣٤٧. من رسالة صدرت عن الخليفة المستنصر وفيها يعطي الخليفة رهبان بوبات الأرغونيين الحق في استغلال بعض المراعي المصاوبة للحدود مع أرغون، ولم يعرف كاتب الرسالة.

^{٣٩٥} المصدر السابق، ٢٩٩. من رسالة والي إشبيلية التي لم يعرف كاتبها.

صاحب قشتالة، كان لا سَقَى اللهُ له قَبْرًا، ولا عَقَبَ صدع أهل ملّته بعده جبراً^{٣٩٦}، ورسائل أخرى تشير إلى اختلاف النصارى مع بعضهم وخاصةً بين ليون وقشتالة حيث إنّ "ابن صاحب ليون وابن صاحب قِشْتَالَةَ اجتمعوا، وقعدا في موضعٍ واحدٍ، فَظَهَرَ لكل واحدٍ منهما ما يَظهر من المَبْغِضِ الشَّائِي، وادّعى كل واحد منهما الشَّفَوفَ لنفسه ولأبيه على الثاني، ثمّ آل بهما التَّفَاخر إلى أن تلاطما، وارتفع بينهما عُباب الشَّقَاق وطَما، وانتصر لكل واحد فريقه الحاضرون فاقتتل الفريقان للحَيْن والحَيْن، وعجّل الله من أرواحهم إلى النَّار بنحوِ خَمْسِينَ^{٣٩٧}".

كانت أخبار الأوربيين تَصِلُ عن طريق الواردين من الثغور وبلاد النصارى^{٣٩٨} فهل كان الموحدون يُرسلون مَنْ يتجسس على النصارى؟ أم أن أولئك الواردين كانوا ينتقلون بين بلاد الفريقين تنقلاً طبيعياً بريئاً؟.

الحقيقة أنه لا يوجد بين أيدينا رسائل تجيب عن هذا التساؤل إجابةً مباشرةً، ولكن نلمح من الرسائل أن الموحدين والنصارى كانوا يتجسسون على بعضهم وكانوا يتحيتنون لبعضهم الفرص، فهذه رسالة ألحت إلى وجود أصابع للموحدين في الفتنة المضطربة بين النصارى حيث خاطبَ والي إشبيلية الخليفة بما نصّه "ومما أثمره سعدُ الخلافة العلية - وصله الله - من الثمر الشائني للصدور، الموافي بالبهجة والسرور، ما جعل الله في هذا الوقت بين فرق الكفرة - أبادهم الله - من الفتنة المضطربة نارها، العائدة على ملتهم الدائرة بما فيه ثبارها وخسارها، حيث شغلهم بنفوسهم، وجعل بأسهم بينهم لبؤسهم، وجعل سعود الخلافة المباركة كفيلاً بنحوسهم^{٣٩٩}".

وهذه رسالة أخرى كتبها ابن عُميرة عن والي بلنسية إلى الخليفة المستنصر يخبره فيها باختلافٍ حَدَثَ بين زعماء مملكة أرغون، ولجوء أحدهم إلى بلنسية، وتبيّن الرسالة أن هذا الزعيم اللاجئ ذو مكانةٍ في المجتمع الأرغوني، وأنّ بالإمكان الاستفادة منه في الإضرار ببني قومه لأنّ "الظَّاهِر من حنقه على أهل أرغون، وشدة عداوته لهم، وما تأكّد من

^{٣٩٦} المصدر السابق، ٢٧٨. من رسالة أخرى صدرت عن والي إشبيلية وكتبها غير معروف.

^{٣٩٧} المصدر السابق، ٢٨٣. والرسالة صدرت عن والي إشبيلية وكتبها غير معروف.

^{٣٩٨} ينظر ما ورد بهذا الخصوص في الرسالة السابقة: المصدر السابق، ٢٨٣.

^{٣٩٩} المصدر السابق، ٢٨٦. الرسالة صدرت عن والي إشبيلية ولم يعرف كاتب

القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صَادَفَ وقت فتنَةٍ معهم، ووجد ما يؤمِّله من إحسان الأمر العلي - أيده الله - فسينتهي من نكايتهم والإضرارِ بهم إلى غايةٍ غريبةٍ الآثار، مُفضيةً به إلى دَرَكِ الثَّار، وكثيرٍ من زعماء أرغون ورجالها أقاربه وفرسانه، وكلُّ في حَبْلِهِ حَاطِب، ولا يُنجاهه متى أمكنه حَاطِبٌ^{٤٠٠}.

موضوعات أخرى

كانت موضوعات الرسائل التي سَبَقَ ذكرُها من أكثر المواضيع دَوْراناً في الرسائل الديوانية، وهناك موضوعات أخرى حَوَّتها بعضُ الرسائل، ولكنها ليست من الكثرة والاجتماع بحيثُ نستطيعُ إدراجها تحت عنوانٍ واحد، فكان هذا العنوان جامعاً لرسائل مختلفة المواضيع والمضامين منها: التهنة^{٤٠١} ومن أمثلتها الرسالة التي أرسلها ابن سعيد مُهنئاً الخليفة عبد الواحد بتوليهِ الخلافة وجاء فيها "وما بعد الخلافة رُتبة، ودون ثَبِيرٍ تنحط كلُّ هضبة، فالحمد لله ربِّ العالمين، وهنيئاً لعباده المؤمنين، حيثُ نَظَرُ إليهم نظرَ رحمة، فأُسبِل عليهم ستر هذه النعمة"^{٤٠٢}.

ومن الموضوعات الأخرى التَّعْزِيَةُ التي تمثلها رسالةُ كتبها ابن مغاور الشَّاطِطِيَّ للخليفة يوسف مُعْزِيّاً إياه بوفاةِ ابن أخته وقد جاء فيها "ولولا أن التَّعَازِي سُنَّةٌ مَضَى عليها الخَلْفُ بعد السَّلَف ما اجترأنا على مخاطبةِ حضرة سيدنا ومولانا بها، وإن كانت الذِّكْرَى تنفع، فقد رهم الأسمى الأرفع، وصدرهم من الوهناء أفسح وأوسع، منهم نقتبسُ المواعظَ والحِكَم، وهُم بما في الصِّبر الجميل الأولى أفقه وأعلم"^{٤٠٣}.

ومنها الاستنجاد، حيث تقع بين أيدينا رسائل من جملتها رسالة لابن عُميرة كَتَبَهَا عن أهل شاطبة يستنجدون فيها بحاكم مُرسية عَزِيز بن خطَّاب وقد جاء في تلك الرسالة "فما قعود الحقِّ عن الباطل وإدلاله؟ وأين الغضبُ للإسلام لآله؟ وقبل العَطَب ينفعُ

^{٤٠٠} القلقشندي، صبح الأعشى، ج: ٦: ٥٣٥. عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٥٢.

^{٤٠١} جمعت بعض الرسائل بين التهنة والتعزية مثل الرسالة التي أرسلها صفوان بن إدريس لأحد الوزراء، ينظر: ابن

شريعة، أديب الأندلس، ٢٤٤.

^{٤٠٢} المقرئ، نفح الطيب، ج: ٢: ٣٦٢.

^{٤٠٣} ابن شريعة، ابن مغاور الشاططي، ١٦٢.

الغياث، وإن فات الطَّلَب لم يُعْنِ الاستحثاث، وقد لجأوا إلى المحل الأعلى ضارعين، واستحفظوه ضائعين^{٤٠٤}.

ومنها الولاء للدولة العباسية، حيث نُمثل على هذا المضمون برسالة خطَّها ابن الجنان عن بهاء الدولة محمد بن هود "عبد الديوان النبوي، ومملوك أمره العلي، المعفّر وجه الخضوع بين يدي مجده العباسي، وشرفه المحمدي، المستوفّر بتدليله وتعبدّه لذلك المقام الإمامي والندي"^{٤٠٥}.

ومنها أيضاً الشفاعة التي كانت رسائلها "أشبه بالكرات الذي يُستخدم في العصر الحديث للتوسّط في تعيين الموظفين، أو قضاء الحاجات في الأشغال الرسمية أو الخصوصية"^{٤٠٦}، ومنها رسالة تشفع بها ابن عميرة برجلٍ، وجاء في تلك الرسالة التي أرسلت إلى أحد القادة ما نصّه "عَلِقَ بأوفى ذمّة، وطاب بصورة الفَخَار لا بعَظْمٍ ورِمة، فكيف إذا أدنته الفضيلة، وضمّته النسبة الخليفة؟ ويرجو من المحلّ الأعلى التفاتاً إلى نسبة ذاته، وعلى قدر أدواته، وحسبُه ذلك سُوددا بقيّة حياته"^{٤٠٧}.

ومن الموضوعات الأخرى التي حوتها الرسائل الديوانية الشكايات التي كان يرفعها عامة الناس لحكامهم كتلك الشكايات التي رُفعت للخليفة يوسف ومنها رسالة يشكو رافعها فساد قاضٍ "ردّ امرأةً تسكُن منزل التورين، وقد طلقها زوجها ثلاثاً، فردّها إلى زوجها ونقض عُرى الشرع انكاثاً، وأخذ على ذلك عشرة دنائير أكلها سُحتاً، وحكم بالباطل بحتاً، وعند عبدكم من قبيح قضاياه، وذنوبه في الرعية وخطاياها، ما إن أذنتم في شرحه، أطلعتُ مُنبَلج صبحه"^{٤٠٨}.

ومن الموضوعات أيضاً تقديمات الخلفاء والولاة لموظفيهم وقضاةهم، ومن ذلك رسالة قدّم بها الخليفة المأمون قاضياً وكتب ما نصّه "وإنّا قدّمنا فلانا للانفراد بالنظر في أحكامكم الشرعية، والاجتهاد في الفصل بينكم في النوازل الدنيّة، بعد أن تكرر مراراً

^{٤٠٤} ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٧١.

^{٤٠٥} المصدر السابق، ٤٣٠.

^{٤٠٦} الألوسي، حكمت علي، الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٧م)، ١٨٥.

^{٤٠٧} ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٧٧.

^{٤٠٨} عزاوي، أحمد، رسائل موحّدية، ٥٢٢.

استعماله، وتحقيق غناؤه واستقلاله، وخُبرَ فكانت جميلةً أوصافه، ومشكورةً خلأه، وقد أوصيناه بتقوى الله تعالى وهي الجادة الواضحة، والوسيلة الناجحة، وأمرناه أن يقف مع كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فيما يُبرمه وينقضه من أحكامه"٤٠٩.

ثانياً: الرسائل الإخوانية أو الشخصية

بالنظر إلى الرسائل التي أدرجت تحت هذا العنوان يُمكن القول أن الرسائل الإخوانية هي "تلك الرسائل التي تتناول العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع، وما يترتب على تلك العلاقات من عواطف ومشاعر، وتختلف موضوعاتها باختلاف مناسباتها"٤١٠، وقد آثر بعض الباحثين تسميتها بالرسائل الشخصية أو الذاتية لأن "طرفي الاتصال فيها المرسل والمرسل إليه أوسع من دائرة الإخوان.... ولأن السمة الفارقة فيها تقوم على البوح الذاتي أو الشخصي بين المتراسلين عندما يتبادلان فيها الأخبار عن ذواتهم وشؤونهم وحياتهم الخاصة"٤١١.

وقد كثرت الرسائل الإخوانية في العصر الموحدي، وحات مواضيع مختلفة، ومضامين عديدة منها:

التّهاني والتعازي

اعتاد الناس مشاركة بعضهم بعضاً في المناسبات الاجتماعية، وتكون المشاركة بالتواصل المباشر أو غير المباشر، ومن طرق التواصل غير المباشر الرسائل التي تحمّل في ثناياها التّهاني والتعازي، ولتمثيل على هذا المضمون نتطرق لرسالتين كتبهما ابن مغازي الشاطبي هنأ في الأولى صديقاً له رُزق ولداً بعد طول انتظار فكان مثل "نجمٍ لاح في سماء السعد، وصارم ذكرٍ سُل من الغمد، وشبلٍ نشأ في غيل الضراغم، يحمي الغاب وأنف الدهر

٤٠٩ المصدر السابق، ٤٨٣. والرسالة من إنشاء الخليفة نفسه.

٤١٠ استخلص الباحث هذا التعريف بعد استقراء الرسائل الإخوانية.

٤١١ هجعت، منجد مصطفى، والسليقي، علاء الدين، معجم مصطلحات نظرية الأدب، ١٦٧ - ١٦٨.

راغم، جاء بعدما مَطَلَ به الدَّهر وسوَّف، ووعد فأخلف، إلى أن أنجز الله ميعاده، وقرن بالسَّعد ميلاده^{٤١٢}.

وهنَّأ في الأخرى صديقاً آخر رُزق بنتاً وجاء في تلك الرِّسالة "سجعتُ بدوحتكم حَمَامَة، وصُبت في كأسكم مدامَة، وصابت بروضتكم غمامَة، وقذف بحركم درَة، ونجمت في وجه أدهمكم غرَة، فاهننوا - أعزكم الله - بنعمة واردة كريمة زائدة، وكفَّ تزين الخواتم، وشمس تمحو النجوم العواتم"^{٤١٣}.

أمَّا رسائل التَّعزية فتمثَّلها رسالة كتبها ابن عُميرة مُعزياً صديقاً له بوفاة أخيه "وعند الله نحتسبه سريّاً ماجداً، وكريماً كنتم له أحمأ ووالداً، مضى أقوى ما كان الأمل فيه، وطوته الأيام ولا نشر لما تطويه، فأه طويلاً لو تفيد آه، والحمد لله، ولا نحمد على المكروه إلا الله"^{٤١٤}.

ويعتذر ابن عُميرة لأنَّه تعذَّر عليه مشاركة صديقه في مصابه مشاركةً مباشرة "ولولا مَرَضُ بعض الأولاد حبسني، لكنْتُ مكانَ الكِتَاب، وأوجبتُ من الحُضور ما هو حَرٌّ بالإيجاب، والسَّيد الماحدُ يقبلُ الاعتذار، ويتقبَّلُ في حُسْنِ العِزاءِ الصَّفوة الأُخيار"^{٤١٥}.
وقد تكون الرسائل جوابيةً عن رسائل تهنئةٍ أو تعزية، ولعلَّ رسالة سعيد بن حكم الذي أجاب بها عن رسالة صديقه تكون مثالا ملائماً، فقد عزَّى هذا الصديق وهنَّأ، ويتضح من الرِّسالة الجوابية أنَّ التَّعزية كانت بوفاة ابن لسعيد بن حَكَم، أما التَّهنئة فكانت بشفائه من مرض، وبسلامته من عدوٍ غادرٍ قَصَدَه ليلاً وممَّا جاء في تلك الرسالة "وقدَّ وصلَ حِطابُكم الفاضلُ يعقبُ نَشْراً، ويعلِّقُ بالنُّفوسِ لألاءٍ وبشْراً، وينسَقُ الواجبُ في القَضِيَّةِ الَّتِي استجدَّتْ حمداً لله تعالى وشُكْراً. ورَدَ على أثرِ الخطابِ الأوَّلِ الحافِلِ الحاكمِ في القضايا الثلاث، العادل الذي هنَّأ وعزَّى، وكانَ في الوجهين كريمَ المعزَّى، لاسيَّما العِزاء، فإنَّه جاء فيه شريفَ المعزَّى، حيثُ سَبَّحنِ الفؤادِ المكلومِ بما أسا"^{٤١٦}.

^{٤١٢} ابن شريفة، ابن مغاور الشاطبي، ٢١١.

^{٤١٣} المصدر السابق، ٢١٣.

^{٤١٤} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٠٣.

^{٤١٥} المصدر السابق، ٢٠٤.

^{٤١٦} مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٨٨.

الشفاعة

وهذا الموضوع مشترك بين الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية، لكن في الرسائل الديوانية يكون المرسل إليه من ذوي النفوذ وأرباب الحكم، أما في الإخوانية فيكون المرسل والمرسل إليه متكافئين في الرتبة، كما أن رسائل الشفاعة هنا تُشبه ما عُرف في عصرنا الحديث برسائل التوصية، حيث يقوم مُرسل الرسالة بتزكية حاملها لیساعده في قضاء حاجته، وتحقيق إربه، ومن ذلك رسالة كتبها أبو زيد الفازازي مُتشفعاً بأحد طلباه الذي "حامَرَ الزَّمنُ كُلَّ جزءٍ من أجزائه، فأصبحَ ذا كَفِّ صِفَرٍ، وطَرَفٍ لا يجول في بيض ولا صَفَرٍ، وقد أَمَلَ لما تُؤمُّ به الأكارم، واعْتَمَكَ كما تُعْتَمُ البُحورُ الخَضارم، وسيرد منك على حرٍّ يأسو كَلَمَه، ويُسرِّي بجميل اللقاء هَمَه، ولا يخلية من نَظَرٍ له وإليه، ورفق به وعطفٍ عليه، لا زِلْتَ لآمال مُتَجَعاً، وللسؤال مُصْطَافاً ومُرتَبَعاً"^{٤١٧}.

وفي رسالة أخرى تشفع الفازازي لأحد أصحابه لیساعده بالعودة إلى بلده وجاء في الرسالة ما نصّه "وفلان صَحْبَتُهُ مُدَّةً، وخبرتُ منه حُسن أدب وصدق مودة، وله رَغْبَةٌ في أنْ تُكونَ مِن آكِدِ عُدَدِهِ، وأقوى الأسباب بعدَ الله تعالى في إقامة أودِه، وأنت تأخذ مُحسناً بيده، وتُعينه على ما يَبيغيه مِنَ العُودَةِ إلى بَلَدِهِ وَوَلَدِهِ، جَعَلَكَ اللهُ مِمَّنْ صَانَ مَالَهُ ببذله، وتوسَّلْ بالمؤاساة بفضله إلى جود الله تعالى وفضله"^{٤١٨}.

العتاب

يكون العتاب للصدِّيق والحبيب، وهو "الخطاب على تضييع حقوق المودَّة والصَّدَاقَةِ في الإخلال بالزيارة، وترك المعونة، وما يُشاكل ذلك، ولا يكون العتاب إلا مِمَّنْ له مُواتٍ يُمَتُّ به، فهو مُفَارِقٌ للوم مُفَارَقَةٌ بَيْنَهُ... فاللوم أشدُّ من العتاب، فهو قد يكون للذي بينك وبينه مودَّة، أمَّا العتاب فلا يكون إلا مَعَ مَنْ بَيْنَكَ وبينه مودَّة كما قال الشَّاعرُ:

^{٤١٧}الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي، ١١٢.

^{٤١٨}المصدر السابق، ١١٢.

إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ وَدٌّ وَيَبْقَى الْوَدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ^{٤١٩}
ولم يقل اللوم^{٤٢٠}.

من رسائل العتاب ما خطّه صفوان بن إدريس معاتباً صديقاً له بقوله: "فإنّه وصل
كلامك بل ملامك، وكتائبك بل عتابك، ورسائلك بل بسائلك، أسمعني بألفاظك العذاب
سوء العذاب، وأريني لمعان الحسام من فرك الوسام^{٤٢١}.
ومنها أيضاً رسالة كتبها ابن عميرة وراوح بها - كما فعل صفوان - بين العتاب
والمدح كي يبقّي حبل الوداد متصلاً جاء فيها "عرفت من هذا الصاحب الواسد، ما عند
الأخ الماجد، من ارتياب بوداد من يعدّ يمين يديه، ويعدّه أنفس الذخائر لديه، فاستغربت
مجيء الظنة من هذا الطريق، وقلت: ربما شَرَقَ غيرُ المجدود بالريق، وأنكرت على بالغ رتبة
الاجتهاد، في فقه الوداد، كيف لم يستنبط الحكم من المفهوم إن أشكل النصّ؟ ويلتمس
الزيادة من المدلول وإن اعترض الدلالة النقص؟ ومعاذ الله أن أوحش السفلة فضلاً عن
العلية، وأعطل جيد الإخلاص من أفخر الحلية^{٤٢٢}.

التشوّق

من عادة الأحاب والأصدقاء التشوّق للقاء بعضهم وخاصّةً عندما يطول أمداً البعد بينهم،
ولم يغب هذا الموضوع عن الرسائل الموحدية، حيث تُطالِعُنَا رسائل تشوّق منها: رسالة
كتبها ابن جبّير الكِنَاني مُتشوّقاً إلى بعض إخوانه، شاكياً الأيام التي باعدت بينهما، حيث
كتب فيها ما نصّه "آن لعصا النوى أن تنصدع، ولضوائق هذه النوائب أن ترتدع، وللأيام
أن تُنشئ غير هذا المنازع وتبتدع، ولشدة ما لعبت بنا من حالٍ إلى حالٍ، وأرتنا الحقيقة
في ملامح المحال، وكان يكفيها أن نثرت نَظْمَ ذلك الشّمل الذي كُنْتَ واسطة عِقدِ،

^{٤١٩} ابن الجهم، أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر (ت ٢٤٩هـ)، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك (بيروت: دار
صادر، ط ٣، ١٩٩٦م)، ١٢٣.

^{٤٢٠} العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥هـ)، الفروق في اللغة، تحقيق: لجنة إحياء التراث
العربي (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط ٥، ١٩٨٣م)، ٤٤.

^{٤٢١} المقرئ، نفع الطيب، ج ٥: ٦١.

^{٤٢٢} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٢٧.

والرَّسْمُ الرَّائِقُ فِي بُرْدِهِ، حَتَّى فَجَعَتْنَا بِفَقْدِ مَنْ بَكَتِ الدُّنْيَا وَبَنُوها عَلَى فَقْدِهِ، إِلَى اللَّهِ الْمَشْتَكِي مِنْ صُرُوفِها، وَهُوَ الْمُسْتَوَلُ عَنْ إِزَاحَةِ مُنْكَرِها وَمَعْرِوفِها"^{٤٢٣}.

ونجد تشوّقاً للبلد التي كانت مسقطَ الرأسِ ومربَعِ الصِّبا وقد رَحَلَ الكاتبُ أو رَحَّلَ عنها بعدما احتلّها الأعداء، فهذا ابن عميرة يتشوّق لصديقة ولجزيرة شُقر مسقطِ رأسِهِ في رسالة واحدة تَرشّحُ بالعاطفة منها "وأعود من حيث بدأ الأُخ الذي أبثّه شوقي، وأتطعم حلاوة عِشْرَتِهِ في حاسّة ذوقي... فأهاً لمسقطِ الرأسِ هوى نجمُهُ، ولفادح الخطبِ سرى كَلَمُهُ، ويا لجنّةٍ أجرى الله تعالى التَّهر تحتها، وروضةٍ أجادَ أبو إسحاق"^{٤٢٤} نَعَتَها، وإنّما كانت داره التي فيها دبّ، وعلى أوصاف محاسنها أكبّ"^{٤٢٥}.

التنّدر

اتّصف الأندلسيون بخفة الرّوح والظرف وحبّ الفكاهة"^{٤٢٦} والتّندر.... وغير ذلك من ضروب اللّهو والمتعة"^{٤٢٧}، وإذا كانت حالهم كذلك فلا بد من وجود رسائل تتناول موضوع التّندر والفكاهة، ونمثّل عليها برسالةٍ لصفوان بن إدريس مداعباً رجلاً كان يُلقب بـ(الكَلْبَة)، و حَدَّثَ أَنْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ لَيْلاً فَهَجَمَ عَلَيْهِ كَلْبَانٌ وَعُضَاهُ، وَاسْتَهْلَّ صَفْوَانُ رِسَالَتَهُ ببيتٍ شَعَرَ يَشْكُو ظُلْمَ ذَوِي الْقُرْبَى:

وظَلُمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمَهْنَدِ"^{٤٢٨}

^{٤٢٣} ابن عسكِر، أبو عبد الله محمد بن علي بن الخضر بن عسكِر الغساني (ت ٦٣٦هـ)، أعلام مالقة، بمشاركة أبي بكر بن خميس، تحقيق: عبد الله المرباط (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩م)، ١٣٨ - ١٣٩.

^{٤٢٤} يقصد ابن عميرة الشاعر أبا إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي (٤٥٠ - ٥٣٣هـ)، ينظر التعريف بالشاعر في مقدمة ديوانه، شرح: يوسف فرحات (بيروت: دار الجليل، ١٩٩٠م).

^{٤٢٥} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٣.

^{٤٢٦} تناولت بعض الأبحاث هذه السّمة في المجتمع الأندلسي منها: خريوش، حسين يوسف، أدب الفكاهة الأندلسي (الأردن مطبوعات جامعة اليرموك، ١٩٨٢م). قزيجة، رياض، الفكاهة في الأدب الأندلسي (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٩٨م).

^{٤٢٧} بكري، عطا، دراسات في الشعر العربي (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٦٧م)، ١٢٣.

^{٤٢٨} طرفة، أبو عمرو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد (ت نحو ٦٠ قبل الهجرة)، ديوانه (بيروت: دار صادر، ١٩٨٠م)، ١٧.

واستأنف رسالته بأسلوبٍ سَاحِرٍ حيثُ قال "كيف فاجأك فوجأك، وبادراك فصادراك، وقصدك فأقصداك، ونبيأك وما تهيبأك، وولعا في جسمك، كأن لم يسمعا باسمك، ونقداك العضّ نقدًا ناجزًا، وتركاك بالجدالة وإن لم تكن عاجزًا"^{٤٢٩} وختم رسالته بدعوة الرجل أن يعفو ويصفح عن هذين الكليين "فالرأي أن تترك المعاقبة وتدع، وتعلم أن أثقلك منك وإن كان أجْدَع.... أمّا إني لو كنت بحيث أنظر إلى مصرعك المبين، بين زعيمين من عشيرتك الأقربين، لأقذعتُ لهما في المقال، وهجرتُ وعتبتُ، وزجرتُ وثققتُ، وسجرتُ وقلتُ: ما ذنبُ أخيكما الذي حَفَّتْ عليه أيما حيف، لكنّ التّجاوزَ أعظمُ لأجرِك، والعفوُ عند المقدرة أليقُ بنجرِك"^{٤٣٠}.

موضوعات أخرى

ونجد موضوعات أخرى في الرسائل الإخوانيّة وإن كانت أقلّ حضوراً من الميواضيع المذكورة سابقاً، ومنها الوعظ، وكان الفازازي من أكثرِ الكتّاب الذين حَوَتْ رسائلهم هذا المضمون، ومن ذلك رسالة له يُحذِر من الدّنيا حيثُ جاء في ثنايا تلك الرّسالة "فالدّنيا أُنذر من أن يقوّد العقول خطّامها، أو يروق العيون حُطامها، فتقلبها طَبْعِيّ، والمرء فيها إمّا ناعٍ أو منْعِيّ، والحالُ هذه فالتّزاحمُ عليها غيٌّ أو عيٌّ"^{٤٣١}.

وطالما خاطب الفازازي مَنْ يتوسم فيهم التّقوى والصّلاح سائلاً إياهم أن يخصّوه بالدّعاء حيثُ جاء في إحدى رسائله "فإني أتوسّل إليكم بالله عزّ وجلّ في أن تُفردُوا لي منكم سَحَرًا تجردون فيه النّيّة، وتخلصون الطّويّة، وتقصرون الرّغبة على تيسير أسباب المتاب، فقد تعددت عليّ، وعُدمت لديّ"^{٤٣٢}.

ومن المواضيع الأخرى الإخبار، حيثُ كانت الرّسائل تُخبر بشيءٍ ما، فهذا ابن عميرة يخاطب اصدقاءه برسائل عديدةٍ مُخبراً إياهم بسفره كلما همّ بذلك حيثُ جاء في

^{٤٢٩} ابن شريفة، أديب الأندلس، ٢٣٨.

^{٤٣٠} المصدر السابق، ٢٣٩ - ٢٤٠.

^{٤٣١} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٤٦.

^{٤٣٢} المصدر السابق، ٤٤.

إحداها ما نصه "كتابي إلى الأخ الكريم، أسنى الله تعالى رئاسته، وحرس مكانته، ومكّن حراسته، من بُرْشانة - كلاًها الله تعالى - بين يدي خروجي من بسْطة - بمشيئة الله تعالى - وفي الطريق إخافة، وللأعداء بها إطافة، والله تعالى يُعرفنا كلاءة، ويكفيننا ضرر كل مُلِم وإساءة"٤٣٣.

ومنها كذلك موضوع الاستهداء وقد تكون رسالة ابن مُغاوِر الشّاطبيّ مثلاً مُلائماً لهذه الرّسائل، فقد طلب الكاتبُ من صديقة هديتين، جاريةً "وليدةً غلاميّةً، كما نعتَ بشار فطمته في الحُسن، وقسمها بين البدر والكثير والغُصن، كصورة القمر، والطّيبة العاطفة في الحمر.... فإن تحقّق ذلك الصّقع إمكانيّاتها، وعُرف مكائنها، ومبلغُ ثمنها، فأعمل وجه النّظر في الظفر بها إن شاء الله تعالى"٤٣٤.

أما الهدية الأخرى فكانتُ عمّامتان وصفهما ابن مُغاوِر بقوله "أحسن من منظر العَشيق، وأرقّ من دين ابن رَشيق، إحداهما مما يَشْكُلُ للعِمّة على اللَّمة فوقَ عشر أذرع أو قيدها، والثّانية تُضاعف على مثل الأولى بمزيد مترٍ لفضلة العُثُنون والعَدَبَة"٤٣٥.

وقد تعبر بعض الرّسائل عن العواطف التي تَجِيْشُ في صُدور مُرسلِها، كرسالة ابن عُميرة التي عبّر فيها عن حزنه الشّدِيد للرزء الذي حلّ ببلنسية٤٣٦، ورسالة ابن الجنان الذي عبّر فيها عن إعجابه برسالة أرسلت إليه٤٣٧، كما تحوي بعضُ الرّسائل اعتذاراً٤٣٨، وبعضُها تحوي شُكراً٤٣٩.

٤٣٣ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١١.

٤٣٤ ابن شريفة، ابن مغاور الشاطبي، ٢٤٧.

٤٣٥ المصدر السابق، ٢٤٨.

٤٣٦ ينظر إليها في: المقرّي، نفح الطيب، ١: ٣٠٥.

٤٣٧ ينظر إليها في: المصدر السابق، ٧: ٤١٧.

٤٣٨ ينظر رسالة ابن عميرة في: ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٧٧.

٤٣٩ ينظر رسالة ابن مرج الكحل في: المقرّي، نفح الطيب، ٥: ٥٨.

ثالثاً: الرسائل الوصفية

الوصف "هو شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه في الواقع لإحضاره في ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به"^{٤٤٠} وهذا يتطلب انتباهاً ودقةً من الواصف كي "يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينيك"^{٤٤١} وقد حفل الشعر الأندلسي بالوصف، ولا سيما وصف الطبيعة، كذلك كان للوصف حضوراً بارزاً في فنون النثر، حيث نجد كثيراً من الرسائل التي كان الوصف موضوعاً رئيساً فيها، ويمكن تقسيم الرسائل الوصفية بحسب موضوعاتها إلى أقسام ثلاثة هي:

وصف الطبيعة

وقد جعل دارسو الأدب الطبيعة في ثلاثة أصناف: طبيعة حيّة، وطبيعة صامتة، وطبيعة مصنوعة^{٤٤٢}، أمّا الطبيعة الحيّة فتتناول وصف الكائنات الحيّة، وقد حوت هذا الوصف رسائل عديدة منها رسالة أرسلها ابن عميرة إلى أحد أصدقائه، وغلب الوصف على تلك الرسالة، حيث وصف الكاتب عزيز بن خطّاب حاكم مرسية في مشهدين: المشهد الأول قبل أن يخوض في مُعترك السياسة حيث "كان في معظم عُمره ناسكاً، ولسبيل البرّ والتقوى سالكاً، زكي النفس، عليّ الهمة، كثير التواضع، يتعاهد المساكين برّفه، ويعالج الضّعفاء من عنده"^{٤٤٣}، والمشهد الآخر بعدما ابتلي بالإمارة حيث "أساء السيرة، وارتكب الخطايا الكثيرة، فكره الناس وكرهوه، وتكرّرت القلوب له والوجوه، وكان آخر أمره أن جرّ قسراً، وقتل بالسيف صبراً"^{٤٤٤}.

ومن الرسائل التي تناولت موضوع الوصف أيضاً رسالة أخرى لابن مُغاور الشاطبي كتبها لصديق له يسأله شراء كلب ماشية "أهّرت الشدقين، مُتممّ الإهاب، سريع

^{٤٤٠} الهاشمي، أحمد، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (القاهرة: المكتبة التجارية، ط ٢٦، ١٩٦٥م)، ٦٢.

^{٤٤١} العسكري، كتاب الصناعتين، ١٢٨.

^{٤٤٢} حسب التقسيم الذي وضعه عبد العزيز عتيق، ينظر: عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس (بيروت: دار النهضة، ط ٢، ١٩٧٦م).

^{٤٤٣} ابن شريفة، أبو المطرف أحمد بن عميرة، ٢١٠.

^{٤٤٤} المصدر السابق، ٢١٠.

الجئنة والذهاب، مُعْرِقٌ عند انتساب الكلاب، هَزَجَ التَّباح، مانعٌ للحريم المباح، إن رَبَضَ حَمَى الرِّبْض، وإن سَرَجَ قَتَلَ أو جَرَحَ، ثَقِيلُ الوَطْأَةِ، خَفِيفُ الوَثْبَةِ عند التَّبْأَةِ"٤٤٥.

وأما وصف الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ فكان له حضورٌ في رسائل أخرى منها رسالة كتبها صَفْوَانُ بن إدريس وصف بها يوماً عاصفاً حيثُ المطر المنهمر وما يُصاحبه من لَمَعَانِ برقٍ، وهزيمٍ رعدٍ، وقد جاء في تلك الرسالة "فلما وصلتُ إلى القناطر تحليتُ بلؤلؤ السحاب المواطر، وما خَلَصْتُ إلا خُلُوصَ المخاطر، بين برقٍ كما هُزَّ الحُسامُ الدَّامي، لا يقف إقدام صَبْرِي على خَطْفَتِهِ، فكيف بأقدامِي؟ ورعدٌ كما زَارَ أُسَامَةُ، كأثما يَنْعَى على البرق حُسَامُهُ"٤٤٦.

ونجد وصفا للطَّبِيعَةِ المصنوعة في ثنايا الرِّسَالِ ومنها رسالة كتبها ابن مُغاور الشَّاطِئِيَّ يَصِفُ فيها مسجد بَلَدِهِ "وهذا المسجد الجامع بشاطبة قد عدا بين الجوامع فذاً فريداً، كأثما نُبِذَ بالعراء مُتَحِيّزاً عن كلِّ دارٍ تحت سُوْرِها ومَسْكَن، لا لاحتقارٍ لِقَدْرِهِ ومَكَانِهِ، بل لاهتمامٍ بفضله وعظيم شأنه، نَصْبُوهُ ربوةً محفوفةً بالرَّحَابِ، مَقْرُونَةٌ بمنارٍ يكاد يعتمُّ بالسحاب، بَرَزَ فبرَزَ، وتَحَيَّرَ فتمَيَّزَ، وأحرز من الشُّهْرَةِ ما أحرز، فلولا أن تكون بدعةً لَضَمَّخْنَاهُ وكسوناها بالخز، وقلنا: مَنْ عَزَّ بَزَّ"٤٤٧.

المفاخرة بين البلاد

كان الأندلسيُّ مُعْتَزِّلاً ببلده، مُفَاخِرّاً بها، وكانت المفاخرة تقوم على أساس المفاضلة بين الأندلس عامة وبين المغرب، وفي أحيان أخرى كانت المفاضلة تقوم بين مدينة أندلسية وبين مدينة أندلسية أخرى، ونجد في الرِّسَالِ الأندلسية ما نمثل به على كلا الضربين، أمَّا المفاخرةُ بالأندلس فتمثلها رسالة الشَّقْنَدِيِّ التي افتتحها بقوله "الحمد لله الذي جعل لِمَنْ يَفْخَرُ بجزيرة الأندلس أن يتكلمَ بملء فيه، وَيُطِنَبَ ما شاء فلا يجد ما يعترض عليه، ولا مَنْ يثنيه، إذ لا يقال للنَّهار يا مُظْلَم، ولا لوجه النِّعَمِ يا قَبِيح:

٤٤٥ ابن شريفة، ابن مغاور الشاطي، ٢٠٠.

٤٤٦ ابن شريفة، أديب الأندلس، ١٩٩.

٤٤٧ ابن شريفة، ابن مغاور الشاطي، ١٩٠.

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سِيعَةٍ فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ^{٤٤٨}
أحمدته على أن جعلني مِمَّنْ أنشأته، وحباني بأن كنتُ مِمَّنْ أظهرته، فامتدَّ في الفخر
باعي، وأعاني على الفضائلِ كرمِ طباعي، وأصلي على سيدنا محمدَ نبيِّه الكريم، وعلى آله
وصحبه الأكرمين^{٤٤٩}، والرسالة طويلة وقد عَرَضَ الشَّقْنَدِي فيها وصفا مُسَهَّباً للأندلس
بجميع مكوّناتها الطَّبِيعِيَّة والبشريَّة والثقافيَّة مُعَرِّضاً بِيَرَّ المغرب، ومُصَرِّحاً بأفضليَّة الأندلس.
وكانت المفاخرات بين البلدان ولا سيَّما بين المدن الأندلسية "تُنْبِئُ عن النِّزعة
الإقليمِيَّة التي ما تزال موجودةً إلى يَوْمِنَا هذا"^{٤٥٠} كما قال محمد بن شريفة، فهذا ابن
عميرة يُفاخر بشاطبة ويفصّل بوصفها ليرهن على تقدّمها على سواها من مدن فهي "أول
أرضٍ أثبتت الذكر، وأثبتت البرّ، وإن لم تكن وقت الولادة مسّت الأديم، فقد أنست
القدسم، واستحقت الإيثار والتّقديم، وإنها لدارُ دُرِّ القريض، وقرار العُرِّ البيض، ومربطُ
جِيَادِ الكَلَام، ومسقطُ عَهَادِ الأَقْلَام، فيها الثُّجُبُ السُّرَاة، والشُّهْبُ النِّيرَات، إن خطُّوا
أجَادَ قَلَم، وإن خطُّوا فما نَزَلُ قَدَم، ومالي لا أرى عهدهم وأذكره، وأحمدُ ما عندهم
وأشكره، وقد صفوا والمودّات مشوبة، ووفوا والوفاء أعجوبة، وأغضوا وزلاتُ الإخوان
مكتوبة، ووصلوا وفلاحة الهجران محبوبه، فحيّوا بأفضل حياة، وحيّوا بأكرم التّحيات،
وجزّوا عن صفاء النّيّات باصطفاء الأُمْنِيّات"^{٤٥١}.

وكان صفوان بن إدريس قد تحاملَ على المدينة نفسها وعيّر أهلها بصنمٍ نصّبوه في
قَصَبَتِهَا حيثُ قال في رسالته: "شاطبة لا مرحباً بها ولا بأهلها قاطبة، فتعساً لها من
حُبَارَى، لا تُجارى ولا تُبارى... فاتخذت الجامعَ وراءها ظهرياً، واعتلقت بالصنمِ اعتلاقَ
المبتدأ بالخبر... فأقامته لسوقها مشهداً، وعلى فسوقها شاهداً"^{٤٥٢}.

^{٤٤٨}المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤هـ)، ديوانه، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي (بيروت: دار
الكتاب العربي، ٢٠٠١م)، ٧٦.

^{٤٤٩}المقري، نفح الطيب، ٣: ١٨٧.

^{٤٥٠}ابن شريفة، ابن مغاور الشاطبي، ٩٨.

^{٤٥١}ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٩٦. ابن شريفة، أبو المطرف أحمد بن عميرة، ١٠٣.

^{٤٥٢}ابن شريفة، أديب الأندلس، ١٩٠.

ويعود صفوان مرّة أخرى لذكر ذلك الصنم "حسبك من مدينةٍ اشتملت على الصنم اشتمال الصمّاء، وأثبتته فيها إثبات الرّي في الماء، ونبتت جامعها بالعراء، وتعرّت عنه تعري الأفعال من أقوال الشعراء... ما لهم - لا بلّغوا آمالهم - غضبوا على ذلك الجامع المسكين، وجعلوه في قرارٍ غير مكين، وارتضّوا بالصنم منه خليلاً" ^{٤٥٣}.

لقد استفزّ صفوان ابن مغاور الشاطبيّ الذي كتب رسالة في ذمّ مرسية بلد صفوان جاء فيها "مكائك من مكانٍ نهرٍ مَعْصُوبٌ، وشرّه بك مَعْصُوبٌ، فلست من البطح مودودة، ولا إلى الهضبات مردودة، خفت يد الحوادث وتوقعت، فتلثمت بسورك وتبرّعت، فاشترقي بريقك، وغرّي غيري بريقك... فاعجبي من بعد المدى المتطاوّل، هضاب غضاب، ونطاف عذاب، وسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب" ^{٤٥٤}.

وهناك ضرب آخر من المفاخرات لا ينحصر بطرفين متفاخرين، وإنما تتفاخر المدن وتباهي، ثم يحسم الكاتب الأمر بانتصار مدينةٍ وتقدّمها على نظيراتها الأخريات، وتمثّل هذا الضرب رسالة صفوان بن إدريس التي جعل بعضُ مدّن الأندلس تتبارى فيما بينها فتصف كلّ منها مناقبها ومحاسنها، وتنتهي الرسالة بحسم المفاضلة لصالح مرسية التي تُخاطب المدن قائلة: "لي الرّوض التّضير، والمرأى الذي ما له من نظير، وزنقاقي التي سار مثلها في الآفاق، وتبرّقع وجه جمالها بغرة الإصفاق، فمن دوحات، كم لها من بُكور وروحات، ومن أرجاء، إليها تُمدّ أيدي الرّجاء، فأبنائي بها في الجنة الدّنيويّة مودعون، يتنعمون فيما يأخذون ويدعون، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدعون" ^{٤٥٥}.

الرحلات

ليس من اليسير تعريفُ أدب الرحلة، حيث يختلف هذا الأدب عن الأجناس الأدبية الأخرى الشعريّة منها والنثريّة، وذلك بسبب اختلاف أساليبه ومضامينه من ناحية،

^{٤٥٣} المصدر السابق، ٢٢٢.

^{٤٥٤} ابن شريفة، ابن مغاور الشاطبي، ٢٣٥.

^{٤٥٥} المقرّي، نفح الطيب، ١: ١٧٣.

وبسبب انفتاح هذا الأدب على فضاءات أدبية عديدة كالجغرافيا والتاريخ والشعر والتراجم والحكايات.... من ناحية أخرى، وقد أدى هذا الأمر إلى "صُعوبة القبض على تعريفٍ يجمعُ في حدِّه زَحَمَ الخصوصيّات والتنويعات في التّصوص الرّحليّة العربيّة"^{٤٥٦}.

إذا صرفنا النّظر عن محاولة تعريف أدب الرّحلة فإنّنا نتفقُ على أمرين هما: أنّ الرّحلة تحتلُ منزلةً رفيعةً في الأدب العربيّ، وأنّها تتسمُ بالإثارة لأنّها "متأثيّةٌ من الوصف الطّريف للواقع، والسّرد الفنّي للمغامرة الإنسانيّة، والعواطف المحركة للبشر، ونابعةٌ أيضاً عن أنواع الشخصيّات التي تُبرزُها للقارئ"^{٤٥٧}.

عرّف الأندلسيّون أدب الرّحلات، ووجد في موروثهم الأدبيّ وصفاً لرحلاتهم، والمُتتبعُ لخطّ سير الرّحلة الأندلسيّة يلاحظُ أنّها جاءت على شكلين: الأول خرجَ عن نطاق المكان الأندلسيّ، واتّجه معظمه نحو الشّرق وبالأخص إلى الأماكن المقدّسة^{٤٥٨}، ولم تتوقّف الرّحلة الأندلسيّة عند حدود المقدسات في مكّة المكرّمة والمدنيّة المنورة وبيت المقدس، بل جاوزتها لتصلَ إلى أماكن بعيدة، "وكان أدبُ الرّحلة الأندلسيّة تصويراً للحضارة بما تحويه من أخبارٍ، ونوادرٍ، وحكاياتٍ، وعاداتِ الأممِ وقيّمها، وحَقَقَ فوائد تاريخيّةً وجغرافيّةً، ووصفاً يَمُور بالحيويّة للأماكن والأصقاع"^{٤٥٩}.

صوّر الأندلسيون رحلتهم الخارجيّة، وعرضوا وصفاً مُفصّلاً للأحداث والمشاهدات التي صادفوها في ترحالهم، ومن هؤلاء أبو حامد الغرناطي وابن جُبَيْر^{٤٦٠}، وقد أتى تصوريهما ووصفهما في كتب مكتملة، ولم نجد رسالةً واحدةً أتت على وصفِ رحلةٍ خارجيّة لا لهذين الكاتبين ولا لغيرهما.

^{٤٥٦} حليفي، شعيب، الرحلة في الأدب العربي (الدار البيضاء: دار القرويين، ط ٢، ٢٠٠٣م)، ١٦٥.

^{٤٥٧} جبور، عبد النور، المعجم الأدبي (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٨٤م)، ١٢٢.

^{٤٥٨} - ينظر: الياقوت، عبد الله بن عثمان، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، رسالة دكتوراه (السّعودية: جامعة أمّ القرى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

^{٤٥٩} الهروط، بلال سالم، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسيّة، رسالة دكتوراه (الأردن: جامعة مؤتة، ٢٠٠٨م).

^{٤٦٠} ينظر: الغرناطي، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الغرناطي الأندلسي (٤٧٣ - ٥٦٥هـ)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: علي عمر (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، ٢٠٠٣م). ورحلة ابن جُبَيْر (مصدر سبق ذكره).

أما الشكل الثاني فقد انحصر في المكان الأندلسي ولم يتعداه، وقد وجدت الرسائل الأندلسية التي وصفت الرحلات الداخلية ومنها رسالة كتبها ابن مغاور الشاطبي استهلها بذكر سبب إنشائها حيث كان في إشبيلية مُصاحباً واليه أبا الربيع فحنّ إلى بلده شاطبه "فاستأذنته - أيده الله - في الرجوع إليها، والوفود عليها، فأذن وما كاد، وأجزَلَ العطية والزاد، وأباح لي من ركوب خيله المطهّمة سابغها الجواد، فكتبت إليه - أيده الله - من شاطبة - حرسها الله - أصف له مناقلي في الطريق حالاً فحالا، جلاً وترحالا"^{٤٦١}.

وقد استغرقت رحلة ابن مغاور مراحل عديدة، ومرّ فيها بأماكن كثيرة^{٤٦٢}، وكان كلما قطع مرحلة، ومرّ بمنطقة، وصفها وصفاً تصويرياً، وكان حيناً يصفُ المدن العامرة كوصفه لمدينة غرناطة "قاعدة الأندلس الوسطى، والمنزل الذي لا يتعدى منعةً وحُسناً ولا يتخطى، أرضٌ أريضة، وبطاحٌ عريضة..... طاب بها الهواءان المقصور والممدود، ولانت فيها القلوبُ والجلود، وسلبت ألوانَ وردِها المضاءعَفَ بها الخدودُ، ولينَ أغصانها وانعطافها القدودُ"^{٤٦٣}.

وحيناً آخر كان الكاتب يصفُ المدن المهجورة كوصفه لمدينة مِيرانة حيثُ جاء في رسالته "فبتنا بها في طللٍ مُوحِشٍ العرصات عائل، لا نستندُ على ظلِّ جداره المائل، يتطلع رائدُ المنايا من أركانه، ويؤذنُ تضعضعه بهتدم بُنيانه، وكأئما ينعي للمارين به غابرَ قطّانه وسُكّانه"^{٤٦٤}.

ولم يغفل ابن مغاور وصف المكوّن البشريّ في الربوع التي مرّ بها ومن ذلك الوصف الذي قدّمه لقطّاع الطّرق "بوادي الطّين ناسٌ في زيّ الشّياطين، وعِزة السّلاطين، عُربانٌ كالغربان، ونذيرٌ بالشرِّ عريان، وانجُ يا فلان، فهنا سلب فلان، ناس ترى الحنق يتلمظ في عبوسهم، وينذر ببؤسهم، ويترجم عمّا في نفوسهم، من البغضاء الكامنة

^{٤٦١} ابن شريفة، ابن مغاور الشاطبي، ١٦٧.

^{٤٦٢} وضع علي الشناوي جدولاً يبيّن فيه المراحل التي استغرقتها رحلة ابن مغاور الشاطبي وكانت عشرين مرحلة، وذكر البلاد التي مرّ بها وكانت أربعاً وعشرين بلدة، ينظر: الشناوي، علي الغريب، النشر الأندلسي في عهد الموحّدين، ٢٢١-٢٢٢.

^{٤٦٣} ابن شريفة، ابن مغاور الشاطبي، ١٧٣.

^{٤٦٤} المصدر السابق، ١٧٠.

لشيخهم ورئيسهم، ما حلق التوحيد على آذانهم، ولا ظهر في صلواتهم ولا أذانهم، طالما أخاف شبابهم وكهولهم السبيل، وعمروا متلصحين الخندق والمسيل"^{٤٦٥}.

ومن ذلك أيضا الكرم الذي يتصف به أهل أوريولة حيث قال وقد نزل وأصحابه بها "فاحتللنا منزلا خصباً، وأخذنا من كل ما اشتهيناه من المطاعم حظاً ونصيباً، وما سدّدنا سهم إرادة إلا نفذ إلى الغرض مُصيباً"^{٤٦٦}.

إضافة إلى رسالة ابن مغاور نجد رسائل أخرى عنيت بالرحلات^{٤٦٧}، ولكن على الرغم من أهمية هذه الرسائل إلا أنها لم ترق إلى مستوى كتب الرحلات حيث كانت دونها مستوى سواء في الشكل الأدبي أو ثراء المضمون.

^{٤٦٥}المصدر السابق، ١٧٠.

^{٤٦٦}المصدر السابق، ١٧٦.

^{٤٦٧}ومنها رسالة الارتحال والتعريس لصفوان بن إدريس، ينظر إليها في: ابن شريفة، أديب الأندلس، ١٧١ - ١٩٠.

الباب الرابع

مصادر الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية وأنماطها الحسية

ويتكوّن من:

الفصل الأول: مصادر الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية.

الفصل الثاني: أنماط الصورة الفنية الحسية في الرسائل الأندلسية.

الفصل الأول

مصادر الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية

انطلاقاً من المفهوم الشامل الذي تبناه الباحثُ تتكوّن الصورةُ الفنيّةُ من شكلٍ ومضمون^{٤٦٨}، ويلجأُ الفنّانُ إلى وسائلٍ وأدواتٍ وأساليبٍ لصياغةِ الشكلِ، كما يلجأُ إلى مصادرٍ ومواردٍ ليستقيَ منها المضمونَ، حيث لا تُكتسبُ تلك المصادرُ والمواردُ "صبغةً فنيّةً" إلا بعد أن تمتدَّ إليها يدُ الفنّانِ فتخلُقُ منها صورةً فنيّةً^{٤٦٩}، وبالنظر إلى مجموعِ نصوص^{٤٧٠} الرسائل الأندلسية التي خُطّت في عصر الموحّدين نجد أن كُتّابها قد استقوا صوَرهم الفنيّة من مواردٍ عديدةٍ ومصادرٍ مختلفة، ويتمثّل أهمّها في:

أولاً: الثقافة

كانَ الكاتبُ الأندلسيُّ صاحبَ فكرٍ وثقافة، وكانت ثقافةُ الكاتبِ عنصراً ضرورياً وأساسياً في الإبداعِ والخلقِ الفنيِّ حيثُ "لا يستطيعُ الأديبُ أن يُنتجَ إنتاجاً حسناً إلا إذا كُمِلتْ أدوائه، والثّقافةُ الواسِعةُ العميقةُ المتنوّعةُ هي أهمُّ هذه الأدوات"^{٤٧١}، وبما أنّ الثّقافةَ تتأتّى من روافدٍ مُتنوّعةٍ، فقد كان من الضروريّ بيانُ الرّوافدِ المهمّةِ التي كوّنَتِ ثقافةَ الكاتب، وظهّرتْ بشكلٍ جليٍّ في صوَرِ رسائله الفنيّة:

^{٤٦٨} ينظر: (مفهوم الصورة الذي سيكون أساس الدراسة) في الفصل الأول من الباب الأول.

^{٤٦٩} إبراهيم، زكريا، مشكلة الفن (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٧٧م)، ٣٢.

^{٤٧٠} نصوص مفردتها نصّ (ونطلق كلمة نصّ على كلّ خطاب تمّ تثبيته بواسطة الكتابة) كريستفيا، جوليا، علم

النصّ، ترجمة: فريد الزاهي (المغرب: دار توبقال للنشر، ١٩٩١م)، ٣٤.

^{٤٧١} حسين، طه، حديث الأربعاء (مصر: دار المعارف، د.ت)، ٣: ٢٠٢ - ٢٠٣.

الدِّين

نَلْحَظُ فِي الرِّسَالِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ أَنَّ الدِّينَ كَانَ الرَّافِدَ الْأَغْزَرَ الَّذِي كَوَّنَ الْمَخْزُونَ الثَّقَافِيَّ لِلْكِتَابِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ الَّذِينَ نَهَلُوا مِنْ مُخْتَلَفِ الْمَصَادِرِ الدِّينِيَّةِ، وَكَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي مُقَدِّمَتِهَا.

عَمَدَ الْكَاتِبُ إِلَى التَّنَاصِّ كَيْ يُبْرِزَ تَأَثُّرَهُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيُقْصِدُ بِالتَّنَاصِّ تَدَاخُلَ نَصُوصٍ أَدَبِيَّةٍ مُخْتَارَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ حَدِيثَةٍ، شِعْرًا أَوْ نَثْرًا، مَعَ نَصِّ الْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ الَّذِي أَنْشَأَهُ الْكَاتِبُ، بَحِثٌ تَكُونُ تِلْكَ التَّنُصُوصُ مُنْسَجِمَةً وَدَالَّةً قَدْرَ الْإِمْكَانِ عَلَى الْفِكْرَةِ الَّتِي يَطْرَحُهَا الْكَاتِبُ^{٤٧٢}، وَيَذُلُّ مَفْهُومُ التَّنَاصِّ^{٤٧٣} عَلَى "وُجُودِ نَصٍّ أَصْلِيٍّ فِي مَجَالِ الْأَدَبِ أَوْ التَّقْدِ عَلَى عِلَاقَةِ نَصُوصٍ أُخْرَى، وَإِنَّ هَذِهِ التَّنُصُوصَ قَدْ مَارَسَتْ تَأْثِيرًا مُبَاشِرًا أَوْ غَيْرَ مُبَاشِرٍ عَلَى النِّصِّ الْأَصْلِيِّ فِي وَقْتٍ مَا"^{٤٧٤}.

وَإِذَا كَانَ اسْمُ التَّنَاصِّ جَدِيدًا فِي الدَّرْسِ التَّقْدِي الْعَرَبِيِّ، فَإِنَّ مُسَمَّاهُ لَيْسَ كَذَلِكَ حَيْثُ "إِنَّ جُذُورَهُ تَعُودُ فِي الدِّرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ إِلَى مُسَمِّيَّاتٍ وَمُصْطَلَحَاتٍ أُخْرَى كَالْإِقْتِبَاسِ وَالتَّضْمِينِ وَالاسْتِشْهَادِ، وَمَا شَبَّاهُ ذَلِكَ فِي التَّقْدِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، فَهِيَ مُصْطَلَحَاتٌ وَمَسَائِلٌ تَدْخُلُ ضِمْنَ مَفْهُومِ التَّنَاصِّ فِي صُورَتِهِ الْحَدِيثَةِ"^{٤٧٥}.

وَكَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ الْحَدِيثُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ لِأَنَّ الْكِتَابَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ كَانُوا قَدْ اعْتَمَدُوا عَلَى التَّنَاصِّ فِي اسْتِحْضَارِ كَثِيرٍ مِنْ مَصَادِرِ الصُّورَةِ فِي رِسَائِلِهِمْ، سِوَاهُ أَكَانَتْ تِلْكَ الْمَصَادِرُ دِينِيَّةً كَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ، أَمْ أَدَبِيَّةً كَالْأَشْعَارِ وَالْأَمْثَالِ.

إِنَّ التَّنَاصَّ الْمَقْصُودَ هُنَا يَظْهَرُ فِي نَوْعَيْنِ، الْأَوَّلُ: تَنَاصٌّ مُبَاشِرٌ أَوْ تَنَاصٌّ التَّحْلِي "وَيَعَمَدُ الْأَدِيبُ فِيهِ إِلَى اسْتِحْضَارِ نَصُوصٍ بَلَّغَتْهَا الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا كَالآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

^{٤٧٢}الرُّعْبِي، أَحْمَدُ، التَّنَاصُّ نَظَرِيًّا وَتَطْبِيقِيًّا(عَمَّانُ: مُؤَسَّسَةُ عَمَّونَ لِلنَّشْرِ، ط٢، ٢٠٠٠م)، ٥٠.

^{٤٧٣}نَجْدٌ اسْتِخْدَامًا لِلْمُصْطَلَحِ (الْإِقْتِرَاضُ) بِدِيلًا عَنِ الْمُصْطَلَحِ (التَّنَاصُّ) Intertextualite لِاتِّفَاقِ تَقَرُّضِ مُصْطَلَحٍ أَصِيلٍ يَتَلَاَمُ مَعَ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ مُلَاقَةِ التَّنَاصِّ الْوَافِدِ إِلَى الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْغَرْبِ. يَنْظُرُ: أَبُو الرِّضَا، سَعْدُ، الْأَدَبُ الْإِسْلَامِيُّ بَيْنَ الشَّكْلِ وَالْمُضْمُونِ(السَّعُودِيَّةُ: الْجُمُوعَةُ الْمُتَّحِدَةُ، ط١، ١٤٢١هـ)، ٨٢.

^{٤٧٤}عَزَامُ، مُحَمَّدٌ، التَّنَاصُّ فِي الشَّعْرِ، مَجْلَةُ الْمَوْقِفِ الْأَدَبِيِّ(دَمَشَقُ: عَدَد ٣٦٨، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م).

^{٤٧٥}الرُّعْبِي، أَحْمَدُ، التَّنَاصُّ نَظَرِيًّا وَتَطْبِيقِيًّا، ١٩.

والحديث الشريف، أو الشعر والقصة^{٤٧٦}، والثاني: تناص غير مباشر أو تناص الخفاء "وينضوي تحته التلميح والتلويح والإيحاء، والجاز والرمز، وهو عملية شعورية يستنتج بها الأديب من النص المتداخل معه أفكاراً معينة يومئ بها، ويرمز إليها في نصه الجديد"^{٤٧٧}.

وللتناص أشكال مختلفة تتحدد بحسب النصوص المُستفاد منها في إنشاء النص الجديد، ومنها التناص القرآني "حيث يقتبس الأديب نصاً قرآنياً ويذكره مباشرة، أو يكون ممتداً بإيحاءاته وظله على النص الأدبي لنلمح جزءاً من قصة قرآنية، أو عبارة قرآنية يدخلها في سياق نصه"^{٤٧٨}.

كان القرآن الكريم حاضراً في الرسائل الأندلسية حضوراً كبيراً، فقد أكثر الكتّاب الأندلسيون من استخدام التناص القرآني في رسائلهم، فاستخدموا التناص المباشر في مواطن كثيرة، فهذا ابن الجنان يكتب عن ابن هود رسالةً إلى أخيه يُوصيه بها "بتقوى الله في كل حال، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء وانتحال، والوقوف عند حدود الله التي حدّها، وأرصدها بإزاء موجباته وعدّها، فإنّه لا يتعداها إلا من رام تعفي رسمها وطمسه ﴿نَفْسُهُ ظَلَمَ فَقَدْ أَلَلَهُ حُدُودَيْتَعَدَّ وَمَنْ﴾"^{٤٧٩}،... والله الله في الدماء فإنها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة، وقد قال مالكُ الأمر والخلق ﴿تَعْقِلُونَ لَعَلَّكُمْ بِهِمْ وَصَلَكُمْ ذِكْرُ الْحَقِّ إِنْ أَلَلَّ اللَّهُ حَرَّمَ أَلَى النَّفْسِ تَقْتُلُوا وَلَا﴾"^{٤٨٠} فتشبتوا فيها فأمرها جليل، وتحريمها لا يدخله تحليل، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحدٍ من ولاة الجهاد حكماً أو نظراً، أو تكلّوا إليهم منها مُستكثراً أو مُستنزراً، فإنه إذا استبدّ بالقضاء فيها كلّ وال ذهب هدرّاً، واستباحها الجاهلُ والجائرُ أشراً وبطراً، وربما كان فيهم من في طباعه سبعية، فيقتل بها الناس قتلاً ذريعاً، ويذهل عن قول الله تعالى:

^{٤٧٦} الجعافرة، محمد، التناص والتلقي (عمّان: دار الكندي، ط ١، ٢٠٠٣م)، ١٥.

^{٤٧٧} المصدر السابق، ١٥.

^{٤٧٨} الجعافرة، محمد، التناص والتلقي، ١٩.

^{٤٧٩} الطلاق: آية ١.

^{٤٨٠} الأنعام: آية ١٥١.

﴿جَمِيعًا النَّاسَ أَحْيَاءَ فَكَأَنَّهُمْ أَحْيَاءُ وَمَنْ جَمِيعًا النَّاسَ قَتَلَ فَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ فِي فَسَادٍ أَوْ نَفْسٍ بَغِيرِ نَفْسٍ قَتَلَ مَنْ﴾^{٤٨١} فَأَن تَحِلَّ الْمَسَاحَةُ فِي هَذَا الشَّانِ، أَوْ يَحْكُمَ بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي نَفُوسِ أَهْلِ الْإِيمَانِ؟^{٤٨٢}.

لم يقتصر حضور القرآن الكريم على رسائل ابن الجثن، بل نجد كثيرا من الرسائل الأندلسية التي زينها كاتبوها بالآيات القرآنية الكريمة مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى التَّنَاصُّ الْمُبَاشَرِ^{٤٨٣}، كما نجد أيضاً اعتماداً على التَّنَاصُّ الْقُرْآنِيِّ غَيْرِ الْمُبَاشَرِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ صَفْوَانُ بْنُ إِدْرِيسٍ مُهَيِّئاً أَحَدَ الْقُضَاةِ بِتَوْلِيهِ مَنْصِبِهِ "أَمَا لَوْ عَلِمَ الْمُتَشَوِّفُونَ إِلَى خِطَّةِ الْأَحْكَامِ، الْمُسْتَشْرِفُونَ إِلَى مَا لَهَا مِنَ التَّبَسُّطِ وَالِاحْتِكَامِ، وَمَا يَجِبُ لَهَا مِنَ اللُّوْازِمِ، وَالشَّرُوطِ الْجَوَازِمِ، كَبَسْطِ الْكَنْفِ، وَرَفْعِ الْجَنْفِ، وَالْمَسَاوَاةِ بَيْنِ الْعَدُوِّ ذِي الذَّنْبِ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ"^{٤٨٤}، وَتَقْدِيمِ ابْنِ السَّبِيلِ عَلَى الرَّحْمِ وَالْقَبِيلِ، وَإِثَارِ الْغَرِيبِ عَلَى الْقَرِيبِ، وَالتَّوَسُّعِ فِي الْأَخْلَاقِ حَتَّى لِمَنْ لَيْسَ لَهُ مِنْ خَلَاقٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَلِمَ قَاضِي الْجَمَاعَةِ أَحْصَاهُ، وَاسْتَعْمَلَ خُلُقَهُ الْفَاضِلَ أَدْنَاهُ وَأَقْصَاهُ، لَجَعَلُوا خُمُولَهُمْ مَأْمُولَهُمْ، وَأَضْرَبُوا عَنْ ظُهُورِهِمْ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ"^{٤٨٥}، اللَّهُمَّ إِلَّا مَنْ أُوتِيَ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ^{٤٨٦}، وَرَسَا طَوْدًا فِي سَاحَةِ الْحِلْمِ، وَتَسَاوَى مِيزَانُهُ فِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ"^{٤٨٧}.

وإلى جانب رسالة صفوان بن إدريس نرى رسائل أخرى^{٤٨٨} لكتاب آخرين استخدموا فيها التَّنَاصُّ الْقُرْآنِيَّ غَيْرِ الْمُبَاشَرِ مِمَّا أَكْسَبَ تِلْكَ الرِّسَالِ رَوْنَقًا وَجَمَالًا "هَذَا

^{٤٨١} المائدة: ٣٢.

^{٤٨٢} المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤٠٩ - ٤١٠.

^{٤٨٣} ينظر الرسائل في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٣٥. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٧٠، ٢٠٣. بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٣٤. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٧٢.

^{٤٨٤} تناص غير مباشر مع سورة النساء، آية ٣٦.

^{٤٨٥} تناص غير مباشر مع سورة آل عمران، آية ١٨٧.

^{٤٨٦} تناص غير مباشر مع سورة البقرة، ٢٤٧.

^{٤٨٧} المقرئ، نفح الطيب، ٥: ٦٨.

^{٤٨٨} ينظر الرسائل في: المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤١٠. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٧٠، القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٩٨. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٧٣. بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٣٥.

فضلاً عن الهدف الدِّينِيّ الذي يجعل التّواصل بين القارئ والكاتب تّواصلاً خَلّاقاً لما يجمع بينهما من رَصِيدٍ زاهر بتقديس القرآن الكريم والتّأثر بمعانيه العظيمة^{٤٨٩}.

كما قصّد الكتابُ القصصَ القرآنيّة، فنَهَلُوا مِنْهَا، ووشّحوا بها رسائلهم، ومن ذلك ذِكْرُ ابن مُغاور الشّاطبي قصّة الخضر - عليه السّلام - في رسالة كتَبَهَا ووصفَ بها مدينةً مرَّ بها خلال رحلته "وأَمَمْنَا لِبِرَالَةٍ مَنْزِلاً، فألفيناها وقد سبقنا إليها جُودٌ من المطر، عاقنا عن ذلك الأمل والوطر، فجدرأئها تثلماً كَفَمِ الأُدرَد، فمن راعٍ وآخر قد سجد، وآخر أراد أن ينقض ثمّ امتسك دون دِعامّة، وكأنّ الخضر - على نبينا وعليه السّلام - اجتازَ عليه فأقامه"^{٤٩٠}.

كان الاعتمادُ على القصّة القرآنيّة لافتاً في الرّسائل الأندلسيّة^{٤٩١}، وكان لافتاً أيضاً تأثّر الكتابِ الأندلسيين بالحديث النبويّ الشّريف الذي كان أحدَ المصادر المهمّة التي نهّل منها كُتّاب الرّسائل الذين اعتمدوا على التّناصّ بنوعيه المباشر وغير المباشر، فمن التّناصّ المباشر ما كتبه ابن الجنّان عن ابن هُود مُوصياً عُمالَه ووُلاتَه "وأعلموا أنّ حُرمةَ الأموال بجرمة الدّماء لاحقة، وإنّ إحدى القضيتين للأخرى مُساويةٌ ولاحقة، ومن أكبر ما وردَ في ذلك وأعظمه، قولُ رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - (حُرمة مال المسلم كحُرمة دَمِهِ)^{٤٩٢}.... فارفعوا - أعاننا الله تعالى وإياكم - للعدل بكلّ عَلمٍ متّاراً، واتخذوا الرّفق بالإمامة شِعاراً، فقد قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - : إنّ الرّفق لا يكونُ في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه"^{٤٩٣} وقد نصّ الكتاب والسّنة على مَوَاضِع

^{٤٨٩} الغباري، عوض، دراسات في أدب مصر الإسلاميّة (القاهرة: دار الثقافة العربيّة، ط ١، ٢٠٠٣م)، ١٨١.

^{٤٩٠} ابن شريفة، محمّد، ابن مغاور الشّاطبي، ١٧٨.

^{٤٩١} ينظر الرّسائل في: ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحّدين: ٦٠. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٧٢. ابن

شريفة، محمّد، ابن مغاور الشّاطبي، ١٩٤.

^{٤٩٢} مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث ١٦٧.

^{٤٩٣} المصدر السابق، رقم الحديث ٤٧٠٤.

اللين والاشتداد، وَبَّهَّا عَلَى مَنَازِعِ الْمُقَارَبَةِ وَالِاشْتِدَادِ، فَلَا غَضَبَ لِأَمْرٍ إِلَّا بِمَا غَضِبَ لَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا رِضًى بِهِ إِلَّا إِذَا اسْتَقَرَّ فِيهِ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى وَحَلَّ"٤٩٤.

وَمِنَ التَّنَاصُّ غَيْرِ الْمُبَاشَرِ نَقْرَأُ رِسَالَةَ لِعَزِيزِ بْنِ خَطَّابٍ اسْتَعْدَمَ فِيهَا التَّنَاصُّ غَيْرِ الْمُبَاشَرِ مَعَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ مُحَذَّرًا مِنَ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا حَيْثُ يَقُولُ الْكَاتِبُ: "رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَأْخُذُ بِحُجْرَتِنَا مِنَ النَّارِ، وَنَحْنُ نَتَهَافَتُ عَلَيْهَا تَهَافَتَ الْفَرَّاشِ، يَقُولُ لَنَا: لَا تَطْلُبُوا الْإِمَارَةَ، وَلَا تَتَّخِذُوا الدُّنْيَا دَارَ عِمَارَةٍ، وَنَحْنُ لَا نَسْتَقِرُّ مِنْ أَجْلِ طَلَبِهَا عَلَى فِرَاشٍ، مَا أَغْوَانَا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ نَصِيحَتَهُ، وَمَا أَقْلَّ هُدَانَا إِنْ لَمْ نَسْلُكْ طَرِيقَتَهُ!"٤٩٥.

تَأَثَّرَ عَزِيزُ بْنُ خَطَّابٍ فِي رِسَالَتِهِ بِقَوْلِ الرَّسُولِ: "إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجْرَتِكُمْ مِنَ النَّارِ، وَتُقَاجِمُونَ فِيهَا تَقَاحِمَ الْفَرَّاشِ وَالْجَنَادِبِ"٤٩٦، وَبِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "... لَا تَسْأَلُ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكِلْتَا إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"٤٩٧.

وَإِذَا كَانَ ابْنُ خَطَّابٍ قَدْ ارْتَكَزَ عَلَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ حِينَ تَطَرَّقَ لِمَعَانٍ دِينِيَّةٍ، فَإِنَّ ابْنَ عُمَيْرَةَ قَدْ اسْتَوْحَى قَوْلَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرَدُّهُ الْقِمَّةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، قَالُوا: فَمَا الْمُسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا"٤٩٨ فِي مَعْرِضِ هُجُومِهِ عَلَى أَحَدِ خُصُومِهِ الَّذِي كَانَ "بِالْمَرِيَّةِ يَغْدُو وَيُرُوحُ، يَسْتَنْشِقُ كُلَّ هَابَّةٍ، وَيَطْلُبُ رِزْقَهُ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَيَحْسِبُ اللَّبَّ فِي كُلِّ قِشْرٍ، وَيَرَى نَارَ الْحُبَابِ فِيظْنُهَا تَحْتَ

٤٩٤ المَقْرِي، نَفْحُ الطَّيِّبِ، ٧: ٢١٢-٢١٣. وَيَنْظُرُ التَّنَاصُّ الْمُبَاشَرَ مَعَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ فِي الرِّسَالَتِ: ابْنُ الْمُرَابِطِ، زَوَاهِرُ الْفِكْرِ، ٧٠، ١٦٠. الْهَرَامَةُ، عَبْدِ الْحَمِيدِ، آثَارُ أَبِي زَيْدٍ الْفَارَازِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ، ١١١. عَزَاوِي، أَحْمَدُ، رِسَائِلُ مُوَحَّدِيَّةٍ، ٣٨٢.

٤٩٥ ابْنُ الْمُرَابِطِ، زَوَاهِرُ الْفِكْرِ، ٧٠.

٤٩٦ مُسْلِمٌ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ، رَقْمُ الْحَدِيثِ ١٠٥٣.

٤٩٧ الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، رَقْمُ الْحَدِيثِ ٢٢٧٠.

٤٩٨ الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، رَقْمُ الْحَدِيثِ ١٧٢٩.

قَدْرٍ، مِنْ طَوَافٍ لَا شَيْءَ يَصُدُّهُ، عَافٍ وَالْقَمَّةَ وَالْقَمْتَانِ لَا تَرُدُّهُ، وَهُوَ الْآنَ يَلْتَهُمُ الْمَمْلُوحَ وَالطَّرِيَّ، وَالْمَائِيَّ وَالْبَرِيَّ، وَقَدْ زَادَتْ غَثَائَتْهُ أضعافاً، فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ مِنْهُ مُعَافًى^{٤٩٩}.

وأحياناً "يكونُ التَّنَاصُّ بِإِمَاءَةٍ مَبَاشِرَةٍ أَوْ غَائِمَةٍ إِلَى عَمَلٍ كَامِلٍ أَوْ مُجْتَزَأٍ، وَقَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ تَلْمِيحًا إِلَى شَخْصِيَّةٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ حَادِثَةٍ مَا"^{٥٠٠}، وَمِمَّا يُمَثِّلُ ذَلِكَ رِسَالَةُ ابْنِ مَغَاوِرِ الشَّاطِطِيِّ الَّتِي وَصَفَ بِهَا مُغَامَرَتَهُ مَعَ ذَيْبٍ "تَلَمَّظَ وَتَمَطَّى لَا مِنْ كَسَلٍ، وَكَشَّرَ عَنْ مِثْلِ أَطْرَافِ الْأَسَلِ، وَانْتَفَضَ إِلَيَّ كَمَا انْتَفَضَ إِلَى الْفَرِيَسَةِ أَسَامَةً، أَوْ انْتَفَضَ الضَّرِيحَ آيَةً لِلنَّاسِ بِمَحَلِّ بْنِ جُثَامَةَ، وَضَرَبَ بِذَنْبِهِ إِلَى الْأَرْضِ، فَكَادَ يَتَوَارَى مِنَ الْعُبَارِ فِي عُجَاجَةٍ، وَأَقَمْتُ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ، فَنَظَرْتُ يُمْنَةً وَشِمْلَةً، فَلَمْ أَرَ إِلَّا خَنْجَرًا وَشِمْلَةً، فَلَفَفْتُهَا عَلَى ذِرَاعِي، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: لَا تُرَاعِي، وَوَقَفْتُ ثَبَّتَ الْجِنَانُ، وَقُلْتُ: لَا نَامَتْ عَيْنُ الْجُبَّانِ"^{٥٠١}.

وَمَحَلَّمُ بْنُ جُثَامَةَ الَّذِي وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا النَّصِّ هُوَ الَّذِي لَعَنَهُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا مُسْلِمًا، ثُمَّ هَلَكَ بَعْدَ أَيَّامٍ، فَدَفَنُوهُ، فَلَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، فَرَمَوْا بِجُثَّتِهِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَجَعَلُوا عَلَيْهَا حِجَارَةً، فَقَالَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ الْأَرْضَ لَتَقْبَلَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرِيَكُمْ آيَةً قَتَلَ الْمُؤْمِنَ"^{٥٠٢}.

كَمَا نُطَالَعُ فِي الرِّسَالِ تَنَاصًُّا مَعَ أَحْدَاثٍ فِي السَّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ كَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ^{٥٠٣} وَغَزْوَةِ أُحُدٍ^{٥٠٤} وَالسَّحَرِ الَّذِي صَنَعَهُ الْيَهُودُ لِلرَّسُولِ وَوَضَعُوهُ فِي بَثَرٍ

^{٤٩٩} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٩ - ٢٢٠.

^{٥٠٠} العلاق، علي جعفر، في حادثة النص الشعري (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، ١٩٩٠م)، ١٣٢.

^{٥٠١} ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٥٨.

^{٥٠٢} ينظر قصة محلم بن جثامة في: ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الكناي (٧٧٣ - ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: أحمد عبد الموجود (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)،

٣: ٣٦٩. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨٣م)،

١٨٤: ٤.

^{٥٠٣} ينظر: عزايوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١١.

^{٥٠٤} ينظر: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ١٩٨.

ذروان^{٥٥} وصلاة أبي بكر بالناس في مرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - ^{٥٦} وادعاء
سُجَّاح النبوة^{٥٧}.

ووظف الكتاب في رسائلهم الأحكام الفقهية والشعائر الدينية، فهذا صفوان بن
إدريس يذكر التيمم في رسالة شكر أرسلها لابن مرج الكحل وأثنى بها على رسالة كان
قد تلقاها منه، حيث كتب ما نصه "ولكن على المجد أن يُبدي في قبول عُذرهما ويُعيد،
لِعلمه أنه يتيمم من لم يجد إلا الصَّعيد، فله الفضل أن لا يلفحها بنار النقد، ولا يعرضها
على ما هُنالك من الحل والعقد، والله يُبقي ذكره في مُقلة الأدب حوراً، وفي قلب الحسود
خوراً"^{٥٨}.

وإلى جانب التيمم نرى ذكراً للأذان^{٥٩} وصلاة الاستخارة^{٦٠} وابتداء الشهر برؤية
الهِلال^{٦١} والمسح على الخفين^{٦٢}، كما نرى حضوراً لشخصيات الصحابة - رضي الله
عنهم - في ثايا الرسائل، ومن ذلك قصة استسقاء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد
المطلب - رضي الله عنهما - في رسالة ابن الجنان التي جاء فيها "والتوكل على الله تعالى
ملاك أمرنا وعمادُه، وزمامُه الذي به انسياقُ كل خير وانقيادُه، والاستعانةُ به ملجأنا
الذي إليه رجوعُ كل مؤمن واستنادُه، وملاذُنَا الذي نأوي إلى ظله فيكنفنا سُبُوغُه
وامتدادُه، والتوسل إليه بسكّيل الذي توسل به الفاروق فهمت عهاده^{٦٣}، وصلتنا إلى نصر

^{٥٥} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤١٧.

^{٥٦} ينظر: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٩٢.

^{٥٧} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤١٨.

^{٥٨} المصدر السابق، ٥: ٥٩.

^{٥٩} ينظر: المصدر السابق، ٥: ٤٩٨.

^{٦٠} ينظر: بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٢٢. عزاوي، رسائل موحدية، ١٠١.

^{٦١} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣١٢.

^{٦٢} ينظر: المصدر السابق، ٤: ٤٩٥.

^{٦٣} ينظر قصة استسقاء عمر بالعباس - رضي الله عنهما - في: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري
(١٩٤ - ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م). حيث ورد الحديث مرتين: في باب
سؤال الناس بالإمام، رقم الحديث ٩٥٤، وفي باب مناقب العباس، رقم الحديث ٣٤٣٤.

الله العزيز الحكيم الصادق ميعاده، والشكر والحمد له جلّ جلاله دأبنا الذي لا يغيب ولا يغيبُ مُعْتَادُهُ"٥١٤.

وجاء في سُطورِ الرسائلِ إشاراتٌ أخرى لِعُمر بن الخطاب ولصُحابةٍ آخرين كأبي بكر وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاصّ ومؤذن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أبي مَحْذُورَة الجمحيّ٥١٥.

كما كانت المعتقدات النصرانية مَصْدَرًا دينيًا آخرَ للرسائل، حيث تُطرقُ الكُتّابُ لمعتقدات النصارى "عَبْدَةَ الصُّلْبَان، حَصَبِ النَّار"٥١٦، فَحَمَدُوا اللَّهَ "الْمَنْزَهَ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ عَنْ التَّثْلِيثِ وَالتَّجْسِيمِ، حَمْدًا يَكُونُ إِلَى الْعَوَارِفِ سَعِيرًا، الْوَاحِدَ الَّذِي اسْتَحَالَ عَلَيْهِ جَوَازِ الْعَدَدِ، وَاتَّخَذَ الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ، فَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْكَافِرُونَ عُلوًّا كَبِيرًا"٥١٧، واستنكروا "اتخاذ المسيح وأمه آلهين من دون الله"٥١٨، وَذَكَرُوا أَوْثَانَهُمْ٥١٩ وَرَهْبَانَهُمْ٥٢٠ وَكُنَائِسَهُمْ وَنَوَاقِيسَهُمْ٥٢١.

التاريخ

استحضر الكاتبُ الأندلسيُّ التاريخَ، وجَعَلَهُ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ فِي رِسَالَتِهِ، فَالْفَنُّ - بِشَكْلٍ عَامٍ - "يَجِدُ لِنَفْسِهِ الْوَحْيَ وَالْإِلْهَامَ فِي أَحْدَاثِ التَّارِيخِ وَظَوَاهِرِهِ وَأَبْطَالِهِ، هَذَا الِاسْتِيحَاءُ التَّارِيخِيُّ فِي الْفَنِّ سِمَةٌ عَامَّةٌ فِي الْفُنُونِ الْإِنْسَانِيَّةِ"٥٢٢.

٥١٤ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٨٤.

٥١٥ ينظر الرسائل التي وردت فيها أسماء الصحابة في: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١١، ١١٢. المقرئ، نفح الطيب، ٢: ١٩٢، ٣٦٤. ٧: ٤١٩. ٢: ٣٦٤. ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ١٩٢. على التوالي.

٥١٦ عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٣٠. من رسالة ابن المرحي.

٥١٧ بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٢٨. من رسالة أبي عبد الله بن عيَّاش.

٥١٨ المصدر السابق، ٢٣٢. من رسالة أبي عبد الله بن عيَّاش.

٥١٩ ينظر: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٩٣.

٥٢٠ ينظر: المصدر السابق، ٣٤٧.

٥٢١ ينظر: المصدر السابق، ٢٦٨.

٥٢٢ قاسم، قاسم عبده، الشعر والتاريخ، مجلة فصول (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد ٢، ١٩٨٣م)، ٢٣٦.

جاء التطرق للتاريخ بذكر شخصيات وأعلام تاريخية من خارج التاريخ الأندلسي وداخله، ومن ذلك ما كتبه أبو زيد الفازاني مادحاً صديقاً له، ومُسْتَحْضِراً في ثنايا ما كتبه شخصيتي سيف بن ذي يزن وكسرى حين قال: "فلما دانت القطاف أزهاره، وقاربت الإفصاح أطيّارُه، وأخذت بمجامع القلوب خطوطه المتقاطعة وألوانه، ومثل في عينيه ذو يزن وغمدائه، وكسرى وإيوانه، ونمّقت يد الصّابغ والصّابغة صفحته النّاصعة، وحارت في بدائع رُقومه العينُ المبصرة، والآذان السّامعة"^{٥٢٣}.

وإضافةً إلى رسالة الفازاني نجدُ رسائل أخرى استُحضرت فيها شخصيات تاريخية من خارج التاريخ الأندلسي كشخصيتي قيصر وسابور^{٥٢٤} عاهلي الروم والفرس، وشخصية حنش الصنعاني^{٥٢٥} الذي ولي أفريقيا^{٥٢٦}، وشخصية سيف الدولة الحمداني^{٥٢٧}. أما استحضار الشخصيات التاريخية الأندلسية فتمثلها رسالة الشقندي التي يفخرُ فيها بالأندلس، ويبيّن تقدمها على برّ أفريقية، ونراه هنا يأتي على ذكر المظفر والمعتمد حين يقول: "وهل لكم ملكٌ أَلَفَ في فنون الآداب كتاباً في نحو مائة مُجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بطليوس، ولم تُشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب؟.....وبالله ألا سُميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية....أبيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط ابن عبّاد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً، ولا رفعوا ملكه قدراً؟ وبعدما ذكروه بوساطة المعتمد بن عبّاد فإن المعتمد قال له، وقد أنشدوه: أيعلم أمير المسلمين ما قالوا؟ قال: لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز"^{٥٢٨}.

^{٥٢٣} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاني الأندلسي، ٩٩ - ١٠٠.

^{٥٢٤} ينظر: المقرّي، نفح الطيب، ٧: ٤١٩.

^{٥٢٥} ينظر: المصدر السابق، ١: ٣٠٧.

^{٥٢٦} هو حنش بن عبد الله بن عمرو الصنعاني، غزا أفريقية، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، توفي غازياً نحو ١٠٠هـ. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٩: ٢١١.

^{٥٢٧} ينظر: المقرّي، نفح الطيب، ٥: ١٩١.

^{٥٢٨} المصدر السابق، ٥: ١٩١، ١٩٤. وقد استحضر الشقندي في رسالته الكثير من الشخصيات التاريخية الأندلسية وغير الأندلسية، العربية والأعجمية.

واستحضر الكتاب الوقائع والأحداث التاريخية في رسائلهم، ومن ذلك ما خطّه ابن الأبار متأسفاً على سقوط المدن الأندلسية بيد النصارى، مُذكراً بانتصارات المسلمين في المشرق والأندلس "وربنا الحكيم العليم، فحسبنا التفويض له والتسليم، ويا عجباً لبني الأصفر أنسيّت مرج الصفر، ورميها يوم اليرموك^{٥٢٩} بكلّ أغلب غصنفر؟ دغ ذا فالعهد به بعيد، ومن اتعظ بغيره فهو سعيد، هلا تذكرت العامرية وغزواتها، وهابت العمرية^{٥٣٠} وهبواتها، أما الجزيرة بخيلها مُحَدِّقة، وبأحاديث فتحها مُصدِّقة، هذا الوقت المرتقب، والزمان الذي زجيت له الشهور والحقب، وهذه الإمامة - أيدها الله تعالى - هي المنقذة من أسرها، والمنقذة لسلطانها مراسم نصرها، فيتاح الأخذ بالثار، ويُزاح عن الجنة أهل النار، ويعلم الكافر لِن عُقبى الدار"^{٥٣١}.

كان الكتاب يستحضرون الوقائع التاريخية التي انتصر فيها العرب على العجم حتّى تلك الوقائع التي حدثت قبل الإسلام^{٥٣٢}، وهذا الأمر ليس مُستغرباً حيث إنّ الفنان "يلجأ إلى معين التاريخ في عصور التردّي والإحباط، رغبة في التعويض العاطفيّ، وبحثاً عن المثل الأعلى، وهرباً إلى أحضان الماضي الذي قد يبدو مجيداً أو مثاليّاً بالقياس إلى الحاضر"^{٥٣٣}.

^{٥٢٩} مرج الصفر واليرموك معركتان وقعتا بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد والروم بين (١٢ - ١٥هـ) وقد انتصر فيهما المسلمون. ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ٢: ٣٣٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٨: ٦٦.

^{٥٣٠} العامرية نسبة إلى محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور (ت ٣٩٢هـ)، كان له انتصارات مشهورة على النصارى، وفتح مملكة ليون، أما العامرية فلعلها نسبة إلى عمر المتوكل من بني الألفس (ت ٤٨٧هـ)، ملك بطليوس، كان ملكاً عالي القدر، مشهور الفضل، وكان له وقائع مع مملكة قشتالة. ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، ٢: ٢٨٧، ٢٩٧. المقرئ، نفح الطيب، ١: ٥٤٦. الحجّي، عبد الرحمن علي، التاريخ الإسلامي من الفتح حتى سقوط غرناطة (دمشق: دار القلم، ١٩٨٧م)، ٣٢٢، ٣٣٧.

^{٥٣١} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٨ - ٤٩٩.

^{٥٣٢} ومن ذلك استحضار معركة ذي قار التي انتصر فيها العرب على الفرس سنة ٦٠٩م، ينظر الرسالة التي كتبها أبو الحسن بن عيَّاش في: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٩٠.

^{٥٣٣} قاسم، قاسم عبده، مجلة فصول، ٢٣٦.

الأمثال

يُرَادُ بِالْمَثَلِ "القول المقتضب المشهور الذي تتداوله ألسنة الناس وينزل بموقع في أذهانهم لِفُشُوهُ وانتشاره، فيَصِيرُ في أَفْضَلِيَّتِهِ وبيانه كَالْعَلَامَةِ أو الشَّاهِدِ الذي يُقَاسُ عليه، فَكَأَنَّهُ يُجْعَلُ مِقْيَاسًا لغيره"^{٥٣٤}، وَهُوَ عِبَارَةٌ مَشْهُورَةٌ مُوجِزَةٌ بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ الْعَدَدِ، عَمِيقَةٍ الْمَعْنَى، وَيَكُونُ مُلَخَّصًا لِمَوْقِفٍ حَدَثَ، فَحِينَمَا يُذَكَّرُ الْمَثَلُ يُسْتَحْضَرُ ذَلِكَ الْمَوْقِفُ، فَيَكُونُ الْمَقَالُ مُنَاسِبًا لِلْمَقَامِ، "ويَجْتَمِعُ في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسْنُ التَّشْبِيهِ، وَجُودَةُ الْكِنَايَةِ، فَهُوَ نَهَايَةُ الْبَلَاغَةِ"^{٥٣٥}.

دَرَجَ الْأَدَبَاءُ مُنْذُ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ عَلَى تَوْظِيفِ الْأَمْثَالِ فِي انْتاجِهِمُ الْأَدَبِيَّ شِعْرًا^{٥٣٦} كَانَ أَوْ نَثْرًا^{٥٣٧}، فَالْأَمْثَالُ "جُمْلَةٌ مِنَ الْقَوْلِ، مُقْتَضِبَةٌ مِنْ أَصْلِهَا، أَوْ مُرْسَلَةٌ بِذَاتِهَا، تَتَّسِمُ بِالْقَبُولِ، وَتَشْتَهَرُ بِالتَّدَاوُلِ، فَتُنْقَلُ عَمَّا وَرَدَتْ فِيهِ إِلَى كُلِّ مَا يَصْلُحُ قَصْدُهُ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ يَلْحَقُهَا فِي لَفْظِهَا وَعَمَّا يُوجِبُهُ الظَّاهِرُ إِلَى أَشْبَاهِهِ مِنَ الْمَعَانِي، فَلِذَلِكَ تُضْرَبُ وَإِنْ جَهَلْتُ الْأَسْبَابُ الَّتِي خَرَجَتْ عَلَيْهَا، وَاسْتُجِيزَ مِنَ الْحَذْفِ وَمُضَارَعِ ضَرُورَاتِ الشَّعْرِ فِيهَا مَا لَا يُسْتَجَازُ مِنْ سَائِرِ الْكَلَامِ"^{٥٣٨}.

وَبِتَدَبُّرِ هَذَا الْقَوْلِ نُدْرِكُ أَنَّ تَوْظِيفَ الْأَمْثَالِ فِي الْأَعْمَالِ الْأَدَبِيَّةِ يَكُونُ إمَّا بِالتَّنَاصُّ الْمُبَاشِرِ الَّذِي يَتِمُّ فِيهِ إِيرَادُ الْمَثَلِ بِنَصِّهِ دُونَ أَنْ يَطْرَأَ عَلَيْهِ تَغْيِيرٌ، وَإِمَّا بِالتَّنَاصُّ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ الَّذِي يَتِمُّ فِيهِ إِيرَادُ مَا يُشِيرُ إِلَى الْمَثَلِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ.

^{٥٣٤} حسن، محمود السيّد، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم (الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠١م)، ١٨.

^{٥٣٥} الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ)، مجمع الأمثال (بيروت: مكتبة دار الحياة، ١٩٦١م)، ١: ٧. وقد نقل الميداني هذا القول عن إبراهيم التّظّام (ت ٥٢٣١هـ).

^{٥٣٦} ينظر: الخالدي، عبد الرحيم، توظيف المثل في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه (السودان: جامعة الخرطوم، ٢٠١٠م).

^{٥٣٧} ينظر: عابدين، عبد الحميد، الأمثال في النثر العربي القديم (الإسكندرية: دار المعارف، ١٩٨٩م). الباب، ناجي، وظيفة الأمثال والحكم في النثر الفني القديم (القيروان: دار سمر، ٢٠٠٤م).

^{٥٣٨} السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة، تحقيق: محمد جاد المولى وعلي الجاوي (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٥م)، ١: ٤٨٦.

وفي الرسائل الأندلسية نستطيع التمثيل على الضريين كليهما بأمثلة كثيرة منها ما جاء في رسالة صفوان بن إدريس التي فاضلَ بها بين مُدُن الأندلس وقال على ألسنتها: "فقلتُ بلنسية: فيمَ الجِدالُ والقِرَاع؟ وعلامَ الاستِهامُ والاقتراع؟ وإلامَ التعريضُ والتّصريح؟ وتحتَ الرّغوة^{٣٩} اللَّبنُ الصّريح، أنا أحوزُهُ مِن دونِكم، فأخمدُوا نارِي تحرّكُكم وهُدُونِكم، فليَ المحاسِنُ الشّاخَةُ الأعلام، والجنّاتُ التي تُلقِي إليها الآفاقُ يدَ الاستسلام.... فعندَ ذلكَ ارتمتْ جَمرةٌ تدميرُ بالشّرار، واستدّتْ أسنهُمُها لِئُحورَ الشّرار، وقالت: عِشْ رَجَبًا تَرِ عَجَبًا، أبعَدَ العِصيان والعُقوق، تَتَهيئينَ لِرُتبِ ذَوِي الحُقُوق؟ هذه سماءُ الفخرِ فَمَن ضَمَمَكَ أَنْ تَعْرِجِي، ليس بِعُشْكَ فادْرُجِي، أَيُّها الصّانعةُ الفاعلة، مَنْ أَدَاكَ أَنْ تُطَرِّي وَمَا أَنْتِ نَاعِلَةٌ؟ ما الذي يُجَدِّيك الرّوضُ والزّهر؟ أمَ ما يُفِيدُكَ الجدولُ والنّهر؟ وهل يُصلِحُ العطارُ ما أفسَدَ الدّهر؟ هل أَنْتِ إِلَّا مَحَطٌّ رَحَلَ النّفاق، وَمَنْزَلٌ ما لِسُوقِ الخِصبِ فيه نِفَاق؟ ذَرَاكَ لَا يَكْتَحِلُ الطَّرْفُ فيه بهجوع، وقِراكِ لَا يُسَمِّنُ ولا يُغني مِن جُوع" ^{٤٠}.

يَحْفَلُ هذا القِسمُ المجتزأ مِنَ الرّسالة بأمثالٍ عَديدة، وظَفَها الكاتبُ بالتّناسُّ المباشر تارة، وبالتّناسُّ غيرِ المباشر تارة أُخرى، فَقَدَ وظَفَ المثلين (وتحتَ الرّغوة اللَّبنُ الصّريح) ^{٤١} و(عِشْ رَجَبًا تَرِ عَجَبًا) ^{٤٢}، وذَكَرَهما دونَ تَغْيِيرٍ في نَصَهما ليدُلَّ من خِلالِهما على مَعْنَيَين: الأولُ أَنَّ الحَقِيقَةَ قد يَحْجُبُهَا ظاهِرٌ يُخَفِّيها، والثّاني أَنَّ الدّهرَ مُتَحَوِّلٌ وقد يُرِي ما لَا يَخْطُرُ على بَالٍ.

^{٣٩} الرّغوة بفتح الراء أو ضمّها: الرّبْد. ينظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (٣١٢-٣٩٥هـ)، **مقاييس اللغة** (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٩م)، مادة رَغَوَ.

^{٤٠} المقرّي، **نفح الطّيب**، ١: ١٧٤-١٧٥.

^{٤١} ينظر قصة المثل في: العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ (ت بعد ٣٩٥هـ)، **جمهرة الأمثال**، تحقيق: أحمد عبد السلام (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ١: ٢١٨.

^{٤٢} ينظر قصة المثل في: المصدر السابق، ٢: ٤٧.

أما التناصّ غيرُ المباشر فكانَ في استحضارِ المثل (أطريّ فإنّك ناعلة)^{٤٣} ويضرب لمن له فضلٌ وقوّة، ويكونُ قادراً على رُكوبِ الأمرِ الشّدِيد، وأصلُ المثل "أنّ رجلاً قاله لراعيّةٍ له وكانت تُرعى في السّهولة وتتركُ الحزونة، فقال لها: أطريّ أيّ خُذي في أطرار الوادي، وهي نواحيه، فإنّك ناعلة"^{٤٤} أيّ عليك نعلين وكسّتي بحافيّة، ولكنّ الكاتب استحضَرَ المثل، وتصرّف فيه بالتغيّر إذ قال: "مَنْ أذاك أن تُطريّ وما أنت ناعلة؟" ليعبّر عن دلالةٍ أخرى مُناقِضةٍ لدلالة المثل الأصليّة.

لقد اتّكأَ الكتابُ الأندلسيون اتّكأً كبيراً على الأمثال التي كانت مُستوحاةً من البيئة المشرقيّة ولا سيّما الجاهليّة، وعلى الرّغم من وجودِ أمثالٍ أندلسيّةٍ خالصةٍ مُستوحاةٍ من البيئة الأندلسيّة^{٤٥} فإنّنا لا نجدُ في سطورِ الرّسائل ذكراً لأيّ مَثَلٍ من تلك الأمثال الأندلسيّة، في الوقت الذي نجدُ فيه كثيراً من الأمثال المشرقيّة على غرار (لأمرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه)^{٤٦} و(يسرّ حسواً في ارتغاء)^{٤٧} و(طال الأمدُ على بُد)^{٤٨} و(زاحمٌ يعودٍ أو دَع)^{٤٩} و(ششنة أعرفها من أخزم)^{٥٠} و(أنفك منك وإن كان أجدع)^{٥١} وغيرها^{٥٢} من الأمثال التي وردت وبخاصّةٍ في كتاب (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال) الذي وضعه أبو عبيد الله البكريّ وعلّق فيه على كتاب (الأمثال) الذي ألفه القاسم بن سلّام (ت

^{٤٣} البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمّد البكري (٤٣٢ - ٤٨٧هـ)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عبّاس وعبد الحميد عابدين (السودان: الخرطوم، ١٩٥٨م)، ١٤٧.

^{٤٤} ابن منظور، لسان العرب، مادة طرر.

^{٤٥} ينظر: ابن شريفة، محمّد، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب (المغرب: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦م)، وقد حوى الكتاب الذي يتكوّن من خمسة أجزاء كثيراً من الأمثال الأندلسيّة الفصيحة والعاميّة.

^{٤٦} ينظر: المقرّي، نفح الطيب، ٧: ٤١٧.

^{٤٧} ينظر: عزراوي، أحمد، رسائل موحديّة، ١٠٢.

^{٤٨} ينظر: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٩.

^{٤٩} ينظر: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٤٣.

^{٥٠} ينظر: ابن شريفة، محمّد، ابن مغاور الشاطبي، ٢١٢.

^{٥١} ينظر: ابن شريفة، محمّد، أديب الأندلس أبو بحر التجبي، ٢٣٨.

^{٥٢} ينظر: الرّسائل في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠٧. ابن المرباط، زواهر الفكر،

١٨٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٤٣٥، ٤٤١.

٥٢٢٤هـ)، وقد قال إحصان عبّاس عن هذا الكتاب الذي تَوَلَّى تَحْقِيقَهُ أَنَّهُ "ذَكَرَ لَهُ مِنْ
الْفَضْلِ الْكَثِيرِ خَاصَّةً عِنْدَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ أَوَّلَوْ كِتَابَ الْأَمْثَالِ اهْتِمَامًا كَبِيرًا فِي حَيَاتِهِمْ
الثَّقَافِيَّةِ، وَقَدْ أَحْرَزَ مَقَامًا عَالِيًا فِي نُفُوسِ الدَّارِسِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ"^{٥٥٣}.

المظاهر الحضاريّة

كانت المظاهر الحضاريّة مَصْدَرًا آخَرَ مِنْ مَصَادِر الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ،
حَيْثُ نَجَدُ فِي ثَنَائِهَا ذِكْرًا لِكَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْمَظَاهِرِ وَمِنْهَا الْآلَاتُ، فَقَدْ ذَكَرَ كُتَّابُ الرِّسَائِلِ
آلَاتِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ، فَهَذَا الْفَازَاوِيُّ يَفْتَتِحُ إِحْدَى رِسَائِلِهِ بِقَوْلِهِ "وَالرَّضَى عَلَى الْإِمَامِ
الْمُهْدِيِّ مُبِيدِ الْمَبْطُلِينَ بَعْدَ اشْتِدَادِ أَهْوَائِهِمْ، وَامْتِدَادِ مَهَاوِيهِمْ، وَمُعِيدِ الْحَقَائِقِ عَلَى أَهْلِهَا
حِينَ احْتِيَاجِ مُنَايَاهُمْ، وَاقْتِرَاحِ آمَالِهِمْ، وَالِدَّعَاءِ لِسَادَتِنَا الْمُتَمِّينَ لِدَعْوَتِهِ طَعْنًا بِأَسِنَّتِهِمْ وَضَرْبًا
بِمَوَاضِيهِمْ، الْمُقْتَفِينَ لِسُنَّتِهِ الْوَاضِحَةِ بَعْلَمِهِمْ وَنَيْتِهِمْ وَتَوْخِيهِمْ، وَالِدَّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِسَعْدٍ يَحْمِي أَوْلِيَائَهُ وَيُقِيمُهُمْ، وَنَصْرٍ يَذَرُ عِدَاءَهُ نَهْبَةً لِأَوَّلِ يَدٍ تُنَالِقِيهِمْ"^{٥٥٤}.

وإضافةً إِلَى الْأَسْنَةِ وَالْمَوَاضِي اللَّتَيْنِ وَرَدَ ذِكْرُهُمَا فِي النَّصِّ نَجِدُ ذِكْرًا لِلطُّبَا
وَالصُّعَادِ^{٥٥٥} وَالْهَنْدُؤَائِيَّ وَالرَّدِّيَّ^{٥٥٦} وَالْعَوَالِيَّ وَالزَّجَاجَ^{٥٥٧} وَالْمَنْجَنِيْقَ^{٥٥٨} وَالْخِنْجَرَ^{٥٥٩}، كَمَا
ذَكَرَ الْكُتَّابُ مُتَعَلِّقَاتِ الْحَرْبِ كَالْغَنَائِمِ^{٥٦٠} وَالْعَسْكَرِ وَالْكَتِيْبَةِ^{٥٦١} وَالْجَيْشِ^{٥٦٢} وَالسَّفْنِ

^{٥٥٣} البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ١٢.

^{٥٥٤} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٣٦.

^{٥٥٥} ينظر: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٥٤.

^{٥٥٦} ينظر: المصدر السابق، ٦١.

^{٥٥٧} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٣: ١٨٧.

^{٥٥٨} ينظر: عزازي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٦٨.

^{٥٥٩} ينظر: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٥٨.

^{٥٦٠} ينظر: المصدر السابق، ١٠١.

^{٥٦١} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٢١١. ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته
وآثاره، ١٩٥.

^{٥٦٢} ينظر: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠٠.

الحريّة^{٥٦٣}، كذلك تَطَرَّقُوا إلى ذكر المعازفِ وآلات الطَّربِ كالزَّمارِ والرَّباب والقانون والعود والبوق^{٥٦٤} والثَّوْرَة "وهما مِزماران الواحد غَلِيظُ الصَّوْتِ والآخَرُ رَقِيقُهُ"^{٥٦٥}.

ونرى في الرِّسائل الأندلسيّة أثرَ الرِّزيّ واللباسِ ومُتعلقاتهما على ما نحو ما نقرأه عند صفوان بن إدريس على لسان مُرسية مُفَاخِرَة "فَلِي الرِّوَضُ النّضِير، والمرأى الذي مَا لَهُ مِنْ نَظِير، وَزَنْقَاتِي الَّتِي سَارَ مِثْلُهَا فِي الْآفَاق، وَتَبَرَّقَعَ وَجْهُ جَمَالِهَا بِغُرَّةِ الْإِصْفَاق"^{٥٦٦}، والْبَرُّقُ هو الْغِطَاءُ الَّذِي تُعْطَى بِهِ نِسَاءُ الْبَادِيَةِ وَجُوهَهُنَّ.

وَيُضِيفُ صفوان في رسالته ولكن على أَلْسِنَةِ مُدُنٍ أُخْرَى "فَحُسْنِي لَا يُطْمَعُ فِيهِ وَلَا يُحْتَالُ، فَدَعُونِي فَكُلِّ ذَاتِ ذِيلٍ تَخْتَالُ، فَأَنَا أَوْلَى بِهَذَا السَّيِّدِ الْأَعْدَلِ، وَمَا لِي بِهِ مِنْ عَوَضٍ وَلَا بَدَلٍ..... وَلَا أَرْضِي لَهُ أَنْ يُوطِئَ غَيْرَ ثُرَابِي نَعْلًا، فَأَقْرَؤُوا لَهُ بِالْأَبْوَةِ، وَانْقَادُوا حُكْمَ الْبُنُوَّةِ"^{٥٦٧}، وَالذَّيْلُ هُوَ لِكُلِّ ثَوْبٍ تَلْبَسُهُ الْمَرْأَةُ إِذَا جَرَّتْهُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ خَلْفِهَا، أَمَّا التَّلْعُ فَهِيَ مَا وَقِيتَ بِهِ الْقَدَمُ مِنَ الْأَرْضِ^{٥٦٨}.

وَأَتَى الْكِتَابُ عَلَى ذِكْرِ الْمَقَادِيرِ الْمُتَعَارِفِ عَلَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ لِلْفَازَزِيِّ قَالَ فِيهَا "وَهُوَ أَعَزُّهُ اللَّهُ يَصِلُ عَادَةً أَمْتَاعُهُ بِرِقَاعِهِ، وَيُعْغِي خَطْيِي وَلَفْظِي مِنْ نَقْدِي عَيَانَهُ وَسَمَاعِهِ، وَلَا يَقِيسُ ضَيْقُ فِتْرِي فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى سِعَةِ بَاعِهِ، وَيَتَلَقَّى مَا أَشَارَ بِرِسْمِهِ بِيَدِ قُبُولِهِ، وَيُعْضِي عَنْ قِصَرِ أَصُولِهِ وَقُصُورِ فُصُولِهِ"^{٥٦٩}، وَالْفِتْرُ وَالْبَاعُ الْمَقْصُودَانِ هُنَا هُمَا وَحْدَتَا قِيَاسِ، الْأَوَّلُ يَكُونُ مَا بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْإِبْهَامِ إِذَا فَتَحْتَهُمَا^{٥٧٠}، وَالْآخَرُ يَكُونُ بِالمَسَافَةِ بَيْنَ الْكَفَيْنِ إِذَا بَسَطْتَهُمَا^{٥٧١}.

^{٥٦٣} ينظر: بن المرباط، زواهر الفكر، ٦٠.

^{٥٦٤} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٢١٣.

^{٥٦٥} المصدر السابق، ٣: ٢١٣.

^{٥٦٦} المصدر السابق، ١: ١٧٣.

^{٥٦٧} المصدر السابق، ١: ١٧٢.

^{٥٦٨} لسان العرب، مادة ذيل، ومادة نعل.

^{٥٦٩} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٥٤.

^{٥٧٠} ابن منظور، لسان العرب، مادة فتر.

^{٥٧١} المصدر السابق، مادة بوع.

ومن ذلك أيضاً ذِكْرُ مَقَادِيرِ الْمَالِ كَالدِّينَارِ وَالْفِلَسِ، وَذَكَرَ الْكُتَّابُ أَيْضاً أَلْفَاظاً حَضَارِيَّةً أُخْرَى كَالْأَطْرَاسِ وَالْأَقْلَامِ وَالْمَلَاهِيِ وَالْمَرَاقِصِ وَالْدِّمَقْسِ وَالْخِضَابِ وَالْخَمْرِ وَالْإِسْفِنَظَ^{٥٧٢} وَهُوَ الشَّرَابُ الْمَطِيبُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ وَقِيلَ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ^{٥٧٣} وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَلْفَاظٍ ذَاتِ صِلَةٍ بِالْحَضَارَةِ.

وَنَعْتَرُ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ عَلَى مِهْنٍ امْتَهَنَهَا الْأَنْدَلُسِيُّونَ وَمِنْهَا مِهْنَةُ الْحِدَادَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ الْجَنَّانِ فِي رِسَالَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا مَادِحاً صَدِيقَهُ أَبَا الْمَطَرِّفِ بْنِ عُمَيْرَةَ "تَاللَّهِ أَيُّهَا الْإِمَامُ الْأَكْبَرُ، وَالْعَمَامُ الْمُسْتَمْطَرُّ، وَالْحَبَرُ الَّذِي يُشْفِي سَائِلَهُ، وَالْبَحْرُ الَّذِي لَا يُرَى سَاحِلُهُ، مَا أَنَا بِالْمُرَادِ بِهَذَا الْمَسْلُوكِ، وَمِنْ أَيْنَ حَصَلَ ذَلِكَ الثُّورُ لِهَذَا الْحَلَكِ، وَصَحَّ أَنْ يُقَاسَ بَيْنَ الْحِدَادِ وَالْمَلِكِ؟ إِنَّهُ لَتَوَاضَعُ الْأَعْزَةُ، وَمَا يَكُونُ عِنْدَ الْكِرَامِ مِنَ الْهَزَةِ"^{٥٧٤}.

وَمِنَ الْمِهْنِ الَّتِي أَتَى الْكُتَّابُ الْأَنْدَلُسِيُّونَ عَلَى ذِكْرِهَا مِهْنَةُ التَّوْثِيقِ وَمِهْنَةُ الْغَوَاصِ^{٥٧٥} الَّذِي يَسْتَخْرِجُ الدُّرَّ مِنَ الْبَحْرِ.

علوم اللغة

كَانَ الْكَاتِبُ الْأَنْدَلُسِيُّ ذَا ثِقَافَةٍ عَرِيضَةٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي عُلُومِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ آثَارُهَا فِي بَعْضِ الرِّسَائِلِ، فَهَذَا ابْنُ الْأَبَّارِ يُشِيدُ بِابْنِ عُمَيْرَةَ فِي رِسَالَةٍ خَاطَبَهُ بِهَا قَائِلاً: "هَذَا مِذْرَهُهَا"^{٥٧٦} الَّذِي فَعَلَ الْأَفَاعِيلُ، وَأَحْمَدُهَا الَّذِي سَمَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَهُمَا إِمَامَا الصَّنَاعَةِ، وَهُمَامَا الْبَرَاعَةِ وَالْيَرَاعَةِ، بِهَمَّا فَخَرُ مَنْ نَطَقَ بِالصَّادِ، وَبِسَبِيهِمَا حَسَدَتْ الْحُرُوفُ الصَّادَ"، وَحَرْفُ الصَّادِ يُكْنَى بِهِ عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَمَّا الصَّادُ فَهُوَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَكُونَةِ

^{٥٧٢} ينظر الرسائل التي وردت فيها الألفاظ المذكورة في المصادر التالية على التوالي: : الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاني الأندلسي، ١٠٠، ٥٧، ٤١. المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٢١٧. ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٤٩، ١٨٥. ابن شريفة، محمد، أديب الأندلس، ٢٣٦. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٨٢.

^{٥٧٣} ابن منظور، لسان العرب، مادة سفت.

^{٥٧٤} المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤٢٠.

^{٥٧٥} ينظر: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاني الأندلسي، ١١٠، ١٠١.

^{٥٧٦} المدره: المقدم، ابن منظور، لسان العرب، مادة دره.

لا سَمِيَّ أَبِي إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ الصَّبَّابِي (ت ٥٣٨٤هـ) وإِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادِ الْمَكْنِيِّ بِالصَّاحِبِ (٥٣٨٥هـ) وكلاهما كان عَلمًا من أعلام اللغة والأدب، وكان بينهما مُراسلات^{٥٧٧}.

وكان لِعِلْمِ الصَّوْتِ حُضُورٌ أَيْضًا، وَنَجِدُ ذَلِكَ فِي رِسَالَةِ لَابِنِ الْجَتَّانِ يَقُولُ فِيهَا: "وَلَا عَتَبَ إِلَّا عَلَى الْحَاءِ، الْمَبْرَحَةِ بِالْبَرَحَاءِ، فَهِيَ الَّتِي قَامَتْ قِيَامَتِي فِي الْأُنْدِيَّةِ، وَقَامَتْ عَلَيَّ قِيَامُ الْمُتَعَدِّيَّةِ.... فَغَلَطَنِي فِيهَا أَنْ كَانَتْ بِمَنْزِلِ تَتَوَارَى صَوْنًا عَنِ الشَّمْسِ، وَمِنْ نِسْوَةِ خَفِرَاتٍ لَا يَنْطِقْنَ إِلَّا بِالْهَمْسِ"^{٥٧٨}، وَالْهَمْسُ صِفَةُ صَوْتِيَّةٍ يَتَّصِفُ بِهَا صَوْتُ الْحَاءِ.

كَذَلِكَ كَانَ لِعِلْمِ النَّحْوِ حُضُورٌ أَيْضًا، وَنَجِدُ ذَلِكَ الْحُضُورَ فِي رِسَالَةِ ابْنِ عُمَيْرَةَ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا مُتَحَسِّرًا عَلَى ضِيَاعِ بِلَنْسِيَّةٍ: "وَهِيَ بِلَنْسِيَّةٌ ذَاتُ الْحُسْنِ وَالْبَهْجَةِ وَالرَّوْنَقِ، وَمَا لَيْتَ أَنْ أُخْرِسَ مِنْ مَسْجِدِهَا لِسَانُ الْأُذَانِ، وَأُخْرِجَ مِنْ جَسَدِهَا رُوحُ الْإِيمَانِ، فَبُرُحَ الْخَفَاءِ، وَقِيلَ عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءُ، وَانْعَطَفَتِ النَّوَابِ مُفْرَدَةً وَمُرْكَبَةً كَمَا تَعَطِفُ الْفَاءُ"^{٥٧٩}.

كَمَا نَجِدُ ذَلِكَ فِي رِسَالَةِ صَفْوَانَ الَّتِي قَالَ فِيهَا عَلَى لِسَانِ مُرْسِيَّةٍ "فَانْقَادُوا لِأَمْرِي، وَحَازِرُوا اصْطِلَاءَ جَمْرِي، وَخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَيِّدِنَا أَبِي زَيْدٍ، وَإِلَّا ضَرَبْتُكُمْ ضَرْبَ زَيْدٍ"^{٥٨٠}.

فِي نَصِّ ابْنِ عُمَيْرَةَ إِشَارَةٌ إِلَى الْفَاءِ الْعَاطِفَةِ، أَمَّا فِي نَصِّ صَفْوَانَ فِإِشَارَةٌ إِلَى (ضَرْبَ زَيْدٍ عَمْرًا) وَهُوَ الْقَوْلُ الَّذِي طَالَمَا اسْتَعْدَمَهُ النَّحْوِيُّونَ فِي شُرُوحَاتِهِمْ. وَكَانَ الشَّعْرُ مَصْدَرًا ثَقَافِيًّا غَزِيرًا مِنْ مَصَادِرِ الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ فِي الرِّسَالِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَلَكِنْ سَوْفَ تُرْجَى الْحَدِيثُ عَنْهُ حَتَّى الْبَابِ الْأَخِيرِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ دِرَاسَةَ الظَّوَاهِرِ الْأَسْلُوبِيَّةِ وَذَلِكَ لِأَهَمِّيَّتِهِ حَيْثُ كَثُرَ الشَّعْرُ فِي تِلْكَ الرِّسَالِ وَكَانَ مِنْهُ الْمَنْظُومُ الَّذِي نَظَّمَهُ الْكَاتِبُ، وَمِنْهُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي نَقَلَهُ الْكَاتِبُ عَنْ شِعْرَاءَ آخَرِينَ.

^{٥٧٧} ينظر ترجمتهما في: ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان الأربلي (٦٠٨ - ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧١م)، ١: ٢١ - ٢٤.

^{٥٧٨} المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤١٨.

^{٥٧٩} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٣.

^{٥٨٠} المقرئ، نفح الطيب، ١: ١٧٤.

ثانياً: الطَّبيعة

يُروى لبعض النقاد أن يُعرِّف الفنَّ بأنه "إحلال كلِّ ما في نفس الإنسان من مشاعرٍ وتفكيرٍ في الطبيعة، ومزج ذلك كله مع جمال التصوير"^{٥٨١}.

كانت الطبيعة جزءاً من فكر الفنان الأندلسي وحياله، فقد تعلق الأندلسيون بالطبيعة أيما تعلق، وبدت الطبيعة في فنونهم الشعرية والنثرية بوضوح وكثرة، حيث "فتن شعراء الأندلس بطبيعة بلادهم، فتوافقوا على وصفها، وأكثروا من التغيي بمناظرها الجميلة، وعبروا عن كلفهم بها في لوحاتٍ شعريةٍ بديعة، وتفننوا في هذا المجال تفنناً واسعاً حتى صار وصفهم للطبيعة من أهم الموضوعات التي طرّقوها، وأحرزوا قصب السبق فيها على المشاركة"^{٥٨٢}، أما الطبيعة في النثر فقد كان لها حضورٌ وإن كان أقل من حضورها في الشعر، وعند مطالعنا لنصوص الرسائل الأندلسية نلاحظ الطبيعة مُتمثلة في أقسامها الثلاث: الحية والصامتة والمصنوعة^{٥٨٣}.

الطبيعة الحية

استقى الكتاب من الطبيعة الحية كثيراً من مكونات صورهم الفنية، حيث نجد في رسائلهم ذكراً لكثير من الحيوانات وما يتعلق بها، فهذا ابن مغاور يُخاطب صديقاً له في رسالة مدح وإشادة قائلاً: "والذئب والشاة في إناء يكرعان، وفي ظل سمرّة يرتعان، فكأنك يا أبا سليمان في الحكم والحكمة سليمان، وكأنك يا داود في النظر لنا والدفع عنا داود يُقدّر سوابغ في السرد، وقد سخر الله له الحديد والآن"^{٥٨٤}.

وهذا عبد الله بن عيَّاش يكتب على لسان الخليفة المنصور مُحذراً من الفلاسفة الذين كانوا "أضرّ من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب، لأن الكتابي يجتهد في ضلال، ويجد في كلال، وهؤلاء جهودهم التعطيل، وقصاراهم التّمويه والتّخيل، دبّت

^{٥٨١} سلامة، إبراهيم، تيارات أدبية(القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م)، ٢٤، نقلاً بتصرف عن الفيلسوف الفرنسي لامارتين.

^{٥٨٢} عيسى، فوزي سعد، الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين(الإسكندرية: منشأة المعارف د.ت)، ١٢٨.

^{٥٨٣} حسب التّقسيم المشار إليه في الرسائل الوصفية من الباب الثاني.

^{٥٨٤} ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ١٩٤.

عقاربهم في الآفاق بُرْهَةً من الزَّمان، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجالٍ كان الدهرُ قد سالمهم على شِدَّةِ حُرُوبهم، وأغفَى عنهم سنين على كَثَرَةِ ذنوبهم^{٥٨٥}.

وإذا كان الذئبُ والشاةُ والعقرب من حيواناتِ البيئة الأندلسية، فأتينا نجدُ ذِكْرًا لحيواناتٍ بريةٍ أخرى من خارج تلك البيئة، ومن ذلك ما جاء في رسالةٍ لوالي مُرسية محمد بن يوسف مُخبراً رعيته بانتصاراته إذ يقول: "فشدُّوا عليهم شِدَّةً وجدوا ريحَ الموت من تلقائها، وقصَّتْ بذهاب نفوسهم الحبيثة لا إبقائها، وأوردَهم حياض المنايا والحتوف، وأتوا عليهم قَعْصاً بالرماح وهباً بالسيف، فلاذتُ الشرذمةُ الذميمةُ من فُرسانهم بالفرار والإحجام، ونَجَّوا برأس طِمرةٍ ولجام، بعدما عُرِّكوا عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالها، وتُرِّكوا أشردَ من النعام في إجحافها"^{٥٨٦}.

وتَرَى سعيد بن حكم يُعبّر عن البُعد الذي يَشْتَكِيه في رسالةٍ أرسلها لصديقٍ له يقول فيها "وأوحى الفراقُ إلى ظُرْبانه، وكان قد سَقِيَ بطنه، فانفَشَ من ريحه ما طارَ له عِهُنُ الأُنس نُفُوشاً وقُطْنه، فدُهينا من البعاد بالأهْوَ الأَهْول، ودُعينا من البينِ الأقْصَرِ إلى البينِ الأطول، فَصِرْنَا لا نَتَعَرَفُ كُنْهَ الأحوالِ إلا بعدَ الأحوال"^{٥٨٧}.

إنَّ الحيوانين اللذين ذُكِرَا في هذين التَّصنيفين ليسا شائعَيْن في بيئة الأندلس، وإِثْمًا يَعِيشَان غالباً في الصَّحاري والقِفار، ولعلَّ الأندلسيين قد تأثروا بالمشاركة الذين ذكروهما في تراثهم الأدبي، فقد ذكروا النعامَ في كثيرٍ من أمثالهم الشائعة فقالوا: (أشرد من نعمة وأحمق من نعمة وأجبن من نعمة وأعدى من نعمة وركبَ فلانُ جَنَاحَ نعمة)^{٥٨٨}، أمَّا الظَّربان فهو حيوانٌ شَبَّه الكلب، على قَدَرِ الهَرِّ ونحوه، كثيرُ الفَسو، مُتَنُّ الرائحة، ويقال في المثل: (فَسَا بينهم الظَّربان) وذلك إذا تفرَّق القومُ وتَقاطَعوا^{٥٨٩}.

وقد أتى الكُتَّاب على ذِكْرِ حَيواناتٍ أخرى في رَسائلهم سواءً تلك التي تحيا في بيئة الأندلس أو في غيرها من البيئات، فَذَكَرُوا النَّاقَةَ والسَّبَّعَ والذئبَ والنسرَ والحُبَّارَى

^{٥٨٥} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٠٧.

^{٥٨٦} المصدر السابق، ١٧١.

^{٥٨٧} مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٠.

^{٥٨٨} ابن منظور، لسان العرب، مادة نعم.

^{٥٨٩} المصدر السابق، مادة ظرب.

والوطواط والظليم^{٥٩٠} وهو ذَكَرُ النّعام، أمّا الضَّبُّ والثُّون^{٥٩١} فقد اجتمع ذكرهما في عبارة واحدة ليُكنّى بهما عن الصّحراء والبحر.

كما أتوا على ذكر الزّواحف والحشرات، فهذا ابنُ مُغاور يَفخر ببلده شاطئه ويُعرض بالمدن التي تدّعي مُنافستها فيقول "مَتى وَلِدَتِ الوَهْدَةُ نَشْزاً، والموهنة عِزّاً، وَنَسَجَتِ العنكبوتُ خِزّاً وَقِزّاً، متى انشقت رَحْمُ الخُنْفَساءِ عن سُروجِ الرُّؤساءِ، وليسَ من عَادَةِ الإنشاء أن تَرَكُضَ السِّباعُ في أرحامِ الشّاء"^{٥٩٢}.

وإضافة إلى العنكبوت والخنفساء نجدُ ذِكْراً للعقرب في النّصّ الذي سبق الاستشهادُ به، والأفعى والحرباء والبعوضة^{٥٩٣} ولدودة القزّ التي كان يَعتني بتربيتها أهلُ جِيانَ ويُنْتجوا منها الحرير، وقد اشتهرتُ بذلك حتّى قيلَ لها: "جِيانُ الحرير"^{٥٩٤}.

وإلى جانب ذِكْرِ الحيوانات بأسمائها نجدُ ذِكْراً لمتعلقاتها وصفاتها، ومن ذلك قول الفارازيّ في فاتحة رسالة له: "فَكَتَبْتُهُ، كَتَبَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ العَلِيَّةِ أَسْنَى المواهب، وأرَبى الفتحِ الآتي على الفتحِ الذّاهب، ولا أَعْدُمُهَا بِتَحْمَلِهِ عَذْبَ الغِنَى وَتَوَاصِي السِّلاهِبِ"^{٥٩٥}، وقوله في رسالة أخرى: "فأماً وأنا للبيتِ حِلْس، وليس بيدي من أثمان الدّنيا فِلس، فما أجدرني بالذّمِّ والشّين، وأحوجني إلى الخَفَضِ من اللسان والغَضِّ مِنَ العَيْنِ"^{٥٩٦}.

^{٥٩٠} ينظر: ينظر الرسائل التي وردت فيها هذه الألفاظ في المصادر التالية على التوالي: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٥٣. عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣١٧. ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٠٣، ٢٥٧. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٩. ابن مغاور الشاطبي، ١٩٠، ٢٠٣. بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٣٠. المقرئ، نفح الطيب، ٣١٨: ١.

^{٥٩١} ينظر رسالة ابن عميرة في: المقرئ، نفح الطيب، ٣١٨: ١.

^{٥٩٢} ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٣٣.

^{٥٩٣} ينظر الرسائل التي وردت فيها تلك الألفاظ في المصادر التالية على التوالي: المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤١٨. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩١. بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٢٥. ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٠٣.

^{٥٩٤} من رسالة الشّقندي في المفاخرة في الأندلس، ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٢١٧.

^{٥٩٥} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفارازي الأندلسي، ١٤٩.

^{٥٩٦} المصدر السابق، ٥٧.

ومن ذلك أيضاً قولُ ابنِ عُميرة: "وأنا على غيبِكَ أمين، ولشِماليك يمين، ولكم دعوتَ بي فأجبتُ، واستغنيتَ عني فَحَجَبْتُ، وأردتَ الاستبدادَ فما استطعتَ، ونعتُ الودادَ فما أحسنتَ النعتَ، وإنما تُحَمَّدُ فَرَاهَةَ الأعوجيِّ إن جَرَى، وتُذَكِّرُ فضيلةَ ابنِ السَّريِّ إذا سَرَى"^{٥٩٧}، وقول ابنِ الجَنان: "لعلَّ الأقدارَ تُساعدُ، فيَدنو القصيُّ المتباعدُ، وتُنَجِّزُ مِنَ الدَّهرِ الأُماني والمواعِدُ، ذلكَ بأنَّ يَجِدَ العبدُ إلى اللِّحاقِ بالأبوابِ المقدَّسةِ سَبِيلاً، ويُنَجِّدُهُ الإسعادُ السَّماويَّ فيَصِلُ وَخِداً إلى العَرَصاتِ الطَّاهرةِ وذَمِيلاً"^{٥٩٨}.

في هذه المقتطفاتِ من الرِّسائلِ نَقَرُا مُفرداتٍ ذاتَ عَلاقَةٍ بالحيوان، فالسَّلاهَبُ جمعُ سَلَهَبٍ، وهو الطَّويلُ مِنَ الخيلِ، والحِلْسُ هو كِساءٌ يوضعُ على ظَهْرِ البَعيرِ تحتَ البُرْدَعَةِ، والأعوجيُّ هو الحِصانُ المنسوبُ إلى أعوج وهو فَحْلٌ كَرِيمٌ تُنسَبُ الخيولُ الكِرَامُ إليه، أمَّا الوَخْدُ فهو سِعةُ الخَطوِ والذَّمِيلُ السَّيرُ اللَّيِّنُ^{٥٩٩} وهما ضَرَبانِ من سَيرِ الأبلِ.

الطَّبِيعَةُ الصَّامِتَةُ

كان للطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ حُضورٌ كَبيرٌ في الرِّسائلِ الأندلسيَّةِ، إذ نَرى خِلالَ قِراءَتِها أشجاراً ونباتاتٍ وثماراً وما يَتعلَّقُ بها، ومن ذلكَ ما خَطَّه ابنُ المَرخِي على لِسانِ الخليفةِ يُوسُفِ مُبَشِّراً بالنَّصرِ الذي أحرَزَه على أعدائِهِ النَّصارى الذين "كانوا للإسلامِ وأهلِهِ الجارِ المَصاقِبَ، والعدوِّ المناصبَ، يميلون على جَوانبِهِم بِالغاراتِ، فلا يَجِدُون مَن يَصْرِفُ تَطاولَ اعتدائِهِم، ولا مَن يَرَدِّعُ أَعِنَّةَ استِشرائِهِم، فَظَنُّوا أنَّ لا مَطْمَعَ في جِلاذِهِم، ولا مُقارِعَ لأعدادِهِم، إلى أنَّ أذنَ اللهُ في استِصالِ شَأْفِئِهِم، وَخَضَدِ شَوَكَتِهِم، وَنَحَتِ أثَلَتِهِم، وانجَعَفَ أرزَتِهِم"^{٦٠٠}.

^{٥٩٧}المقري، نفح الطيب، ١: ٣١٨.

^{٥٩٨}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٢٦.

^{٥٩٩}ابن منظور، لسان العرب، المواد التالية على التوالي: سلهب، حلس، عوج، وخد، ذمل.

^{٦٠٠}عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٣١.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّقْنَدِيِّ مُبَاهِيًا بَعْضَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ "وَمَا يُعَدُّ فِي مَفَاخِرِهَا مَا بَيَّاسَةً إِحْدَى بِلَادِ أَعْمَالِهَا مِنَ الزَّعْفَرَانِ الَّذِي يُسَفَّرُ بَرًّا وَبَحْرًا، وَمَا فِي أَبْدَةِ مِنَ الْكُرُومِ الَّتِي كَادَ الْعَنْبُ فِيهَا لَا يُبَاعُ وَلَا يُشْتَرَى كَثْرَةً"^{٦٠١}.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ ابْنِ عُمَيْرٍ فِي رِسَالَةٍ لَهُ: "وَأَشْرَتْ أَيْهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ إِلَى اسْتِرَاحَةٍ إِلَيَّ، وَتَنَسَّمَ بِمَا لَدَيَّ، لِيَتَبَرَّدَ - كَمَا زَعَمْتَ - حَرَّ نَفْسٍ، وَتَقْدَحَ زِنَادَ قَبَسٍ، وَهِيَهَاتَ صَلْدُ الزَّيْتِ، وَذَوِي الْعَرَارِ وَالرَّيْنُ"^{٦٠٢}، وَقَوْلُهُ فِي رِسَالَةٍ أُخْرَى: "وَأَمَّا الْيَبْرُوحُ، فَقَدْ مَرَّ خَبْرُهُ الْمَشْرُوحَ، وَمَا قِيلَ فِي قَرَارِهِ حَيْثُ قَرَّ، وَطُلِبَ الْأَمْرُ بِصَرْفِهِ إِنْ كَرَّ، فَكَيْفَ يَتَنَاوَلُ التَّكْلِيفَ تَمَائِيلُ الْأَوْثَانِ، وَأَبَايِلُ الْحُبْشَانِ؟ وَمَنْ مَحْنَتُهُ أَبَدِيَّةٌ، وَحَيَاتُهُ لُبْدِيَّةٌ"^{٦٠٣}، إِلَّا أَنْ اتَّيَحَتْ لَهُ صَاعِقَةٌ أَرْبَدِيَّةٌ"^{٦٠٤}، وَمَا أَرَى حَاشِيَتَهَا تَعْنِيهِ، وَلَا جَلِيَّتَهَا إِلَّا سَتَّحَامَاهُ"^{٦٠٥}.

فِي التَّنْصُوصِ السَّابِقَةِ نَرَى ذِكْرًا لِلشُّوكَةِ وَالْأَرْزَةِ وَهِيَ شَجَرَةٌ دَائِمَةٌ الْخُضْرَاءُ، وَلِلزَّعْفَرَانِ وَالْعَرَارِ وَالرَّيْنِ وَهِيَ نَبَاتَاتٌ طَيِّبَةُ الرَّائِحَةِ، كَمَا نَجِدُ ذِكْرًا لِلْعَنْبِ، وَكَانَ الْعَنْبُ مَعَ الزَّيْبِ وَالزَّيْتِ^{٦٠٦} مِمَّا تَشْتَهَرُ بِهِ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ، أَمَّا الْيَبْرُوحُ فَهُوَ نَبَاتٌ لَا سَاقَ لَهُ، يَنْمُو بِدَايَةِ فَصْلِ الشِّتَاءِ وَيَكُونُ لَهُ ثَمَرٌ أَخْضَرُ اللَّوْنِ، وَبَعْدَ نُضُوجِهِ يَتَحَوَّلُ لَوْنُهُ لِلْأَصْفَرِ، وَيُصْبِحُ طَيِّبَ الرَّائِحَةِ، حُلْوَ الْمَذَاقِ، وَيُطْلَقُ عَلَيْهِ أَسْمَاءٌ عَدِيدَةٌ مِنْهَا تَفَاحُ الْمَجَانِينِ وَبَيْضُ الْجَنِّ

^{٦٠١}المقري، نفح الطيب، ٣: ٢١٧.

^{٦٠٢}المصدر السابق، ١: ٣٠٧.

^{٦٠٣}لبد بالمكان: أقام به ولزق، ولبد اسم آخر نسور لقمان، وسمي بذلك لأنه لبد فبقي لا يذهب ولا يموت، وفي المثل (طال الأبد على لبد)، ابن منظور، لسان العرب، مادة لبد.

^{٦٠٤}إشارة إلى الصاعقة التي أهلكت أربد بن قيس وكان قومه قد سألوه بعدما رجع من عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت إنه عندي الآن فأرميه بالنبال، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه حمل، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما. ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣هـ)، تهذيب سيرة ابن هشام، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١٠، ١٩٨٤م)، ٣٤٩.

^{٦٠٥}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٧-٢١٨.

^{٦٠٦}وقد اشتهرت منه أنواع في الأندلس كالتين القوطي والريالذي اشتهرت به مالقة وتين بليش. ينظر: المقري، نفح الطيب، ٣: ٢١٧.

والشُّجَاع^{٦٠٧}، وقد أُشيعَ عن هذا النَّباتِ كثيرٌ من الخُرافاتِ منها أنَّ مَنْ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِ يُصَابُ بِالْجُنُونِ، ولعلَّ هذه الخُرافاتِ كانتْ شائعةً في الأندلس أيضاً، ويدُلُّنا على ذلك استخدامُ ابنِ عُمَيْرَةَ لِلْبُيُوتِ في أكثرِ مِنْ رسالة^{٦٠٨} لِيُكَنِّيَ بِهِ عَنْ أَحَدِ خُصُومِهِ وَيُعَرِّضَ بِهِ وَيَصِفُهُ بِالْحِمَاقَةِ وَالْجُنُونِ، ومنها قوله: "فاجعلها مَخْطُوبَةَ الْيَبْرُوتِ، وقد خَلَعَ عَلَيْهَا خِفَّةَ الْعَقْلِ، وَثَقَلَ الرُّوحُ"^{٦٠٩}.

وفي ثَنَايا الرِّسَالِ نَعَثُرُ عَلَى أَسْمَاءَ لِنَبَاتَاتٍ أُخْرَى، ومنها الْقَمَحُ وَالْبَلُوطُ وَالْيَقْطِينُ وَالزَّرْعُ وَالْكُرُومُ^{٦١٠} وَغَيْرُهَا.

وإلى جَانِبِ مُكَوَّنَاتِ الْغِطَاءِ النَّبَاتِيِّ نَرَى فِي الرِّسَالِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ مُكَوَّنَاتٍ طَبِيعِيَّةَ جَامِدَةٍ، فَتَرَى الْجِبَالَ وَالصَّحَارِي، وَالْكَوَاكِبَ وَالنَّجُومَ، وَالسَّحْبَ وَالْمَطَرَ، وَالْأَنْهَارَ وَالْبَحَارَ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ لُؤْلُؤٍ وَصَدْفٍ وَدَرٍّ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ ابْنُ مَحْشَرَةَ عَلَى لِسَانِ الْخَلِيفَةِ يَعْقُوبَ بْنِ يُوسُفَ وَجَاءَ فِيهِ: "وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْغَمَ لِهَذَا الْأَمْرِ الْعَزِيزِ شَمَّ الْمَعَاطِسِ، وَأَخْضَعَ لِعِزَّتِهِ وَسُطُوتِهِ كُلَّ جَيْدٍ مُتَطَاوِلٍ، وَأَخْشَعَ كُلَّ لَحْظٍ مُشَاوِسٍ، وَحَكَمَ بِظُهُورِ أَمْرِهِ، وَاسْتِيْلَاءِ غَلْبَتِهِ وَقَهْرِهِ، عَلَى مَا تَوَقَّلَ فِي الشَّمِّ الشَّوَامِخَ وَتَوَغَّلَ فِي الْبَيْدِ الْبَسَابِسِ"^{٦١١}، وَيَسَّرَ لَهُ مِنَ الْفُتُوحِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، الْمُقُودَةَ بِزِمَامِي الْبَرَكَةِ وَالسَّعَادَةِ، مَا تَجَاوَزَ تَقْدِيرَ الْمَقْدَّرِ وَقِيَاسَ الْقَائِسِ"^{٦١٢}.

^{٦٠٧} هذا النبات موجود بكثرة في بلاد الشام التي تتشابه مع الأندلس بالطبيعة والمناخ والغطاء النباتي وذلك لوقوعهما في إقليم مناخي واحد (إقليم البحر الأبيض المتوسط).

^{٦٠٨} ينظر رسالة ابن عميرة في: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٠. ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ٢١٥.

^{٦٠٩} ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ٢١٥.

^{٦١٠} ينظر الرسائل التي حوت تلك الألفاظ في المصادر التالية على التوالي: المقري، نفع الطيب، ٣: ٢١٥. عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٠٢. ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ٦٠. بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٢٥.

^{٦١١} مفردا بسبس وهي القفر. الصاغاني، رضي الدين الحسن بن محمد العدوي الصاغاني (٥٧٧ - ٦٥٠هـ)، الثُّباب الزاخر واللباب الفَاخِر، تحقيق: خير محمد حسن (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م)، مادة بسبس.

^{٦١٢} بروفنصال، رسائل موحدية، ٢١٩.

ومن ذلك ما كتبه الفارازي وقال فيه "فإني كتبتُه والمحتمل حافر، وبين الإصابة من العي حاجر، وقد عجزت عجزاً فأنا عاجز، جعلني الله ممن لا يريد سواه، فيما قاله أو نواه، وممن وقى دُررَ دينه بأصدافِ دُنياه"^{٦١٣}.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في رسالة لابن الجنان كتبها عن فخر الدولة بن هود إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وقال فيها: "ولو أتني ذهبتُ إلى تفصيل الإجمال، وتحصيل ما في الصدر لذلکم الجلال والجمال، لكنتُ كمن يكيل البحر بالعمر، ويُجِلُّ الفكر في التنظير بين السُّها والقمر، أو كمن يزعم إحصاء تلکُ المناقب النجمية الملكية، ويدعي استقصاء فضائلها الإنسانية الملكية"^{٦١٤}.

استمدَّ الكتاب فيما سبق من النصوص بعضاً من مكوّنات صورهم الفنية من الطبيعة الجامدة، فذكروا الجبال الشوامخ والصّحاري المقفرات، كما ذكروا البحار وما تحويه من أصدافٍ ودُررٍ، وذكروا القمر والسُّها وهي "كويكب خفيّ في بنات نعش الكبرى والناس يمتحنون به أبصارهم"^{٦١٥}، كما ذكروا السُّحب والعُمائم والمطر والهواء والتّجوم ومنها الفراقدة^{٦١٦} و"مجاديح الرّحمة التي بها أبواب السماء تُستفتح، ومصابيح الهداية التي بنورها يُستضاء ويُستصبح"^{٦١٧}، والمجاديح مُفردُها مُجدح أو مجدح وهو نجمٌ كانت العرب تزعم أنها تُمطرُ به^{٦١٨}.

^{٦١٣}الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفارازي الأندلسي، ٥٤.

^{٦١٤}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٣٩.

^{٦١٥}الجوهرى، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح في اللغة، تحقيق: أحمد عبد الرؤوف عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠م، مادة بسس.

^{٦١٦}ينظر الرسائل التي وردت فيها تلك الألفاظ في المصادر التالية على التوالي: المقرئ، نفح الطيب، ٥: ٥٨، الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفارازي الأندلسي، ١١٣. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٦. الهرامة، آثار أبي زيد الفارازي الأندلسي، ٤٢. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤١٩.

^{٦١٧}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٣٦.

^{٦١٨}ابن منظور، لسان العرب، مادة جدح.

الطبيعة المصنوعة

لم تَغِبْ الطَّبِيعَةُ المَصْنُوعَةُ الرِّسَالِ، حَيْثُ كَانَتْ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ صَوَرِهَا الفَنِّيَّةِ، فَقَدْ ذَكَرَهَا الكُتَّابُ فِي رِسَائِلِهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ عُمَيْرَةَ فِي رِسَالَةٍ لَهُ: "وَعَرَّضْتُ بِذِكْرِ العَصْرِ الخَالِي، والقَصْرِ العَالِي، وَظِلٍّ مِنْ فَنَنِ وَرَيْقٍ، وَعَيْشٍ مَعَ أَكْرَمِ فَرِيقٍ"^{٦١٩}.
وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ الشَّقْنَدِيِّ: "وَأَمَّا مُرْسِيَةُ فَإِنَّهَا حَاضِرَةٌ شَرْقَ الأَنْدَلُسِ، وَلَأَهْلِهَا مِنَ الصَّرَامَةِ وَالْإِبَاءِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ، وَوَادِيهَا قَسِيمٌ وَادِي إِشْيِيلِيَّةٍ، كِلَاهُمَا يَنْبُعُ مِنْ شَقُورَةٍ وَعَلَيْهِ مِنَ البَسَاتِينِ المْتَهَدَةِ الأَغْصَانِ، وَالتَّوَاعِيرِ المَطْرَبَةِ الأَلْحَانِ، وَالْأَطْيَارِ المَغْرَدَةِ، وَالْأَزْهَارِ المَنْتَضِدَةِ مَا قَدْ سَمِعْتَ"^{٦٢٠}.
وَرَدَ ذِكْرُ القَصْرِ فِي رِسَالَةِ ابْنِ عُمَيْرَةَ، كَمَا وَرَدَ ذِكْرُ التَّوَاعِيرِ فِي رِسَالَةِ الشَّقْنَدِيِّ، وَفِي رِسَائِلٍ أُخْرَى نَجَدُ ذِكْرًا لِلْمَسْجِدِ وَالمَنْبَرِ وَالمَبَانِيوِ الأَهْرَامِوِ السَّجْنُوصِمِ شَاطِئَةِ وَالزَّنَقَةِ^{٦٢١} وَهِيَ السَّكَّةُ الضَّيْقَةُ^{٦٢٢} وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ المَعَالِمِ الطَّبِيعِيَّةِ المَصْنُوعَةِ.

ثالثاً: المكان

كَانَ حُضُورُ المَكَانِ بَارِزًا فِي الرِّسَائِلِ الأَنْدَلُسِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، فَفِي الرِّسَائِلِ الدِّيَوَانِيَّةِ اعْتَادَ الكُتَّابُ أَنْ يَذْكُرُوا المَكَانَ الَّذِي أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ الرِّسَالَةُ وَالمَكَانَ الَّذِي صَدَرَتْ مِنْهُ، فَهَذَا ابْنُ مَحْشَرَةَ يَكْتُبُ عَنْ "الْأَمِيرِ يَعْقُوبَ بْنَ سَيْدِنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بْنِ سَيْدِنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَيْدَهُمُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ، وَأَمْلَهُمْ بِمَعُونَتِهِ - إِلَى الطَّلَبَةِ وَالمُوحِّدِينَ وَالأَشْيَاحِ وَالأَعْيَانِ وَالكَافَّةِ بِإِغْرَنَاطَةَ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُمْ بِتَقْوَاهُ، وَعَرَفَهُمْ عَوَارِفَ نِعَمَاهُ وَرُحْمَاهُ - سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ..... وَهَذَا كِتَابُنَا إِلَيْكُمْ - أَسْمَعُكُمُ اللَّهَ مِنْ بَشَائِرِ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ مَا يَمَلَأُ قُلُوبَكُمْ ارْتِيَا حَافًا، وَيَعْمُرُ صُدُورَكُمْ انْشِرَاحًا، وَأَوْسَعَ أَرْجَاءَكُمْ وَأَكْنَافَكُمْ

^{٦١٩} المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣١٨.

^{٦٢٠} المصدر السابق، ٣: ٢٢٠.

^{٦٢١} ينظر الرِّسَائِلُ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا تِلْكَ الأَلْفَاظُ فِي المَصَادِرِ التَّالِيَةِ عَلَى التَّوَالِي: الهَرَامَةُ، عَبْدُ الحَمِيدِ، آثَارُ أَبِي زَيْدِ الْفَازَزِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ، ١٠٦. المقرئ، نفح الطيب، ٣: ١٧٣، ١٤٥. عزراوي، رِسَائِلُ مُوحِدِيَّةٍ، ٣١٧. ابن شَرِيفَةَ،

مُحَمَّدٌ، أَدِيبُ الأَنْدَلُسِ، ٢٢٢. المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٢١٤.

^{٦٢٢} ابن مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَّةُ زَنْقٍ.

انبساطاً في ظلِّ الأمانة وانفساحاً - من حضرة إشبيلية ونحن نستوهبُ الله عوناً على ما قلّدتنا من أمانته، وإنهاضاً بما حملنا من نصرٍ دينه وحمايته^{٦٢٣}.

كما ذكرَ الكتابُ أسماءَ المدنِ الأندلسيّةِ في مُتونِ رسائلهم، وللتّمثيل على ذلك نقْتبسُ من رسالةِ الشّقندي التي ذكرَ فيها "قُرْطُبَة كُرسي المملكة في القديم، ومركز العلم ومنارُ التّقى ومحلّ التعظيم والتّقديم"^{٦٢٤}، وإشبيلية التي "من محاسنها اعتدالُ الهواء، وحسنُ المباني، وتزيينُ الخارج والداخل"^{٦٢٥}، والمرية "البلدُ المشهورُ الذّكر، العظيمُ القدر، الذي خُصَّ أهلُه باعتدالِ المزاج، وروثُ الدياج، ورقّةُ البشرة، وحسنُ الوجوه والأخلاق، وكرمُ المعاشرة والصّحبة"^{٦٢٦}، ومُرسيّة التي كانت "حاضرةً شرقِ الأندلس، ولأهلها من الصّرامة والإباء ما هوَ معرُوفٌ مشهور"^{٦٢٧}، وذكرَ جزيرةَ ميُورقة "أخصبُ بلادِ الله تعالى أرجاءً، وأكثرُها زرعاً ورزقاً وماشية، وهي على انقطاعِها من البلادِ مُستغنيةٌ عنها، يصلُ فاضلُ خيرِها إلى غيرِها"^{٦٢٨}، كما نقْتبسُ من رسالة ابن الأبار الباكية على ضياعِ إشبيلية والتي جاء فيها (وا لهفاه ثم لهفاه... على حمص وواديها، كلّها رُعي كلّوها، ودُهي بالتّفريق والتّمزيق ملؤها)^{٦٢٩}.

نجدُ في الرّسائلِ الأندلسيّةِ ذِكرًا لجميعِ مُدنِ الأندلسِ سواءً باسمائها الأندلسيّةِ أو بأسمائها المشرقيّة، وكانَ الأندلسيون قد سمّوا بعضَ مُدنهم بأسماءِ مُدنٍ مَشرقيّة، ولا سيّما المدنُ الشّاميّة، وأصلُ ذلك أنّ والي الأندلس أبا الخطّار حُسام بن ضرار الكلبيّ الذي كانت ولايته بين سنتي ١٢٥ - ١٢٨ هـ قد "كثُرَ أهلُ الشّام عنده، ولم تحمِلهم قُرطبة، ففرّقهم في البلاد، وأنزلَ أهلَ دِمَشق إلىيرة لشبهها بها وسمّاها دِمَشق، وأنزلَ أهلَ حِمص إشبيلية وسمّاها حمص، وأهل قنسرين جِيان وسمّاها قنسرين، وأهل الأردن رية ومالقة

^{٦٢٣}بروفصال، رسائل موحدية، ١٥٨.

^{٦٢٤}المقري، نفح الطيب، ٣: ٢١٤.

^{٦٢٥}المصدر السابق: ٣: ٢١٢.

^{٦٢٦}المصدر السابق، ٣: ٢١٩.

^{٦٢٧}المصدر السابق: ٣: ٢٢٠.

^{٦٢٨}المصدر السابق، ٣: ٢٢١.

^{٦٢٩}المصدر السابق، ٤: ٤٩٨.

وسمّاها الأردن، وأهل فلسطين شدّونة من شريش وسمّاها فلسطين، وأهل مصر تدمير وسمّاها مصر^{٦٣٠}.

وفي بعض الرسائل كان الكاتب يذكر مدينة ما باسمها، ثم عندما تُروى الرسالة أو تُنسخ، لا يذكر اسم المدينة بل يستبدلها الراوي أو الناسخ بكلمة (فلانة) ومن ذلك الرسالة التي كتبها ابن عميرة عن بعض اتباع المتوكل بن هود وجاء فيها "فكتب العبد - كتب الله للمقام العلي المجاهدي المتوكلي سعداً يرُد الصعاب ذللاً، ويسد من المكاره سبلاً، وأمدّه بملائكة رُسله جاعل الملائكة رُسلاً - من فُلانة وبركائه مُروية للظّماء، وحر كائه مُسكنة للدهماء"^{٦٣١}.

إن استبدال كلمة (فلانة) باسم المدينة قد وُجد في رسائل أخرى^{٦٣٢}، وكان الرواة أو النساخ يفعلون ذلك بأسماء المدن الأندلسية، ولم يفعلوه بأسماء المدن المشرقية أو المغربية، ويبدو أنهم أرادوا من ذلك أن يكون اهتمام القارئ مركّزاً على معنى الرسالة دون أن ينصرف فكره إلى المدن الأندلسية وما كان فيها من حوادث وبينها من علاقات، أو ربّما يكون الراوي أو الناسخ قد نسي اسم المدينة فلم يذكرها خشية الوقوع في اللبس والخطأ. إلى جانب أسماء الأماكن الأندلسية نجد في الرسائل أسماءً لأماكن خارج الأندلس، وبخاصة في الجزيرة العربية، ومن ذلك ما جاء في رسالة كتبها الفازازي مُشيداً بصديق له "إن عايته رأيت ظرفاً مملوءاً ظرفاً، أو باحثته لم تفقد من تلك المعالم المطهرة حرفاً، فكأنك تُعائن الإسكندرية ومَنارها ومكّة وبهجتها والعُمره وحجّتها، والكعبة وسنّاءها، وزمزم وماءها، والركن وميزابه، والحرم وأبوابه"^{٦٣٣}.

^{٦٣٠} المصدر السابق، ١: ٢٣٧.

^{٦٣١} القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٩٥.

^{٦٣٢} ينظر الرسائل في: عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣١٧، ٤١٧. الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١١٠.

^{٦٣٣} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠٥ - ١٠٦.

كما ذَكَرَ الْكِتَابُ فِي رِسَالَتِهِمْ أَسْمَاءً لِأَمَاكِنَ أُخْرَى فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَذَكَرُوا نَجْدَ وَعَرَفَةَ وَجَبَلَ ثُبَيْرَ وَالْحَرَمَيْنِ، وَذَكَرُوا مِصْرَ وَمَدَنَهَا وَالْعِرَاقَ وَبَغْدَادَ وَذَكَرُوا إِفْرِيقِيَّةَ^{٦٣٤}، كَمَا أَتَى الْكِتَابُ عَلَى ذِكْرِ الْمَدِينِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَمِنْ ذَلِكَ الرِّسَالَةُ الَّتِي أَشَادَ بِهَا سَعِيدُ بْنُ حَكَمٍ بِصَدِيقِهِ الْكَاتِبِ الَّذِي وَصَفَ "قَابِسَ" - وَقَاها اللهُ النَّاسُفَ، وَكَفَاها النَّاسُفَ - فَحَشَدَ لَوْصِفِها الْبَيَانَ، وَأَنَسَى بِمَا ذَكَرَ مِنْ غَايَتِها الْمُتَشَعِّبَةَ شِعْبَ بَوَّانَ، فَنَعَمَ مَا بَيْنَ وَأَبَانَ، وَأَفْضَى بِهِ طَيِّبُ الْكَلَامِ إِلَى طَيِّبِ عِشْرَةِ أَهْلِها الْكِرَامِ^{٦٣٥}، وَقَابِسُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ الْمَدِينَةُ التُّونِسِيَّةُ السَّاحِلِيَّةُ، أَمَا شِعْبُ بَوَّانَ فَهُوَ بِأَرْضِ فَارِسَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ مِنْ أَطْيَبِ بَقَاعِ الْأَرْضِ، وَأَحْسَنِ أَمَاكِنِهَا^{٦٣٦}.

وَذَكَرَ الْكِتَابُ أَيْضاً الْمَكَانَ الْمَائِيَّ، فَذَكَرُوا الْبَحَارَ وَالْأَنْهَارَ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ كَتَبَهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنِ عِيَّاشٍ عَنِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ وَذَكَرَ فِيهَا الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ^{٦٣٧} الَّذِي "كَانَ بَحْرًا لَا يَجْرِي فِيهِ جَارِيَةٌ، وَلَا عِمَارَةٌ فِيهِ، وَلَا حَيَوانٌ نَاطِقٌ يَسْكُنُهُ، وَلَا يُحَاطُّ بِمَقْدَارِهِ، وَلَا يُعْلَمُ مُنْتَهَاهُ، وَهُوَ بَحْرُ الظُّلُمَاتِ وَالْأَخْضَرِ الْحَيْطِ"^{٦٣٨}، وَيَتَضَحُّ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ أَنَّ الْأِسْمَ كَانَ يُطْلَقُ عَلَى الْحَيْطِ الْأَطْلَسِيِّ.

وَذَكَرَ الْكِتَابُ أَيْضاً الْبَحْرَ الرُّومِيَّ^{٦٣٩}، وَهُوَ الْأِسْمُ الَّذِي أَطْلَقَهُ الْعَرَبُ عَلَى الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ، كَمَا ذَكَرُوا نَهْرَ النِّيلِ وَنَهْرَ دِجْلَةَ وَالْفَرَاتِ وَنَهْرَ جِيحُونَ^{٦٤٠} وَغَيْرَهَا.

^{٦٣٤} ينظر الرسائل التي وردت فيها أسماء تلك الأماكن في المصادر التالية على التوالي: ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ٢١٥. الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٥٦. المقرئ، نفح الطيب، ٢: ٣٦٣، ١٤٥، ٢١٢، ١٤٧.

^{٦٣٥} مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٣.

^{٦٣٦} الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٩٨٦م)، ١: ٥٣.

^{٦٣٧} ينظر: عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٦٩.

^{٦٣٨} المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥م)، ١: ٤٥.

^{٦٣٩} ينظر: عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٦٩.

رابعاً: الزّمان

كان الزّمان في الرّسائل الأندلسيّة حاضراً حُضورَ المكانِ فيها، وكما كان كُتّابُ الرّسائل الدّيوانيّة يُشيرون إلى المكان الذي صَدَرَتْ منه بعضُ رسائلهم والمكان الذي أُرسلتْ إليه، كانوا يُشيرون أيضاً إلى الزّمان الذي كُتِبَتْ فيه، وللتّمثيلِ على ذلك نذكرُ خواتيمَ أربع رسائل: رسالتين كَتَبَهُما أبو عبد الله بن عيّاش، الأولى عن الأمير يعقوب من إشبيلية "في التاسع من شهر رمضان المعظم سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة" ^{٦٤١}، والثانية عن الخليفة الناصر مُخبراً بهزيمة العقاب حيثُ كَتَبَهَا في "أواخر صفر سنة تسع وستمئة" ^{٦٤٢}، والثالثة صَدَرَتْ عن أهل غرناطة مُبايعين الأمير يوسف بالخِلافة وختموها بقولهم: "وعلى مَضْمَنِ مَعْنَاهَا، والتزامِ مَبْنَاهَا، التَّزَمَ الطَّلَبُ والشُّيُوخُ والكَافَّةُ من الموحِّدين بِقَصْبَةِ إغرناطة ومَدِينَتِهَا، وكتبوا على ذلك شَهادَتَهُم وخطوطَ أيديهم على أنفسهم وذلك في النِّصفِ من جَمادى الآخرة من عام ثلاثة وستين وخمسِ مائة" ^{٦٤٣}، أمّا الرَّابِعةُ فقد صدرت عن حُكومة بِيَشْه وكُتِبَتْ في "أول شهر يُوليوه سنة ألفٍ ومئةٍ واثني" ^{٦٤٤} وثمانين لالتحام السيد المسيح ^{٦٤٥}.

أشارَ ابنُ عيّاش في رسالته الأولى إلى الزّمان الذي صَدَرَتْ فيه الرّسالة باليوم والشَّهر والسَّنة، وفي رسالته الثَّانية أشارَ إلى الشَّهر والسَّنة ولكنه لم يُحدد اليومَ بِدَقَّةٍ حيثُ ذَكَرَ أواخرَ شهرِ صَفَرٍ، وكذلك فَعَلَ أهلُ غرناطة الذين أشاروا إلى منتصفِ جَمادى الآخرة، وكانت الرّسائلُ الثلاثةُ قد أُرِخَتْ بالأشهر القمريّة وبالسَّنة الهجريّة، بينما

^{٦٤٠} ينظر الرسائل التي وردت فيها تلك الأماكن في: الهامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠٦. المقري، نفح الطيب، ١: ١٧١. ابن شريفة، ابو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، ٢١٥. المقري، نفح الطيب، ٧: ٤٢٠. ٣: ١٤٥.

^{٦٤١} بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٤١.

^{٦٤٢} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٧١.

^{٦٤٣} المصدر السابق، ١١٣.

^{٦٤٤} كما وردت في الأصل.

^{٦٤٥} عزاوي، رسائل موحدية، ١٦٦.

صَدَرَتْ الرِّسَالَةُ الرَّابِعَةُ عَنْ جِهَةِ نَصْرَانِيَّةٍ وَأُرِّخَتْ بِالشَّهْرِ الشَّمْسِيِّ وَبِالسَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ، وَلَمْ تَكُنِ الرِّسَائِلُ الدِّيَوَانِيَّةُ جَمِيعُهَا مَوْرَّخَةً، إِذْ نَجِدُ بَعْضَهَا يَخْلُو تَمَامًا مِنْ أَيْ تَصْرِيحٍ بِالزَّمَانِ الَّذِي كُتِبَتْ بِهِ^{٦٤٦}.

وَذَكَرَ الْكِتَابُ مَا يَدُلُّ عَلَى الزَّمَانِ فِي رَسَائِلِهِمْ، فَهَذَا ابْنُ عُمَيْرَةَ يَسْتَشْفَعُ بِصَدِيقٍ لَهُ وَيَقُولُ مُوَازِنًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ: "وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مَا كُلُّ الْخُطْبِ كَخُطْبَةِ الْمَنْبَرِ، وَلَا جَمِيعُ الْأَيَّامِ مِثْلُ يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ"^{٦٤٧}، وَيَمْدَحُ الْمُتَوَكَّلَ بْنَ هُوْدٍ فِي رِسَالَةٍ أُخْرَى كَتَبَهَا عَنْ أَحَدِ أَتْبَاعِهِ وَجَاءَ فِيهَا "لَوْ اسْتَمَدَّ سَنَاءَهُ أَوَّلُ الْفَلَاقَيْنِ لَمْ يَكُ كَاذِبًا، وَلَوْ أُعِيرَ مُحْيَاهُ ثَانِي الشَّفَقَيْنِ كَانَ عَنْ ضَوْءِ النَّهَارِ كَاذِبًا"^{٦٤٨}.

وهذا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ عِيَّاشٍ يَكْتُبُ عَنِ الْأَمِيرِينَ أَبِي حَفْصٍ وَأَبِي سَعِيدِ ابْنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ رِسَالَةً تُخْبِرُ بَانْتِصَارِهِمَا عَلَى ابْنِ مَرْدَنِشٍ وَفِيهَا "وَعَادَتُ مَبَانِي تِلْكَ الْبَسَاتِينَ، وَأَعْوَادُ الْأَشْجَارِ وَالرِّيَّاحِينَ، مُحْتَضِبًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ مِنَ الْجُنُودِ، وَصَارَ سَعْدُ الْأَخْبِيَّةِ سَعْدَ السَّعُودِ، وَأَقَامَ الْمُوَحِّدُونَ لِلتَّعْيِيدِ، وَقَدْ جَمَعَ لَهُمُ الْأَعْيَادُ فِي عِيدٍ"^{٦٤٩}.

أَمَّا ابْنُ مَغَاوِرٍ فَقَدْ هُنَّا أَحَدَ الْقَوَادِمِ رُزِقَ بِهِ وَقَالَ "مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِفَارِسِ الْفُرْسَانِ، بِحَدَقَةِ الْمَجْدِ وَإِنْسَانِ، بِمَطَرَةِ مُخْصَبَةِ فِي نَيْسَانَ، بِقَمِيرٍ طُلَعَ فِي أَفْقِ الْمَجْدِ، وَنَجْمٍ لَاحَ فِي سَمَاءِ السَّعْدِ"^{٦٥٠}.

ذَكَرَ ابْنُ عُمَيْرَةَ فِي رِسَالَتِهِ الْأُولَى يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وَفِي الثَّانِيَةِ ذَكَرَ الْفَلَاقَ وَهُوَ الصَّبْحُ^{٦٥١}، وَذَكَرَ الشَّفَقَ وَهُوَ بَقِيَّةُ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحُمُرُهَا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ تُرَى فِي الْمَغْرِبِ إِلَى صَلَاةِ الْعِشَاءِ^{٦٥٢}، أَمَّا سَعْدُ السَّعُودِ وَسَعْدُ الْأَخْبِيَّةِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمَا ابْنُ عِيَّاشٍ فَهُمَا مِنْ مَرَاكِحِ خَمْسِينَئِيَّةِ الشِّتَاءِ الَّتِي تَبْدَأُ فِي مُسْتَهْلِ الشَّهْرِ الشَّمْسِيِّ الثَّانِي، وَتَتَكُونُ مِنْ أَرْبَعِ

^{٦٤٦} ينظر الرسائل في: المصدر السابق، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٢، ٣٥١، ٣٥٦، ٤١٨، ٤٩٢.

^{٦٤٧} المقرئ، نفح الطيب، ٣: ١٤٧.

^{٦٤٨} القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ١٤٧.

^{٦٤٩} ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ٢٧٠.

^{٦٥٠} ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢١١.

^{٦٥١} ابن منظور، لسان العرب، مادة فلق.

^{٦٥٢} المصدر السابق، مادة شفق.

مَراحِلَ هِيَ سَعْدُ الذَّابِحِ وَسَعْدُ بَلْعٍ وَسَعْدُ السَّعُودِ وَسَعْدُ الْأَخْبِيَةِ، وَيَكُونُ كُلُّ سَعْدٍ مِنْهَا اثْنِي عَشَرَ يَوْمًا وَنِصْفَ الْيَوْمِ^{٦٥٣}، وَالْمُتَعَارِفُ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُ "إِذَا طَلَعَ سَعْدُ السَّعُودِ نَضَرَ الْعُودَ، وَلَانَتْ الْجُلُودُ، وَكُرِهَ فِي الشَّمْسِ الْقُعُودُ، وَإِذَا طَلَعَ سَعْدُ الْأَخْبِيَةِ زُمَتْ الْأَسْقِيَّةُ، وَتَدَلَّتِ الْأَهْوِيَّةُ، وَتَجَاوَرَتْ الْأَبْنِيَّةُ"^{٦٥٤}، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى ارْتِفَاعِ الْحَرَارَةِ وَتَنَعُّمِ النَّاسِ وَاخْضِرَارِ الشَّجَرِ فِي سَعْدِ السَّعُودِ، وَإِلَى قِلَّةِ نُزُولِ الْمَطَرِ، وَزِيَادَةِ الْحَرَارَةِ وَانْشَغَالِ النَّاسِ بِالْحُرُوبِ وَبِنَاءِ الْبُيُوتِ فِي سَعْدِ الْأَخْبِيَةِ، أَمَّا نَيْسَانُ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ مُغَاوِرٍ فِي تَهْنِئَتِهِ فَهُوَ الشَّهْرُ الرَّابِعُ مِنَ الْأَشْهُرِ الشَّمْسِيَةِ وَقَدْ أَشَادَ النَّاسُ بِالْمَطَرِ الَّذِي يَنْهَمِرُ فِي هَذَا الشَّهْرِ^{٦٥٥}.

إِضَافَةً إِلَى الْأَلْفَافِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالزَّمَانِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْكِتَابُ فِي نُصُوصِ رِسَائِلِهِمُ السَّابِقَةِ نَرَى أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَعْدَمُوا أَلْفَافًا أُخْرَى ذَاتَ عِلَاقَةٍ بِالزَّمَانِ فِي مُتُونِ رِسَائِلِهِمْ وَمِنْ ذَلِكَ ذِكْرُهُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالصَّبْحَ وَالسَّحَرِ وَالْفَجَرَ وَالْعِشَاءَ^{٦٥٦} وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَفَافِ.

^{٦٥٣} من المعلومات التراثية الشعبية التي تتناقلها الأجيال في البلاد العربية.

^{٦٥٤} السيوطي، المزهري في علوم اللغة، ٢: ٤٤٧.

^{٦٥٥} من الأمثال الشعبية التي تُشيد بمطر نيسان (مَطَرَةُ نَيْسَانَ تُحْيِي الْأَرْضَ وَالْإِنْسَانَ) وَ (مَطَرَةُ نَيْسَانَ تُحْيِي كُلَّ عَرَقٍ فَا نَ).

^{٦٥٦} ينظر الرسائل التي وردت فيها تلك الألفاظ في المصادر التالية على التوالي: المقرئ: نفح الطيب، ٣: ١٨٨، ٢:

١٩٠ بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٤٣، ٣٦٣. الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٧.

ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٧. ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ١٩٤.

الفصل الثاني

الأنماط الحسية في الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية

يتجسّد معنى الحياة في الحسّ، وتقومُ النَّفْسُ بوظيفة الإحساس الذي يتأتّى من حواسٍ خمس تكون بمثابة نوافذٍ طبيعيّة تربطُ بين الإنسان وبين عالَمه الخارجي، وتمثّل تلك الحواسّ بالبصرِ والسمعِ والشمّ والذوق واللمس^{٦٥٧}، "والإحساسُ بالمحسوساتِ الخاصّة صادقٌ دائماً، ويوجدُ عندَ جميع الحيوانات"^{٦٥٨}، وثمة فارقٌ بين الإحساس والإدراك لأنّ "الإحساسَ هو الشّعورُ بمُنَبّه، أما الإدراكُ فهو تفسيرٌ أو تأويلٌ ما أحسّنا به"^{٦٥٩}، فالإحساسُ عمليّةٌ بسيطةٌ يقومُ بها الإنسانُ بشكلٍ غريزيٍّ، أمّا الإدراكُ فهو "عمليةٌ مُعقّدة، إذ يشتركُ في تكوينها التذكُّرُ والتّخيلُ والتّشبيهُ والتّمثيلُ... وهو العملية التي نعرفُ بها الأشياءَ والحقائقَ الموضوعيّة أو المعاني"^{٦٦٠}.

كانتُ الحواسُ الخمسُ مَصْدَرًا مهمًّا من مَصَادِرِ الصّورة الفنّية لأنّ "مُدركاتِ الحسّ هي المادةُ الخامُ التي يَبْنِي بها الشّاعرُ تَجَارِبَهُ، وكلُّ أثرٍ رائعٍ من آثارِ الفنِّ ما هو إلاّ تعبيرٌ بِلُغَةٍ حسيّةٍ عن معنًى رفيع"^{٦٦١}.

تختلفُ مَصَادِرُ الصّورة الفنّية الحسيّة عن مَصَادِرِها التي أُشيرَ إليها في الفصل الأول من هذا الباب، ويَتمثّل ذلك بأنّ كثيراً من الصّور الفنّية الحسيّة لا تَقْتَصِرُ معانيها على المعاني الحسيّة المجرّدة، وإنّما ترتبطُ بِقَرِينٍ يُحَدِّثُ إزاحةً لمعانيها الحسيّة المجرّدة إلى معانٍ

^{٦٥٧} بحسب التقسيم الذي وضعه أرسطو طاليس، ينظر: أرسطو طاليس، كتاب النفس، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩م).

^{٦٥٨} المصدر السابق، ١٠٣.

^{٦٥٩} المليحي، حلمي، علم النفس المعاصر (بيروت: دار النهضة العربية، ٢٠٠٠م)، ٢٠٤.

^{٦٦٠} المصدر السابق، ٢٠٥.

^{٦٦١} جويو، جان ماري، مسائل فلسفة الفن المعاصرة، ترجمة: سامي الدروبي (بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٥م).

أخرى، فاللونان الأبيض والأسود - على سبيل المثال - مَصْدَرَانِ بَصَرِيَّانِ مِنْ مَصَادِرِ الصُّورَةِ الفَنِّيَّةِ، وهما "مِنْ أَكْثَرِ الْأَلْوَانِ الَّتِي يُقَابَلُ بَيْنَهُمَا الْإِنْسَانُ، وَتَبْرِيرُ ذَلِكَ أَنَّ هَذَيْنِ اللَّوْنَيْنِ يَتَقَابِلَانِ فِي حَقْلِ دَلَالِيٍّ وَاحِدٍ، وَيَسْتَدْعِي كُلُّ مَنِهْمَا الْآخَرَ، وَيَرَاهُمَا الْعَرَبِيُّ فِي تَقَابِلَاتٍ كَثِيرَةٍ كَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَبَيَاضِ وَجْهِ الْمَرْأَةِ وَسَوَادِ شَعْرِهَا".^{٦٦٢}، وَلَكِنَّ مَعَانِي هَذَيْنِ اللَّوْنَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنَ الْمَعَانِي الْحَسِّيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ إِلَى مَعَانٍ ذَاتِ دَلَالَاتٍ أُخْرَى، فَإِنْ قِيلَ: "فُلَانَةٌ بَيَضَاءُ فَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَى التَّقَاءِ وَالطُّهْرِ وَالْخُلُوفِ مِنَ الدَّنَسِ"^{٦٦٣}، وَأَيْضاً يُقَالُ: "أَسْوَدُ الْقَلْبِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحِقْدِ وَالكَرَاهِيَةِ"^{٦٦٤}، وَرَبَّمَا كَانَ لِلثَّقَافَةِ السَّائِدَةِ فِي مَجْتَمَعٍ مَا دَوَّرَ فِي تَعْيِينِ الْمَعْنَى، فَفِي الْمَشْرِقِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَسْوَدِ كَلَوْنٍ حُزْنٍ وَحِدَادٍ، أَمَّا فِي الْمَغْرِبِ فَتَنْظُرُهُمْ إِلَيْهِ مُغَايِرَةً^{٦٦٥} لِذَلِكَ فَالصُّورَةُ الْحَسِّيَّةُ "لَا تَقُومُ فِي مَعزِلٍ عَنِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَثَمَّةُ صِلَةٍ وَثِيقَةٍ بَيْنَ الصُّورِ الْمَحْسُوسَةِ وَوُرُودِهَا إِلَى النَّفْسِ وَصُدُورِهَا عَنْهَا"^{٦٦٦}.

إِنَّ رُؤْيَا اللَّوْنَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ إِحْسَاسٌ بِهُمَا، أَمَّا تَأْوِيلُهُمَا وَانْصِرَافُ الْفِكْرِ إِلَى مَعَانِيهِمَا وَدَلَالَتُهُمَا فَهُوَ إِدْرَاكٌ، وَمَا يَجْرِي عَلَى هَذَيْنِ اللَّوْنَيْنِ يَجْرِي أَيْضاً عَلَى جُلِّ الْأَحَاسِيْسِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ لِأَنَّ الصُّورَ الْحَسِّيَّةَ "مَا هِيَ إِلَّا وَسَائِطٌ أَوْ سِجَلَاتٌ لِلْمُشَاهَدَةِ أَوْ مُنْبَهَاتٌ لِلانْفِعَالِ"^{٦٦٧}، كَذَلِكَ فَإِنَّ "الْأَسَاسَ الْحَسِّيَّ لِلصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ يَعْنِي انْعِكَاسَ الْمَشَاعِرِ عَلَى الْأَشْيَاءِ مِنْ خِلَالِ الْمُدْرَكَاتِ الْحَسِّيَّةِ"^{٦٦٨}، وَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى التَّأَثُّرِ وَالانْفِعَالِ النَّفْسِيِّ لِأَنَّهُ "غَالِباً مَا تَقْتَرُنُ الْانْفِعَالَاتُ بِالْحَوَاسِّ وَمُعْطِيَاتُهَا فِي الْأَلْوَانِ وَالْأَصْوَاتِ وَالْعُطُورِ فَتَوْقِظُ فِي الْوُجْدَانِ شَعُوراً قَوِيّاً"^{٦٦٩}.

^{٦٦٢} العمري، زينب، اللون في الشعر العربي القديم (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٨٩م)، ١٠٣.

^{٦٦٣} ابن منظور، لسان العرب، مادة بيض.

^{٦٦٤} المصدر السابق، مادة سود.

^{٦٦٥} وقد ورد في مخاطبة أهل الأندلس أبيات منها:

لبستم في مآتمكم بياضا فجئتم منه في زيّ غريب

ينظر الأبيات في: المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٤٤١.

^{٦٦٦} الشلبي، محمود محمد، الصورة الفنية في شعر المتنبي، أطروحة دكتوراه (مصر: جامعة الأزهر، ١٩٨١م)، ٢٣١.

^{٦٦٧} ريشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة: مصطفى بدوي (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٦٣م)، ١٦٧.

^{٦٦٨} إسماعيل، عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، ٢١٢.

^{٦٦٩} غطّاس، كرم، الرمزية والأدب العربي الحديث (بيروت: دار الكشاف للنشر والتوزيع، ١٩٤٩م)، ٩٢.

وَرَدَتْ فِي الرَّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ - كَمَا فِي جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ الْأَدْبِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ وَالتَّثْرِيَّةِ -
أَنْمَاطٌ مِنَ الصُّوَرِ الْحَسِّيَّةِ، وَنَسْتَطِيعُ تَقْسِيمَهَا بِحَسَبِ الْحَوَاسِّ إِلَى خَمْسَةِ أَنْمَاطٍ هِيَ:

النَّمَطُ الْبَصَرِيُّ

الصُّورَةُ الْبَصَرِيَّةُ أَكْثَرُ أَنْمَاطِ الصُّوَرِ الْحَسِّيَّةِ شُبُوعاً، فَهِيَ "أَقْوَى وَأَوْضَحُ وَأَكْثَرُ عَدَدًا،
وَالنَّاسُ يُتَرَجِّمُونَ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَعَوَاطِفِهِمْ بِالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ"^{٦٧٠}، كَمَا أَنَّ "الكَثْرَةَ مِنَ
مَادِيَاتِ الْكَوْنِ تُرَى بِالْعَيْنِ، لِذَا عُدَّتْ أَمَّ الْحَوَاسِّ، وَتَشْمَلُ الصُّوَرُ الْبَصَرِيَّةُ عَلَى الصُّورَةِ
الضُّوئِيَّةِ وَاللَّوْنِيَّةِ وَالْحَرَكِيَّةِ"^{٦٧١}.

نَجِدُ فِي الرَّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ صُوراً بَصَرِيَّةً كَثِيرَةً مِنْهَا مَا وَرَدَ فِي رِسَالَةِ لَابِنِ
مَحْشَرَةَ كَتَبَهَا عَنْ الْخَلِيفَةِ الْمَنْصُورِ جَاءَ فِيهَا "وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الْمَصْطَفَى، وَرَسُولِهِ
الْأَكْرَمِ الْمُجْتَبَى، الَّذِي أَطْفَأَ اللَّهُ بِهِ احْتِدَامَ الْكُفْرِ وَاضْطِرَامَهُ، وَأَزَاحَ بِأَنْوَارِهِ الْبَاهِرَةِ غَيْهَبَ
الشُّرْكِ وَظُلَامَهُ، وَأَعْلَى بِجَنَافَتَيْهِ الْحَقَّ مَنَارَ الْحَقِّ وَعِمَامَهُ.. وَشَفَى بَعْلُومِهِ الْجَلِيَّةَ، وَبَرَاهِينَهُ
الْوَاضِحَةَ الْقَطْعِيَّةَ، أَدَوَاءَ الْجَهْلِ وَأَسْقَامَهُ، وَجَلَا بِأَضْوَائِهِ السَّاطِعَةِ، وَتَعْلِيمَاتِهِ الرَّافِعَةِ
الشُّكُوكَ الْقَاطِعَةَ، دِيَاغِيرَهُ الْحَالِكَةَ وَأَظْلَامَهُ"^{٦٧٢}.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ الْكَاتِبُ نَفْسُهُ فِي رِسَالَةٍ أُخْرَى اسْتَهْلَهَا بِحَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى
"رَسُولِهِ الْأَكْرَمِ الْمُجْتَبَى، الْمُخْتَارِ مِنَ أَشْرَفِ الْمُخَاتِدِ، وَأَطْيَبِ الْمَعَارِسِ، الْمُسَكِّتِ بِفُرْقَانِهِ الْمَعْجَزِ
وَبَيَانِهِ الْمَوْجِزِ كُلَّ نَافِسٍ، وَالْمَاحِي بِنُورِ نُبُوَّتِهِ الْخَائِمَةَ لِلْمَلَلِ، وَشَرِيعَتِهِ النَّاسِخَةَ لِلْأُذْيَانِ
وَالْتَّحَلِّ، مُظْلِمَاتِ الْغِيَاهِبِ، وَمُدْهَمَّاتِ الْخَنَادِسِ"^{٦٧٣}.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ سَعِيدٍ مُهَيَّئاً الْخَلِيفَةَ عَبْدَ الْوَاحِدِ بِتَوْلِيهِ
مَقَالِيدَ الْخِلَافَةِ وَيَقُولُ فِيهَا "وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، وَإِلَى مَنْ يُشِيرُ بِآيَاتِهِ، فَلِلَّهِ
صَبَاحُ ذَلِكَ الْيَوْمِ السَّعِيدِ وَلَيْلَتُهُ، لَقَدْ سَفَرْنَا عَنْ وَجْهِهِ مِنَ الْبُشْرَى أَضَاءَتْ الْآفَاقَ شَرْقاً

^{٦٧٠}كرم، يوسف، الطبيعة وما بعد الطبيعة(القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م)، ٨٤.

^{٦٧١}عبد الرحمن، نصرت، في النقد الأدبي الحديث، ٦٧.

^{٦٧٢}بروفنصال، رسائل موحدية، ١٥٨ - ١٥٩.

^{٦٧٣}بروفنصال، رسائل موحدية، ٢١٩.

وَعَرَبًا غُرَّتْهُ، ولقد اجتمعت أراء السداد، حتى أتت الإسلام بالمراد، فَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا، وَحَلَّ بِالْذَّارِ بَانِيهَا، هَنِيئًا زَادَكَ الرَّحْمَنُ خَيْرًا، وَلَا بَرَحَتْ الْمَسَرَاتُ تَسِيرُ إِلَيْكَ سَيْرًا، وَهَلْ يَصْلُحُ الثُّورُ إِلَّا لِلْمُقَلِّ؟ وَهَلْ يَلِيقُ بِالْحُسْنِ إِلَّا الْحُلُّ؟ فَالآن مَهَّدَ اللَّهُ الْبَرِّينَ، وَأَفَاضَ الْعَدَلَ عَلَى الْعُدَوِّيِّينَ" ٦٧٤.

تَجَلَّتْ فِي التَّصَوُّصِ السَّابِقَاتِ الصُّورَةُ الضَّوِّيَّةُ، حَيْثُ عَمَدَ الْكِتَابِ إِلَى ذِكْرِ الْيَوْمِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مُفْرَدَاتٍ سَوَاءٌ كَانَتْ أَسْمَاءً أَمْ أَفْعَالًا، فَذَكَرُوا الْأَنْوَارَ وَمُفْرَدَهَا النُّورَ وَالْأَضْوَاءَ وَفَعَلَهَا أَضَاءَ كَمَا ذَكَرُوا الصَّبَاحَ، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ عَلَى الْإِيمَانِ دَلَالَةً مُبَاشِرَةً أَوْ غَيْرَ مُبَاشِرَةً، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ذَكَرُوا اللَّيْلَ وَمُفْرَدَاتٍ مُتَعَلِّقَةً بِهِ فَآتَوْا عَلَى ذِكْرِ الظَّلَامِ مُفْرَدَةً وَمَجْمُوعَةً، كَمَا ذَكَرُوا الْغَيْهَبَ ٦٧٥ وَالْدِّيَاجِيرَ ٦٧٦ وَالْحَالِكَةَ وَالْمُدْهَمَمَاتِ وَالْحَنَادِسَ، وَجَاءَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ دَالَّةً عَلَى الْكُفْرِ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ لَيْسَتْ جَدِيدَةً فَقَدْ وَرَدَتْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:



لَمَسْتُ إِلَى النُّورِ رَبِّ يَخْرِجُونَهُمُ الطُّغُوتُ أَوْلِيَاءُ هُمْ كَفَرُوا وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا إِلَى الظُّلُمَاتِ مِنْ يُخْرِجُهُمْ أَمْنُوا الَّذِينَ وَلَّى اللَّهُ خَلْدُوتَ فِيهَا هُمْ النَّارُ أَصْحَابُ وَلْتِلْكَ الظُّلُمَاتِ ٦٧٧.

إِضَافَةً إِلَى الصُّورِ الضَّوِّيَّةِ تَكَثَّرَ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الصُّورُ اللَّوْنِيَّةِ حَيْثُ كَانَ لِلْوَنِ حُضُورٌ وَاسِعٌ، وَكَانَ اللَّوْنَانِ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَلْوَانِ حُضُورًا، وَقَدْ وَرَدَا مُتَفَرِّقِينَ وَمُجْتَمِعِينَ، أَمَّا افْتِرَاقُهُمَا فَنَجَدُهُ فِي رِسَالَةِ لَابِنِ عُمَيْرَةَ كَتَبَهَا مُهَنَّاتُ ابْنِ هُودٍ بِوَصُولِ الْكِتَابِ الْعَبَّاسِيِّ إِلَيْهِ مِنْ بَغْدَادَ بُولَايَةِ الْأَنْدَلُسِ وَجَاءَ فِيهَا "فَلَا بَيَانَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ الْبَيَانِ، وَلَا يَوْمَ كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَبَدَّى نَظَرُهُ لِلْعَيَانِ، نُثِرَتْ فِيهِ الْخُلَعُ الْعَبَّاسِيَّةُ فِي أَعْلَى الصُّورِ، وَبَرَزَ مِنْهَا لِلْعَيُونِ مَا يُعْثِرُ الْبَلِیْغُ عِنْدَ وَصْفِهِ فِي ذَيْلِ الْحَصَرِ، وَيَهْدِي سَوَادَهُ سَوَادَ

٦٧٤ المقري، نفح الطيب، ٢: ٣٦٣.

٦٧٥ الغيب: شدة سواد الليل، ابن منظور، لسان العرب، مادة غيب.

٦٧٦ دياجير مفردتها ديجور: مظلمة، المصدر السابق، مادة دجر.

٦٧٧ البقرة: آية ٢٥٧.

القلب والبصر، فيا لمشهدها ما أعجب ما كان، ومرآها الذي راعَ الكُفر وراقَ الإيمان،
وأشبهه يومه بالأندلس يوم خرجت الرايات السود من خراسان"٦٧٨.

كما نجد ذلك في الرسالة التي كتبها سعيد بن حاكم وأشادَ فيها بأهل مدينة قابس
ومنها قوله "وأفضى به طيبُ الكلامِ إلى طيبِ عشرةِ أهلها الكرام، فله هُم من بيضِ
الوجوه والأكباد، غرِّ العمائم والأبراد، سُحجِ بالطريف والتلاد، سُحجِ لدى المشاهدِ
والأغباد، رُحجِ بِحُكمِ الأندادِ والأضداد"٦٧٩.

ونجد ذلك أيضاً في رسالة البيعة التي أرسلها أهل إشبيلية للخليفة يوسف
"مُستبصرين في هذه البيعةِ الكريمةِ بنورِ الاهتداء، سالكين في التزامِ الطاعة على المحجةِ
البيضاء، عارفين ما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء"٦٨٠.

أما اجتماعهما فنقرأه في رسالة أبي عبد الله بن عيَّاش التي أنشأها عن الخليفة
المنصور مُبشِّراً بانتصار جُنْدِه الذين كانوا "ينزلون على الزرع وقد شابت بها نواصي
الوهاد والنجاد، فلم يرحلوا عنها إلّا وقد عادَ بياضُها إلى سواد"٦٨١.

ونقرأه أيضاً في رسالة ابن عميرة إلى الخليفة التي كتبها عن والي بلنسية وقالَ فيها
"فكُتِبَ العبدُ - كُتِبَ اللهُ للمقامِ العليّ فتوحاً نَعُمُ جميعَ الأقطار، وسعداً يَقْضِي بفلّ
السمر الطوال والبيض القصار - من بلنسية، وبركاتها تَظْهَرُ ظُهورَ النَّهار، وتفيضُ على
البلادِ والعبادِ فيضَ الأُمّار"٦٨٢.

نرى في النصوص السابقة اللونين الأبيض والأسود يتكرران في غير موضع،
وذكرهما يُعبّر عن دلالاتٍ مُختلفة، فالأبيضُ "أولُ الألوان الموسومة بالفئة الباردة التي تُثيرُ
الشّعور بالهدوء والطمأنينة"٦٨٣، ويرمزُ هذا اللون إلى "الطهارة والشرف في مُعظم التقاليد

٦٧٨ المقري، نفح الطيب، ١: ٣٢٠.

٦٧٩ مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٣.

٦٨٠ عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١١.

٦٨١ بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٣٤.

٦٨٢ عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٥١.

٦٨٣ عبد الوهاب، شكري، الإضاءة المسرحية (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥م)، ٨٥.

لدى الشعوب، وهو لَوْنُ التَّقَاوَةِ وَالسَّلَامِ^{٦٨٤}، أمّا الأسودُ فهوَ على التَّقْيِضِ من ذلك حيثُ يَرْمِزُ هذا اللون "للحُزْنِ والشُّؤْمِ والْعَدَمِ، كما دَلَّلُوا به على الموتِ والفِرَاقِ والخَوْفِ والفَنَاءِ"^{٦٨٥}، وبذلك تَكُونُ دلالةُ هذين اللونين مُشابهةً لدلالةِ الثُّورِ والظَّلَامِ التي أُشيرَ إليها في الصُّورَةِ الصُّوئِيَّةِ، ففي القرآنِ الكَرِيمِ يَقْتَرِنُ الأَبْيَضُ والأسودُ بالإيمانِ والكُفْرِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بهما، وَنَجِدُ ذلكَ في أَكْثَرِ مِنْ آيَةٍ كَرِيمَةٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:



﴿تَكْفُرُونَ كُنْتُمْ بِمَا أَلْعَذَابَ فَذُقُوا إِيْمَانِكُمْ بَعْدَ أَكْفَرْتُمْ وَجُوهُهُمْ أَسْوَدَّتْ الَّذِينَ فَأَمَّا وَجُوهٌ تَبْيَضُ يَوْمَ خَلِدُوا فِيهَا هُمْ لِلَّهِ رَحْمَةً فِي وَجُوهِهِمْ أَبْيَضَتْ الَّذِينَ وَأَمَّا﴾^{٦٨٦}.

ونَجِدُ الدَّلَالَاتِ الإِيجَابِيَّةَ لِلونِ الأَبْيَضِ في النُّصوصِ السَّابِقَةِ، فالوَجْهُ البَيضُ تَدُلُّ على نَقَاءِ الأَعْرَاضِ، وَجَمِيلِ الأخلاقِ والأَفْعَالِ، وَطَالَمَا تَغْنَى الشُّعْرَاءُ بِهذا المعنى مُعْتَمِدِينَ في ذلكَ على اللونِ الأَبْيَضِ^{٦٨٧}، أمّا المَحَجَّةُ البَيضاءُ والسَّمْحَةُ البَيضاءُ^{٦٨٨} فَتَدُلُّانِ على الإِسْلَامِ، وَتَدُلُّ الأَرْضُ البَيضاءُ - في الرِّسَالَةِ السَّابِقَةِ - على عَمَارِهَا وَكَثْرَةِ الزَّرْعِ فِيهَا، وَهذه الدَّلَالَةُ مُخَالَفَةٌ لِمَا دَرَجَ عَلَيْهِ العَرَبُ قَدِيمًا، إِذْ إِنَّهُمْ كَنُّوا عن عَمَارَةِ الأَرْضِ بالسَّوَادِ حيثُ "يُقَالُ: لَكَ سَوَادُ الأَرْضِ وَبَيَاضُهَا، أَيِ عَامَرُهَا وَغَامَرُهَا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ السَّوَادُ سَوَادًا لِعَمَارَتِهِ، وَكُلُّ خُضْرَةٍ عِنْدَ العَرَبِ سَوَادًا"^{٦٨٩}، وَكُنُوا عن جَدِّهَا بالبَيَاضِ^{٦٩٠}، أمّا في

^{٦٨٤} خليل، إبراهيم، النقد الأدبي من المحاكاة إلى التفكيك (بيروت: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠٠٧م)،

١٠٨.

^{٦٨٥} عمر، أحمد مختار، اللغة واللون (الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٢م)، ١٩٥.

^{٦٨٦} آل عمران، آية: ١٠٦ - ١٠٧.

^{٦٨٧} ومن ذلك قول حسان بن ثابت - رضي الله عنه - مادحا:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

ابن ثابت، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي (ت ٥٤هـ)، ديوانه (القاهرة: المطبعة التجارية، د.ت)، ٢٨.

^{٦٨٨} ينظر الرسالة في: المقرئ، نفع الطيب، ٧: ٩٥.

^{٦٨٩} المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي (٢١٠ - ٢٨٦)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: إبراهيم أبو الفضل

(القاهرة: المكتبة العلمية، ١٩٣٠م)، ١: ٦٢.

^{٦٩٠} ومن ذلك قول امرئ القيس في وصف سيل: فأضحى يسح الماء من كل فيقة يحوز الضباب في صفاصف بيض فالصفاصف البيض دلالة على جدبها وخلوها من الزرع.

السَّابِق فَقَدْ دَلَّ سَوَادُ الْأَرْضِ عَلَى خَرَابِهَا، وَدَلَّتِ الرَّايَاتُ السَّودَ عَلَى الْعَبَاسِيِّينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَذَا اللَّوْنَ رَمْزًا لِدَوْلَتِهِمْ، وَقَدْ فَطِنَ ابْنُ الْجَنَّانِ إِلَى دَلَالَةِ اللَّوْنَيْنِ الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ عِنْدَمَا كَتَبَ فِي إِحْدَى رَسَائِلِهِ عَنْ ابْنِ هُوْدٍ "وَلَا عَدِمَ الْإِسْلَامُ مِنْ رَأْيَتِهِ السَّودَاءَ الصَّبِغَ، الْبَيْضَاءَ الصُّنْعَ، عِزًّا يَثْوِي مِنْ أَهْلِهِ كُلِّ مُعْتَرِبٍ نَازِحِ الصَّقَعِ"^{٦٩١}، أَمَّا السُّمَرُ الطُّوَالُ وَالْبَيْضُ الْقِصَارُ فَيَدْلَانِ عَلَى الرَّمَاحِ وَالسِّيُوفِ وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ كَثِيرًا فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ^{٦٩٢}.

وَنَجِدُ إِضَافَةً إِلَى الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ أَلْوَانًا أُخْرَى حَاضِرَةً فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَإِنْ كَانَ حُضُورُهَا دُونَ حُضُورِ اللَّوْنَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشٍ عَنِ الْخَلِيفَةِ الْمَنْصُورِ مُبَشِّرًا بِالنَّصْرِ "فَمَا يُوَثِّرُ الْخَمِيسُ الْعَرَمَرَمُ إِذَا لَمْ يَكُنِ السَّعْدُ مِنْ نَفَرِهِ، وَمَا تُغْنِي شَجَرُ الْقَنَا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْعَوْنُ مِنْ شَرْفِهِ وَالْفَتْحُ مِنْ ثَمَرِهِ، وَمَا تُفِيدُ عَيُونُهُ الزُّرْقُ إِذَا كَانَ صُنْعُ اللَّهِ مَحْجُوبًا عَنْ بَصَرِهِ فَلَمَّا صَارَتْ الْبِلَادُ كَأَنَّ لَمْ تُغْنِ، وَالْمَعَاقِلُ كَأَنَّ لَمْ تُبْنَ، صَوَّبْنَا إِلَى طُلَيْطَلَةَ قَاعِدَةِ الصُّفْرِ، وَأَمَّ بِلَادِ الْكُفْرِ، وَجَنَّتَاهَا مِنْ جِهَاتِ أَبْوَابِ قِشْتَالَةِ وَهِيَ الْجِهَاتُ الَّتِي كَانُوا يَأْمُنُونَ مِنْ أَفْقِهَا، وَلَا يَسُدُّونَ بَابًا يَقْضِي إِلَى طَرِيقِهَا، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَعَرَفُوا التَّخَاذُلَ مِنْ حَيْثُ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ"^{٦٩٣}.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ ابْنِ عُمَيْرَةَ الْبَاكِيَّةِ عَلَى سُقُوطِ بِلَنْسِيَّةِ "دَارٌ ضَاكَتْ الشَّمْسُ بِجَرِّهَا وَبَحِيرَتَا، وَأَزْهَارٌ تَرَى مِنْ أَدْمَعِ الطَّلِّ فِي أَعْيُنِهَا تَرْدَدُهَا وَحِيرَتَهَا، ثُمَّ زَحَفَتْ كَتِيبَةُ الْكُفْرِ بِزُرْقِهَا وَشُقْرِهَا، حَتَّى أَحَاطَتْ بِجَزِيرَةِ شُقْرِهَا"^{٦٩٤}.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا خَطَّهُ ابْنُ عُمَيْرَةَ إِلَى ابْنِ هُوْدٍ عَنْ بَعْضِ أَتْبَاعِهِ وَجَاءَ فِيهِ "فَسَارَ إِلَيْهِ بِالْجَحْفَلِ الْأَحْفَلِ، وَالْعَزِيمَةِ الرَّعِيمَةِ بِفَضِّ الْمَقْفَلِ، وَرَضَّ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ، وَقَدْ اعْتَرَّ

الشَّنْقِيطِي، أَحْمَدُ الْأَمِينُ، شَرْحُ الْمَعْلُقاتِ الْعَشْرِ وَأَخْبَارُ شَعْرَائِهَا (بِירוْت: دَارُ الْأَنْدَلُسِ، د.ت)، ١٢١.

^{٦٩١}ابْنُ الْمُرَابِطِ، زَوَاهِرُ الْفِكْرِ، ٤٢٩.

^{٦٩٢}يَنْظُرُ الرِّسَائِلَ فِي: عِزَاوِي، أَحْمَدُ، رَسَائِلُ مُوَحِدِيَّةٍ، ١٦٨، ٣٥١. بَرُوفَنْصَالُ، رَسَائِلُ مُوَحِدِيَّةٍ، ٢٢٨. ابْنُ الْمُرَابِطِ، زَوَاهِرُ الْفِكْرِ، ٥٨.

^{٦٩٣}بَرُوفَنْصَالُ، رَسَائِلُ مُوَحِدِيَّةٍ، ٢٣٦.

^{٦٩٤}الْمَقْرِي، نَفْحُ الطَّيْبِ، ٤: ٤٩٣.

بأجل المدائن شأنا، وأوثقها بُنيانا، وأبعدّها صَيِّتاً ومَكَاناً، حتّى أبادَ خَضَراءَهُم، وجعلهم شرّاً خَلَفٍ فيمَن وراءَهُم" ٦٩٥.

إنَّ الألوانَ التي وَرَدَتْ في التَّصوُّصِ السَّابِقَةِ تَحْمِلُ دَلَالَاتٍ مُخْتَلِفَةً، فالأَزْرَقُ والأَصْفَرُ والأَشْقَرُ تَدُلُّ على الأوروبيين الذين كَانُوا فِي قِتَالٍ مُسْتَمِرٍّ مَعَ المسلمين في الأَنْدَلُس، وهؤلاءِ عِيُونُهُمْ زَرْقَاءُ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَنْفَرُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ٦٩٦، وَقَدْ قِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ "الْعَرَبَ تَتَشَاءَمُ بِزُرْقِ الْعُيُونِ وَتَذُمُّهُ، أَيْ تُشَوِّهَ خَلْقَتَهُمْ لَزُرْقَةِ عُيُونِهِمْ وَسَوَادِ وَجُوهِهِمْ" ٦٩٧، أَمَّا الْأَصْفَرُ وَالْأَشْقَرُ فَاللونانِ الْعَالِبَانِ عَلَى بَشَرَةِ الْأُورُوبِيِّينَ الَّذِينَ "سُمُّوا بَنِي الْأَصْفَرِ لِشَقَرَتِهِمْ لِأَنَّ الشُّقْرَةَ إِذَا أُفْرِطَتْ صَارَتْ صُفْرَةً صَافِيَةً" ٦٩٨. بَيْنَمَا تَدُلُّ الْخَضِرَاءُ عَلَى الْكَتِيْبَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ الْجَيْشِ حَيْثُ "يُقَالُ: كَتِيْبَةُ خَضِرَاءٍ إِذَا غَلَبَ عَلَيْهَا لِبَسُ الْحَدِيدِ، شُبِّهَ سَوَادُهُ بِالْخَضِرَةِ، وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ الْخَضِرَةَ عَلَى السَّوَادِ" ٦٩٩.

وَمِنَ التَّمَطِّ الْبَصَرِيِّ لِلصُّورَةِ رَسْمُ الْمَشْهَدِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ عِيَّاشٍ عَنِ الْأَمِيرَيْنِ يُوسُفَ وَأَبِي حَفْصِ ابْنِي الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مُعْلِنِينَ انتصارَهُمَا عَلَى الْخَارِجِينَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ "وَحِينَ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَسَقَطَ الْعُذْرُ عَنْهُمْ اسْتَحْرَنَّا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى قَصْدِ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِوَدَكِهِ، لِاحْتِلَالِ مَنْ كَانَ احْتِلَّهُ مِنْ غِمَارَةٍ، وَسِرْنَا إِلَيْهِمْ بِالْمُوَحَّدِينَ - أَعْزَمَهُمُ اللَّهُ - مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَاقْتَحَمُوهُ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَيْهِمْ، فَأَشْرَبَ الْمُرْتَدُونَ ارْتِيَاعاً، وَتَفَرَّقُوا فِي تِلْكَ الْأَوْعَارِ شِعَاعاً، إِلَى أَنْ اسْتَوْلَى

٦٩٥ القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٩٦.

٦٩٦ طه، آية ١٠٢.

٦٩٧ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام البخاري (الرياض: دار عالم الكتب، ١٣٢٣هـ)، ١١: ٢٤٤.

٦٩٨ ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦هـ)، معجم البلدان (بيروت: دار الفكر، ٣، ١٤٠٠هـ)، ٣: ٩٨.

٦٩٩ ابن منظور، لسان العرب، مادة خضر.

الموحدون - أعزهم الله - بأعلى شواهقه، وأعظم منعاته، وأعلنوا هنالك بالتوحيد، وأظهروا بإعلاء كلمة الحق، وأقبلوا على جمع الأنفال، وضمّ الغنائم والأموال^{٧٠٠}.
ومنه ما كتبه ابن الأبار باكياً المدن الأندلسية التي طُفقت تسقط بيد التّصارى واحدة تلو الأخرى "أين حلى رصافتها، ومنزل عطائها ونصرها؟ أين أفيائها نندي غصارة؟ أين جداولها الطّفاحة وخمائلها؟ أين جنائبها التّفاحة وشمائلها؟.. والهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها، وحيان وقلاعها، وقرطبة ونواديها، وحمص وواديها، كلها رعي كلؤها، وذهي بالتفريق والتمزيق ملؤها، عض الحصار أكثرها، وطمس الكفر عينها وأثرها"^{٧٠١}.

في النصين السابقين رسم الكاتبان مشهدين، المشهد الأول يرى فيه القارئ جيش الموحدين المتأهب للقتال، واقتحام جبل وذكه، وفرار أبناء قبيلة غمارة، وإعلان التّصر، وقيام الجنود بجمع الغنائم والأموال التي خلفها الفارّون وراءهم، أمّا المشهد الآخر فيرى القارئ فيه المدن الزّاهرة باشجارها وحدائقها وأفيائها وجداولها، ثم يرى استبداد الكفر بها وما تبعه من حصار وتخريب وفرقة، وما يُصاحب المشهدين من حركات وهيئات.

النمط السمعي

"الأصوات تُثير في النفس أحاسيس وانفعالات خاصة، وتولد استجابات مُعينة"^{٧٠٢}، وحضور الصوت في الصورة الفنّية يُوقظ إحساس المتلقّي ويقود فكره إلى دلالات مختلفة، وقد وجدت الصورة السمعية في نصوص الرسائل الأندلسية، إذ نسمع في ثناياها الصوت الإنساني، ومن ذلك ما ورد في رسالة أرسلها والي مرسية محمد بن الخليفة يوسف إلى أهل ولايته وجاء فيها "رحلنا عن تِلْكُمْ الحِلّة بما صَحَبْنَا مِنَ الكُماة، ومَشايرِ الحُماة، وذكرُ الله تعالى شِعارُ السِنْتَا، واستشعارُ خوفه جَلَّ جلاله مُنْفَرِّ سِنْتَنَا، ولم نَزَلْ نُنْطِي الرّواحِل، ونَطْوي المَراحِل، ونَسْتَعِينُ الله تعالى ونَسْتَرْفُدُهُ، ونَسْتَهْدِيهِ ونَسْتَرْشُدُهُ، ونَسْأَلُهُ أَنْ يَعْزَّ

^{٧٠٠}عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٠١.

^{٧٠١}المقري، نفع الطيب، ٤: ٤٩٨.

^{٧٠٢}الشّلي، محمود محمد، الصورة الفنية في شعر المتنبي، ٢٥٢.

كلمته العالية، وأن يجعل طائفته الغالبة الباقية، وأن يحل بالكافرين نعمته، ويهب لطائفة التوحيد عصمته^{٧٠٣}.

ومن ذلك ما جاء في رسالة والي إشبيلية التي كتبها عنه أبو القاسم البلوي حيث قال شاكياً فساد قبيلة كومية "فهم يتبحرون في عدوانهم، بغاية وسعهم وجهد إمكانهم، وقد ضجت الرعية ضجيجاً، وعجت بالشكوى عجيحاً، ورفعت أصواتها بالاستغاثة والاسترحام، ونادت حضرة العدل التي هي نصرة المظلومين وملجأ المقهورين الملهوفين من الأنام"^{٧٠٤}.

ومن ذلك أيضاً ما كتبه ابن عُميرة واصفاً حال الأندلسيين الذين هجروا من بلادهم بعدما استبد بها النصاري "فتفرقوا أيدي سباً، وانتشروا ملء الوهاد والرُّبى، ففي كل جانب عويل وزفرة، وبكل صدر غليل وحسرة"^{٧٠٥}.

في النص الأول نسمع جلبة الجنود وهم يسرون إلى المعركة وقد علت أصواتهم الجماعية بالذكر والدعاء في دلالة على إيمانهم وتحسُّسهم وثقتهم بنصر الله، أما النص الثاني فتنبعث منه أصوات الرعية وقد علا ضجيجها وعجيحها وانبعثت من حناجرها أصوات الاسترحام والاستغاثة، وفي ذلك دلالة على عظم ما أصابها من ضرر كبير وظلم عظيم، أما صوت العويل والزفرات الذي نسمعه في النص الثالث فيدل على الحزن والهلع والحسرة التي استولت على الأندلسيين وهم يغادرون ديارهم ويسرون باتجاه مصيرهم المجهول.

ونسمع خلال قراءتنا للرسائل أصواتاً أخرى، فنسمع صوت الأذان في رسالة ابن عُميرة التي بكى فيها المدن الأندلسية "وبعد ذلك أخذ من الأم بالحق، وهي بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق، وما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان، وأخرج من جسدها روح الإيمان"^{٧٠٦}.

^{٧٠٣} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٦٩. وكتب الرسالة غير معروف.

^{٧٠٤} المصدر السابق، ٣١٧.

^{٧٠٥} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٢.

^{٧٠٦} المصدر نفسه، ٤: ٤٩٣.

كما نسمع صوت العَجَّ^{٧٠٧} في رسالة ابن مُغاوِر الشَّاطِبي التي هُنَّا فيها أحدُ أصدقائه بأدائه فريضة الحجَّ "فهنيئاً لك ما أسلفت، ومغفوراً لك ما أسرفت، غَسَلْتَ صَحِيفَتَكَ بِمَاءٍ وَتَلَجَّ، وَأَرْجَحْتَ مِيزَانَكَ بِعَجٍّ وَتَجٍّ، وَلَجَحْتَ، وَمَنْ لَجَّ حَجَّ"^{٧٠٨}، والصَّوْتَانِ اللِّذَانِ وردا في الرِّسَالَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ: الأَذَانِ والعَجَّ يَدُلَّانِ عَلَى الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِفَرِيضَتِي الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ.

وإلى جانب الأصواتِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَسْمَعُ أَصْوَاتاً حَيَوَانِيَّةً وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ الْوَالِي إِشْبِيلِيَّةٍ "وَلَوْ أُرْسِلَ عَنَانَ الْكَلَامِ جُهِدَهُ وَمَدَّ اظْنَابَهُ، فَلَا سَبِيلَ لِلْعِبَارَةِ إِلَى اسْتِيفَاءِ الْمَعْبَرِ عَنْهُ مِنَ الشُّكْرِ وَلَوْ طَاوَلَتْ فِيهِ الْأَوَانُ بَعْدَ الْأَوَانِ، وَاسْتَظْهَرَتْ عَلَيْهِ بِكُلِّ بَكْرٍ مِنَ الْمَعَانِي وَكُلِّ عَوَانٍ، إِنَّمَا قَصَّارُهَا الْاعْتِرَافُ بِالْعِجْزِ عَنِ الْإِدْرَاكِ، وَالْحَنِينُ إِلَى غَايَتِهِ الْمَطْلُوبَةِ كَحَنِينِ الْهَدِيلِ عَلَى الْأَرَاكِ، فَمَتَى يُؤَدِّي الْعَبْدُ شُكْرَ هَذَا الْإِنْعَامِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَيَّ بَيَانٍ يُعْبِّرُ عَنْهُ أَوْ أَيَّ لِسَانٍ"^{٧٠٩}.

ونسمع ذلك في رِسَالَةِ الشُّقْنَدِيِّ الَّتِي نَافَحَ بِهَا عَنْ الْأَنْدَلُسِ "أَقْنِ حَيَاءَكَ أَيُّهَا الْمَغْرُودُ بِالنَّحِيبِ، الْمُتَزَيِّنُ بِالْخَلْقِ، الْمُتَحَبِّبُ إِلَى الْغَوَانِي بِالْمَشِيبِ الْخَضِيبِ، أَيْنَ عَزَبَ عَقْلُكَ؟ وَكَيْفَ نَكَّصَ عَلَى عَقْبِهِ فَهْمُكَ وَلُبُّكَ؟"^{٧١٠}.

ونسمع ذلك أيضاً فيما كتبه ابنُ عُمَيْرَةَ لِصَدِيقٍ لَهُ مُشِيداً بِبَلَاغَتِهِ "فَأَمَّا النَّثْرُ فَصَهِيلٌ لَا يُجَاوِبُهُ الرُّغَاءُ، وَطِرَارٌ لَا يُحْسِنُهُ الْبُلْعَاءُ، وَنَقْدٌ تَزَيَّفَ مَعَهُ التُّقُودُ، وَمَدَى تَنْقَطِعُ دُونَهُ الضُّمَرُ الْقُودُ"^{٧١١}.

فِي النَّصُوصِ السَّابِقَةِ نَسْمَعُ هَدِيلَ الْحَمَائِمِ الَّذِي طَالَمَا اقْتَرَنَ بِالْحَنِينِ وَالشَّجَنِ، وَنَسْمَعُ تَغْرِيدَ الطُّيُورِ، وَلَكِنَّهُ هُنَا لَيْسَ بِذَاكَ الصَّوْتِ الْمُسْتَعْدَبِ الْحَبِّ إِلَى النَّفْسِ، فَقَدْ أَرَادَ الْكَاتِبُ أَنْ يَسْخَرَ مِمَّنْ يُخَاطِبُهُ، فَقَصَائِدُهُ الَّتِي يَحْسِبُهَا مُسْتَعْدَبَةً كَتَغْرِيدِ الطُّيُورِ لَا

^{٧٠٧}العَجَّ: رفع الصوت بالتلبية. ابن منظور، لسان العرب، مادة عجاج.

^{٧٠٨}ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٢١.

^{٧٠٩}عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٩٣. وكتب الرسالة غير معروف.

^{٧١٠}المقري، نفح الطيب، ٣: ١٨٨.

^{٧١١}المصدر السابق، ١: ٣١٢.

يَجِدُهَا مَنْ يَتَلَقَّاها إِلَّا قَبِيحَةً كَأَصْوَاتِ النَّحِيبِ^{٧١٢}، أَمَّا صَهِيلُ الْخَيْلِ فَصُوتٌ مُسْتَعَذَّبٌ، وَشَتَّانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُغَاءِ الْإِبِلِ.

وَفِي مُتُونِ الرِّسَائِلِ نَسْمَعُ أَصْوَاتًا لِبَعْضِ الْجَمَادَاتِ وَمِنْهَا أَصْوَاتُ "النَّوَاعِرِ الْمَطْرِبَةِ الْأَلْحَانِ"^{٧١٣} الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّقْنَدِيُّ فِي مَعْرَضِ تَبَاهِيهِ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ الَّتِي كَتَبَهَا مُعَاتِبًا جُنُودَهُ عَلَى سُقُوطِ حِصْنِ أُنْدُوجَرِ "فَإِنْ كَفَاكُمْ صَرِيرُ الْأَقْلَامِ، وَإِلَّا جَفَاكُمْ صَرِيرُ^{٧١٤} الْحُسَامِ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اسْتَقَامَ"^{٧١٥}، وَدَلَالَةُ الْأَقْلَامِ وَصَرِيرُهَا هُنَا مُنَاقِضَةٌ لَدَلَالَةِ السَّيُوفِ وَصَلِيلِهَا، فَالْقَلَمُ لِلْعِتَابِ، وَالسَّيْفُ لِلْقِتَالِ.

النَّمَطُ الشَّمِّيُّ

تَتَفَوَّقُ حَاسَّةُ الشَّمِّ عَلَى حَاسَّةِ السَّمْعِ "لَأَنَّ السَّمْعَ يَتَطَلَّبُ إِحْدَاثَ صَوْتٍ مَا، وَعَلَى هَذَا يَسْتَطِيعُ الْكَائِنُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْ إِصْدَارِ أَيِّ صَوْتٍ إِذَا شَاءَ الْإِخْتِفَاءَ مَثَلًا، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ مَنَعُ الرَّائِحَةِ الَّتِي تَنْبَعُثُ مِنْهُ، فَالرَّائِحَةُ لَا تَخْضَعُ لِسَيْطَرَةِ الْكَائِنِ"^{٧١٦}، كَمَا إِنَّهَا تَخْتَلِفُ عَنْ حَاسَّةِ الْبَصَرِ الَّتِي "تَعْتَمِدُ عَلَى الضَّوِّ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ حَاسَّةَ الشَّمِّ تَسْتَمِرُّ فِي الْعَمَلِ نَهَارًا أَوْ لَيْلًا وَفِي غِيَابِ أَيِّ ضَوْءٍ"^{٧١٧}.

يَسْتَخْدِمُ الْفَنَّاؤُ الْمَشْمُومَاتِ "لَأَنَّهَا تُثِيرُ فِي أَنْفِ خَيَالِهِ رَائِحَةً مُمَيَّزَةً"^{٧١٨} كَمَا إِنَّهَا "تُسَاهِمُ فِي بِنَاءِ الصُّورَةِ وَتَنْوِيعِ مَجَالَاتِهَا، وَلَهَا تَأْثِيرٌ عَلَى النَّفْسِ وَالْعَقْلِ مَعًا"^{٧١٩}.

^{٧١٢} ونجد مثل ذلك فيما كتبه ابن مغاور الشاطبي في وصف كلب "هر أهرت الشدقين متمر الإهاب، سريع الجيئة والذهاب، معرق عند انتساب الكلاب، هزج النباح، مانع للحريم المباح" ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٠٠. فالنباح صوت مُسْتَقْبَحٌ أَمَّا الْهَزَجُ فَهُوَ الصَّوْتُ الْمَطْرَبُ.

^{٧١٣} المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٢٢٠.

^{٧١٤} كما في الأصل ويرجح الباحث أن تكون صليل.

^{٧١٥} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٦٧.

^{٧١٦} إسماعيل، عزت سيد، علم النفس الفيزيولوجي (الكويت: وكالة المطبوعات، ط ١، ١٩٨٢م)، ٦٨٥.

^{٧١٧} المصدر السابق، ٣٣٨.

^{٧١٨} الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في شعر أبي تمام (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩م)،

١٤٧.

^{٧١٩} الشليبي، محمود محمد، الصورة الفنية في شعر المتنبي، ٢٥٣.

من نماذج استخدام المسمومات في الرسائل الأندلسية ما جاء في خاتمة رسالة صفوان بن إدريس التي فآخر بها بمدن الأندلس "ثم السلام الذي يتأنق عبقاً ونشراً، ويتألق رونقاً وبشراً، على حضرتهم العلية، ومطالع أنوارهم الجليلة، ورحمة الله وبركاته" ٧٢٠.

ومن نماذجها ما جاء في رسالة جوابية كتبها ابن عميرة لصديقه ابن الأبار وتحسّر بها على ضياع تلك المدن وقال فيها: "فأين تلك الحمائل ونضرتها، والجداول وخضرتها، والأندية وأرجها، والأودية ومنعرجها، والتواسم وهبوب مبتلها، والأصائل وشحوب معتلها" ٧٢١.

وقد استهل ابن عميرة رسالته هذه بالتعقيب على رسالة ابن الأبار بقوله: "ثم أرسلها ترجف بوادرها من خيفة، وتوغر بوغم صدر قلم وصحيفة، وتندّر من ريحانة قريش أن تمنعه عرفها، وتحدّق إليه طرفها" ٧٢٢.

وردت في النص ألفاظ لها علاقة بالرائحة الطيبة، وقد أثرت تلك الألفاظ على دلالة المعنى، فالسلام الذي يتأنق عبقاً ونشراً سى لام مستعذب مستطاب كالعبق والنشر، والأندية التي تفوح أرجاً أندية عزيزة لها ذكرى طيبة كطيب الأرج، أما العرف الذي ينبعث من ريحانة قريش فهو دال على ذكرها الحسن الذي ملأ الآفاق.

كما جاء في الرسائل ذكر لمصادر الرائحة الطيبة، فقد جاء في رسالة كتبها صفوان بن إدريس إلى صديقه ابن مرج الكحل "وأبلغها إليه تحية كالمسك صدرًا وورداً، وكالماء الزلال غدوبة وبرداً، يسري بها إلى دار نسيم، ويسفر منها بجزيرة شقر وجه وسيم" ٧٢٣.

وجاء في رسالتين كتبهما ابن الجثنان عن محمد بن هود إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ما نصّه "تحية دارينية دارية بمقدار الفخار، تجوب جيوب الأقطار، وتجدو ذلك الجنب بمثل صوب القطار" ٧٢٤.

٧٢٠ المقري، نفح الطيب، ١: ١٧٥.

٧٢١ المصدر نفسه، ٤: ٤٩٣.

٧٢٢ المصدر نفسه، ٤: ٤٩١.

٧٢٣ المقري، نفح الطيب، ٥: ٥٨.

٧٢٤ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٣٩.

وجاء في الرسالة الأخرى قوله: "واعتمدت مجلسه العليّ، وجنابه الملكيّ، تحية ملكيّة تُندى صباها، وتهدى النفحة الشحرية من ربّاه، وتجلّ لها الأريحية براحة الارتياح حبّاه"^{٧٢٥}، وختم ابن عميرة رسالة كتبها لابن هود بقوله: "والحمد ما لا صلود لزنده، ولا ركود لأرواح عراره ورنده"^{٧٢٦}.

خلال قراءتنا للتصوّص السابقة نشتم الشذا المنبعث من المسك، حيث اقترن اسمه باسم دارين^{٧٢٧}، وهي بلدة في شرق الجزيرة العربيّة مشهورة بالتجارة ولا سيما تجارة المسك الذي كان يصل إليها عن طريق البحر ومنها يتوزّع على كافّة الأرجاء، وقد أكثر من ذكرها الشعراء عند تطرّقهم للروائح الطيبة^{٧٢٨}، كما نسبوا العنبر إلى شحر وهي مدينة باليمن "ينسب إليها العنبر، فيقال: العنبر الشحري"^{٧٢٩}، أما العرار والرند^{٧٣٠}، فهما نباتان طيّبا الرائحة، كما ورد في ثنايا الرسائل مصادراً شميّة أخرى كالعبر والأزهار^{٧٣١} وغيرها.

إضافة إلى ألفاظ الرائحة ومصادرها نجد استلهاماً من قصة يوسف — عليه السلام — في رسالة كتبها ابن الجنان وأشاد فيها برسالة وصلتته من ابن عميرة حيث فاحت رسالة ابن الجنان بالطيب الذي عزز المعنى وأكسبه قوة وتأثيراً، وقد جاء في تلك الرسالة ما نصّه "ووجدت ريحها لما فصلت من مصر عيرها، وحين وصلت لم يدلني على ساريها إلا عيرها، فأقبلت على شم نشرها وعرفها، ولثم سطرها وحرفها، وقريتها الشناء الحافل، وقرأتها فزّينت بها الحافل، ورمت أمر الجواب، وعزّيتني في الخطاب"^{٧٣٢}.

^{٧٢٥}المصدر السابق، ٤٤٢.

^{٧٢٦}المصدر نفسه، ١٧٠.

^{٧٢٧}ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ٢: ٤٣٢.

^{٧٢٨}ومن ذلك قول ابن حمديس الصقلي: فما فاز بالمسك إلا فتى تيمم دارين أو دارها

ابن حمديس، أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧هـ)، ديوانه، تحقيق، إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠م)، ٨٦.

^{٧٢٩}ياقوت، معجم البلدان، ٣: ٣٢٧.

^{٧٣٠}العرار: بهار النهار وهو نبت طيب الرائحة. الرند: الآس وقيل: هو العود الذي يُبخّر به. ابن منظور، لسان العرب، مادة عرر ومادة رند.

^{٧٣١}ينظر: المقري، نفح الطيب، ٧: ٤٢١. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٣٧.

^{٧٣٢}المقري، نفح الطيب، ٧: ٤٢١.

كانت الرائحة الطيبة هي الغالبة على المشمومات، ولكن لا تخلو الرسائل من رائحة مُعَايِرَة، فقد وردَ ذِكْرُ الظَّرْبَانِ^{٧٣٣} الذي اقترنَ ذِكْرُهُ بِالرَّائِحَةِ الْمُنْتِنَةِ، وقد جاءَ ذِكْرُهُ دَالًّا عَلَى التَّشْتِ وَتَفَرُّقِ الشَّمْلِ.

النَّمَطُ الذَّوْقِيّ

حَاسَّةُ الذَّوْقِ تُمَيِّزُ الطُّعُومَ الْحُلُوءَةَ وَالْمَرَّةَ وَالْحَامِضَةَ وَالْمَالِحَةَ وَكَذَلِكَ الطُّعُومَ الْمَمْتَرِجَةَ، وَقَدْ قَدِّمَتْ حَاسَّةُ الشَّمِّ عَلَى حَاسَّةِ الذَّوْقِ "وَالطَّعْمُ تَبَعٌ لِلرَّائِحَةِ، خَبِيثُهَا لَخْبِيثُهَا، وَطَيِّبُهَا لَطِيْبُهَا"^{٧٣٤}.

إِنَّ "الصُّورَةَ الذَّوْقِيَّةَ لَهَا سِحْرُهَا عِنْدَ الْمُتَلَقِّي وَلَا تَقِلُّ قِيَمَةُ عَنِ الْبَصَرِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ"^{٧٣٥}، وَكَانَ لِهَذِهِ الصُّورَةُ حُضُورٌ فِي الرِّسَالَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَإِنْ كَانَ أَقْلٌ مِنْ حُضُورِ الْأَنْمَاطِ الْحَسِّيَّةِ الْآخَرَى سَابِقَةَ الذِّكْرِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْحُضُورِ مَا خَاطَبَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْخَلِيفَةِ يُوسُفَ وَالِي مَرْسِيَةِ أَهْلِ وَلَايَتِهِ حَيْثُ جَاءَ فِي مُسْتَهْلِّ رِسَالَتِهِ "إِلَى الطَّلْبَةِ وَالشُّيُوخِ وَالْأَعْيَانِ وَالْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ مَرْسِيَةِ وَجْهَاتِهَا، أَطْلَعَ اللَّهُعْلِيَهُمْ كَوَاكِبَ الْفَتْحِ نِيرَةَ الْإِشْرَاقِ، وَأَجْنَاهُمْ ثَمَرَ الْبَشَائِرِ الْمَعْسُولَةِ حُلُوَ الْمَذَاقِ، وَحَزَّ أَعْطَافَهُمْ سُرُورًا مِنْ اهْتِزَازِ السُّمْرِ وَالْبَيْضِ الرَّقَاقِ"^{٧٣٦}.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا خَطَّهُ ابْنُ عُمَيْرَةَ فِي رِسَالَةٍ خَاطَبَ بِهَا ابْنَ الْأَبَّارِ "وَأَعُوذُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ الْأَخُ الَّذِي أَبْثَغَ شَوْقِي، وَأَتَطَعَّمُ حَلَاوَةَ عِشْرَتِهِ بَاقِيَةً فِي حَاسَّةِ ذَوْقِي، طَارِحِي حَدِيثَ مَوْرِدٍ جَفٍّ، وَقَطِّينٍ خَفٍّ"^{٧٣٧}.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا كَتَبَهُ ابْنُ الْجَنَّانِ إِلَى الْأَمِيرِ الْحَفْصِيِّ أَبِي زَكَرِيَاءَ يَجِيئُ الَّذِي "فَاضَ بَحْرُ مَعْرُوفِهِ عَلَى الْبَحْرِ الْعُجَاجِ، فَاضَ بِفَضِيلَةِ الْعَذْبِ الْفُرَاتِ عَلَى الْمَلْحِ الْأُجَاجِ، فَأَجْزَلَ

^{٧٣٣} مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٠.

^{٧٣٤} الجاحظ، الحيوان، ٤: ٤٤.

^{٧٣٥} الشُّلْبِي، محمود محمد، الصورة الفنية في شعر المتنبي، ٢٥٧.

^{٧٣٦} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٦٨.

^{٧٣٧} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٢.

بمواهبِ اهتمامِهِ التي أبدأها، وأَجْمَلَ بمذاهبِ اهتمامِهِ التي أبدأها، لَقَدْ عَمَّ رِفْدُهَا، وَأَمَّ بِمَا أَمَّلَ الإسلامُ وَفَدُّهَا، وَوَصَلَ الجَنَاحَ وَاصِلُهَا، وَأَوْصَلَ التَّجَاحَ مُبْتَغَاها وَحَاصِلُهَا"٧٣٨.

تَسْتَمِدُّ الصُّورَةُ فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ طَابَعَهَا مِنْ أَلْفَاظٍ مُسْتَعَارَةٍ مِنَ الْحِسِّ الذَّوْقِيِّ، وَتَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ دَلَالَةً حِسِّيَّةً تُوضِّحُ الْمَعْنَى، وَتُضْفِي عَلَيْهِ جَمَالِيَّةً وَتَوْضِيحًا، فَالْبَشَائِرُ فِي النَّصِّ الْأَوَّلِ تَهْوَاهَا النَّفْسُ كَمَا تَهْوَى الْحَلَاوَةُ، وَكَذَلِكَ الْعِشْرَةُ فِي النَّصِّ الثَّانِي، أَمَّا النَّصُّ الثَّلَاثُ فَتَنْقُلُنَا الصُّورَةَ فِيهِ إِلَى الْمَوَازِنَةِ بَيْنَ ذَوْقَيْنِ وَمَا تَحْمِلَانِهِ مِنْ دَلَالَةٍ، فَالدَّلَالَةُ الْإِيجَابِيَّةُ تَتِمَثَلُ فِي الْعَذَابِ الْفُرَاتِ، أَمَّا الدَّلَالَةُ الْأُخْرَى فَتَتِمَثَلُ فِي الْمَلَحِ الْأَجَاجِ.

كَانَتِ الطَّعُومُ الْحَاضِرَةُ تَنْحَصِرُ بِالْحُلُوِّ وَالْعَذْبِ وَالْمَالِحِ، أَمَّا بَقِيَّةُ الطَّعُومِ فَلَا نَجِدُ لَهَا أَثَرًا فِي مُتُونِ الرِّسَالَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الَّتِي خُطَّتْ فِي عَصْرِ الْمُوحِدِينَ.

النَّمْطُ اللَّمَسِيُّ

"الصُّورَةُ اللَّمَسِيَّةُ نَابِعَةٌ مِنَ الْإِدْرَاكِ اللَّمَسِيِّ وَالْإِحْسَاسِ بِهِ مِنْ حَيْثُ النَّوْعُ وَالِدَّرَجَةُ، كَالْحُشُونَةِ وَالنُّعُومَةِ وَالْيُونَةِ وَالصَّلَابَةِ وَالْخِفَةِ وَالثَّقَلِ وَالْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةَ وَالزُّوجَةَ وَالرُّطُوبَةَ"٧٣٩، وَكَانَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ حَاضِرَةً فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ فِي الرِّسَالَةِ وَمِنْهَا مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ مَحْشَرَةَ عَنِ الْخَلِيفَةِ الْمَنْصُورِ وَقَالَ فِيهَا: "كَانَتْ سَرَايَا الْمُوحِدِينَ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ - تَخْرُجُ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَتَحِلُّ بِهَمِّ الْقَوَارِعِ وَالْفَوَاقِرِ إِصْغَارًا لَهُمْ وَإِذْلَالًا، وَالْكَفَرَةَ مُنَحْجِزُونَ فِي حُصُونِهِمُ الْأَشْيِيَّةِ، وَمَعَاقِلُهُمُ الْمُسْتَصْعَبَةِ، يَحْنُونُ ضُلُوعَهُمْ عَلَى جَحِيمِ الْحَسْرَةِ الْمُضْطَرِّمَةِ الْمُلْتَهَبَةِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ دِفَاعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَبًّا عَمَّا نَزَلَ بِهِمْ وَلَا قِرَاعًا"٧٤٠.

وَجَاءَ فِي رِسَالَةِ صُفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسَ عَلَى الَّتِي كَتَبَهَا مَفَاخِرًا عَلَى لِسَانِ مُرْسِيَةٍ "فَانْقَادُوا لِأَمْرِي، وَحَازِرُوا اصْطِلَاءَ جَمْرِي، وَخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَيِّدِنَا أَبِي زَيْدٍ"٧٤١.

٧٣٨ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٦٠.

٧٣٩ عبد الرحمن، نصرت، في النقد الأدبي الحديث، ٦٧.

٧٤٠ بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٢٥.

٧٤١ المقرئ، نفح الطيب، ١: ١٧٤.

نلمسَ في النَّصِينِ السَّابِقِينَ الحرارةَ والسُّخُونَةَ، ففي النَّصِّ الْأَوَّلِ نلمسهما في الجَحِيمِ والاضْطِرَامِ والالْتِهَابِ، وفي الثَّانِي في الاصْطِلَاءِ، ودلالةُ الحرارةِ في النَّصِينِ مُتَشَابِهَةٌ، إذْ تَدُلُّ عَلَى الْأَلَمِ والتَّوَجُّعِ، فَتَحَسَّرُ الْقُلُوبُ مُؤَلِّمٌ وَشَاقٌّ، وكذلك الْعِقَابُ الَّذِي تُهَدِّدُ بِهِ مُرْسِيَةٌ مَنْ لَمْ يَنْقُدْ لَأَمْرِهَا، وهذا الْأَلَمُ لَا يَقِلُّ مَشَقَّةً عَنِ الْاِكْتَوَاءِ بِالنَّارِ أَوْ الْاِصْطِلَاءِ بِالْجَمْرِ.

وَمُقَابِلَ الْإِحْسَاسِ بِالْحَرَارَةِ نَجِدُ إِحْسَاسًا فِي الْبُرُودَةِ فِي نُصُوصٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا قَوْلُ صَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسٍ عَلَى لِسَانِ غِرْنَاطَةٍ: "لِي بِطَاحٍ تَقْلُدْتُ مِنْ جَدَاوِلِهَا أَسْلَاكًا، وَأُطْلَعْتُ كَوَاكِبَ زَهْرِهَا فَعَادَتْ أَفْلَاكًا، وَمِيَاهُ تَسِيلُ عَلَى أَعْطَافِي كَأَدَمَعَ الْعُشَّاقِ، وَبَرْدُ نَسِيمٍ يَرُدُّ ذِمَاءَ الْمُسْتَجِيرِ بِالْاِنْتِشَاقِ" ٧٤٢.

ومنها أَيْضًا مَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا ابْنُ عُمَيْرَةَ لَصَدِيقٍ لَهُ "وَأَشْرَتْ أَثْمُهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ إِلَى اسْتِرَاحَةٍ إِلَيَّ، وَتَنَسَّمُ بِمَا لَدَيَّ، لِتُبْرِدَ - كَمَا زَعَمْتَ - حَرَّ نَفْسٍ، وَتَقْدَحَ زَنَادَ قَبَسٍ، وَهِيَهَاتَ صَلْدُ الزَّنْدِ، وَذَوِيُّ الْعَرَارِ وَالرَّنْدِ، وَأَقْشَعُ الشُّؤْبُوبِ، وَرَكَدَ مَا كَانَ يَظُنُّ بِهِ الْهُبُوبُ" ٧٤٣.

نَشْعُرُ فِي هَذَيْنِ النَّصِينِ بِالْبَرْدِ الْمُسْتَعْدَبِ الَّذِي يَتَنَاقَضُ فِي مَعْنَاهُ وَدَلَالَتِهِ مَعَ الْحَرَارَةِ الْكَأَوِيَّةِ، وَقَدْ ارْتَبَطَتْ دَلَالَةُ الْبَرْدِ بِالْارْتِيَاكِ وَالْاِطْمِنَانِ ٧٤٤، فَالْنَّسِيمُ الْبَارِدُ يَرُدُّ الذِّمَاءَ، وَتَبْرِيدُ حَرِّ النَّفْسِ يَدُلُّ عَلَى الْارْتِيَاكِ وَالسَّكِينَةِ.

وَالْمَلَمَسُ النَّاعِمُ يُقَابِلُ الْمَلَمَسَ الْحَشِينَ فِي مَعْنَاهُ وَدَلَالَتِهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا ابْنُ مُغَاوِرِ الشَّاطِطِيِّ لِأَحَدِ أَصْدِقَائِهِ وَاسْتَهْدَاهُ عَمَامَةً تَكُونُ "أَعْلَى مِنْ جِنْسِ الدَّمَقَسِ، وَأَلَيْنَ مِنْ حُلَّةِ أَكِيدِرٍ" ٧٤٥ فِي الْمَلَمَسِ، وَأَحْسَنَ مِنْ مَنَظَرِ الْعَشِيقِ، وَأَرْقَ مِنْ دِينَ ابْنِ رَشِيقٍ" ٧٤٦.

٧٤٢ المصدر السابق، ١: ١٧٢.

٧٤٣ المصدر السابق، ١: ٣٠٨.

٧٤٤ ومن ذلك ما جاء في التنزيل العزيز: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) الأنبياء: ٦٩.

٧٤٥ الحُلَّةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى أَكِيدِرِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْكَنْدِيِّ صَاحِبِ دُومَةِ الْجَنْدَلِ الَّذِي أَسْرَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَقَدْ تَعَجَّبَ الصَّحَابَةُ مِنْهَا فَقَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا). ينظر:

كَمَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ مَدَحٍ لِلْفَازَازِيِّ مَا نَصَّهُ "غَذَّتْهُ الْمَمْلَكَةُ بِلْبَانِهَا، وَأَطْلَعَتْهُ السِّيَادَةُ فِي أَرْكَانِهَا، فَكَسَاهُ مَعَاطِفَ رِيْمِيَّةٍ رُومِيَّةٍ، تَسْتَخْشِنُ الْخَزْرَاءَ حِينَ تَلْمُسُهُ وَتَسْتَهْجِنُ الْقَزْرَاءَ وَهِيَ تَلْبِسُهُ"^{٧٤٧}.

كَانَ الْمَلْمَسُ النَّاعِمُ دَالًّا عَلَى الْمَعْنَى الْإِيجَابِيَّةِ، بَيْنَمَا دَلَّ الْمَلْمَسُ الْخَشِينُ عَلَى الْمَعْنَى الْمُنَاقِضِ، فَعَمَامَةُ ابْنِ مَغَاوِرٍ نَاعِمَةٌ كُنُوعُومَةٍ حُلَّةُ الْأُكَيْدَرِ وَهِيَ صِفَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ، أَمَّا الْمَاسْتِخْشَانُ فَهُوَ صِفَةٌ لَيْسَتْ مَرغُوبَةً حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ فِي الْخَزْرِ، لَقَدْ أَشَارَتْ الْحَرَارَةُ وَالْخُشُونَةُ إِلَى مَعْنَى مُغَايِرٍ لِلْمَعْنَى الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْبُرُودَةُ وَالنُّعُومَةُ.

الخلبي، أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي (٩٧٥ - ١٠٤٤هـ)، إنسان العيون في سيرة النبي المأمون المعروفة بالسيرة الحلبيّة (القاهرة: المطبعة الأزهرية، ١٩٣٥م)، ٣: ٢٢٥ - ٢٢٦.

^{٧٤٦} ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٤٩.

^{٧٤٧} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠٠.

الباب الخامس

التشكيلات البيانية والبديعية في الرسائل الأندلسية

ويتكون من:

الفصل الأول: التشكيلات البيانية في الرسائل الأندلسية

الفصل الثاني: التشكيلات البديعية في الرسائل الأندلسية

الفصل الأول

التشكيلات البيانية في الرسائل الأندلسية

إذا صَرَفْنَا الانتباهَ عن المعاني اللغوية المختلفة للجذر (يَبِّنُ)^{٧٤٨}، وأنعمنا النظر في المعنى اللغوي لكلمة البيان فإننا نجد لها معاني مُتشابهة منها: الظهور والوضوح والإفصاح مع ذكاء "وما تَبَيَّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها"^{٧٤٩}، وقد وردت كلمة البيان بمعناها اللغوي في قول الله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ مَوْعِظَةٌ وَهُدًى لِّلنَّاسِ بِمَا هَدَاهُمُ﴾^{٧٥٠}.

تشكل المعنى الاصطلاحي بعدما أضحى البيان أحد علوم البلاغة وهو "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي"، وهو اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحته عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"^{٧٥١}، وهو أيضاً "علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"^{٧٥٢}.

إنَّ البلاغيين الذين اتَّجهوا إلى جعل البيان علماً من علوم البلاغة^{٧٥٣} "كانوا آخر من ظهر على مسرح الدراسات البيانية، كما أن تصنيفهم ذاك لعلوم البلاغة لم يتقرر بصورة نهائية إلَّا في مرحلة متأخرة وبكيفية خاصة مع السكّاكي، أمَّا قبل ذلك فلقد كان

^{٧٤٨} أعطى محمد عابد الجابري فكرة تركيبية عن المعاني المختلفة التي وردت في لسان العرب لهذا الجذر، وخلص إلى احتزالها في ستة معانٍ مركزية، ينظر: الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية (بيروت: مركز الوحدة العربية، ط ٥، ١٩٩٧م)، ١٦ - ١٩.

^{٧٤٩} ابن منظور، لسان العرب، مادة بين.

^{٧٥٠} آل عمران، آية ١٣٨.

^{٧٥١} الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط ٢، ١٩٣٢م)، ١: ٧٥.

^{٧٥٢} القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ٢: ٤.

^{٧٥٣} ينظر: السكّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكّاكي (٥٥٥ - ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م)، ١٨٢.

مصطلحُ البيانِ يَشمَلُ كافَّةَ الأساليبِ والوسائلِ التي تُساهمُ ليسَ فقط في تكوينِ ظاهرةِ البلاغةِ، بل أيضاً في كلِّ ما به يتحقَّقُ التَّبليغُ، تبليغُ المتكلِّمِ مُرادَه إلى السَّامعِ، ليسَ هذا فحسب بل إنَّ البيانَ في اصطلاحِ رُوادِ الدِّراساتِ البيانيَّةِ اسمٌ جَامِعٌ لكلِّ ما به يتحقَّقُ عمليةُ الإفهامِ والتَّبليغِ، بل أيضاً لكلِّ ما به تتمُّ عمليةُ الفَهمِ والتَّلقي وبكيفيةٍ عامَّةٍ التَّبيِّنِ "٧٥٤".

تَحفلُ الرِّسائلُ الأندلسيَّةُ بالصُّورِ البيانيَّةِ الكثيرةِ التي تَتوزَّعُ في أقسامِ البيانِ المختلفةِ، وموضوعُ عِلْمِ البيانِ "هو الفَصَاحَةُ والبَلاغةُ، وصاحبُه يسألُ عن أحوالهما اللَّفْظيَّةِ والمعنويَّةِ، وهو والتَّحويّ يشتركان في أنَّ التَّحويّ يَنظُرُ في دَلالةِ الألفاظِ على المعاني من الوضعِ اللغويِّ وتلكَ دَلالةٌ عامَّةٌ، وصاحبُ عِلْمِ البيانِ يَنظُرُ في فَضيلةِ تلكَ الدَّلالةِ وهي دَلالةٌ خاصَّةٌ، والمرادُ بها أن يكونَ على هيئَةٍ مَخْصُوصَةٍ من الحُسْنِ، وذلكَ أمرٌ وراءَ الإعرابِ والنَّحو، ألا تَرى أنَّ النَّحويَّ يَفْهَمُ معنَى الكلامِ المنظومِ والمنثورِ، ويعلمُ مواقعَ إعرابه، ومع ذلكَ فَإِنَّه لا يَفْهَمُ ما فيه من الحُسْنِ والبَلاغةِ" ٧٥٥.

وقد اصطلَحَ أربابُ البلاغةِ على أنَّ للبيانِ أقساماً أشهرها أربعةٌ هي التَّشبيهُ والاستِعارَةُ والكِنَايةُ والمجازُ، وقد حَضَرَتْ هذه الأقسامُ جميعُها في الرِّسائلِ الأندلسيَّةِ التي كُتِبَتْ في عَصْرِ الموحِّدين، وَيَجْدُرُ بنا الحديثُ عن كلِّ قِسمٍ على حِدَةٍ.

أولاً: التَّشبيه

عرَّفَ البَلَاغِيُّونَ التَّشبيهَ تعريفاتٍ عديدةً ٧٥٦، وكانت تعريفاتهم مُختلفةً في ألفاظِها، مُتقاربةً في معانيها، حيثُ تَقَارَبَتْ جميعُها من القولِ الذي يُعرَّفُ التَّشبيهُ بِأنَّه "صِفَةُ الشَّيْءِ بما قارَبَه وشاكَلَه من جِهَةٍ واحدةٍ أو جِهاتٍ كثيرةٍ لا مِن جَميعِ جِهاتِهِ" ٧٥٧.

٧٥٤ الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ١٣.

٧٥٥ ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري (٥٥٨ - ٦٣٨ هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدرى طبانه (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٩ م)، ١: ٥.

٧٥٦ ينظر: تعريف التَّشبيه في: العسكري، الصناعتين، ٢٣٩. الجرجاني، أسرار البلاغة، ٧٥.

٧٥٧ ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (٣٩٠ - ٤٥٦ هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٥ م)، ٢: ٢٥٦.

وبناءً على التعريفات العديدة يكون التشبيه علاقةً مُقارنةً بين طرفين، يشتركان في صفةٍ أو حالةٍ أو حكمٍ أو مُقتضى ذهنيٍّ، ونرى بعضَ البلاغيين يُفرِّقون بين التشبيه والتَّمثيل^{٧٥٨} فيما نرى آخريْن لا يُفرِّقون بينهما ويجعلونهما اسمين لنفس المسمى^{٧٥٩}، وللتشبيه "ضروبٌ مُتَشعِّبةٌ، وهو والاستعارة يُخرجانِ الأغمضَ إلى الأوضح، ويُقرِّبان البعيد"^{٧٦٠}.

تُكثِّرُ التشبيهاتُ في الأعمال الأدبية الشعرية والنثرية، حيث يلجأ الأدباء إلى التشبيه "لما له من قيمةٍ فنيةٍ، وما يتيح لهم من التصرف في القول، فاعتنوا به، ونوعوا في استعمالهم له، وجعلوه أداةً يُعبِّرون بها عن خَلجاتِ نفوسِهِمْ ومَشاعِرِهِمْ، كما صوِّروا به الأفكار، وأخرجوها به عن تجريدِها"^{٧٦١}.

وينسحبُ هذا التعليل على الكتاب الأندلسيين الذين أنشأوا الرسائل في عصرِ الموحِّدين، حيث نجدُ في تلك الرسائل أمثلةً كثيرةً للتشبيه، ولعلَّ الحديثَ عن الظواهر التي تسترعي الانتباه في التشبيهات الواردة في الرسائل يكون أولى من استعراضها وبيان أنواعها وأركانها.

من الأمور التي تُلَفِتُ الانتباه في تشبيهات الرسائل الأندلسية أنَّ النصبَ الأكبر كانَ للتشبيه المفرد، وهذا التشبيه يتكوَّن من أطرافٍ أربعة، المشبَّه والمشبَّه به وهما ركنان رئيسان لا يُستغنى عنهما، أمَّا أداة التشبيه ووجه الشبَّه فهما طرفان ثانويان يُمكن الاستغناء عن كليهما أو أحدهما، وهما اللذان يُحدِّدان نوعَ هذا التشبيه^{٧٦٢}، ومن أمثلته رسالةُ كُتِبَها الفَازَازي وقالَ فيها في مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عن غَوَاصٍ يَسْتَخْرِجُ اللُّؤلُؤَ مِنَ الْبَحْرِ

^{٧٥٨} ينظر: العسكري، الصناعتين، ٢٤٤. الجرجاني، أسرار البلاغة، ٧٥.

^{٧٥٩} ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ١: ٣٧٣.

^{٧٦٠} ابن حجة الحموي، أبو بكر تقي الدين علي بن عبد الله الحموي (ت ٨٣٧هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيثو (بيروت: مكتبة الهلال، ط ١، ١٩٨٧م)، ١: ٣٨٣.

^{٧٦١} الغنيم، إبراهيم بن عبد الرحمن، الصورة الفنية بالشعر العربي مثال ونقد (الرياض: الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٦هـ)، ١٣٢.

^{٧٦٢} ينظر أنواع التشبيه في: السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ)، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، تعليق: أحمد الدمنهوري (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت)، ٧٨-٨٨. الجارم، علي، وأمين، مصطفى، البلاغة الواضحة (مصر: دار المعارف، د.ت)، ٢٤-٥١.

"وَيَطْلُبُ الْأَنْفَسَ فَيَلِجُ فِي الطَّلَبِ، إِلَى أَنْ خَلَصَ اللَّوْلُوَ وَالذَّرَّ، وَاسْتَخْلَصَ الْمَتَاعَ الْحَرَّ، فَمِنْ يَاقُوتٍ كَحَلَمَاتِ النَّهْودِ، وَجَوْهَرٍ كَالثَّغْرِ الْبَرُودِ، وَزُمُرَدٍ وَعَقِيقٍ حَكِيَا الْأَصْدَاغِ عَلَى الْخُدُودِ، إِلَى بَلُورٍ كَالْأَجْيَادِ وَالْجِبَاهِ، وَمَرْجَانٍ كَاللَّثَاتِ وَالشَّفَاهِ، فَتَظَمَ عَنْهُ عُقُودًا وَسَلُوكًا، وَأَمَّ بِهَا رُؤُسَاءَ وَمُلُوكًا، فَبَاعَهَا بَيْنَ الْمَعَالِي بِالثَّمَنِ الْعَالِي، فَعَوَّضَتْ مِنْ بَطُونِ الْبُحُورِ بِنُحُورِ الْحُورِ، وَنُقِلَتْ مِنَ الصَّدَفِ الْمَقْصُورِ إِلَى ضِيَاءِ الْقُصُورِ"^{٧٦٣}.

في التشبيهات الواردة في النص نجد طريفي التشبيه الرئيسين، إضافةً إلى أداة التشبيه التي كانت الكاف في أربعة تشبيهات، والفعل حكى في تشبيه واحد، أما وجه الشبه فلم يُصرَّح به وإنما فهم من سياق المعنى، والتشبيه المفرد الذي تذكَّر فيه الأداة ولا يُذكر وجه الشبه يُسمَّى تشبيهاً مُرسلاً مُجملاً، وكان هذا النوع من أكثر التشبيهات المفردة حضوراً في الرسائل.

وقد يُستغنى عن أداة التشبيه ووجه الشبه، ويبقى الركنان الرئيسان، وفي هذه الحالة يُسمَّى تشبيهاً مؤكداً مُجملاً أو تشبيهاً بليغاً، وقد كان حضور هذا التشبيه مُضاهياً لحُضور سابقه، ومن أمثله ما كتبه ابن عُميرة "من جملة كِتَابٍ لبعض ذوي الألباب"^{٧٦٤}، وجاء في ذلك الكتاب ما نصّه "نُحْصُ الْجِهَةَ الْبَعِيدَةَ الصَّيْتُ وَالاسْمَ، الشَّهِيرَةَ الْعَمَلَ وَالْعِلْمَ، دُرَّةَ تَاجِنَا، وَضَوْءَ سِرَاجِنَا، وَنُكْتَةَ احْتِجَاجِنَا، أَبْقَاهَا اللَّهُ فِي أَعَيْنَا مَنَاراً، وَلَآ نَدْلُسْنَا فَخَّاراً، عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ بَقِيَتْ الْمَفَاحِرُ، فَقَدْ أَوْدَى الْمَفَاحِرُ، وَإِنْ أَضَاءَ الطَّالِعُ، فَقَدْ دَجَتْ الْمَطَالِعُ"^{٧٦٥}.

ولا يخفى في هذا المثال أنَّ المشبه والمشبه به موجودان، فالمشبه كان الجهة التي أُرسل إليها الكتاب والمقدرة بضمير الغائب (هي)، والمشبه به دُرَّةُ التَّاجِ، وضوءُ السَّراجِ، ونُكْتَةُ الاحتجاجِ، أمَّا أداة التشبيه ووجه الشبه فلم يُصرَّح بهما.

وكان وجود النوعين الأخيرين من التشبيه المفرد قليلاً، ونقصُدهما التشبيه المرسل المفصل أو التشبيه المفرد التام وفيه يُصرَّح بأداة التشبيه وبوجه الشبه، والتشبيه المؤكد

^{٧٦٣}الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠٢.

^{٧٦٤}المقري، نفح الطيب، ١: ٣١٠.

^{٧٦٥}المصدر السابق، ١: ٣١٠.

المفصل الذي يُصرّح فيه بوجه الشبه ولا تُذكر أدائه، ومن أمثلة التشبيهين المذكورين رسالتان خطّهما ابن عُميرة، الأولى مدَحَ بها أحدَ أمراءِ الأندلس وجاءَ فيها "سَمَا إلى العلياء فنالها، وبلغت نفسهُ الشَّريفة كمالها، وسعت في ذاتِ الله سبحانه فقبلَ أعمالها، والله مجده فما أعزَّ نفساً وعمارة، وأفضلَ رأياً وإدارة، سَمَاحَةً كَالْعَارِضِ الْهَاطِلِ، وَسَجَاحَةً كَالشَّبَابِ الْمُقْتَبِلِ"^{٧٦٦}.

أما الرسالة الأخرى فوصفَ بها حاله بعدما تقدّم به العُمُر، وجاءَ في تلكَ الرسالة ما نصّه "فَالْقَلَمُ دَفِينٌ لَا يُحْشَرُ، وَمَيِّتٌ لَا يُنْشَرُ، وَالطَّبْعُ قَدْ نَكَصَ الْقَهْقَرَى، وَقَلٌّ مَنَزَلَةٌ أَنْ يُدْعَى لَهُ التَّقَرَّى، فَهِيَ هُوَ لَا يَمْلِكُ مَبِيئًا، وَلَا يَجِدُ لِقَلَمِهِ تَثْبِيئًا، وَأَنْتَ - أَبْقَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - بِمُقْتَبِلِ الْآدَابِ، طَائِرٌ مِيعَةِ الشَّبَابِ، وَأَيْنَ سِنَّ السُّمُورِ مِنْ سِنَّ الْإِنْخِطَاطِ، وَوَقْتُ الْكَسَلِ مِنْ وَقْتِ النَّشَاطِ"^{٧٦٧}.

في رسالة ابن عُميرة الأولى نجدُ تشبيهين هُما: المخاطبُ كَالْعَارِضِ الْهَاطِلِ سَمَاحَةً، وهو كَالشَّبَابِ الْمُقْتَبِلِ سَمَاحَةً، وهُنَا اكتملت أركانُ التشبيه جميعها، المشبّه في التشبيهين المخاطبُ، والمشبّه به العَارِضُ الْهَاطِلُ في الأول والشَّبَابُ الْمُقْتَبِلُ في الثاني، والكافُ هي أداة التشبيه في كليهما، أما السَّمَاحَةُ وَالسَّجَاحَةُ فَهُمَا وَجْهَا الشَّبه، وفي الرسالة الثانية وردَ تشبيهان، القَلَمُ دَفِينٌ لَا يُحْشَرُ، والقَلَمُ مَيِّتٌ لَا يُنْشَرُ، وفي كلا التشبيهين لم تُذكر أداة التشبيه، أمّا وجهُ الشَّبه الذي جَمَعَ بَيْنَ المشبّه والمشبّه به فكانَ نَفْيُ الْحَشْرِ وَنَفْيُ النُّشُورِ فِي التشبيهين الأول والثاني.

وأمرٌ آخرٌ لافتٌ لِلنَّظَرِ فِي التشبيهات الواردة في الرسائل الأندلسية وهو أَنَّ الْكَاتِبَ فِي حالاتٍ كثيرةٍ كَانَ لَا يَكْتَفِي بِتَشْبِيهِ وَاحِدٍ بَلْ يَقُومُ بِإِيرَادِ تشبيهات عديدةٍ للمعنى الواحد^{٧٦٨}، فَهَذَا الْفَازَاوِيُّ يَكْتُبُ فِي رِسَالَةِ تَعْزِيَةٍ مَا نَصَّه "لَقَدْ فُجِعْتُ لِفَقْدِهِ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ، وَشُجِيتُ مِنْ بَعْدِهِ حِيَاضُ الْبَيْضِ الرَّقَاقِ، وَمَا كَانَ إِلَّا الْعِمَامَ انْقَشَعَ وَقَدْ تَرَكَ

^{٧٦٦} مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٥.

^{٧٦٧} المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣٠٨.

^{٧٦٨} ينظر: تكرار التشبيه في الرسائل: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٤٥، ١٠٢، ١٣٦، ١٧٧، ١٧٨. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٦٠، ١٦٨، ٤٣٩. المقرئ، نفح الطيب، ١: ١٧٢، ٣١٠. بروفصال، رسائل موحدية، ٢٣٦. عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ١٣١، ١٨٠. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٥.

البسيطة مُمرعة، والحسام انقطع وقد غادرَ الأحشاء للأعداء مُنْقَطَعَةً، والله تعالى يجبرُ بكم مكانه، ويُعزُّ بَمَنْ تَخَلَّفَ مِنْ سُرَاةِ الْأَسْرَةِ بِأَسِهْ وإِحْسَانِهْ بِمَنَّةٍ" ٧٦٩.

وهذا ابنُ الجنان يَصِفُ السُّفْنَ الحَرِيَّةَ قَائِلًا: "أَنَّهُا خِيُولٌ تَسْتَبِقُ فِي هَذَا الْمَجَالِ، أَوْ حُدُوجٌ يَرْفَعُهَا بِالضَّحَا" ٧٧٠ لَمَّا عَ الْآلِ، أَوْ سَحَائِبٌ تَجْرُ عَلَى الْمَجْرَةِ مَا تَسْحُبُهُ مِنْ فَضْلِ الْأَذْيَالِ" ٧٧١.

أَمَّا ابنُ المَرْخَى فَقَدْ كَتَبَ رِسَالَةً عَنْ الْخَلِيفَةِ يُوسُفَ بَشَّرَ بِهَا بِالنَّصْرِ وَجَاءَ فِيهَا "وَقَدْ كَانَ أَهْلُ آبَلَةٍ مِنَ الرُّومِ - دَمَّرَهُمُ اللَّهُ - الشُّوْكَةَ الَّتِي لَا تُخْضَدُ، وَالشُّبَاةُ الَّتِي لَا تُفْلُ، وَالشَّرَارَةُ الَّتِي لَا تُطْفَأُ، وَالْحَدَّ الَّذِي لَا يُكْسَرُ، عُتُوًّا عَلَى اللَّهِ وَاسْتِشْرَاءً، وَاغْتِرَارًا بِإِمِهَالِ اللَّهِ لَهُمْ وَطُغْيَانًا" ٧٧٢.

تَكَرَّرَتِ التَّشْبِيهَاتُ فِي كُلِّ نَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ الْمَذْكُورَةِ، فَقَدْ شَبَّهَ الْفَازَاذِيُّ الْمَتَوَفَى بِتَشْبِيهَيْنِ، فَهُوَ غَمَامٌ انْقَشَعَ، وَحُسَامٌ انْقَطَعَ، وَشَبَّهَ ابْنَ الْجَنَانِ السُّفْنَ بِتَشْبِيهَاتٍ ثَلَاثَةٍ، فَهِيَ خِيُولٌ وَحُدُوجٌ وَسَحَائِبٌ، أَمَّا ابْنُ الْمَرْخَى فَقَدْ ارْتَأَى أَنْ يُشَبَّهَ الرُّومَ بِتَشْبِيهَاتٍ أَرْبَعَةٍ، فَهُمْ شُوْكَةٌ وَشُبَاةٌ وَشَرَارَةٌ وَحَدٌّ، وَقَدْ لَجَأَ الْكِتَابُ إِلَى إِيرَادِ تَشْبِيهَاتٍ عَدِيدَةٍ لِّلْمَعْنَى الْوَاحِدِ مِنْ أَجْلِ التَّرْكِيزِ عَلَى الْمَعْنَى، وَالتَّأَكِيدِ عَلَى غَرَضِ التَّشْبِيهِ.

وَجَاءَ التَّشْبِيهُ التَّمثِيلِيُّ تَالِيًا لِّلتَّشْبِيهِ الْمَفْرَدِ مِنْ حَيْثُ وَجُودِهِ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَفِي هَذَا التَّشْبِيهِ يَكُونُ وَجْهُ الشَّبَّهِ صُورَةً مُنْتَزَعَةً مِنْ مُتَعَدِّدٍ، وَمِنْ أَمَثَلِهِ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ كَتَبَهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشٍ عَنِ الْخَلِيفَةِ الْمَنْصُورِ مُبَشِّرًا بِالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَمَّا وَرَدَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ "ثُمَّ تَظَاهَرَ الْمُوَحِّدُونَ ثَانِي يَوْمٍ فِيمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْ قُوَّةِ الْعَدَدِ وَالْعَدِيدِ، وَفَاضُوا عَلَى أَعْطَافِهَا فِي بُحُورِ الْخَيْلِ وَأَمْوَاجِ الْحَدِيدِ، كُلُّ قَبِيلَةٍ فِي شِعَارِهَا الْمَوْسُومِ، وَعَلَى مَدَرَجِهَا الْمَرْسُومِ، كَأَنَّهُمْ لَجُّ الْبَحْرِ لَجٌّ مَوْجُهُ مُتَرَاكِبٌ" ٧٧٣.

^{٧٦٩}الهامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٧٨.

^{٧٧٠}كما جاءت في الأصل.

^{٧٧١}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٦٠.

^{٧٧٢}عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٣١.

^{٧٧٣}بروفصال، رسائل موحدية، ٢٣٦.

ومن أمثلته أيضاً ما خطّه ابنُ عُميرة مُهتئاً ابنُ هُودٍ بِخُضُوعِ أَحَدِ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ
وَدُخُولِهِ فِي طَاعَتِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي تِلْكَ الرَّسَالَةِ "وَقَدْ تَأَدَّى إِلَى هَذِهِ الْجِهَةِ الْخَبْرُ عَمَّنْ أَبْصَرَ
حَظَّ نَفْسِهِ، وَأَقْصَرَ عَنِ رُكُوبِ رَأْسِهِ، وَصَمَّ سَمْعاً عَنِ الْبَاطِلِ وَنَبَأَتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ أَمْرُهُ
سَيِّئَةً جَاءَ الدَّهْرُ مِنْهَا مُعْتَذِراً، وَشُبْهَةً كَانَ الْحَقُّ لِكَشْفِهَا مُنْتَظِراً، وَبِالْجَبْرِ يَعُودُ الْكَسِيرُ إِلَى
أَزِيدٍ مِنْ سُدَّتِهِ، وَمَا صَدَقَ إِسْلَامُ ابْنِ أَبِي سَرَحٍ إِلَّا بَعْدَ رَدَّتِهِ، وَالرَّمْحُ يَسْتَقِيمُ إِذَا ثَقُفَ
مِيَادُهُ، وَالصَّعْبُ يُرَاضُ فَيَسْهُلُ قِيَادُهُ"^{٧٧٤}.

فِي النَّصِّ الْأَوَّلِ نَرَى ابْنَ عِيَّاشٍ وَهُوَ يُشَبِّهُ صُورَةَ الْمُوحِدِينَ وَقَدْ تَحَرَّكُوا بَعْدَهُمْ
وَعَدِيدَهُمْ بِصُورَةِ الْبَحْرِ وَقَدْ هَاجَتْ أَمْوَاجُهُ وَتَلَاطَمَتْ، وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ وَجْهِ الشَّبْهِ فِي هَذَا
التَّشْبِيهِ بِصُورَةِ شَيْءٍ كَثِيرٍ وَقَدْ زَادَ كَثْرَةً وَحَرَكَةً، وَفِي النَّصِّ الثَّانِي نَجِدُ ابْنَ عُمِيرَةَ وَهُوَ
يُشَبِّهُ صُورَةَ الْخَارِجِ بَعْدَمَا عَادَ إِلَى الطَّاعَةِ بِصُورَةِ الْكَسِيرِ بَعْدَمَا انْجَبَرَ كَسْرُهُ، وَبِصُورَةِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرَحٍ الْمُرْتَدِّ بَعْدَمَا عَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَبِصُورَةِ الرَّمْحِ الْمَعُوجِ بَعْدَمَا اسْتَقَامَ،
وَبِصُورَةِ الصَّعْبِ الْجَمُوحِ بَعْدَمَا يُرَاضُ فَيَسْهُلُ قِيَادُهُ، وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ وَجْهِ الشَّبْهِ فِي هَذِهِ
التَّشْبِيهَاتِ بِصُورَةِ كَائِنٍ يَتَحَوَّلُ مِنْ حَالٍ مَذْمُومَةٍ إِلَى حَالٍ أُخْرَى مَحْمُودَةٍ، كَمَا نُلَاحِظُ
تَكَرُّرَ التَّشْبِيهِ الْمَوْكَّدِ لِحَالِ الْمَشَبِّهِ.

كَمَا كَانَ لِلتَّشْبِيهِ الضَّمْنِيِّ حُضُورٌ فِي الرَّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَهَذَا التَّشْبِيهُ "لَا يَكُونُ
فِيهِ طَرَفَا الصُّورَةِ فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِ التَّشْبِيهِ الْمَعْرُوفَةِ، وَإِنَّمَا يُلْمَحَّانُ فِي التَّرْكِيبِ"^{٧٧٥}،
وَيَكُونُ لِمُتَلَقِّيهِ تَصَوُّرٌ وَاسِعٌ لِيَرْبِطَ بَيْنَ الْمَشَبِّهِ وَالْمَشَبِّهِ بِهِ الَّذِي يَكُونُ حِكْمَةً مُتَعَارَفًا عَلَيْهَا،
أَوْ حَقِيقَةً مُتَّفَقًا عَلَى صِحَّتِهَا، وَمِنْ أَمْثَلِهِ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ لُؤَالِي مُرْسِيَةِ جَاءَ فِيهَا "وَعِنْدَمَا
ارْتَحَلَ الْمُوحِدُونَ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - مِنْ مَضْرَبٍ مُعْسَكَرِهِمُ الْمُبَارَكِ بِهِ، ذَمِرَ الْكُفْرَةَ
أَعْدَاءُ اللَّهِ نُفُوسَهُمْ، وَاعْتَقَلُوا ذَوَابِلَهُمْ وَاجْتَابُوا لِبُوسَتِهِمْ، وَاجْتَمَعُوا بِالْقَضِّ وَالْقَضِيضِ،
وَنَزَلُوا عَنْ عَرَعَرَةٍ مَعْقِلِهِمُ الَّذِي أَبْقَى عَلَيْهِمْ دِمَاءَهُمْ إِلَى الْحَضِيضِ، وَتَأَلَّبُوا وَتَكْتَبُوا،
وَذَهَبُوا إِلَى مُخَائِلَةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَبُسَمَا ذَهَبُوا، وَرَامُوا أَنْ يَنْتَهَزُوا مِنَ الْمُوحِدِينَ مِنَ
الْفُرْصَةِ مَا يُذْهِبُ عَنْهُمْ بَعْضَ مُضَضِّ الْعُصَّةِ، وَأَنْ يُصِيبُوا مِنْ شَذَاذِهِمْ وَمُفْتَرَقٍ أَفْذَاذِهِمْ مَا

^{٧٧٤} ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٦٧ - ١٦٨.

^{٧٧٥} الجارم، علي، وأمين، مصطفى، البلاغة الواضحة، ٤٧.

يَجِدُونَ به إلى العزاء سبيلاً، ويُقيمونه عند رهبانهم الضعفة الوهن على جلدِهم وأيديهم
دليلاً، وهيهات! لا تُعارضُ صولة الأسد بانتفاخ الهر، ولا يُقاسُ خيطُ العنكبوتِ بالحبلِ
الممدود الممر^{٧٧٦}.

في هذا التشبيه نجد الكاتب قد وازنَ بين قوة الموحدين وعزهم وبين ضعف
أعدائهم ووهنهم، فكانتْ حالُ الموحدين كالأسد وحالُ قوتهم كالحبل القوي الممدود،
أما حالُ أعدائهم فكانتْ كاهرٍ وكانتْ قوتهم كخيطِ العنكبوتِ، ويتمثلُ المشبهُ في حالِ
الأعداءِ وهم يُحاكون قوة الموحدين، أما المشبهُ به فيتمثلُ في حالِ الهرِّ المتنفخ الذي
يحاكي قوة الأسد، وفي حالِ خيطِ العنكبوتِ الذي يحاكي الحبل القوي، ونستطيعُ تقديرَ
وجهِ الشبه هنا بشيءٍ يحاكي شيئاً آخر ليس أهلاً لمحاكاته، كما نلّمحُ تكرارَ التشبيه
المؤكد لحالِ المشبه.

وأمرانِ آخرانِ يلفتان النظر في التشبيهات الواردة في الرسائل الأندلسية، أولهما أن
معظمها كان يقوم على تشبيه الحسي بالحسي، وعلى الرغم من ضيق مساحة الخيال في
تلك التشبيهات إلا إنها كانت أقرب إلى الصدق والواقعية، وهذا يتوافق مع نظرة الأقدمين
للتشبيه، وثانيهما أن الحظ الأكبر للتشبيهات كان في الرسائل الإخوانية والوصفية، أما
الرسائل الديوانية فلم تحظ بنصيب كبير، ولعل ذلك يعود إلى اعتماد تلك الرسائل على
المباشرة والتقرير والإيجاز والبعد عن التعقيد والغموض.

ثانياً: الاستعارة

يعود معنى الاستعارة اللغوي إلى الأصل (عَوَرَ أو عَيَّر)^{٧٧٧}، فنقول: عَارَهُ ويعُورُهُ أي أَخَذَهُ
وَذَهَبَ به، واستعار الشيء واستعاره منه أي طَلَبَ منه أن يُعِيرَهُ إِيَّاهُ^{٧٧٨}، وهناك رأيٌ

^{٧٧٦} عزائي، أحمد، رسائل موحدية، ١٧١.

^{٧٧٧} ترد كلمة استعارة تحت الأصل اللغوي "عور"، ينظر: ابن منظور، لسان العرب. أو تحت الأصل اللغوي "عير"،
ينظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٣هـ)، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم
السامرائي (القاهرة: مكتبة الهلال، د.ت).

^{٧٧٨} ابن منظور، لسان العرب، مادة عور.

مُحَدَّثٌ يُعِيدُ هذا المعنى إلى الأصل (سَعَر)، ولكن الأدلة التي سيقَت لإثبات ذلك ليست مقنعة^{٧٧٩}.

أما المعنى الاصطِلَاحِيّ للاستعارة فلا يَتَبَعِدُ كَثِيرًا عَنْ مَعْنَاهَا اللُّغَوِيّ فَقَدْ "سُمِّيَ هذا القسم مِنَ الْكَلَامِ استعارةً لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الاستعارةِ المجازِيَّةِ مأخوذٌ مِنَ العَارِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي هِيَ ضَرْبٌ مِنَ الْمَعَامَلَةِ، وَهِيَ أَنْ يَسْتَعِيرَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ بَعْضِ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ"^{٧٨٠}، وَقَدْ تَعَدَّدَتْ الْمَعَانِي الْإِصْطِلَاحِيَّةُ لِلْاستعارةِ^{٧٨١}، وَقَدْ يَكُونُ أَبْسَطُ مَعَانِيهَا رَأْيُ الْجَا حِظِ الَّذِي قَالَ: "الاستعارةُ تسميةُ الشَّيْءِ بِاسْمِ غَيْرِهِ إِذَا قَامَ مَقَامَهُ"^{٧٨٢}.

وهي حسب رأي أبي الحسن الجرجاني "ما اكْتَفِيَ فِيهَا بِالْإِسْمِ الْمُسْتَعَارِ مِنَ الْأَصْلِ، وَنُقِلَتِ الْعِبَارَةُ وَجُعِلَتْ فِي مَكَانٍ غَيْرِهَا، وَمَلَكَهَا تَقْرِيبُ الشَّبْهِ، وَمُنَاسَبَةُ الْمُسْتَعَارِ لَهُ لِلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ، وَامْتِزَاجُ اللَّفْظِ بِالْمَعْنَى حَتَّى لَا يُوجَدَ بَيْنَهُمَا مُنَافَرَةٌ، وَلَا يَتَبَيَّنُ لِأَحَدِهِمَا إِعْرَاضٌ عَنِ الْآخَرِ"^{٧٨٣}.

إِنَّ رَأْيَ الْجَرْجَانِيِّ فِي الْاستعارةِ قَرِيبٌ مِنَ الْمَفْهُومِ الَّذِي وَضَعَهُ الْبَلَاغِيُّونَ الْمُحَدِّثُونَ الَّذِينَ اعْتَبَرُوا الْاستعارةَ اسْتِعْمَالًا لِلْفِظِ فِي غَيْرِ مَا وَضِعَ لَهُ بِعَلَاَقَةِ الْمِشَابَهَةِ بَيْنَ الْمَعْنَى الْأَصْلِيِّ وَالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ مَعَ قَرِينَةٍ صَارِفَةٍ عَنْ إِرَادَةِ الْمَعْنَى الْأَصْلِيِّ.

مِنْ خِلَالِ الْمَفَاهِيمِ السَّابِقَةِ نُدْرِكُ أَنَّ لِلْاستعارةِ أَرْكَانًا ثَلَاثَةً هِيَ: الْمُسْتَعَارُ مِنْهُ وَهُوَ الْمِشْبَبُ بِهِ، وَالْمُسْتَعَارُ لَهُ وَهُوَ الْمِشْبَبُ، وَهَذَانِ هُمَا طَرَفَا الْاستعارةِ اللَّذَيْنِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْدَفَ أَحَدُهُمَا لِأَنَّ "نَوَاجِهُ فِي التَّشْبِيهِ طَرَفَيْنِ يَجْتَمِعَانِ مَعًا، وَفِي الْاستعارةِ نَوَاجِهُ طَرَفًا وَاحِدًا يَحِلُّ مَحَلَّ طَرَفٍ آخَرَ، وَيَقُومُ مَقَامَهُ لِعَلَاَقَةِ اشْتِرَاكِ شَبِيهِةٍ بِتِلْكَ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا

^{٧٧٩} ينظر: الصحنائي، هدى، الإبداع الاستعاري في الشعر، الشعر السوري نموذجاً (دمشق: دار بتر، ١٩٩٧م)، ١٨.

^{٧٨٠} ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٣٤٧.

^{٧٨١} ينظر تعريف الاستعارة في: العسكري، الصناعتين، ٢٦٨. الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٦٧. الرازي، محمد بن عمر بن الحسن البكري المعروف بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق، بكري شيخ أمين (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥م)، ٢٣٢.

^{٧٨٢} الجاحظ، البيان والتبيين، ١: ١٥٣.

^{٧٨٣} الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد إبراهيم وعلي البحاي (بيروت: دار القلم، د.ت)، ٤١.

التشبيه^{٧٨٤}، أما الركن الثالث فهو المستعار وهو اللفظ المنقول، وتتنوع القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الأصلي بين لفظية مُصرّح بها وحالية تُلمح دونما تصريح.

لجأ الكتاب الأندلسيون إلى الاستعارة، ووظفوها في رسائلهم ببراعة، ومن أمثلتها ما جاء في رسالتين لابن عميرة، الأولى كتبها عن أهل شاطبة مُستنجدين بحاكم مُرسية عزيز بن خطّاب ومّا حوته تلك الرسالة قوله: "إنه الجلاء والبلاء، والدّاهية الدّهياء، والخطب الذي تبكي له الأرض والسّماء"^{٧٨٥}.

والرسالة الثانية تبادلها ابن عميرة مع ابن الأبار وبكيا في رسالتيهما المدن الأندلسية التي طفقت تسقط الواحدة تلو الأخرى بيد الأوربيين، وتحسّرا عليها أشدّ التحسّر، وقد جاء في رسالة ابن عميرة ما نصّه "وهي بلنسية ذات الحُسن والبهجة والرّوثق، ما لبث أن أُخرس من مسجدها لسان الأذان، وأُخرج من جسدها روح الإيمان"^{٧٨٦}.

وجاء في رسالة ابن الأبار قوله: "والهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها، وجيان وقلاعها، وقرطبة ونواديها، وحمص وواديها، كلّها رعي كلّوها، ودُهي بالتفريق والتمزيق ملؤها، عضّ الحصار أكثرها، وطمس الكفر عينها وأثرها"^{٧٨٧}.

في النصوص السابقة وظف الكاتبان الاستعارة توظيفا بارعا، حيث قام ابن عميرة بتشخيص الكائنات، وخلع عليها صفات بشرية، فالسّماء والأرض تبكيان وتذرفان الدُموع من هول الخطب الذي حلّ بشاطبة، والأذان له لسان أُخرس، وبلنسية لها جسد أُخرج منه الرّوح، أمّا ابن الأبار فقد جعل الحصار حيوانا يُعضّ، وجعل الكفر إنسانا له يد تطمس، وبلنسية إنسانا آخر له عين تطمس، وقد شبّهت هذه الاستعارات الحسّي بالحسّي في مُعظمها، وكان تشبيه المعنوي بالحسّي في الكفر الذي يطمس وفي الحصار الذي يُعضّ، وقد تضمّنت هذه الاستعارات ألفاظا ذات دلالة نفسيّة عميقة في نفسيّة المتلقي، فالبكاء وخروج الرّوح من الجسد يرتبطان بالحزن والخوف والفراق، والأذان

^{٧٨٤}عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ٢٢٠.

^{٧٨٥}ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، ١٠٢.

^{٧٨٦}المقري، نفح الطيب، ٤: ٣٩٣.

^{٧٨٧}المصدر نفسه، ٤: ٤٩٨.

والمسجد والإيمان ألفاظٌ ترتبطُ بالدين الذي يَبْثُوْاً منزلةً عظيمةً في نفوسِ المسلمين، أما العَضُّ والطَّمْسُ فيرتبطان بالآلم، وقد تَكَاثَفَتْ هذه الاستعاراتُ وما حَوَّثَهُ من ألفاظٍ لُتْثِرَ عَوَاطِفَ المتلقي الإنسانية والدينية، وَتَرَسَّمَ صُورَةً مؤثِّرةً لمعاناةِ الأندلسيين الذين استبدَّ بهم التَّصَارِي، وقد استطاع الكاتبان تحقيقَ هَدَفِهِم في التأثير على المتلقي، وإثارةِ عَوَاطِفِهِ، ولعلَّ التَّجْدَةَ التي قَدَّمَهَا حَاكِمُ مَرْسِيَةِ لِأَهْلِ شَاطِئَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَأْثِيرِ الرِّسَالَةِ فِي نَفْسِ مُتَلَقِيهَا^{٧٨٨}.

ومن امثلة الاستعارة أيضاً ما جَاءَ فِي رِسَالَتَيْنِ لِلْفَازَزِيِّ: الْأَوَّلَى كَتَبَهَا فِي الزُّهْدِ وَجَاءَ فِيهَا "فَإِنِّي سَلِيمٌ إِلَّا مِنَ الْعُيُوبِ، وَمُقْلَعٌ إِلَّا عَنِ الذُّنُوبِ، رَاكِبٌ مِنْ هَوَى نَفْسِي شَرٍّ مَرْكُوبٍ، أَنْتَصِرُ عَلَى التَّمْنَى وَالتَّسْوِيفِ"^{٧٨٩}، وَأَعْلَقُ تَوْبَتِي بِالْأَمَلِ الضَّعِيفِ، وَلِلْمَنِيَّةِ كُلِّ يَوْمٍ سَهْمٌ صَائِبٌ، وَالدُّنْيَا مَكَارُهُ كُلُّهَا وَمَصَائِبٌ"^{٧٩٠}.

وَأَمَّا الْأُخْرَى فَخَطَّهَا فِي التَّعْزِيَةِ وَكَتَبَ فِي مَتْنِهَا "لَقَدْ فُجِعَتْ لِفَقْدِهِ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ، وَشُجِّتْ مِنْ بَعْدِهِ حِيَاضُ الْبَيْضِ الرَّقَاقِ، وَمَا كَانَ إِلَّا الْعَمَامُ انْقَشَعَ وَقَدْ تَرَكَ الْبَسِيطَةَ مُمَرَّعَةً، وَالْحُسَامُ انْقَطَعَ وَقَدْ غَادَرَ الْأَحْشَاءَ لِلْأَعْدَاءِ مُنْقَطِعَةً، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْبِرُ بِكُمْ مَكَانَهُ، وَيَعِزُّ بِمَنْ تَخَلَّفَهُ مِنْ سُرَاةِ الْأَسِيرَةِ بِأَسَهِ وَإِحْسَانِهِ بِمَنَّةٍ"^{٧٩١}.

فِي نَصِّ الْفَازَزِيِّ الْأَوَّلِ نَجَدُ اسْتِعَارَاتٍ قَامَتْ عَلَى تَجَسِيدِ الْمَعْنَى وَانْتَقَلَتْ بِهِ مِنْ عَالَمِ الْعَقْلِ إِلَى عَالَمِ الْحَسِّ حَيْثُ شَبَّهَ الْمَعْنَوِيَّ بِالْحَسِّيِّ، فَجَعَلَ الْهَوَى دَابَّةً تُرَكَبُ، وَجَعَلَ التَّمْنَى وَالتَّسْوِيفَ عَدَوَيْنِ يَنْتَصِرُ عَلَيْهِمَا، وَجَعَلَ التَّوْبَةَ ثَوْبًا يُعْلَقُ، وَجَعَلَ الْمَنِيَّةَ رَاكِبًا يَرْمِي السَّهَامَ، وَقَدْ تَوَالَتْ اسْتِعَارَاتُ مِنْ أَجْلِ إِبْرَازِ الْمَعْنَى الَّتِي يُرِيدُ الْكَاتِبُ وَهُوَ الشُّكْوَى مِنَ الذُّنُوبِ، أَمَّا فِي النَّصِّ الثَّانِي فَنَجَدُ اسْتِعَارَاتٍ قَامَتْ عَلَى التَّشْخِصِ وَارْتَقَتْ بِالْمَعْنَى إِلَى مَرْتَبَةِ إِنْسَانِيَةٍ فَقَدْ شَبَّهَ الْكَاتِبُ الْمَعْنَوِيَّ بِالْحَسِّيِّ حِينَ شَبَّهَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ بِالْإِنْسَانِ الَّتِي

^{٧٨٨} كتب ابن عميرة رسالة شكر فيها حاكم مرسية عزيز بن خطاب على العون الذي قدمه لأهل شاطبة، ينظر، ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، ١٠٣.

^{٧٨٩} كما جاءت في الأصل، ولعلَّ الصَّوَاب "لا انتصر على التمني والتسويق" وذلك كي يتوافق المعنى مع ما جاء قبلها وبعدها.

^{٧٩٠} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٥١.

^{٧٩١} المصدر نفسه، ١٧٨.

يُفَجَّع، والحسِّي بالحسِّي حينَ شبه الحَيَاضَ بالإنسان الذي يَشْجُو، ولم يَكْتَفِ الكَاتِبُ بالاستعارات بل لَجَأَ إلى التَّشْبِيهِ حينَ شبه المتوفى بِالْعَمَامِ تَارَةً، وبالحُسَامِ تَارَةً أُخْرَى، وقد تَضَافَرَتِ الاستعاراتُ والتشبيهِاتُ كي تَرَسُمَ صُورَةً مُؤَثِّرَةً تَنْبِضُ بِالْحُزَنِ عَلَى فِرَاقِ الشَّخْصِ الذي أَبْنَاهُ الكَاتِبُ.

ومن الاستعاراتِ التي حَوَّثَهَا الرِّسَالَةُ الأَنْدَلُسِيَّةُ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ أَرْسَلَهَا وَالِي إشبيلية لِلْخَلِيفَةِ مُطْلِعاً إِيَّاهُ عَلَى أَحْوَالِ الْبِلَادِ وَجَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ "فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا قَدْ بَذَلُوا فِي الْإِكْثَارِ مِنَ الْإِزْدِرَاعِ فِي الثَّغُورِ وَغَيْرِهَا جُهْدَهُمْ، وَأَنْفَقُوا فِيهِ مُتَنَافِسِينَ مَا عَزَّ وَهَانَ عِنْدَهُمْ، فَامْتَلَأَ بِهِ الْبَسِيطُ غَوْرًا وَنَجْدًا، وَاتَّسَعَ الْأَمَلُ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ جِدًّا، وَدَرَّتْ عَلَيْهِ أَخْلَافُ السَّحَابِ بِجَمِيلِ صُنْعِ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ، فَقَرَّتِ الْعَيُونُ بِحُسْنِ صِفَاتِهِ، وَامْتَدَّتْ الْأَيْدِي ضَارِعَةً إِلَى اللَّهِ فِي أَنْ يُخَلِّصَهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ جَمِيعِ آفَاتِهِ" ٧٩٢.

ومن الاستعاراتِ أَيْضًا مَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ لَصَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسَ كَتَبَهَا مُعَقِّبًا عَلَى رِسَالَةٍ وَصَلَتْهُ مِنْ ابْنِ مَرْجٍ الْكُحْلِ حَيْثُ قَالَ عَنْ تِلْكَ الرِّسَالَةِ: "تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، وَتَعْتَرُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي ذَيْلِ إِعْيَاءٍ، هَذَا لِأَنَّهَا جَلَبَتْ مِنْ ٧٩٣ هَجَرَ تَمْرًا، وَإِلَى شَبَامَ وَبَيْتَ رَاسٍ خَمْرًا" ٧٩٤.

فِي النَّصِّ الْأَوَّلِ نَرَى اسْتِعَارَةً اعْتَمَدَتْ عَلَى تَشْبِيهِ الْحَسِّيِّ بِالْحَسِّيِّ، فَقَدْ جَعَلَ الْكَاتِبُ السُّحْبَ نِيَاقًا لَهَا أَخْلَافٌ تُحَلَبُ، وَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْاسْتِعَارَةِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَوْضِيحِ الْمَعْنَى وَتَزْيِينِهَا، فَلَمَطَرُ الْمُنْهَمِرِ مَا كَانَ إِلَّا خَيْرًا وَرِزْقًا كَمَا يَكُونُ اللَّبَنُ الَّذِي تَدُرُّهُ النَّيَاقُ، أَمَّا فِي النَّصِّ الثَّانِي فَقَدْ تَتَابَعَتِ الْاسْتِعَارَاتُ الَّتِي اعْتَمَدَتْ أَيْضًا عَلَى تَشْبِيهِ الْحَسِّيِّ بِالْحَسِّيِّ، فَرِسَالَةُ ابْنِ مَرْجٍ الْكُحْلِ كَأَنَّهَا فَتَاةٌ تَمْشِي وَتَعْتَرُ وَتَجْلِبُ التَّمْرَ وَالْخَمْرَ، وَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْاسْتِعَارَاتِ دَوْرٌ فِي تَوْضِيحِ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ الْكَاتِبُ وَفِي تَقْبِيحِ ذَلِكَ الْمَعْنَى، لِأَنَّ وَصُولَ تِلْكَ الرِّسَالَةِ لَمْ يَكُنْ عَلَى عَجَلٍ، وَمُحْتَوَاهَا لَمْ يَأْتِ بِالْجَدِيدِ.

٧٩٢ عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٨٢.

٧٩٣ كما جاء في الأصل، ولعل الصواب "جلبت إلى هجر تمارا" وذلك كي يتوافق المعنى مع ما جاء قبلها وبعدها.

٧٩٤ المقرئ، نفح الطيب، ٥ : ٥٩.

كانت الاستعارات كثيرةً، حيث وُجِدَتْ في السَّواد الأعظم من الرِّسائل، ولعلَّ التَّماذج القليلة التي استعرضناها تُمثِّلُها، وحرَّيُّ بنا أن نكتفي بهذه التَّماذج ونتحدث عن بعض الأمور الالفتة للنظر في موضوع الاستعارات الواردة في الرِّسائل، حيث يلفت نظرنا الحضور الكبير للاستعارات في جميع أنواع الرِّسائل الديوانية والإخوانية والوصفية، وكانت الاستعارات تعتمد على تشبيه الحسِّي بالحسِّي في مُعْظَمِها، وعلى تشبيه المعنوي بالحسِّي بدرجة أقل، وقد شَخَّصَتِ الكائنات الجامدة وجسَمَتها، وخلَعَت عليها صِفَات حيَّة، وهذا ما يُميِّز الاستعارة ويجعلها تتقدَّم على سائر فُنون البيان لأنَّك "تُرى بها الجَمادَ حيًّا ناطقًا، والأعجمَ فصيحًا، والأجسامَ الخرسَ مُبيَّنة، والمعاني الخفيةَ باديةً جليَّة، إن شئتَ أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنَّها قد جُسِّمَت حتَّى رأتها العيون، وإن شئتَ لَطَفَت الأوصافَ الجِسْمانية حتَّى تعودَ روحانيةً لا تنالها الطُّنون، وهذه إشاراتٌ وتلويحاتٌ في بدائعها"^{٧٩٥}.

ومن الأمور الالفتة أنَّ جُلَّ الاستعارات كانت مَكْنِيَّة، وفي هذه الاستعارة يُحذف المشبَّه به، ويُستعاضُ عنه بشيءٍ من لَوَازِمِهِ، وهذه الاستعارة تكون أكثرَ عُمُقًا ودِقَّةً وتأثيرًا من غيرها، ورُبَّما جَمَعَ الكاتبُ نوعين من الاستعارة في تعبيرٍ واحدٍ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في رسالة ابن المرخى التي كَتَبَها عن الخليفة يوسف وبشَّرَ فيها بالانتصار على الأعداء الذين "التَفَّؤا على رجيمٍ من شياطينهم، كانَ قد عَسَا في الكُفْرِ عُوْدُهُ، وطالَ في الضَّلالِ انتزاهُ"^{٧٩٦}، وفي هذه العبارة شَبَّه الكاتبُ قائدَ الأعداء بالرجيم، حذفَ المشبَّه وصرَّحَ بالمشبَّه به، ثمَّ شَبَّه الكفرَ بشجرة لها عيدان، وهنا صرَّحَ بالمشبَّه وحذفَ المشبَّه به، ثمَّ شَبَّه الضَّلالَ بدابةٍ تُنتزى^{٧٩٧}، وقد صرَّحَ بالمشبَّه وحذفَ المشبَّه به.

وأمرٌ رابعٌ لافَتٌ للنظر وهو أنَّ الاستعارات جميعها لم تُكُنْ بذاتِ المستوى من الجُودة، ففي حين نُطالعُ استعاراتٍ بارعةً على غرار قول ابن عُميرة: "مدادُ الذَّنوبِ يمحُوهُ

^{٧٩٥} الجرجاني، أسرار البلاغة، ٣٣.

^{٧٩٦} عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ١٣١.

^{٧٩٧} النزو: الوثبان ومنه نزو التيس، ولا يقال إلا للشَّاء والدَّواب والبقر في معنى السَّفاد. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة نزا.

ماء الدَّمع^{٧٩٨} أو قول أبي عبد الله بن عيَّاش في رسالةٍ وَصَفَ بِهَا أَحَدَ حُصُونِ الأندلس "هُوَ حِصْنٌ يَتَلَفَعُ بِالْعَنَانِ، وَيَقْتَنِصُ الطَّائِرَ بِالسَّنَانِ، وَيَنْفُثُ الشَّجَاعَةَ فِي رَوْعِ الْجَبَانِ، عَلَى طَوْدٍ قَدْ سَافَرَ فِي الْجَوِّ مُعْتَرِبًا، وَلَمْ يَرْضَ بِالْجِبَالِ أَكْفَاءً وَلَا بِالْبَسِيطَةِ مُنْتَسِبًا"^{٧٩٩}.

تَجَلَّتْ الْبَرَاعَةُ فِي الاستعاراتِ الموجودةِ فِي النَّصِّينِ السَّابِقِينَ، حَيْثُ اسْتَوْحَى ابْنُ عُمَيْرَةَ استعارتيه مِنْ عَمَلِهِ كَاتِبًا يَسْتَخْدِمُ الْأَقْلَامَ، يَكْتُبُ بِمِدَادِهَا، يَمْحُو وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ مِنْ خَطِّهَا، وَقَدْ جَعَلَ الذَّنُوبَ قَلَمًا يَسِيلُ مِدَادًا، ثُمَّ كَتَبَ عَنْ التَّوْبَةِ بِمَاءِ الدَّمْعِ وَجَعَلَهُ إِنْسَانًا يَمْحُو ذَلِكَ الْمِدَادَ، وَاسْتَطَاعَ الْكَاتِبُ أَنْ يُجَسِّدَ الْمَعَانِيَ الْعَقْلِيَّةَ وَيَنْقُلَهَا إِلَى الْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ، كَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُوحِيَ بِكَثْرَةِ الذَّنُوبِ وَبِأَثَرِهَا السَّيِّئِ عَلَى النَّفْسِ، لِأَنَّ الْمِدَادَ مُرْتَبِطٌ بِالْعَزَازَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَبِاللونِ الْأَسْوَدِ الَّذِي يُضْفِي عَلَى الاستعارةِ بَعْدًا نَفْسِيًّا مُنْفَرًّا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَخِلَالَ الْمَعَانَاةِ مِنْ كَثْرَةِ الذَّنُوبِ وَسَوْعَتِهَا يَأْتِي مَاءُ الدَّمْعِ فَيَمْحُو تِلْكَ الذَّنُوبَ، وَيُزِيلُ تِلْكَ الْمَعَانَاةَ، وَهُنَا يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِ الْمُتَلَقِّي أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا.

أَمَّا ابْنُ عِيَّاشٍ فَقَدْ بَرَعَ فِي الاستعاراتِ الْمُتَتَابِعَةِ الَّتِي شَخَّصَ بِهَا ذَلِكَ الْحِصْنَ، وَارْتَقَى بِهِ إِلَى الْمُرْتَبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَجَعَلَهُ إِنْسَانًا يَتَلَفَعُ بِالْعَنَانِ، وَيَقْتَنِصُ الطَّائِرَ، وَيَنْفُثُ الشَّجَاعَةَ، وَيُسَافِرُ فِي الْجَوِّ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ تِلْكَ الاستعاراتُ لِتُوكِّدَ الْمَعْنَى الَّتِي يُرِيدُهَا الْكَاتِبُ وَهُوَ بَيَانُ عُلُوِّ ذَلِكَ الْحِصْنِ وَارْتِفَاعِهِ، وَتُعْطِي ذَلِكَ الْمَعْنَى جَمَالِيَّةً مَا كَانَتْ لَتُظْهِرَ لَوْلَا تِلْكَ الاستعاراتِ.

وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ نَقَرْنَا نَصِّينَ لِلْكَاتِبِينَ نَفْسَيْهِمَا، الْأَوَّلَ كَتَبَهُ ابْنُ عُمَيْرَةَ مُدَاعِبًا صَدِيقَهُ ابْنَ الْجَنَانِ، وَمُشِيدًا بِبِرَاعَتِهِ فِي الْكِتَابَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "تُحْيِيكَ الْأَقْلَامُ تَحِيَّةَ كِسْرَى، وَتَقِفُ دُونَ مَدَاكَ حَسْرَى.... وَمَالِكُ أَمِنْتَ تَغْيِيرَ الْحَالَاتِ، فَشَنَنْتَ غَارَتَكَ عَلَى الْحَاءَاتِ، وَنَفَضْتَ عَنْهَا الْمَهَارِقَ، وَبَعَثْتَ فِي طَلَبِهَا السَّوَابِقَ، وَلَفْظَتَهَا مِنَ الْأَفْوَاهِ، وَطَلَبْتُهَا

^{٧٩٨} ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، ٣٠٠.

^{٧٩٩} ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ)، إعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشر (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٦١ م)، ٢٣١.

بَيْنَ الشَّفَاهِ، حَتَّى شَهِدَ أَهْلُ اللِّسَانِ بِتَرْحُزِهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَتَوَارَتْ بِالْحُلُوقِ، وَلَوْ تَغْلَغَلَتْ إِلَى الْعُرُوقِ لِأَثَرِئَهَا جِيَادُكَ، وَاقْتَنَصَهَا قَلْمُكَ وَمَدَادُكَ"^{٨٠٠}.

وكتب النص الآخر أبو عبد الله بن عيَّاش في وصف مدينة استسلمت للموحدين بعدما حاصروها حصاراً شديداً، ومَّا جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ قَوْلُهُ: "وَالسُّحْبُ تُسْحَبُ عَلَيْهَا أَرْدَانُهَا، فَتَرْتَدِّيها تَارَةً مُتَلَثِّمَةً، وَطَوْرًا سَافِرَةً، وَكَأَنَّمَا شُرْفَاتُهَا الْمَشْرِفَةُ أَنَامِلُ مُخَضَّبَةٌ بِالذِّيَاجِي، مُخْتَتَمَةٌ بِالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ، تُضْحِي عَنْ شَنْبٍ لَا تَزَالُ تُقْبَلُهُ أَفْوَاهُ الْمَجَانِيقِ، وَتُمْسِي بِاسِمَةٍ عَنْ لَعْسٍ لَا تَبْرُحُ تَرَشُّفُهُ سِيَهَامُ الْحَرِيقِ"^{٨٠١}.

فِي النَّصِّ الْمُجْتَزَأِ مِنْ رِسَالَةِ ابْنِ عُمَيْرَةَ نَلَمَحُ اسْتِعَارَاتٍ اجْتَمَعَتْ لِتَرْسُمَ مَشْهَدًا تَصْوِيرِيًّا مُتَحَرِّكًا، حَيْثُ شَخَّصَ ابْنُ عُمَيْرَةَ الْأَقْلَامَ وَجَعَلَهَا تُحْيِي ابْنَ الْجَنَانِ وَتَقِفُ أَمَامَهُ بِاحْتِرَامٍ، حَاسِرَةً الرَّؤُوسِ، وَمُتَأَهِّبَةً لَتَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ، كَمَا يَقِفُ الْجُنْدُ أَمَامَ كِسْرَى عَاهِلِ الْفُرسِ، ثُمَّ جَعَلَ حُرُوفَ الْحَاءِ طَرِيدَةً تُلَاحِقُهَا الْأَقْلَامُ حَتَّى تُدْرِكُهَا وَتَقْتَنِصَهَا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَمَالِيَّةِ هَذَا الْمَشْهَدِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ غُمُوضٍ يُوقِعُ الْمُتَلَقِّي فِي حَيْرَةٍ تَجْعَلُهُ يَتَسَاءَلُ: كَيْفَ تَكُونُ تَحِيَّةُ الْأَقْلَامِ؟ وَكَيْفَ تَنْقُضُ عَلَى الْحَاءَاتِ؟ وَلَمْ ذَكَرَ الْكَاتِبُ الْحَاءَاتِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْحُرُوفِ؟^{٨٠٢}

وَفِي النَّصِّ الْمُجْتَزَأِ مِنْ رِسَالَةِ ابْنِ عِيَّاشِ نَرَى التَّشْخِيصَ فِي اسْتِعَارَاتِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَلَكِنْ بَعْضَ تِلْكَ الاسْتِعَارَاتِ اتَّصَفَتْ بِالْمُنَافَرَةِ، وَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي أَفْوَاهِ الْمَجَانِيقِ الَّتِي تُقْبَلُ شَنْبَ الْمَدِينَةِ، وَفِي سِيَهَامِ الْحَرِيقِ الَّتِي تَرَشُّفُ لَعْسَهَا، وَلَا يَخْفَى الثُّغُورُ الْكَبِيرُ بَيْنَ دَلَالَةِ التَّقْبِيلِ وَالْإِرْتِشَافِ، وَبَيْنَ دَلَالَةِ الْمَجَانِيقِ وَسِيَهَامِ الْحَرِيقِ وَمَا تُحْدِثَانِهِ مِنْ دَمَارٍ وَخَرَابٍ، وَفِي هَذَا الْمَعْرَضِ يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ رَأْيُ الْبَلَاعِيِّينَ فِي جَيِّدِ الاسْتِعَارَةِ حَيْثُ قَالُوا: "أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى

^{٨٠٠} ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢: ٣٥٣.

^{٨٠١} المصدر السابق، ٢: ٤٨٦-٤٨٧.

^{٨٠٢} لا يوجد ما يشير إلى سبب تخصيص حرف الحاء ولكن ربما يكون ابن عميرة قد عقب على قصيدة حائية لابن الجنان أو رسالة له التزم فيها بالسجع وتوافقت فواصلها على هذا الحرف.

الشاعر أن يُبَعَدَ الاستعارة حتّى يُنَافِرَ، ولا يُقَرَّبَها كثيراً حتّى يُحَقِّقَ، ولكن خير الأمور أوسطها^{٨٠٣}.

ثالثاً: المجاز المرسل

رأى البلاغيون أن المجاز اللغوي يأتي على ضربين: فإن كانت العلاقة فيه هي المشابهة سُمِّيَ المجاز بالاستعارة، وإن كانت غير المشابهة سُمِّيَ بالمجاز المرسل^{٨٠٤}.

يكون المجاز المرسل في استخدام "الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي" لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي^{٨٠٥}، وكان السكاكي أول من أطلق عليه هذا الاسم^{٨٠٦}، والمرسل الذي يُوصَفُ به هذا المجاز يعني "عدم التقيّد وخلو التشبيه من دعوى الاتحاد الموجودة في الاستعارة، أو لأنّه غير مُقيّد بعلاقة واحدة"^{٨٠٧}.

ومما جاء من المجاز المرسل ما وردَ في رسالة كتَبَها أبو عبد الله بن عيَّاش عن الخليفة الناصر مُبشِّراً بالانتصار على الأعداء وفتح أحد الحصون، وقد وردَ في تلك الرسالة قوله "فقبل التّزول من السّروج، ووضع المهنّد والوشيج، حيّاهم النّاس بكلّ ضربٍ وجيع، وموتٍ وحيٍّ سريع، وملكوا عليهم أرباضهم، وكانت من الذّروة إلى البطحاء فأضرّموها ناراً من جميع الأنحاء"^{٨٠٨}.

في هذا النّص نجدُ موطنين للمجاز المرسل: الأول في كلمة الوشيج، وهو شجرُ القصب^{٨٠٩} الذي تُصنَعُ منه الرِّماح، ولكنّ الكاتب لم يُردِ الشّجرَ وإنّما أراد الرِّماح وذكرَ

^{٨٠٣} ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٣٩٠ - ٤٦٣هـ)، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط٣، ١٩٦٤م)، ١: ٨٩.

^{٨٠٤} الجرجاني، أسرار البلاغة، ٣٤٢.

^{٨٠٥} الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٩٩م)، ١٠٨.

^{٨٠٦} السكاكي، مفتاح العلوم، ١٩٥.

^{٨٠٧} هلال، أحمد هنداي، مجاز المرسل في لسان العرب (مصر: طنطا، د.ن، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، ٤٠.

^{٨٠٨} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٦٧.

^{٨٠٩} ابن منظور، لسان العرب، مادة وشج.

ما كانت عليه، فتكون علاقة المجاز اعتباراً ما كان، أمّا الأرباض فأرادَ بها الكاتبُ البقرَ والعنَمَ التي تَرَبُّضُ فيها، فذكرَ المكانَ وأرادَ ما فيه، فتكون العلاقة مكانية.

ومن أمثلة المجاز المرسل ما جاءَ في رسالة شكرٍ كتبها الفازازي إلى الخليفة المنصور حيث جاءَ فيها ما نصُّه "وقد وصلتُ للعبدِ المنَّةُ العُظمى، والمنَّةُ التي ليسَ وراءها لأملٌ من آمالِ الدنيا مَرَمَى، فتممتُ الأيادي المتقدمة، وجددتُ المواهبَ المتصرفة، وكانت كالظِّلِّ المنسكبِ فوقَ طلال، والظِّلُّ المنسحبِ فوقَ ظلال، فمدَّ العبدُ إليها يداً ملأتها المنن، وأجالَ في شكرها لساناً أنطقه الصنعُ الحسن" ^{٨١٠}.

ومن أمثلته أيضاً ما كتبَ به سعيد بن حكَمٍ مُهنئاً محمدَ المستنصرِ سلطانَ الحفصيين في تونس بتعلُّبه على الخارجين عليه حيث قال: "هلاً أعطوا الإمارة حقها، فسلخوا لها سُبُلَ الخدمة وطُرُقها، هلاً آثروا قطيعةَ البغي والعدوان، وبادروا صِلَةَ الرَّحِمِ فهي شُجْنَةٌ من الرحمن، هلاً شكروا الأيادي الجسيمة، وذكروا الحديثة منها والقديمة" ^{٨١١}.

يتجلى المجاز المرسلُ في كلمة الأيادي التي وردت في النصين، وقد ذكرها الفازازي وأرادَ بها العطايا التي قدَّمتها له أيادي الموحدِين، بينما ذكرها ابنُ حكَمٍ وأرادَ بها الحسناتِ والفضائل التي قدَّمها السلطانُ لِعَمِّيه اللذين ثاراً عليه ^{٨١٢}، ولأنَّ الكاتبين ذكراً السببَ وأرادا المسببَ فتكون علاقة المجاز المرسل سببية، ونرى الكاتبَ في النصِّ الأولِ يعتمدُ على التشبيه والاستعارة والكناية إلى جانبِ المجاز المرسل وذلك ليؤكد المعنى ويضفي عليه جماليةً وتأثيراً، ولتحقيق ذاتِ الهدف نرى ابنَ حكَمٍ يعتمدُ على الاستعارة والكناية إلى جانبِ اعتماده على المجاز المرسل.

ومن أمثلته ما كتبه ابنُ عُميرة "وفي أثنائه إشارةً إلى الكفارِ الغالِبينَ على بلادِ الأندلس" ^{٨١٣}، ومما جاءَ فيه قوله: "وعرَّضتَ بذكرِ العَصْرِ الخالي، والقصرِ العالي، وظلٌّ من فَنِّ ورِيْق، وعيشٍ مع أكرمِ فريق، وما تذكُرُ من زَمَنٍ تَوَلَّى، وعهدٍ على أن لا يعودَ تألَّى،

^{٨١٠} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٣٦.

^{٨١١} مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٧٨.

^{٨١٢} ينظر خبر الخروج على السلطان محمد المستنصر بن أبي زكرياء في: ابن خلدون، تاريخه، ٦: ٢٨١.

^{٨١٣} المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣١٨.

فَارْقَنَاهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ، وَوَدَّعَنَا بِهِ الْأَطْيَبِينَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ، فَعَفَّتِ الرُّسُومُ، وَأَفَلَتْ تِلْكَ
النُّجُومُ، وَرَمَتْنَا عَنْ قَوْسِهَا الرُّومُ، ثُمَّ خَلَفْتَنَا فِي الْمَعَانِي، وَقَسَمْتَنَا بَيْنَ الْأَسِيرِ وَالْعَانِي، فَأَوْدَى
الْقُلُوبَ وَالْكَثْرَ، وَاشْتَفَى مِنَ الْإِسْلَامِ الْكُفْرَ^{٨١٤}.

ومنه أيضاً مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ صَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسٍ حَيْثُ كَتَبَ مُفَاخِرًا عَلَى لِسَانِ
إِشْبِيلِيَّةٍ مَا نَصَّهُ "إِلَى السَّهْمِ الْأَسَدِّ، وَالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ، وَالنَّهْرِ الَّذِي يَتَعَاقَبُ عَلَيْهِ الْجَزْرُ
وَالْمَدَّ"^{٨١٥}.

اتَّكَأَ ابْنُ عُمَيْرَةَ فِي نَصِّهِ السَّابِقِ عَلَى فُنُونٍ بِلَاغِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَاءَ الْمَعْنَى مُتَّسِمًا
بِالْجَمَالِ وَالتَّأثيرِ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي، وَمِنْ تِلْكَ الْفُنُونِ الْمَجَازُ الْمُرْسَلُ الَّذِي نَجِدُهُ فِي الْقَصْرِ
حَيْثُ أَرَادَ الْكَاتِبُ مَنْ كَانَ يَسْكُنُهُ، كَمَا نَجِدُ الْمَجَازَ فِي الْفَنَنِ الَّذِي أَرَادَ الْكَاتِبُ فِيهِ
الشَّجَرُ، وَلَأَنَّ الْكَاتِبَ ذَكَرَ الْمَكَانَ وَأَرَادَ مَنْ فِيهِ، وَذَكَرَ الْجُزْءَ وَأَرَادَ الْكُلَّ فَإِنَّ عِلَاقَتِي
الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ تَكُونَانِ مَكَانِيَّةً وَجُزْئِيَّةً، أَمَّا صَفْوَانُ فَقَدْ ذَكَرَ السَّاعِدَ وَأَرَادَ الْجِسْمَ فِي مَعْرَضٍ
تَشْخِصِيَّةٍ إِشْبِيلِيَّةٍ، وَلَأَنَّهُ ذَكَرَ الْجُزْءَ وَأَرَادَ الْكُلَّ فَعِلَاقَةُ الْمَجَازِ تَكُونُ جُزْئِيَّةً، وَذَكَرَ النَّهْرَ
وَأَرَادَ بَعْضَهُ الَّذِي يَمُرُّ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْكُلَّ وَأَرَادَ الْجُزْءَ فَالْعِلَاقَةُ تَكُونُ كُلِّيَّةً.

فِي اسْتِعْرَاضِنَا لِأَمْثَلَةِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ الْوَاردَةِ فِي الرِّسَالَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ نَلْحَظُ أَمْرَيْنِ:
أَوَّلَهُمَا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُ كَانَ قَلِيلًا إِذَا مَا قُورِنَ بِاسْتِعْمَالِ التَّشْبِيهِ أَوْ الاسْتِعَارَةِ، بِحَيْثُ لَمْ تَتَوَفَّرْ
أَمْثَلَةٌ كَافِيَةٌ لِلتَّمثِيلِ عَلَى أَشْهَرِ عِلَاقَاتِهِ^{٨١٦}، وَثَانِيَهُمَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَجَازَاتِ الْمَعْرُوفَةِ الْمُؤَلَّفَةِ
عِنْدَ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ طَرَأَةٌ وَلَا تَجْدِيدٌ.

^{٨١٤}المصدر السابق، ١: ٣١٨.

^{٨١٥}المصدر السابق، ١: ١٧١.

^{٨١٦}للمجاز المرسل تسع عشرة علاقة أشهرها: الكلية، الجزئية، السببية، المسببية، اعتبار ما كان، اعتبار ما يكون
"يقول"، الحالية، المحلية "المكانية"، الآلية، المجاورة. ينظر: الصَّبَّان، أبو العرفان محمد بن علي الصَّبَّان المصري
(ت ١٢٠٦هـ)، الرِّسَالَةُ الْبَيَانِيَّةُ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م).

رابعاً: الكناية

الكِنَايَةُ هي أَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدُ بِهِ غَيْرَهُ، نقول: كَنَيْتُ أَوْ كُنْتُوتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا^{٨١٧}، وهي مِنْ وسائلِ القولِ التي يَكْثُرُ استعمالُها، والمقصودُ بها "أَنْ يُرِيدَ المتكَلِّمُ اثباتَ مَعْنَى من المعاني فلا يَذْكُرُه باللفظِ الموضوع في اللغة، ولكن يَجِيءُ إلى مَعْنَى هو تاليه وَرَدُّه في الوجودِ فيومئِ به إليه، ويجعله دليلاً عليه"^{٨١٨}.

ولعلَّ هذا التعريفَ هو الأفضلُ بين التعريفاتِ العديدةِ التي وضعها البلاغيون^{٨١٩}، حيثُ يَتَسَمُّ بالوضوحِ والشُمُولِيةِ، ويُعِدُّنا عن الخوضِ في اختلافِ العلماءِ الذين لم يَقِفُوا على مَعْنَى واحدٍ جَامِعٍ لمفهومِ الكِنَايَةِ، بلْ كَانَ لهم فيها آراءٌ مختلفةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُفَرِّقُ بينها وبينَ المجازِ ويقولُ: "إِنَّ اللفظةَ إذا أُطْلِقَتْ وَكَانَ العَرَضُ الأصليُّ غيرَ مَعْنَاهَا فلا يَخْلُو إمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُوداً أيضاً لِيَكُونَ دالاً على ذلكَ العَرَضِ الأصليِّ، وإمَّا أَنْ لا يَكُونَ، فالأولُ هو الكِنَايَةِ، والثاني هو المجازُ"^{٨٢٠}، واعتماداً على هذا الرَّأيِ تَكُونُ الكِنَايَةُ لَفْظاً "أُرِيدَ به لازمٌ مَعْنَاهُ مَعَ جَوَازٍ إِرَادَةِ مَعْنَاهُ حِينَئِذٍ"^{٨٢١}.

ومنهم من يَعُدُّ الكِنَايَةَ جُزْءاً من الاستِعَارَةِ^{٨٢٢} وَيَعْتَبِرُها "واقعةً في المجازِ ومعدودةٌ منه"^{٨٢٣}، ومنهم مَنْ يَرى أَنَّها ليستْ مِنَ الحَقِيقَةِ ولا المجازِ وتَكُونُ عِنْدَ "تَرْكِ التَّصْرِيحِ

^{٨١٧} الجوهري، الصحاح في اللغة، مادة كنى.

^{٨١٨} الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٥٢.

^{٨١٩} ذكر بدوي طبانة خمسة تعريفات وضعها البلاغيون للكناية. ينظر: طبانة، بدوي، معجم البلاغة العربية (بيروت: دار ابن حزم، ط ٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، ٦٠٤ - ٦٠٧.

^{٨٢٠} الرازي، نهاية الإيجاز، ١٠٢.

^{٨٢١} القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ١: ٣١٨.

^{٨٢٢} ابن الأثير، المثل السائر، ٢: ١٨٥.

^{٨٢٣} العلوي، يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليميني (٦٦٩ - ٧٤٩هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هندأوي (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٢م)، ٢٠١.

بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك^{٨٢٤}، ومنهم من لم يفرق بين الكنية والكناية واعتبرهما اسمين لمسمى واحد^{٨٢٥}.

إن التأمل في آراء البلاغيين القدامى يلحظ أن تعريفاتهم للكناية كانت "تدور في حلقة تسميتها، أو تجاذبها بين المجاز والحقيقة، أو قضية الإسناد والأقيسة المنطقية واللازم والمزوم دون الالتفات إلى بيان السياق القولي للنص الدلالي"^{٨٢٦}، أما الدرس البلاغي الحديث فقد انغلق - في معظمه - على آراء القدامى، وبقي يدور في الفلك الذي داروا فيه، ولم يأت بجديد، وتعامل حتى مع الأمثلة التي استشهد بها الأقدمون على أنها نماذج ثابتة لا تقبل التغيير أو التبديل، ولكن لا يعني ذلك عدم وجود آراء حديثة تنقسم بنوع من التجديد ومنها أن "المجاز المرسل يصير حالة خاصة من الكناية، لأن كلاً منهما يحتوي على علاقة بين شيئين اثنين، وإذا صح هذا فإن كثيراً من العلاقات المنسوبة إلى المجاز المرسل هي علاقات الكناية"^{٨٢٧}.

ليس مما يخدم هذا البحث الخوض في اختلاف البلاغيين حول مفهوم الكناية وعلاقتها بغيرها من الصور البلاغية الأخرى، أو التحيز لرأي من آرائهم، والأولى من ذلك أن نتبع الكينيات التي جاءت في الرسائل الأندلسية، حيث ورد في ثنايا تلك الرسائل الكثير من الصور الكنائية، منها ما يحمل على وجه المجاز، ومنها ما يحمل على وجه الحقيقة، منها ما يحتمل جواز معناها الأصلي، ومنها لا يحتمل ذلك، كما إن بعض الكينيات تكونت من لفظة واحدة، وبعضها تكون من لفظتين أو ألفاظ مجتمعة، وفي جميع الحالات تبقى قصديّة الكاتب هي المعول الذي يميز الكناية من عدمها.

من أمثلة الكناية التي وردت في الرسائل الأندلسية ما جاء في رسالة الشقندي التي فاضل بها بين الأندلس وبين العدو وقال فيها: "ما هذه المباهة التي لا تجوز؟ وكيف

^{٨٢٤} السكاكي، مفتاح العلوم، ٤٠٧.

^{٨٢٥} النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري (٦٦٧ - ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٦م)، ٣: ١٥٢.

^{٨٢٦} نغاس، وليد شاكر، دراسة سيميائية في شعر أبي تمام، أطروحة دكتوراه (العراق: جامعة بغداد، ١٩٩٧م)، ٩٩.

^{٨٢٧} مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري - استراتيجية التناص (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٨٥م)، ١١٥.

تُبْدِي أَمَامَ الفتاة العجوز؟ سَلْ العيونَ إِلَى وجهِ مَنْ تَمِيلُ؟ واستخبرَ الأسماعَ إِلَى مَنْ تُصْغِي؟^{٨٢٨}، وعندما تَطَرَّقَ الشَّقْنَدِيُّ لمدنِ الأندلس قال: "ولكنْ جُعِلَتْ إشبيلية بَلْ اللهَ جَعَلَهَا أُمَّ قَرَاهَا، ومركزَ فَخْرِهَا وَعُلاهَا، إِذْ هِيَ أَكْبَرُ مُدْنِهَا، وَأَعْظَمُ أَمْصَارِهَا"^{٨٢٩}، وواصلَ الشَّقْنَدِيُّ قَائِلًا: "وَأَمَّا جِيَانُ فَإِنَّهَا لِبِلَادِ الأندلسِ قَلْعَةٌ، إِذْ هِيَ أَكْثَرُهَا زَرْعًا، وَأَصْرُمُهَا أَبْطَالًا، وَأَعْظَمُهَا مَنَعَةً، وَكَمْ رَامَتْهَا مِنْ عَسَاكِرِ التَّصَارِي عِنْدَ فتراتِ الْفِتَنِ فَرَاوْهَا أَبْعَدَ مِنَ الْعَيُوقِ، وَأَعَزَّ مَنَالًا مِنْ بَيْضِ الْأُنُوقِ"^{٨٣٠}.

فِي الْعِبَارَاتِ السَّابِقَةِ الْمُحْتَرَاةِ مِنَ الرِّسَالَةِ كَتَبَ الشَّقْنَدِيُّ بِالْفَتَاةِ عَنِ الأندلسِ، وَبِالْعَجُوزِ عَنِ الْعُدُوةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ، وَكَمَا تُفَضَّلُ الْفَتَاةُ عَلَى الْعَجُوزِ تُفَضَّلُ الأندلسُ عَلَى الْعُدُوةِ، وَقَدْ اخْتَصَرْتُ الْكِنَايَتَانِ اللَّتَانِ كَانَتَا عَنْ مَوْصُوفٍ كَثِيرًا مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَوْ لَا الصُّورَةُ الْكِنَايِيَّةُ لَقِيلَتْ فِي مَعْرِضِ الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ الأندلسِ وَبَيْنَ الْعُدُوةِ، كَمَا كَتَبَ الْكَاتِبُ بِأَمِّ الْقُرَى عَنْ عِظَمِ إشبيلية وَأَهَمِّيَّتِهَا، وَيَلْفِتُ نَظْرَنَا فِي هَذِهِ الْكِنَايَةِ أَمْرَانِ: أَوَّلُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْكِنَايَةَ مَأْلُوفَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كِنَايَةً عَنْ مَكَّةَ الْمُكْرَّمَةِ^{٨٣١}، وَكَانَتْ كِنَايَةً عَنْ مَوْصُوفٍ، أَمَّا الْكَاتِبُ فَقَدْ كَتَبَ بِمَا عَنْ صِفَةٍ حِينَ جَعَلَ إشبيلية تَتَقَدَّمُ عَلَى بِلَادِ الأندلسِ كَمَا تَتَقَدَّمُ مَكَّةُ الْمُكْرَّمَةُ عَلَى سَائِرِ الْبِلَادِ، وَثَانِيَهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْكِنَايَةَ جَاءَتْ مِنْ تَرْكِيبٍ مَجَازِيٍّ حِينَ شَبَّهَ الْكَاتِبُ إشبيلية بِأُمَّ وَشَبَّهَ بِلَادَ الأندلسِ بِأَبْنَائِهَا، كَذَلِكَ كَانَتْ الْعِبَارَتَانِ "أَبْعَدُ مِنَ الْعَيُوقِ"^{٨٣٢} وَأَعَزُّ مَنَالًا مِنْ بَيْضِ الْأُنُوقِ"^{٨٣٣} كِنَايَتَيْنِ عَنْ صِفَةٍ، حَيْثُ كَتَبَ الْكَاتِبُ بِمَا عَنْ قُوَّةِ جِيَانِ وَمَنَعَتِهَا، وَعَدَمِ قُدْرَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَى غَلْبِهَا أَوْ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا.

^{٨٢٨}المقري، نفع الطيب، ٣: ١٨٧.

^{٨٢٩}المصدر السابق، ٣: ٢١٤.

^{٨٣٠}المصدر السابق، ٣: ٢١٧.

^{٨٣١}ينظر: الشورى، آية ٧.

^{٨٣٢}العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه. ابن منظور، لسان العرب، مادة عوق.

^{٨٣٣}الأنوق: طائر الرخمة، وفي المثل "أعز من بيض الأنوق" لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة، المصدر السابق، مادة أنق.

ومن الكنايات الواردة في الرسائل الأندلسية ما جاء في رسالة كتبها ابن عميرة إلى الخليفة الموحد يّ يستنجد به وقال فيها: "فأما الأوطان فقد أسلتهم عنها جهة ثُنبت العزّ فيما ثُنبته، وتنفي من الضيم ما تلك ثُنبته، وما ذكر السّاخِطُ، على المحلّ السّاقط، منازل عادت على مبانها أطلالاً، ومغانها محالاً، وللعبد حال يستقبل بها من النظر الكريم - أدامه الله تعالى - ما أعين الآمال إليه صور، ورجاء الجميع عليه مقصود" ^{٨٣٤}.

في نصّ ابن عميرة نراه قد كنى بالجهة التي ثُنبت العزّ عن العزّة التي يتّصف بها أهل العدو، وكانت الكناية عن نسبة لآته نسب العزّ إلى الجهة ولم ينسبها إلى الناس الذين يحيون في تلك الجهة، وترى أنّ الكناية جاءت من تركيب مجازي حين شبه الكاتب الجهة بأرض ثُنبت والعزّ بشجر ينبّت، كما كنى بالمباني التي عادت أطلالاً وبالمغاني التي أصبحت محالاً عن خراب البلاد التي استبدّ بها التّصاري واستولوا عليها، وكانت هاتان الكنيتان عن صفة أراد الكاتب أن يوصف بها تلك البلاد.

كما نجد للكنايات أمثلة أخرى منها ما ورد في رسالة كتبها أبو القاسم البلويّ عن والي إشبيلية وفيها يشكو من العناصر الكوميّة التي عاثت الفساد في بلاد الأندلس وجاء في تلك الرسالة ما نصّه "وأطلت الآن الصّائفة التي صافت، فأدرك الرّعية ما خشيت من الضرر فيها وخافت، فإنّهم شحذوا للاستطالة مدهامهم، ومدّوا في الأذية خطاهم، وتلمّظوا للزرع تلمّظ المستعدين لانتهاهه، المتأهبين لأنّ يحولوا بينه وبين أربابه" ^{٨٣٥}.

ومنها أيضاً ما جاء في رسالتين كتبهما الفازاريّ: الأولى أرسلها إلى أحد إخوانه وسأله فيها الدّعاء له وقد جاء في تلك الرّسالة قوله: "فأعني يا أخي أعانك الله على الخير، ووقاك الحاجة إلى الغير، بذكرى متى تنبّهت من غفوة، وتلهفت لهفوة، وأمدني بدعوة يخلصها القلب الحاضر، وثلث الليل الآخر، ولا تجعل دعاءك بيضة العقر، ولتكن حاجتي منك على ذكر، فالعريق لا يستعني عن أخذ بيده وإن كان ساجحاً، والمذنب لا يستبدّ دون مستغفر لذنبه ولو عاد صالحاً" ^{٨٣٦}.

^{٨٣٤}المقري، نفح الطيب، ١: ٣١٠.

^{٨٣٥}عزاوي، أحمد، رسائل موحدة، ٣١٩.

^{٨٣٦}الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاري الأندلسي، ٤٣.

وأما الثانية فأرسلها إلى إخوانه بعدما أُجبرَ على الإقامة في بيته وجاءَ فيها "طالما أملتُ بذلك السَّاحِل، وأسلفتُ فيه أياماً طويَّتها طيَّ المراحل، وهَا أَنَا الْآنَ جَلِسُ الْبَيْتِ، وَحَيٌّ فِي مَعْنَى الْمَيِّتِ، عَاقَتْنِي عَنْ لُحْجِ الطَّيْرِ عَوَاتِقُ، وَحَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَدَائِقِ"^{٨٣٧}

في النَّصِّ الْأَوَّلِ كَتَبَ الْكَاتِبُ بِالْمَدَى الَّتِي تُشْحَذُ لِلْإِسْتِطَالَةِ، وَالْخُطَا الَّتِي تُمَدُّ لِلْأَذْيَةِ بِاسْتِعْدَادِ الْكُومِيَّينَ لِلْإِضْرَارِ بِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ، وَكَانَتِ الْكِنَايَةُ عَنْ صِفَةٍ، حَيْثُ أُطْلِقَ الْمَزُومُ عَلَى الْإِزْمِ مَعَ جَوَازِ إِرَادَةٍ مَعْنَى الْمَزُومِ أَوْ الْمَعْنَى الْأَصْلِيَّ وَذَلِكَ لِإِعْدَمِ وُجُودِ قَرِينَةٍ تَمْنَعُ ذَلِكَ، فَيَجُوزُ لِلْمُدَى أَنْ تُشْحَذَ وَلِلْخُطَى أَنْ تُمَدَّ، أَمَّا الْفَارَازِيُّ فَقَدْ كَتَبَ بِيضَةَ الْعُقْرِ^{٨٣٨} عَنْ صِفَةٍ، حَيْثُ طَلَبَ مِنْ أَخِيهِ أَنْ لَا يَكُونَ دُعَاؤُهُ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ، وَهُنَا أَيْضًا يَجُوزُ إِرَادَةُ مَعْنَى الْمَزُومِ لِأَنَّ الدَّجَاجَةَ قَدْ تَضَعُ بِيضَةً آخِرَةً وَلَا تَبْيِضُ بَعْدَهَا، كَمَا كَتَبَ فِي رِسَالَتِهِ الثَّانِيَةِ بِحِلْسِ الْبَيْتِ عَنْ طُولِ الْمَكْثِ فِي بَيْتِهِ، وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةٍ، وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْكِنَايَةِ لَا يَجُوزُ إِرَادَةُ مَعْنَى الْمَزُومِ لِأَنَّ الْكِنَايَةَ كَانَتْ مِنْ تَرْكِيبٍ مَجَازِيٍّ حَيْثُ شَبَّهَ الْكَاتِبُ الْبَيْتَ بِدَابَّةٍ لَهَا حِلْسٌ.

كَثُرَتِ الْكِنَايَاتُ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَكَانَ جُلُّهَا مِنَ الْكِنَايَاتِ الْمَعْرُوفَةِ الْمَأْلُوفَةِ كَعَضُّ الْبَنَانِ وَقَرَعَ السِّنِّ^{٨٣٩}، وَهَمَا كِنَايَتَانِ عَنِ النَّدَمِ، وَإِرْغَامِ الْأَنْفِ^{٨٤٠} كِنَايَةً عَنِ الذَّلِّ، وَمُسَالَمَةِ الدَّهْرِ^{٨٤١} كِنَايَةً عَنِ الْإِطْمِئْنَانِ، وَقَصُّ الْأَجْنَحَةِ^{٨٤٢} كِنَايَةً عَنِ الضَّعْفِ، وَمَسْقَطِ الرَّأْسِ^{٨٤٣} كِنَايَةً عَنِ مَكَانِ الْمَوْلِدِ، وَشُمُوخِ الْأَنْوُفِ^{٨٤٤} كِنَايَةً عَنِ التَّيِّهِ، وَاسْتِعْصَالِ شَأْفَةِ الْأَعْدَاءِ^{٨٤٥} كِنَايَةً عَنِ هَزِيمَتِهِمْ، وَالنَّارِ الْمَشْبُوبَةِ^{٨٤٦} كِنَايَةً عَنِ الْكَرَمِ، وَالسَّبْعِ^{٨٤٧} كِنَايَةً عَنِ

^{٨٣٧} المصدر السابق، ١٠٨.

^{٨٣٨} بيضة العقر: اسم لآخر بيضة تكون من الدجاجة فلا تبيض بعدها، فتضرب مثلاً لكل شيء لا يكون بعده شيء من جنسه. ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة عقر.

^{٨٣٩} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ١: ١٧٤.

^{٨٤٠} ينظر: بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٣٤.

^{٨٤١} ينظر: عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٠٧.

^{٨٤٢} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٢.

^{٨٤٣} ينظر: المصدر السابق، ٤: ٤٩٣.

^{٨٤٤} ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٩٥.

^{٨٤٥} ينظر: عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٣١.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، وَالْكُشُوفِ وَالْخُشُوفِ^{٨٤٨} كِنَايَةً عَنِ الْمَوْتِ، وَدَيِّبِ الْعَقَارِبِ^{٨٤٩} كِنَايَةً عَنِ الْإِفْسَادِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ كِنَايَاتٍ.

عِنْدَ النَّظَرِ فِي مَجْمُوعِ الْكِنَايَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ يَلْفِتُ نَظَرُنَا أَنَّ الْحِظَّ الْأَكْبَرَ كَانَ لِلْكِنَايَةِ عَنْ صِفَةٍ، وَالْحِظَّ الْأَقْلَّ كَانَ لِلْكِنَايَةِ عَنْ نِسْبَةٍ، وَلَا يَخْلُو - فِي حَالَاتٍ قَلِيلَةٍ - التَّعْبِيرُ الْكِنَائِيُّ مِنْ غُمُوضٍ وَتَكَلُّفٍ^{٨٥٠} وَلَكِنْ كَانَتْ مُعْظَمُ الْكِنَايَاتِ وَاضِحَةً حَيْثُ لَمَّحَتْ إِلَى مَعَانٍ اسْتَتَرَتْ خَلْفَهَا، وَلَمْ تَكُنْ الْمَعَانِي الْمُسْتَتِرَةُ غَامِضَةً لِأَنَّ جُلَّ الْكِنَايَاتِ كَانَ مَأْلُوفًا وَمُسْتَعْدَمًا فِي الثَّرَاثِ الْأَدَبِيِّ السَّابِقِ لِعَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ، كَمَا أَنَّ التَّعْبِيرَ الْكِنَائِيَّ يَتَطَلَّبُ أَلْفَاظًا قَلِيلَةً وَيَبْقَى عَالِقًا فِي الذَّهْنِ مَثَلًا أَمَامَ الْعَيْنِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ، وَقَدْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى وَسْمِ الْمَعْنَى بِسِمَتِي الْإِيحَاذِ وَالتَّأَثِيرِ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي.

^{٨٤٦} ينظر: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٢٩.

^{٨٤٧} ينظر: المصدر السابق، ٢١٦.

^{٨٤٨} ينظر: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٥٢.

^{٨٤٩} ينظر: عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٠٧.

^{٨٥٠} ومثال ذلك الكنايات التي استعملها ابن مغاور في رسالة تعزية. ينظر: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي،

الفصل الثاني

التشكيلات البديعية في الرسائل الأندلسية

للجذر اللغوي (بدع) مدلولات لغوية تدور حول معانٍ عديدةٍ منها: الجديد والطريف والغريب والخارج عن المؤلف والمخترع على غير مثالٍ سابق، نقول: بدع الشيء يبدعه أي أنشأه وبدأه، والبديع الذي يكون أولاً، وهو الحدث العجيب، والبديع من أسماء الله الحسنى لإبداعه الأشياء وإحداثه إيّاها وهو البديع الأول قبل كل شيء، وسقاء بديع: جديد، وأبدع الشاعر: جاء بالبديع^{٨٥١}.

أمّا في الاصطلاح فقد كان البديع يرمز للصّور والتعبيرات التي لم يألّفها الأدب من قبل^{٨٥٢}، ثم أخذ المصطلح وصفه البلاغيّ على يد ابن المعتز الذي جعل الاستعارة فناً من فنون البديع^{٨٥٣}، ثم استوى تحديده المصطلح بالتعريفين اللذين وضعهما القزويني وابن خلدون حيث قال القزويني بأنّ البديع "هو علمٌ يُعرف به وجوهٌ تحسّن الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال ووضوح الدلالة"^{٨٥٤}.

أمّا ابن خلدون فقد عرّفه بقوله "هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التّمنيق إمّا بسجعٍ يفصله، أو تجنيسٍ يشابه بين ألفاظه، أو ترصيعٍ يقطع أوزانه، أو توريةٍ عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباقٍ بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك"^{٨٥٥}.

^{٨٥١} ابن منظور، لسان العرب، مادة بدع.

^{٨٥٢} ينظر استخدام كلمة البديع في: الجاحظ، البيان والتبيين، ٤: ٥٥.

^{٨٥٣} ينظر: ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بن المتوكل العباسي (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ)، البديع، تحقيق: أغناطيوس كراتشكوفسكي (بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٢ م)، ٣. كذلك اعتبر ابن رشيق الاستعارة فناً بديعياً، ينظر:

ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ١: ٢٦٨.

^{٨٥٤} القزويني، الإيضاح، ١: ٣٨٣.

^{٨٥٥} ابن خلدون، تاريخه، المقدمة، ٤١٤.

ذَكَرَ ابنُ خُلْدُونٍ فِي تَعْرِيفِهِ طَائِفَةً مِنَ الْحُسْنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ وَجَاءَتْ فِي نَوْعَيْنِ: نَوْعٌ مُتَعَلِّقٌ بِاللَّفْظِ، وَآخَرٌ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَعْنَى، وَخِلَالَهُ تَتَبَعَ الْبَدِيعُ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَجَدْنَا أَنَّ أَكْثَرَ الْحُسْنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ حُضُورًا كَانَتْ تَتَمَثَّلُ فِي السَّجْعِ وَالْجِنَاسِ، أَمَّا الطَّبَاقُ وَالْمُقَابَلَةُ فَكَانَا مِنْ أَكْثَرِ الْحُسْنَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ دَوْرَانَا فِي تِلْكَ الرِّسَائِلِ، وَفِيمَا يَلِي حَدِيثُ مُفَصَّلٍ عَنْ أَكْثَرِ الْحُسْنَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا.

أولاً: السَّجْعُ

"السَّيْنُ وَالْجَيْمُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى صَوْتٍ مُتَوَازِنٍ، مِنْ ذَلِكَ السَّجْعُ فِي الْكَلَامِ، وَهُوَ أَنْ يُؤْتَى بِهِ وَلَهُ فَوَاصِلُ كَقَوَائِي الشَّعْرِ"^{٨٥٦}، وَسَجْعٌ يَسْجَعُ سَجْعًا اسْتَوَى وَاسْتَقَامَ، وَأَشْبَهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَسَجْعَ الْحَمَامِ هَدَلَ عَلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ"^{٨٥٧}.

وَالسَّجْعُ فِي اصْطِلَاحِ الْبَلَاغِيِّينَ "هُوَ تَوَاطُؤُ الْفَاصِلَتَيْنِ مِنَ النَّثْرِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ.... أَعْنِي تَوَافُقَ الْفَاصِلَتَيْنِ فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ، وَهُوَ فِي النَّثْرِ كَالْقَافِيَةِ فِي الشَّعْرِ"^{٨٥٨}، وَإِذَا اسْتَعْمِلَ بِاعْتِدَالٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، وَكَانَتْ سَجْعَاتُهُ غَيْرَ قَلَقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا فَإِنَّ السَّجْعَ "يُولَدُ إِيقَاعًا مَلْحُوظًا يُثِيرُ انْتِبَاهَ السَّامِعِ، وَيَزِيدُ مِنْ قُوَّةِ الدَّلَالَةِ"^{٨٥٩}.

كَانَ لِلْكِتَابِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ بَاعٌ طَوِيلٌ فِي اسْتِعْمَالِ هَذَا اللَّوْنِ الْبَدِيعِيِّ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ، وَتَكَادُ لَا تَخْلُو رِسَالَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الرِّسَائِلِ الْإِخْوَانِيَّةِ أَوْ الْوَصْفِيَّةِ مِنْ عِبَارَاتٍ مَسْجُوعَةٍ، وَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ مَا كَتَبَهُ ابْنُ عُصْمَةَ فِي مُسْتَهْلِ رِسَالَةٍ أَرْسَلَهَا لِابْنِ الْأَبَارِ وَقَالَ فِيهَا: "أَيُّهَا الْأَخُ الَّذِي دُهِشَ نَاطِرِي لِكِتَابِهِ، بَعْدَ أَنْ أَدْهَشَ خَاطِرِي مِنْ إِغْبَابِهِ، وَسَرَّيَ مِنْ بَشَرِهِ إِيْمَاضُ، بَعْدَ أَنْ سَاءَنِي مِنْ جِهَتِهِ إِعْرَاضُ، جَرَتْ عَلَى ذِكْرِهِ الصَّلَّةُ فَقَوَّمَ قِدْحَ نَبْعَتِهَا، وَرَوَّى أَكْنَافَ ثَلَعَتِهَا، وَأَحْدَثَ ذِكْرًا مِنْ عَهْدِنَا الْمَاضِي فَنَقَطَ وَجْهَ عَرُوسِهِ، وَشَعَشَعَ خَمَرَ كُؤُوسِهِ، وَسَقَى بِمَاءِ الشَّبِيبَةِ ثَرَاهُ، وَأَبْرَزَ مِثْلَ مَرَاةِ الْغَرِيْبَةِ مَرَاهُ، فَبُورِكَ فِيهِ أَحْوَذِيًّا وَصَلَ

^{٨٥٦} ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة سجع.

^{٨٥٧} ابن منظور، لسان العرب، مادة سجع.

^{٨٥٨} التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (٧١٢ - ٧٩٣هـ)، مختصر المعاني (القاهرة: مكتبة محمد علي

صبيح، د.ت)، ١: ٢٧٨.

^{٨٥٩} بليّة، بغداد أحمد، النظم الصوتي في القرآن الكريم وترجمته (الجزائر: دار الغرب للنشر، ٢٠٠٥م)، ١٢٦.

رَحِمَهُ، وَكَسَا مَنْظَرَهُ مِنَ الْبَهْجَةِ مَا كَانَ حَرَمَهُ، وَحَيَّا اللَّهُ مِنْهُ وَلَيَّا عَلَى سَالِفِ عَهْدِي تَمَادَى، وَبِشِعَارٍ وَدِّي نَادَى، وَبَيَّنَ الْإِحْسَانَ شَيْمَتُهُ، وَأَبَانَ وَالْبَيَانَ لَا تَنْجَابُ عَنْهُ دِيمَتُهُ، وَلَا تَعْلُو بِغَيْرِ قَلَمِهِ قِيمَتُهُ^{٨٦٠}.

حَفَلَ النَّصُّ السَّابِقُ - كَمَا الرِّسَالَةُ الَّتِي اجْتَزَى مِنْهَا - بِالسَّجْعِ، وَكَانَ السَّجْعُ فِيهَا مِنَ التَّوَعِ الْمُتَوَسِّطِ^{٨٦١}، حَيْثُ كَانَتِ السَّجْعَاتُ^{٨٦٢} مُتَسَاوِيَةً الطُّولِ مُتَوَسِّطَةً لَيْسَتْ قَصِيرَةً وَلَا طَوِيلَةً، كَمَا اتَّفَقَتْ بَعْضُ الْفَوَاصِلِ مَعَ قَرَائِنِهَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ لَكِنَّهَا اخْتَلَفَتْ مَعَهَا فِي الْوِزْنِ وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِالسَّجْعِ الْمَطْرَفِ، وَنَجَدُ فَوَاصِلَ أُخْرَى اتَّفَقَتْ مَعَ قَرَائِنِهَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ وَفِي الْوِزْنِ وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِالسَّجْعِ الْمُتَوَازِي^{٨٦٣}، وَقَدْ جَاءَتْ السَّجْعَاتُ جَمِيعُهَا دُونَ تَكْلُفٍ، وَأَضْفَتْ عَلَى النَّصِّ نَعَمًا مُوسِيقِيًّا عَذْبًا يُوحِي بِتَفَاعُلِ الْكَاتِبِ، وَيَجْذِبُ انْتِبَاهَ الْمُتَلَقِّي.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ السَّجْعِ مَا وَرَدَ فِي رِسَالَةِ أَرْسَلَهَا ابْنُ هُودٍ مُوصِيًا قُضَاتَهُ وَعُمَالَهُ، وَقَدْ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ الَّتِي كَتَبَهَا عَنْهُ ابْنُ الْجَنَانِ قَوْلُهُ: (الْعَدْلَ الْعَدْلَ فِيهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَبِقَامَتِهِ أُقِيمَتِ السُّنَّةُ وَالْفَرَضُ) ﴿لِلتَّقْوَى أَقْرَبُ هُوَ أَعْدِلُوا﴾^{٨٦٤} وَأَقْوَى مَا تَشْتَدُّ بِهِ أَرْكَانُ الدِّينِ وَتَقْوَى، أَمَّا إِنَّ الْحَقَّ فِي أَنْ لَا تَتَعَدَّى أَسَالِيبَ الشَّرْعِ وَقَوَانِينَهُ، وَأَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي قَضِيَّةٍ مِنَ الْقَضَايَا أَفْصَاحَهُ وَتَبْيِينَهُ، وَأَنْ يُجَازَى بِحُكْمِهِ الْمُسِيئُونَ وَالْحَسَنُونَ ﴿يُوقِنُونَ لِقَوْمٍ حُكْمًا اللَّهُ مِنْ أَحْسَنُ وَمَنْ﴾^{٨٦٥}... أَلَا وَإِنَّ مَنْ وَلِينَاهُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ مَطْلُوبٌ بِهِ، وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ عِنْدَ رَبِّهِ، فَلْيَنْظُرْ أَمْرُؤُ فِي جُرْئِيَّةٍ مَا نِيَطُ بِهِ

^{٨٦٠}المقري، نفح الطيب، ٤: ٤٩١.

^{٨٦١}ينقسم السجع من جهة الطول والقصر إلى ثلاثة أنواع: قصير ومتوسط وقصير. ينظر: الميداني، عبد الرحمن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها (دمشق: دار القلم، ١٩٩٦م)، ١: ٨٤٤.

^{٨٦٢}يطلق على الفقرة المنتهية بالفاصلة سجعة وجمعها سجعات، ويطلق عليها قرينة لمقارنتها بأختها وجمعها فقرات أو فقرات أو فقر. ينظر: المصدر السابق، ١: ٨٤١.

^{٨٦٣}ينظر أنواع السجع وأقسامه في: المصدر السابق، ١: ٨٤٤ - ٨٤٥. والسيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن (القاهرة: المطبعة الأزهرية، ط ٢، ١٩٢٥م)، ١: ٣٥١.

^{٨٦٤}المائدة: آية ٨.

^{٨٦٥}المائدة: آية ٥٠.

وَكُلِّيَّتِهِ، وَلِيْرَاقِبَ فِيمَا لَدَيْهِ عَالَمَ خَفِيَّتِهِ وَحَلِيَّتِهِ، "أَلَا وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"، فَمَنْ حَفِظَ اللَّهُ حَفِظَهُ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ وَآلِهِ، وَقَضَى لَهُ بِالسَّعَادَةِ فِي حَالِهِ وَمَالِهِ، وَأَنْجَاهُ يَوْمَ عَرْضِهِ وَسُؤَالِهِ، (وَالْخَلْقُ عِيَالٌ اللَّهُ أَحْبَبُهُمْ إِلَيْهِ أَحَبَّهُمْ لِعِيَالِهِ) ^{٨٦٦}.

زَهَا النَّصُّ السَّابِقُ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ، وَبِالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ وَقَدْ كَانَتْ فَوَاصِلُ السَّجَعَاتِ غَيْرَ الْمُتَكَلِّفَةِ مُتَّفِقَةً مَعَ فَوَاصِلِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ، فَأَكْسَبَ إِيقَاعُ السَّجْعِ الْعَذْبِ النَّصَّ رَوْنَقًا وَجَمَالًا، وَأَضْفَى عَلَيْهِ ظِلَالًا مِنَ الْجَلَالِ وَالتَّوْقِيرِ، كَمَا زَادَ مِنْ أَهْمِيَّةِ الْوَصَايَا وَالتَّصَاحُّحِ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَمَدَّةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِضَافَةً إِلَى تَأْثِيرِ النَّصِّ وَبَقَائِهِ عَالِقًا فِي ذَاكِرَةِ الْمُتَلَقِّيِ عُلُوقَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ فِيهَا.

لَمْ يَكُنْ اسْتِعْمَالُ السَّجْعِ عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجُودَةِ، فَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَقْرَأُ فِيهِ سَجَعَاتٍ مُؤَفَّقَةً جَيِّدَةً تَقْرَأُ سَجَعَاتٍ أُخْرَى كَانَتْ أَقْلَ جُودَةً وَتَوْفِيقًا، وَمِنْ أَمْثَلِهَا مَا وَرَدَ فِي رِسَالَةِ دِيَوَانِيَّةِ لُؤَالِي إِشْبِيلِيَّةٍ وَاصِفًا إِقْبَالَ الرَّعِيَةِ عَلَى تَلْبِيَةِ دَعْوَتِهِ لِلْمُشَارَكَةِ فِي الْجِهَادِ، وَقَدْ كَتَبَ الرَّسَالَةَ ابْنُ مَحْشَرَةٍ وَجَاءَ فِيهَا مَا نَصُّهُ "فَكَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْمَبَادِرَةِ إِلَى ذَلِكَ وَالْإِسْرَاعِ، وَالْإِعْنَاقِ إِلَى إِجَابَةِ دَاعِيهِ وَالْإِهْطَاعِ، وَالتَّلَقِّيِ لِرَايَتِهِ الْمَرْفُوعَةِ بَيْنَ الْانْقِيَادِ وَالْانْطِبَاعِ، مَا قَضَى بِاسْتِحْكَامِ الْأَصْفَاقِ عَلَيْهِ مِنَ الْكَافَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، وَرَغَبُوا فِي إِكْمَالِ ذَلِكَ لِفَوْرِهِمْ، وَأَلْحُوا فِي طَلَبِ الْمَبَايَعَةِ لِحَيْنِهِمْ، وَاتَّفَقَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ كَافَتِهِمْ وَجَمِيعِهِمْ" ^{٨٦٧}.

وَمِنْ أَمْثَلِهَا أَيْضًا مَا جَاءَ فِي رِسَالَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ: الْأُولَى كَتَبَهَا ابْنُ الْجَنَّانِ رَدًّا عَلَى رِسَالَةِ إِشَادَةِ وَصَلْتِهِ مِنْ ابْنِ عُمَيْرَةَ وَجَاءَ فِيهَا مَا نَصُّهُ "وَأَتَى يُضَاهِي الْفُرَاتُ بِالنُّعْبَةِ، وَيُيَاهِى بِالْفُلُوسِ مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنْوُوَ بِالْعُصْبَةِ، وَأَيُّ حَظٍّ لِلْكَالَالَةِ بِالنَّشَبِ، وَقَدْ اتَّصَلَ لِلْوَرَثَةِ عُمُودُ النَّسَبِ، هِيَهَاتَ وَاللَّهُ الْمُطْلَبُ، وَشَتَانَ بَيْنَ الدَّرِّ وَالْمَخْشَلَبِ، وَقَدْ سَيَّمَ الْعَلَبُ، وَرَجَعَ إِلَى قِيَادَةِ السَّلَبِ" ^{٨٦٨}.

^{٨٦٦}المقري، نفح الطيب، ٧: ٤٠٩.

^{٨٦٧}بروفنصال، رسائل موحدية، ١٦١-١٦٢.

^{٨٦٨}المقري، نفح الطيب، ٧: ٤٢٠.

أما الرسالة الثانية فخطّها ابنُ مُغاورٍ في التعزية حيثُ قال فيها ذاكراً منّا قِبَلِ المتوفى "إِنْ كَانَ قَائِدُنَا الْمَدَدِيُّ، وَقَدْحُنَا الْمَعْلَى، وَصَارِمُنَا الْمَجْلَى، وَبَدْرُنَا الْمُنِيرَ كُلَّمَا تَجَلَّى، قَدْ كُسِفَ وَخُسِفَ، وَاقْتُطِفَ نَوْرُهُ، وَنُورُهُ اخْتُطِفَ، وَحُمِّ حِمَامُهُ وَأَزِفَ، وَنُضِبَ بِحَرْهُ وَنُزِفَ، وَهُدَّ طَوْدُهُ وَنُسِفَ، حِينَ بَزَلَ نَابُهُ، وَحُمِدَ مَنَابُهُ، وَتَوَقَّدَ شِهَابُهُ، وَنِيطَتْ بِسِرْحَةٍ أَثْوَابُهُ، وَكَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ رَاحَةً كَفَّهَا، وَمَرَمَقَ طَرْفِهَا، وَسَهْمَ كِنَانَتِهَا، فَهَلْ صَارَ إِلَّا مَا إِلَيْهِ مَصِيرُكُمْ؟ وَهَلْ رَكِبَ إِلَّا الْحِجَّةَ الَّتِي عَلَيْهَا مَسِيرُكُمْ؟"^{٨٦٩}

بَدَتْ الْمَثَالِبُ وَاضِحَةً فِي سَجَعَاتِ النُّصُوصِ السَّابِقَةِ، وَظَهَرَتْ عُيُوبُ السَّجَعِ فِيهَا، فَفِي رِسَالَةِ ابْنِ مَحْشَرَةَ نَرَاهُ يَذْكُرُ لَفْظَتِي (الْإِجْمَاعُ وَالْجَمِيعُ) وَهُمَا مِنَ الْمُرَادِفَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي تَتَّفِقُ فِي مَعْنَاهَا مَعَ مَعْنَى الْكَافَّةِ الْمَذْكُورَةِ مَرَّتَيْنِ فِي النَّصِّ، وَلَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ بِحَاجَةٍ إِلَى ذِكْرِ هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ إِلَّا تَحْقِيقًا لِلْسَّجَعِ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى إِطَالَةٍ وَتَكَلُّفٍ.

وَفِي رِسَالَةِ ابْنِ الْجَنَانِ نَرَى الْفَقْرَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةَ غَيْرَ مُتَسَاوِيَتَيْنِ، فَالْأُولَى تَكُونُ مِنْ كَلِمَاتٍ أَرْبَعٍ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَزَادَتْ عَنْ عَشْرِ كَلِمَاتٍ، وَلِجَأِ الْكَاتِبِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ السَّجَعِ إِلَى اسْتِعْمَالِ (الْمَخْشَلَبِ)^{٨٧٠} وَهِيَ كَلِمَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ بِمَجَافِيَةٍ لِلسَّمْعِ وَغَيْرُ مَأْلُوفَةٍ، كَمَا كَانَتْ اللَّامُ فِي الْفَاصِلَةِ قَبْلَ الْأَخِيرَةِ مَفْتُوحَةً، بَيْنَمَا كَانَتْ فِي الْفَاصِلَةِ الْأَخِيرَةِ سَاكِنَةً مِمَّا سَبَّبَ نُفُورًا وَعَدَمَ انْسِجَامٍ فِي إِيقَاعِ السَّجَعِ بَيْنَ الْفَاصِلَتَيْنِ، أَمَّا فِي رِسَالَةِ ابْنِ مُغَاوِرٍ فَفَرَى التَّكَلُّفَ وَاضِحًا سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِي تَكَرُّرِ الْمُرَادِفِ اللَّغَوِيِّ، أَوْ فِي بِنَاءِ الْفِعْلِ اللَّازِمِ (نَضَبَ) لِلْمَجْهُولِ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا التَّكَلُّفِ سَبَبٌ إِلَّا تَحْقِيقَ السَّجَعِ.

كَانَ السَّجْعُ ظَاهِرَةً عَامَّةً فِي جُلِّ الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَقَلَّمَا نَجِدُ رِسَالَةً لَمْ يَلْتَزِمْ كَاتِبُهَا بِالسَّجَعِ، وَمِنَ الرِّسَائِلِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي لَمْ يَحْفَلْ كَاتِبُوهَا كَثِيرًا بِالسَّجَعِ رِسَالَةٌ أَرْسَلَهَا الْأَمِيرُ يُوْسُفُ قَبْلَ أَنْ تَوُولَ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْوَالِي غِرْنَاطَةَ وَاصِفًا أَحْدَاثَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي انْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ الْخَارِجِينَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُوَحَّدِيَّةِ، وَقَدْ خَطَّ تِلْكَ الرِّسَالَةَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ عِيَّاشٍ وَجَاءَ

^{٨٦٩} ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٥٢.

^{٨٧٠} المخشلب أو المشخلب: كلمة غير عربية تعني الخرز المعروف، وقد وردت بقول المتنبي:

بياض وجهه يُريك الشمس حالكة ودرُّ لفظٍ يُريك الدَّرَّ مُخْشَلِبًا

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ-)، شرح ديوان المتنبي (بيروت: دار القلم، د.ت)، ١:

فيها مَا نَصُّهُ "ولما أتى أمرُ اللهِ تعالى على هذا الجبلِ وأهله بما ذَكَرناه، ثَقَلْنَا بالموحِّدين - أعزَّهم اللهُ - من المنزلِ الذي مِنْهُ تَوَجَّهَهم للفتح، ونَزَلْنَا بهم هذا المنزلِ الذي حاطَبْنَاكم مِنْهُ، واتَّصَلَ تَتَبَعَ هذا الفَلَّ وأخذُ المَراصِدِ عَلَيْهِم، وَتَمَادَى ذَلِكَ وَكُلُّ الْجِهَاتِ المَجاوِرَةِ لهذا الجَبَلِ المَذْكَورِ مِمَّنْ كَانَتْ أَعْيُنُهُم نَاطِرَةً، وَأَذَانُهُمْ إِلَى مَا يَقَعُ إِلَيْهِ مُصْغِيَةً، قَدْ رَغِبُوا فِي الإِقَالَةِ، وَأَعْلَنُوا فِي التُّوبَةِ، وَسَعَوْا فِي إِحْرَازِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَتَسْوِغِ بُرْدِ العَافِيَةِ لَهُمْ، وَكُلُّ مَنْ قَرَعَ هَذَا الْبَابَ فَهُوَ لَهُمْ مَفْتُوحٌ، وَمَنْ اسْتَمَنَحَهُ فَهُوَ عَلَى عَوَائِدِهِ مَبْدُولٌ مَمْنُوحٌ"^{٨٧١}.

فِي هَذَا النَّصِّ أَرَادَ الْكَاتِبُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنِ الْأَفْكَارِ وَالْمَعَانِي دُونَ أَنْ يُقَيِّدَ نَفْسَهُ بِقِيُودِ السَّجْعِ، فَجَاءَتْ عِبَارَاتُهُ مُرْسَلَةً، وَلَا شَكَّ أَنَّ إِنْشَاءَ الْكَلَامِ الْمُرْسَلِ أَسْهَلُ مِنْ إِنْشَاءِ الْكَلَامِ الْمُسْجُوعِ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى رَوِيَّةٍ وَتَفَكِيرٍ عَلَى الْعَكْسِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُسْجُوعِ الَّذِي يَتَطَلَّبُ قَدْرًا مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّأْنِي وَعَصْرِ الذَّهْنِ حَتَّى يَسْتَطِيعَ الْمُنْشِئُ اخْتِيَارَ الْفَوَاصِلِ الَّتِي تَقِي بَغْرَضِ السَّجْعِ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَحَرَّرِ الْكَاتِبُ نِهَائِيًّا مِنَ السَّجْعِ، حَيْثُ نَرَى فِي رِسَالَتِهِ سَجَعَاتٍ مُخْتَلِفَةً ظَهَرَ مِنْهَا فِي هَذَا النَّصِّ فَاصِلَتَا الْفَقْرَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ.

ثَمَّةُ مُمْلَاحَظَاتٍ تَلَفَّتُ النَّظَرَ عِنْدَ دِرَاسَةِ السَّجْعِ الْوَارِدِ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، مِنْهَا أَنَّ اسْتِعْمَالَ السَّجْعِ كَانَ ظَاهِرَةً عَامَّةً فِي مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، حَيْثُ كَانَ الْمَذْهَبُ الْكِتَابِيُّ السَّائِدُ فِي النَّثْرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَمِيلُ إِلَى اسْتِعْمَالِ فُنُونِ الْبَدِيعِ وَخَاصَّةً السَّجْعِ بِكَثْرَةٍ، وَنَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ عَنَاوِينِ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ مَسْجُوعَةً أَوْ مُتَجَانِسَةً، وَمِنْ أَسْلُوبِ مُؤَلِّفِيهَا^{٨٧٢}.

وَكَانَ السَّجْعُ الْوَارِدُ فِي الرِّسَائِلِ فِي مُعْظَمِهِ سَجْعًا مُتَوَسِّطًا حَيْثُ كَانَتْ فِقْرُهُ مُتَوَسِّطَةً الطُّولِ، كَمَا كَانَ الثُّوْعُ الْعَالِبُ مِنْهُ هُوَ السَّجْعُ الْمَطْرَفُ وَهُوَ الَّذِي اتَّفَقَتْ أَوَاخِرُ فَوَاصِلِهِ، وَاخْتَلَفَتْ أَوْزَانُهُ، كَمَا أَنَّ السَّجْعَ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ لَمْ يَكُنْ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجُودَةِ، حَيْثُ نَجِدُ سَجَعَاتٍ جَاءَتْ مُوَفَّقَةً خَدَمَتْ الْمَعَانِي وَالْأَفْكَارَ الَّتِي أَرَادَهَا

^{٨٧١} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٠٤.

^{٨٧٢} سواء تلك الكتب التي ألفت خلال عصر الموحدين أو قبله أو بعده ومن تلك الكتب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري وغيرها من الكتب ذات العناوين المتجانسة أو المسجوعة.

الكَاتِبُ دُونَ تَكْلُفٍ أَوْ تَصْنُوعٍ، وَقَدْ اتَّسَمَ مُعْظَمُ السَّجْعِ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ بِهَذِهِ السِّمَةِ، وَلَا سِيَّمًا ذَلِكَ السَّجْعُ الَّذِي كَانَتْ فَوَاصِلُهُ مُتَّفِقَةً فِي أَوَاخِرِهَا مَعَ فَوَاصِلَ أُخْرَى مِنْ آيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَكِنْ نَجِدُ أَيْضًا سَجْعَاتٍ أُخْرَيَاتٍ كَانَتْ مُتَكَلِّفَةً مُتَصَنَّعَةً، وَكَانَ التَّكْلُفُ وَالتَّصْنُوعُ يَظْهَرَانِ فِي عَدَمِ تَسَاوِي الْفِقْرِ، أَوْ حَشْوِ النَّصِّ بِالْمُرَادِفِ اللَّغَوِيِّ، أَوْ اسْتِعْمَالِ أَلْفَاظٍ غَرِيبَةٍ مُسْتَهْجَنَةٍ، أَوْ ارْتِكَابِ أخطاءٍ لُغَوِيَّةٍ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ السَّجْعِ وَاتِّفَاقِ فَوَاصِلِهِ فِي أَوَاخِرِهَا، وَرَبَّمَا كَانَ سَجْعُ الْكَاتِبِ الْوَاحِدِ جَيِّدًا فِي رِسَالَةٍ وَمُتَكَلِّفًا فِي رِسَالَةٍ أُخْرَى، بَلْ رَبَّمَا كَانَ فِي الرِّسَالَةِ الْوَاحِدَةِ سَجْعَاتٌ جَيِّدَةٌ وَأُخْرَى لَا تَتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

ثانياً: الجِنَاسُ

يَعُودُ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ لِلْجِنَاسِ لِلْأَصْلِ (جِنْسٍ) وَهُوَ الضَّرْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الطَّيْرِ وَمِنَ حُدُودِ النَّحْوِ وَالْعَرُوضِ وَالْأَشْيَاءِ جُمْلَةً، وَالْجِنْسُ أَعَمُّ مِنَ التَّنَوُّعِ، وَمِنْهُ الْمَجَانِسَةُ وَالتَّجْنِيسُ، وَيُقَالُ: هَذَا ابْنُ يُجَانِسٍ هَذَا أَيْ يُشَاكِلهُ^{٨٧٣}.

أَمَّا الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيَّةُ فَيَدُورُ فِي مَعْنَى الْمَشَاكِلَةِ وَالْمَشَابَهَةِ حَيْثُ عَرَّفَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ الْجِنَاسَ بِأَنْ "تَجِيَّ الْكَلِمَةُ تُجَانِسُ أُخْرَى فِي بَيْتٍ شِعْرٍ أَوْ كَلَامٍ، وَمَجَانِسْتُهَا لَهَا أَنْ تُشَبَّهَهَا فِي تَأْلِيفِ حُرُوفِهَا"^{٨٧٤}، وَتَبَنَّى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ التَّعْرِيفَ ذَاتَهُ عِنْدَمَا قَالَ بِأَنْ الْجِنَاسَ هُوَ "أَنْ يُورَدَ الْمُتَكَلِّمُ كَلِمَتَيْنِ تُجَانِسُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا صَاحِبَتَهَا فِي تَأْلِيفِ حُرُوفِهَا"^{٨٧٥}.

اِقْتَصَرَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ وَالْعَسْكَرِيُّ فِي تَعْرِيفِهِمَا السَّابِقَ عَلَى الْفِظِ دُونَ الْمَعْنَى، فَجَاءَ ابْنُ الْأَثِيرِ وَالسَّكَّاكِيُّ بَعْدَهُمَا لِيُعَرِّفَ الْأَوَّلُ الْجِنَاسَ بِأَنْ "يَكُونَ الْفِظُ وَاحِدًا، وَالْمَعْنَى مُخْتَلِفًا"^{٨٧٦}، وَلِيُعَرِّفَهُ الثَّانِي بِـ "اتِّفَاقِ الْفِظَيْنِ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ مَعَ الْإِخْتِلَافِ فِي الْمَعْنَى"^{٨٧٧}.

^{٨٧٣} ابن منظور، لسان العرب، مادة جِنْس.

^{٨٧٤} ابن المعتز، البديع، ٣٢.

^{٨٧٥} العسكري، الصنائع، ٣١٨.

^{٨٧٦} ابن الأثير، المثل السائر، ٤: ١٨٦.

^{٨٧٧} السكّاكي، مفتاح العلوم، ٤٢٩.

ويكون الجنس تاماً إن اتفقت اللفظتان أو الألفاظ المتجانسة في نوع الحروف وهيئتها وترتيبها وحركاتها، وإن اختلفت في أحد هذه الأمور كان الجنس ناقصاً^{٨٧٨}.
يكون الجنس عندما تحمل لفظة معنى ثم تكرر اللفظة ذاتها لتحمل معنى آخر، ومن هنا كان الجنس خروجاً عن مألوف الكلام وعدولاً عن أصله، والجنس إذا ابتعد عن التكلف والتصنع يكون "من الحلى اللفظية والألوان البديعية التي لها تأثير بليغ، تجذب السامع وتحدث في نفسه ميلاً إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة، وتجعل العبارة على الأذن سهلة مستساغة"^{٨٧٩}.

نجد في الرسائل الأندلسية نماذج مختلفة للجنس بأنواعه المتعددة، ومنها ما جاء في رسالتين للفازاري: قال في الأولى في معرض وصفه لرجل يمتهن استخراج اللؤلؤ من البحر: "فلما اطمأنت جوانبه، واستوت أخصاره ومناكب، وتتأبعت في أعنة الشمال والجنوب مراكبه، وسافرت بالنواظر فيه مسارحه الممتدة ومساربه، وافاه لآل صنع مبدع له منقطع يستحبه الإقلال، ويستعجله المسكن الذي لا مال به ولا آل، ولا ماء عنده ولا آل"^{٨٨٠}، وقال في الثانية في معرض تشفعه لأحد إخوانه (وحاجة هذا الصاحب استمطار لهضبة فضلك، واستنصار لهضبة طولك، وفي مجدك الشهير ما يورده الطل صافياً، ويسبغ عليه الظل وافياً"^{٨٨١}.

في هذين النصين المنتزعين من رسالتي الفازاري نلاحظ الجنس في الرسالة الأولى ماثلاً بين المناكب والمراكب، وبين اللال وهو الذي يصنع اللؤلؤ وبين المال والآل، ولكن الذي يهمننا هنا هو الجنس التام في لفظة الآل، حيث كان لها معنيان، الأول القرابة والعشرة، والثاني السراب، وأما الهضبة في النص الثاني فكانت أيضاً تحمل معنيين هما المطرة والجبل المنبسط^{٨٨٢}.

^{٨٧٨} القزويني، الإيضاح، ٤٣١.

^{٨٧٩} لاشين، عبد الفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩م)، ١٥٨.

^{٨٨٠} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاري الأندلسي، ١٠١.

^{٨٨١} المصدر السابق، ١١٣.

^{٨٨٢} الجوهري، الصحاح في اللغة، مادة هضب.

كانت الألفاظ المتجانسة في التّصين أسماءً، وعندما تتماثل الألفاظ المتجانسة في الاسميّة أو الفعلية أو الحرفيّة يكون الجنس التّام مُماثلاً، ومن الأمثلة التي تُظهر هذا الجنس واضحاً ما جاء في رسالة تقديم لأحد الولاة كتّبتها ابن الجّنان عن ابن هود حيث كرّر الكاتبُ كلمة (صُدور) مرّاتٍ ثلاث، وكانت معانيها مُختلفةً لكنّها كانت مُتفقّةً في اللفظ وفي الاسميّة، ومّا جاء في تلك الرّسالة ما نصّه "ولما كنتم في أولياءِ إيالتنا صُدوراً، وخلصتم في مُتابعتنا قلوباً وصُدوراً، (ولزمتم) ^{٨٨٣} في مُشايعتنا وُروداً وصُدوراً، واستوجبتم لدينا الأثرَ والمزايا، واتصفتم في أهلِ مُناصبحتنا بمشكورِ السّجايا، جعلنا نخصكم من مَقاصدِ الاحتفاء بالأسْمَى فالأَسْمَى، ونستقبلكم منها بكلِّ ما يُعزى إلى سَنَى الآراءِ وَيُنمى ^{٨٨٤}."

كان مَوْضِعُ الجنس التّام في الأمثلة السّابقة في فواصلِ الفقر، ونجدُ جناساً تاماً يكون في الفِقرة الواحدة ومنه ما خطّه سعيد بن حَكَم في رسالةٍ تعزيةٍ قال فيها: "وفي خِلالِ ما هُمّا في خِلال ^{٨٨٥}، وبحالٍ ما ظَفَرَ من زُخرفِ الأملِ بعد العُطلِ بحالٍ، وأذى الهوى قد هَامَ بهما في كُلِّ وادٍ وهوى، فما مِن سَكَنٍ إلّا إلى ظَعْنٍ، وهل من شجرةٍ إلّا ببسيطِها عاديةٌ ضارية، أو ثمرةٍ ليسَ في فَسِيطِها أفعى جارية؟" ^{٨٨٦}.

ظَهَرَ الجنس التّام في هذا النّصِّ في أكثر من مَوْطنٍ، فقد كان في لفظتي (خِلال) و(حال) اللتين تكررت كُلُّ واحدةٍ منهما في فِقرةٍ واحدةٍ، وكان الجنس فيها مُماثلاً لأنّهما اتّفقتا في التّوَع فَكانتا اسمين، أمّا لَفْظَةُ (هوى) فكانت في الأولى اسماً، وفي الثانية فعلاً، وعندما يختلفُ التّوَع في الجنس التّام يكون جناساً مُستوفياً، وإلى جانبِ الجنس التّام في النّصِّ نرى جناساً ناقصاً في لفظتي (بَسِيط وفسِيط) وفي لفظتي (ضارية وجارية).

في حالاتٍ كثيرةٍ نجدُ السّجعَ بنوعيه التّام والنّاقص يجتمعان في رسالةٍ واحدةٍ وذلك من أجلِ اكسابِ المعنى نَعْمَةً عَذْبَةً وإيقاعاً مُميّزاً، ومن ذلك ما جاء في رسالة لابن الأَبّار يتحسّر فيها على ضياعِ المدن الأندلسيّة وسقوطها بيدِ التّصارى وقد جاء في تلك

^{٨٨٣} كما صوّبها المحقق.

^{٨٨٤} ابن المرابط، زواهر الفكر، ٨٤.

^{٨٨٥} خِلال القوم: دورهم. ابن منظور، لسان العرب، مادة خلل.

^{٨٨٦} مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩١.

الرَّسالة "أَيْنَ بِلْسِيَّةٌ وَمَعَانِيهَا، وَأَغَارِيدُ وَرَقِيهَا وَمَعَانِيهَا، أَيْنَ حُلَى رُصَافَتِهَا وَجَسْرِهَا، وَمَنْزِلًا عَطَائِهَا وَنَصْرِهَا، أَيْنَ أَفْيَاؤُهَا تَنْدَى غَضَارَةٍ؟ وَذُكَاؤُهَا تَبْدُو مِنْ خُضَارَةٍ؟" ^{٨٨٧} أَيْنَ جَدَاوِلُهَا الطَّفَّاحَةُ وَخَمَائِلُهَا؟ أَيْنَ جَنَائِبُهَا التَّفَّاحَةُ وَشَمَائِلُهَا؟" ^{٨٨٨}.

فِي هَذَا النَّصِّ نَرَى الْجِنَاسَ التَّامَّ فِي لَفْظَةِ (مَعَانِي) الَّتِي تَكَرَّرَتْ مَرَّتَيْنِ وَدَلَّ مَعْنَاهَا عَلَى الْمَنَازِلِ فِي الْأَوَّلَى وَعَلَى هَدِيلِ الْحَمَائِمِ فِي الثَّانِيَةِ، كَمَا تَجَانَسَتْ الْأَلْفَاظُ (غَضَارَةٌ وَخُضَارَةٌ) وَ(الطَّفَّاحَةُ وَالتَّفَّاحَةُ) وَ(خَمَائِلُ وَشَمَائِلُ)، وَكَانَ الْجِنَاسُ فِي كُلِّ لَفْظَتَيْنِ مِنْهَا نَاقِصًا وَذَلِكَ لِاخْتِلَافِ النَّوعِ فِي أَحَدِ حُرُوفِهَا، وَقَدْ أَحْدَثَ الْجِنَاسُ بِنَوْعِيهِ التَّامِّ وَالنَّاقِصِ فِي هَذَا النَّصِّ إِيقَاعًا شَبِيهًا بِالْإِيْقَاعِ الشَّعْرِيِّ، وَانْسَابَتْ عَوَاطِفُ الْكَاتِبِ خِلَالَ ذَلِكَ الْإِيْقَاعِ انْسِيَابًا جَذَبَ الْمُتَلَقِّيَّ وَجَعَلَهُ يَسْتَشْعِرُ الْحُزْنَ الْعَمِيقَ الَّذِي هَيَّمَنَ عَلَى الْكَاتِبِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَأْسَاةٍ ضِيَاعِ الْمَدِينِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، لَقَدْ كَانَ حُزْنُهُ عَلَى فَقْدَانِ مَعَانِي بِلْسِيَّةٍ كَحُزْنِهِ عَلَى فَقْدَانِ وَرَقِيهَا وَمَعَانِيهَا، وَكَانَ تَحَسُّرُهُ عَلَى أَفْيَاءِ تَنْدَى غَضَارَةٍ كَتَحَسُّرِهِ عَلَى ذُكَاةٍ تَبْدُو مِنْ خُضَارَةٍ، أَمَّا أَسَاهُ عَلَى الْجَدَاوِلِ التَّفَّاحَةِ وَالْخَمَائِلِ فَكَانَ شَبِيهًا بِأَسَاهُ عَلَى الْجَنَائِبِ التَّفَّاحَةِ وَالشَّمَائِلِ، لَقَدْ تَشَابَهَتْ أَلْفَاظُ الْكَاتِبِ كَمَا تَشَابَهَتْ أَحَاسِيْسُهُ وَمَشَاعِرُهُ.

وَتَسْتَوْقِفُنَا رِسَالَتَانِ لِصَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسَ تَكَائَفَ فِيهِمَا الْجِنَاسُ النَّاقِصُ مَعَ تَوَازُنِ الْفَقْرِ وَتَشَابُهُ الْأَوْزَانِ لِتَحَدِيثِ مُجْتَمِعَةٍ إِيقَاعًا مُوسِيقِيًّا عَذْبًا أَفْرَزَ الْمَعْنَى بِصُورَةٍ جَمَالِيَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ، وَقَدْ جَاءَ فِي الرَّسَالَةِ الْأُولَى الَّتِي أَرْسَلَهَا مُعَاتِبًا صَدِيقًا لَهُ مَا نَصَّهُ "فَإِنَّهُ وَصَلَ كَلَامُكَ بَلْ مَلَأْتُكَ، وَكَتَبْتُكَ بَلْ عَتَبْتُكَ، وَرَسَّالْتُكَ بَلْ بَسَّالْتُكَ، أَسْمَعْتَنِي بِالْفَاطِكِ الْعَذَابِ سُوءَ الْعَذَابِ، وَأَرَيْتَنِي لِمَعَانَ الْحُسَامِ مِنْ فِقْرِكَ الْوِسَامِ" ^{٨٨٩}.

وَجَاءَ فِي فَاتِحَةِ الرَّسَالَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي خَاطَبَ بِهَا الْخَلِيفَةَ يُوسُفَ مَادِحًا إِيَّاهُ قَوْلُهُ: "فَكَمْ لِلنَّاسِ، مِنْ أَمْنٍ بِكَ وَإِيْنَسٍ، وَلِلْأَيَّامِ، مِنْ لَوْعَةٍ فِيكَ وَهَيَْامٍ، وَلِلْأَقْطَارِ، مِنْ لُبَانَاتٍ لَدَيْكَ

^{٨٨٧} ذُكَاةٌ: اسْمٌ لِلشَّمْسِ وَهِيَ مَعْرِفَةٌ لَا تَدْخُلُهَا الْأَلْفُ وَاللَّامُ. الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَّاحُ، مَادَّةُ ذُكُو. وَلَعَلَّ الْكَاتِبَ يَرِيدُ الشَّمْسَ الَّتِي تَسْلُلُ أَشْعَتُهَا خِلَالَ الزَّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ الْمَخْضَرَّةِ.

^{٨٨٨} الْمُقَرِّي، نَفْحُ الطَّيْبِ، ٤: ٤٩٨.

^{٨٨٩} الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ٥: ٦١ - ٦٢.

وأوطار، وللبلاء، من قراع لها على تملكك لها وجلاد، يتمنون شخصك الكريم على الله ويقترحون، ويعتبقون في رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطحبون^{٨٩٠}.

ومن أمثلة الجناس الناقص ما كتب به ابن عميرة لصديقين له نرحا عن بلديهما بعدما تغلب عليهما النصراري وأخرجوا من كان فيهما من المسلمين ومما جاء في تلك الرسالة قوله: "فشكراً لله تعالى على قضائه، وتضرعاً فيما نرفعه من دُعائه، وهنيئاً لنا ولكم معشر الشُّرداء، المنطوين من الشَّحنِ على شرِّ داء، ذلك الطَّود الذي إليه أويئتما، وفي ظله ثويئتما، وعن رأيه تريان، وبسعيه تسعيان، فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحاً، ولا يعدو لصبحه إذا دجا ليل الهمِّ صُبْحاً"^{٨٩١}

في هذا النص كان الجناس الناقص ماثلاً في كلمة (الشُّرداء) وفي كلمتي (شرِّ داء)، وفي هذا الجناس كان الركن الأول مفرداً أما الثاني فكان مركباً، ويُطلق على الجناس في هذه الحالة الجناس المركب، كما مثل الجناس في الفعلين (أوى وثوى)، وإضافة إلى الجناس فقد لجأ الكاتب إلى السجع في الفعلين (ترى وتسعى)، وفي الاسمين (نجح وصبح)، وقد اجتمع الجناس والسجع ليضيفاً على النص إيقاعاً عذباً ويكسبه جمالية ما كانت لتوجد لولا وجودهما.

كان الجناس حاضراً دون إسرافٍ حتى في تلك الرسائل التي تتطلب جدّة ومباشرة في المخاطبة، ومنه ما جاء في رسالة ديوانية كتبها ابن الجنان على لسان ابن هود وجاء فيها "واصرِّفوا نظرُكم إلى القضاة فإن مدار الشريعة إنما هو على ما يستند إليهم، ويقصر من الأحكام عليهم، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة، وذوي النزاهة والصيانة، أمسكهم الورع بزمامه، وبلغ العهد بهم غاية تمامه، وإذا كانوا بضد هذا قبلوا الرشوة، وأوطأوا العشوة، وأطالوا النشوة، وأحلوا من الدماء والفروج محارمها، وطمسوا من السنة بالميل والمين معالمها"^{٨٩٢}.

^{٨٩٠}المصدر السابق، ١: ١٧٠.

^{٨٩١}المصدر السابق، ١: ٣١٣.

^{٨٩٢}المصدر السابق، ٧: ٤١٤.

ومنه أيضاً ما وردَ في رسالةٍ وعظيمةٍ لابنِ جُبَيْر وقد استعملَ فيها الجناسَ ولكنْ بشيءٍ من التَّكَلُّفِ وجاءَ في تلكَ الرسالةِ قَوْلُهُ: "إِنَّ شَرَفَ الْإِنْسَانِ بِفَضْلِ وَإِحْسَانٍ، وَإِنْ فَاقَ، فَبِتَفَضُّلٍ وَإِنْفَاقٍ... يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ كَمَا يَحْفَظُ الْجَفْنُ إِنْسَانَهُ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ تُقَالُ تُحْدِثُ عَثْرَةً لَا تُقَالُ، كَمْ كَسَتْ فَلَتَاتُ الْأَلْسِنَةِ الْحِدَادَ مَنْ وَرَاءَهَا مِنْ مَلَابِسِ الْحِدَادِ، نَحْنُ فِي زَمَنِ لَا يَحْظَى فِيهِ بِنِفَاقٍ إِلَّا مَنْ عَامَلَ بِنِفَاقٍ"^{٨٩٣}

بالنَّظَرِ فِي أَمْثَلَةِ الْجِنَاسِ السَّابِقَةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يُرَادُّهَا عِبْتًا أَوْ مُصَادَفَةً نَسْتَطِيعُ أَنْ نَخْلُصَ بِاسْتِنَاجَاتٍ مِنْهَا: أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْجِنَاسِ كَانَ كَاسْتِعْمَالِ السَّجْعِ حَيْثُ كَانَتْ الذَّائِقَةُ الْأَدَبِيَّةُ فِي عَصْرِ الْمُوحِدِينَ تَمِيلُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْفُنُونِ الْبَدِيعِيَّةِ، وَلَكِنْ كَانَ حُضُورُ الْجِنَاسِ أَقْلًا مِنْ حُضُورِ السَّجْعِ، وَكَانَتْ عِنَايَةُ الْكُتَّابِ بِهِ دُونَ عِنَايَتِهِمْ بِالسَّجْعِ، حَيْثُ كَانَ السَّجْعُ حَاضِرًا فِي جُلِّ الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، أَمَّا الْجِنَاسُ فَكَانَ حَاضِرًا فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْ تِلْكَ الرِّسَائِلِ، وَكَانَ مُعْظَمُ الْمُسْتَعْمَلِ مِنْهُ مِنَ التَّنَوُّعِ النَّاقِصِ، كَمَا أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْجِنَاسِ بِنَوْعِيهِ التَّامِّ وَالنَّاقِصِ كَانَ بِاعْتِدَالٍ وَدُونَ اسْرَافٍ، وَكَانَ - إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُ - بَعِيدًا عَنِ التَّعْقِيدِ وَالتَّكَلُّفِ، حَيْثُ لَمْ يَطْغُ عَلَى الْمَعْنَى، بَلْ كَانَ مُعَزِّزًا لَهُ، مُسَاعِدًا عَلَى فَهْمِهِ، فَقَدْ زَادَ الْجِنَاسُ الْمَعَانِي وَضُوحًا وَجَمَالًا، وَجَعَلَهَا أَكْثَرَ عُلُوقًا بِالنَّفْسِ "كَأَنَّهُ يَخْدَعُكَ عَنْ الْفَائِدَةِ وَقَدْ أَعْطَاهَا، وَيُوْهِمُكَ كَأَنَّهُ لَمْ يَزِدْكَ وَقَدْ أَحْسَنَ الزِّيَادَةَ وَوَفَّاهَا"^{٨٩٤}، وَلَمْ يَكُنْ لُجُوءُ الْكُتَّابِ لِهَذَا اللَّوْنِ الْبَدِيعِيِّ بِذَاتِ الدَّرَجَةِ، حَيْثُ نَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِحْدَامِهِ^{٨٩٥}، كَمَا عَمَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى فُنُونٍ أُخْرَى فِي الرِّسَالَةِ الْوَاحِدَةِ كَالسَّجْعِ وَتَوَازُنِ الْجَمْلِ وَتَشَابُهِ الْأَوْزَانِ إِلَى جَانِبِ الْجِنَاسِ وَذَلِكَ كَيْ يُكْسِبُوا صُورَهُمْ إِيقَاعًا مُؤَثِّرًا جَذَبَ الْمُتَلَقِّي، وَجَعَلَهُ يَتَفَاعَلُ مَعَ مَضْمُونِ الرِّسَالَةِ وَيُشَارِكُ كَاتِبَهَا عَوَاطِفَهُ وَمَشَاعِرَهُ.

^{٨٩٣} المراكشي، الذليل والتكملة، ٥: ٦٠٨.

^{٨٩٤} الجرجاني، أسرار البلاغة، ٩٩ - ١٠٠.

^{٨٩٥} مثل الفازازي وابن الجنان.

ثالثاً: الطَّباق والمُقابِلة

يَحْمِلُ الجَذْرُ اللُّغَوِيَّ (طَبَقَ) مَدْلُولَاتٍ عَدِيدَةً، والأَصْلُ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ "يَدُلُّ عَلَى وَضْعِ الشَّيْءِ مَبْسُوطاً عَلَى مِثْلِهِ حَتَّى يُغَطِّيَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ الطَّبَقُ، تَقُولُ: أَطَبَقْتُ الشَّيْءَ عَلَى الشَّيْءِ، فالأَوَّلُ طَبَقٌ لِلثَّانِي، وَقَدْ تَطَابَقَا"^{٨٩٦}، وَالطَّبَقُ غِطَاءٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَسُمِّيَتِ السَّمَوَاتُ طِبَاقاً لِأَنَّ بَعْضَهَا مُطَبَّقٌ عَلَى بَعْضٍ^{٨٩٧}.

أَمَّا فِي الاصْطِلَاحِ فَقَدْ اتَّفَقَ أَكْثَرُ الْبَلَاغِيِّينَ عَلَى الْمُسَمَّى، لَكِنْهُمْ اخْتَلَفُوا عَلَى الْاسْمِ، حَيْثُ يُمَكِّنُ إِيجَازُ مَفَاهِيمِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ بِأَنَّ الطَّبَاقَ "هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَضِدِّهِ فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ"^{٨٩٨}، أَمَّا أَسْمَاؤُهُ فَقَدْ اخْتَلَفَتْ فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ التَّضَادُّ وَالتَّقَابُلُ وَالتَّكَافُؤُ إِضَافَةً إِلَى الطَّبَاقِ وَالتَّطَابُقِ وَالْمِطَابَقَةِ، وَكَانَتْ الْمُدْعَاةُ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى اخْتِلَافِ اسْمَائِهِ تَتَمَثَّلُ فِي أَنَّ بَعْضَ الْبَلَاغِيِّينَ أَرَادُوا التَّمْلُصَ مِنْ تَسْمِيَّتِهِ بِالطَّبَاقِ وَذَلِكَ لِاعْتِقَادِهِمْ بِعَدَمِ التَّوَافُقِ بَيْنَ مَعْنَاهُ اللَّغَوِيِّ وَمَعْنَاهُ الْاصْطِلَاحِيِّ، حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهُ "لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَعْنَى الْمِطَابَقَةِ لُغَةً وَمَعْنَاهَا اصْطِلَاحاً، فَإِنَّهَا فِي اللُّغَةِ الْمَوْافَقَةُ.... وَالْجَمْعُ بَيْنَ الضَّدِّينَ لَيْسَ مُوَافَقَةً"^{٨٩٩}.

وَلَكِنْ أَرَى أَنَّ الْمَعْنَى الْاصْطِلَاحِيَّةَ كَانَتْ مُسْتَمَدَّةً مِنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ، فَالْغِطَاءُ أَوْ الطَّبَقُ يَكُونَانِ مِنْ أَعْلَى وَالْمَعْطَى أَوْ الْمَطْبَقُ عَلَيْهِ يَكُونَانِ مِنْ أَسْفَلٍ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ الْجَمْعُ بَيْنَ الضَّدِّينَ فِي مَعْنَى الطَّبَاقِ الْاصْطِلَاحِيِّ.

لَمْ يَكُنْ مَفْهُومُ الْمُقَابِلَةِ بَعِيداً عَنْ مَفْهُومِ الطَّبَاقِ، حَيْثُ كَانَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ أَوَّلَ مَنْ فَطَنَ إِلَى وَجُودِهَا وَرَأَى بِأَنَّهَا تَكُونُ عِنْدَمَا "يَضَعُ الشَّاعِرُ مَعَانِيَّ يُرِيدُ التَّوْفِيقَ أَوْ الْمُخَالَفَةَ بَيْنَ بَعْضِهَا وَبَعْضٍ، فَيَأْتِي فِي الْمَوَافِقِ بِمَا يُوَافِقُ، وَفِي الْمَخَالَفِ عَلَى الصَّحَّةِ، أَوْ يَشْتَرِطُ شُرُوطاً أَوْ يُعَدِّدُ أَحْوَالاً فِي أَحَدِ الْمَعْنِيَيْنِ فَيَجِبُ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يُوَافِقُهُ بِمِثْلِ الَّذِي شَرَطَهُ

^{٨٩٦} ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة طبق.

^{٨٩٧} ابن منظور، لسان العرب، مادة طبق.

^{٨٩٨} ينظر تعريف الطباق في: ابن المعتز، البديع، ٣٦. العسكري، الصناعتين، ٣١٦. ابن رشيق، العمدة، ١٤٧.

السَّكَّاكِي، مفتاح العلوم، ٤٢٣.

^{٨٩٩} ابن الأثير، المثل السائر، ٣: ١٤٣.

وعَدَّده، وفيما يُخَالِفُ بِضِدِّ ذلك^{٩٠٠}، وقد اجْتَهَدَ البلاغيُّونَ في تَعْرِيفِهَا، واستخلصَ الخطيبُ القزوينيُّ مِمَّنْ سَبَقُوهُ تَعْرِيفاً جَامِعاً فَرَأَى أَنَّ المَقَابِلَةَ "هي أَنْ يُؤْتَى بِمَعْنَيْنِ مُتَوَافِقَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ثُمَّ يُقَابَلُ ذَلِكَ عَلَى التَّرْتِيبِ"^{٩٠١} واعتماداً على ذلك نَعْرِفُ أَنَّ الطَّبَاقَ يَكُونُ بِالْجَمْعِ بَيْنَ ضِدَّيْنِ، أَمَّا المَقَابِلَةُ فَتَكُونُ بِالْجَمْعِ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ ذَلِكَ فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ. تَكْمُنُ أَهْمِيَةُ الطَّبَاقِ وَالمَقَابِلَةِ فِي أَنَّهُمَا يَكْشِفَانِ عَنْ "تِلْكَ الحَرَكَةِ الَّتِي تَمُوجُ بِهَا المَعْنَى دَاخِلَ النَّصِّ كُلِّهِ عِنْدَمَا يُصْبَحُ التَّقَابُلُ مُرْتَكِزاً بِنَاقِضٍ يَتَكَيُّ عَلَيْهِ النَّصُّ فِي مُكَوِّنَاتِهِ وَعِلَاقَاتِهِ"^{٩٠٢} وقد أَدْرَكَ الكُتَّابُ الأَنْدَلُسِيُّونَ تِلْكَ الأَهْمِيَّةَ فَنَرَى رِسَالَتَهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا حَافِلَةً بِهَذَيْنِ الفَنَيْنِ البَدِيعِيَيْنِ، وَمِنْ أَمَثَلَتِهِمَا مَا جَاءَ فِي رِسَالَتِي بَيْعَةِ: الأَوَّلَى بَايَعُ فِيهَا أَهْلُ إِشْبِيلِيَةِ الخَلِيفَةِ يُوسُفُ وَوَرَدَ فِيهَا مَا نَصَّه "فَبَايَعْنَا عَلَى السَّمْعِ وَالمَطَاعَةِ بَيْعَةَ إِيمَانٍ وَأَمَانَةٍ، وَعَدَلٍ وَعِبَادَةٍ، وَالتَّزَمْنَاهَا فِي اليُسْرِ والعُسْرِ، وَالمُنَشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَاعْتَقَدْنَاهَا عِصْمَةً دِينَنَا، وَذُخْرَ مَعَادِنَا"^{٩٠٣}.

وَأَمَّا الرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ بَايَعَ فِيهَا أَهْلُ قُرْطُبَةِ النَّاصِرِ، وَوَرَدَ فِيهَا مَا نَصَّه "وَلَمْ يَزَلْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَصْدَعُ بِنُورِ الحَقِّ مِنْ ظُلْمِ البَاطِلِ دُجُونًا، كُلَّمَا رَفَعَ مِنَ الإِسْلَامِ شَأْنًا وَضَعَ مِنَ الإِشْرَاقِ شُؤْنًا، وَكُلَّمَا أَقْرَأَ لِلإِيمَانِ عَيْنًا أَسْخَنَ لِلْكَفْرَانِ عُيُونًا، حَتَّى أَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ بِكَمَالِ الدِّينِ، وَأَقْرَأَ عُيُونَ عِبَادِهِ المَهْتَدِينَ"^{٩٠٤}.

بَدَأَ التَّضَادُّ فِي النَّصِّ الأَوَّلِ فِي اليُسْرِ والعُسْرِ حَيْثُ كَانَ الطَّبَاقُ بَيْنَ لَفْظَيْنِ تَضَادًّا فِي المَعْنَى، أَمَّا الطَّبَاقُ فِي المُنَشَطِ وَالمَكْرَهِ فَكَانَ بَيْنَ مَعْنَيْنِ، فَالمُنَشَطُ هُوَ الأَمْرُ الَّذِي تُحِبُّهُ النَّفْسُ وَتُنَشِطُ فِيهِ، وَهَذَا يُخَالِفُ المَكْرَهَ فِي مَعْنَاهُ، وَالمَطَابِقُ فِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ طَبَاقٌ إِيجَابٌ، وَكَانَتْ الصُّورَةُ التَّضَادِّيَّةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ ضَرُورِيَّةً لِبَيَانِ مُخْتَلَفِ الأَحْوَالِ الَّتِي يَلْتَزِمُ بِهَا

^{٩٠٠} ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، ١٤٧ - ١٤٨. أطلق قدامة اسم التكافؤ على الجمع بين الشيء وضده في لفظتين، وفرّق بينه وبين المقابلة، وأطلق اسم الطباق على اللفظة الواحدة التي تحمل معنيين متقابلين.

^{٩٠١} القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، القاهرة، دار الكتب، ١٩٠٤م، ٣٥٢.

^{٩٠٢} أبو الرضا، سعد، في البنية والدلالة - رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية (الإسكندرية: منشأة دار المعارف، ١٩٨٧م)، ٤٢.

^{٩٠٣} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١١.

^{٩٠٤} المصدر السابق، ١٩٢.

المبايعون بميثاق البيعة، أمّا في النصّ الثاني فقد بدأ التّضادّ في مُقابلاتٍ بين (نور الحقّ وظلّم الباطل)، وبين (رفع من الإسلام ووضّع من الإشراك)، وبين (أقرّ للإيمان وأسخّن للكُفران)، وقد جاءت الصّورة التّضادّيّة لتُقيّم موازنةً بين الإسلام والكُفر.

وقد كان غرضُ إقامة الموازنة بين أمرين شائعاً في الصّور التّضادّيّة الواردة في الرّسائل الأندلسيّة، فهذا ابنُ الجُتّان يخطّ رسالةً إلى الخليفة العباسيّ عن ابنِ هُود القائم بالدّعوة العباسيّة في الأندلس وجاءَ في تلك الرّسالة ما نصّه "ولا عديم الإسلام من رايته السّوداء الصّبغ، البيضاء الصّنع، عزّاً يُؤوي من أهله كلّ مغتربٍ نازح الصّقع، ويأوي لوحيديّ يُغالب التّثليثَ توحيدُهُ بكثرة الجمع، فيديله بالأنس من الوحشة، وبالأمن من المخافة، وبالرفع من الوضع، ويُعيد إليه من حالته الحسنى، ونشأته الأولى أفضلَ ما هو مُعيد" ٩٠٥.

كان الطّباقُ بادياً بين الرّاية السّوداء التي كانت راية العباسيّين وبين صنائعهم البيضاء، ثمّ وازنت الألفاظُ المتضادّة بين حالين: حال العزّ وما يَنجُم عنها من إيواءٍ وتوحيدٍ وأنسٍ وأمنٍ ورفعٍ، وبين حال الدّلّ وما يُصاحبها من نزوحٍ وتثليثٍ ووحشةٍ ومخافةٍ ووضعٍ، فأدّت الصّورة التّضادّيّة مهمّتها بشكلٍ جماليٍّ ومؤثّرٍ حينَ حسّنت العزّ وقبّحت الدّلّ.

وفي رسالةٍ كتّبتها ابنُ عُميرة، وتحدّثَ بها عن رحلةٍ شاقّةٍ قامَ بها، جاءَ التّضادّ في صدّد الوصف حيثُ أنشأ ما نصّه "والسّفرُ فيه الحلو والكُريه، والرّفقاء منهم الحليم والسّفيه، ضلّلنا ولا هادي، ونادينّا وقد ندّ من يسمع المنادي" ٩٠٦.

لا يخفى الطّباقُ في هذا النصّ حيثُ جاءَ في سياق الوصف وبيان أحوال السّفر ورفقائه، ونلحظُ أنّ معنى الحلو كان معنّى مجازيّاً حيثُ أراد الكاتبُ بها السّفرَ المحبّب، لذا فقد كانت ضيداً للكُريه، كما أنّ الفعل ضلّلنا كان مُضادّاً للاسم هادي، ولم تتحقّق في هذا الطّباق صِفَةُ التّماتل بين ركني الطّباق، فالمعنى المجازيّ طابَقَ معنى حقيقيّاً، والفعل طابَقَ اسماً ولم يُطابقَ فعلاً مثله، وقد جاءَ مثلُ ذلك في رسالةٍ للفارازيّ قالَ فيها: "كتبتّه يا

٩٠٥ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٢٩.

٩٠٦ المصدر السابق، ٢٠٦.

رسول الله وقد رَحَلَ المجدُّونَ وأَقَمْتَ، واستَقَامَ المستعدُّونَ وما استَقَمْتَ، وبينَ وبينَ لَثمَ ثَرَاكَ النَّبَوِيِّ، وَلَمَحَ سَنَاكَ الحَمْدِيَّ مَفَاوِزُ لَا يَفُوزُ بِقَطْعِهَا إِلَّا مَنْ طَهَّرَ دَنَسَ ثَوْبِهِ بِمَاءِ تَوْبَةٍ، وَسَتَرَ وَصَمَ عَيْنِهِ بِظَهْرِ غَيْبِهِ، فَكَلَّمَا رُمْتُ المَتَابَ رُدِدْتُ، وَكَلَّمَا يَمْتُ البَابَ صُدِدْتُ^{٩٠٧}.

كَثُرَتِ الأَلْفَاظُ المتضادَّةُ فِي نَصِّ الفَازَازِيِّ، وَكَانَ بَعْضُهَا مُحَقِّقًا لِصِفَةِ التَّمَاثُلِ مِثْلَ (رَحَلَ وَأَقَامَ)، حَيْثُ كَانَا فَعَلَيْنِ مَاضِيَيْنِ تَقَابِلًا فِي طِبَاقِ إِيْجَابٍ، وَمِثْلَ (استَقَامَ وَمَا استَقَامَ)، وَهَمَا أَيْضًا فِعْلَانِ مَاضِيَانِ تَقَابِلًا فِي طِبَاقِ سَلْبٍ^{٩٠٨}، وَلَكِنَّ التَّمَاثُلَ لَمْ يَتَحَقَّقْ بَيْنَ اسْمِ (المَفَاوِزِ) وَبَيْنِ الفَعْلِ المَنْفِيِّ (لَا يَفُوزُ)، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ أَيْضًا بَيْنَ الفَعْلِ (طَهَّرَ) وَبَيْنَ الاسْمِ (دَنَسَ)، كَمَا أَنَّ التَّضَادَّ لَمْ يَكُنْ جَلِيًّا بَيْنَ الفَعْلَيْنِ المَبْنِيَيْنِ لِلْمَعْلُومِ (رَامَ وَيَمُّ)، وَبَيْنَ الفَعْلَيْنِ المَبْنِيَيْنِ لِلْمَجْهُولِ اللَّذَيْنِ قَابِلَاهُمَا (رُدَّ وَصُدَّ)، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ التَّمَاثُلِ إِلَّا أَنَّ الصُّورَ المَذْكُورَةَ جَمِيعَهَا تَدْخُلُ فِي مَجَالِ الطَّبَاقِ لِأَنَّهُ "لَيْسَ المَرَادُّ بِالْمُتَضَادِّينِ الأَمْرَيْنِ المتوَارِدَيْنِ عَلَى مَحَلٍّ وَاحِدٍ وَبَيْنَهُمَا خِلَافٌ مَعْنَوِي كَالسَّوَادِ وَالبَيَاضِ، بَلْ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ مَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا تَقَابُلٌ وَتَنَافٍ سِوَاءَ كَانَ التَّقَابُلُ حَقِيقِيًّا أَوْ مَجَازِيًّا"^{٩٠٩}.

عَنِ الكُتَّابِ الأَنْدَلُسِيِّينَ بِالتَّضَادِّ، وَكَانَ الطَّبَاقُ مِنْ أَكْثَرِ الصُّوَرِ التَّضَادِّيَّةِ وَرُودًا فِي الرِّسَالَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ، وَكَانَ طِبَاقُ الإِيْجَابِ أَكْثَرَ مِنْ طِبَاقِ السَّلْبِ، وَكَانَ فِي مُعْظَمِ حَالَاتِهِ مُتَمَاثِلًا فِي الاسْمِيَّةِ وَالفِعْلِيَّةِ، كَمَا كَانَ مُعْظَمُ التَّقَابُلِ فِيهِ حَقِيقِيًّا حَيْثُ قَابَلَ المَعْنَى الحَقِيقِيَّ مَعْنَى حَقِيقِيًّا مِثْلَهُ، وَلَكِنْ فِي حَالَاتٍ قَلِيلَةٍ لَمْ يَتَصِفْ الطَّبَاقُ بِالتَّمَاثُلِ، وَكَانَ التَّقَابُلُ بَيْنَ مَعْنِيَيْنِ: مَعْنَى حَقِيقِيٍّ وَمَعْنَى مَجَازِيٍّ.

أَمَّا مِنْ حَيْثُ وَظِيفَةُ الصُّورَةِ التَّضَادِّيَّةِ، فَلَا يَخْفَى أَنَّ جَمَعَ الضَّدِّينِ فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ يُثِيرُ النَّفْسَ إِزَاءَ الأُمُورِ المتضادَّةِ، وَيُضْفِي عَلَى النِّصِّ رَوْنَقًا وَبَهَاءً، وَيُكَسِبُ المَعْنَى جَمَالًا

^{٩٠٧}الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٣٨.

^{٩٠٨}طباق السلب (يكون اللفظ ومنفيه في الكلام وبذلك يتحقق التضاد). العسكري، الصنائع، ٣٢١.

^{٩٠٩}البرقوقي، عبد الرحمن، شرح التلخيص (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٣٢م)، ٣٤٨. ذهب بعض البلاغيين إلى وجود ضرب من الطباق والمقابلة يقابل فيه الشيء بما يخالفه من غير مضادة، ومثلوا عليه بقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمُ الْكُفَّارُ عَلَى أَشَدِّءَ﴾ "الفتح: آية ٢٩" فالرحمة في الآية الكريمة ليست ضدا للشدة، وإنما اللين هو ضدها. ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ٣: ١٥٦.

وحُسْنًا، ولكنَّ وظيفة الصُّورة التَّضادِّيَّة لم تَقْتَصِر على الزَّخرفة اللفظيَّة بل تَعَدَّتْهَا إلى أهدافٍ أسمى وغاياتٍ أوسع، حيثُ أَفْضَتْ الصُّورة التَّضادِّيَّة في الرِّسائل الأندلسيَّة إلى مَعَانٍ ما كانت لتُوجد لو لم يُذكَر المعنى وضِدُّه، ومن تلك المعاني بيانُ مُخْتَلَفِ الأحوال، وإقامة الموازنة بين أمرين، والتَّحسين والتَّفحيح.

رابعاً: التَّورية

يعودُ المعنى اللغويُّ للتَّورية إلى الفعل (وَرَى يورِي)، نقول: وَرَيْتُ عَنْهُ أَيَّ أَرَدْتُهُ وأظهرتُ غَيْرَهُ، والتَّورية السُّننِيَّة^{٩١٠}، وأصلُ التَّورية في اللغة إرادةُ الشَّيء وإظهارُ غيره إيهاماً. والتَّورية من المحسنات البديعيَّة المعنويَّة، ومفهومُها عندَ البلاغيِّين "أَنْ يَذْكُرَ المتكلِّمُ لفظاً مُفْرَداً على سبيلِ الحقيقة، أو على سبيلِ الحقيقة والمجاز، أحدهما ظاهراً قريباً يَتبادَرُ إلى الذَّهن وهو غيرُ مُراد، والآخرَ بعيداً فيه نوعٌ من خفاءٍ وهو المعنى المراد، لكن يُؤاْرِى عنه بالمعنى القريب لِيسبِقَ الذَّهن ويتوهَّمه قبل التَّأمُّل، وبعد التَّأمُّل يَنْتَبِه المتلقِّي فيدرك المعنى الآخر المراد"^{٩١١}.

لم يَكُن حُضور التَّورية في الرِّسائل الأندلسيَّة بالحضور الكبير، حيثُ جاءتْ في مواضع قليلةٍ مِنْهَا ما جاءَ في الرِّسالة التي كَتَبَهَا ابنُ عُمَيْرَةَ لأبي جَعْفَر بن أُمَيَّة حينَ حلَّ الرُّزءُ ببلنسيَّة واستولى عليها النَّصارى، وقد حَفَلَتْ هذه الرِّسالة بالصُّورِ البلاغيَّة البيانيَّة والبديعيَّة، وقد جاءَ فيها ما نَصَّه "بالله أَيَّ نَحْوٍ نَنحُو، وَمَسْطُورٍ ثُبْتُ وَتَمَحُّو، وقد حُذِفَ الأصليُّ والزَّائد، وَذَهَبَتِ الصِّلَةُ والعائد، وَبَابُ التَّعَجُّبِ طَال، وَحَالُ الْبَائِسِ لَا تَخْشَى الْإِنْتِقَالَ، وَذَهَبَتِ علامَةُ الرَّفْع، وَفُقِدَتِ سَلَامَةُ الْجَمْع، والمعتلُّ أَعَدَى الصَّحِيح، والمثلثُ أَرَدَى الفَصِيح، وَامْتَنَعَتِ العُجْمَةُ مِنَ الصَّرْف، وَأَمِنَتْ زِيَادَتُهَا مِنَ الحَذْف، وَمَالَتْ قَوَاعِدُ المِلَّة، وَصِرْنَا إِلَى جَمْعِ قِلَّة، وَلِلشَّرِكِ صِيَالٌ وَتَحْمِطٌ، وَلِقِرْنِهِ فِي شِرْكِهِ تَخْبِطٌ، وقد عَادَ الدِّينُ إِلَى غُرْبَتِهِ، وَشَرِقَ الْإِسْلَامُ بِكُرْبَتِهِ، كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْ بِنَصْرِ ابنِ نُصَيْرٍ، وَطَرَقَ

^{٩١٠} ابن منظور، لسان العرب، مادة وري.

^{٩١١} الميداني، عبد الرحمن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها، ١: ٧٤٨.

طَارِقٍ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَنَهَشَاتٍ حَنْشٍ وَكَيْفَ أَعَيْتَ الرُّقَى، وَأَدَالَتْ بَلِيلَ السَّلِيمِ يَوْمَ
الْمُلْتَقَى" ٩١٢.

ما أَنْ يَقْرَأَ الْقَارِئُ هَذَا النَّصَّ حَتَّى تَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِهِ الْمَعَانِي الْقَرِيبَةِ، وَهِيَ الْقَوَاعِدُ
اللُّغَوِيَّةُ فِي النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ الْكَاتِبَ أَرَادَ الصَّلَةَ وَالتَّعَجُّبَ وَالْحَالَ وَعَلَامَاتِ
الرَّفْعِ وَالْجَمْعِ السَّالِمَ وَالْفَعْلَيْنِ الصَّحِيحَ وَالْمَعْتَلَ وَالْمَنْوَعَ مِنَ الصَّرْفِ وَجَمْعِ الْقَلَّةِ، وَلَكِنْ
بَعْدَ أَنْ يَتَأَمَّلَ الْقَارِئُ فِي النَّصِّ وَيُعْمَلُ فِكْرُهُ فِيهِ يُدْرِكُ أَنَّ الْكَاتِبَ مَا أَرَادَ تِلْكَ الْمَعَانِي
الْقَرِيبَةَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ مَعَانِي بَعِيدَةً أُخْرَى، حَيْثُ قَصَدَ الْآثَارَ الَّتِي نَجَمَتْ عَنْ اسْتِيلَاءِ
النَّصَارَى عَلَى بِلَنَسِيَّةٍ، لَقَدْ جَلَّا عَنْهَا الْأَنْدَلُسِيُّونَ مِنْ سُكَّانِهَا الْأَصْلِيِّينَ وَالْوَافِدِينَ،
وَانْقَطَعَتْ بَيْنَهُمُ الصَّلَةُ، وَطَالَ التَّعَجُّبُ مِنْ هَوْلِ مَا حَلَّ بِهَا، حَيْثُ لَازِمَتْهَا حَالُ الْبُؤْسِ،
وَحَالَتْ رِفْعَتُهَا إِلَى ذِلَّةٍ، وَتَفَرَّقَ جَمْعُ أَهْلِهَا، وَاسْتَبَدَّ بِهِمُ الْعَجَمُ، وَصَارُوا فِي مَدِينَتِهِمْ قَلَّةً
بَعْدَ مَا كَانُوا فِيهَا كَثَرًا أَعَزَّةً، كَمَا أَرَادَ الْكَاتِبُ بِطَارِقٍ وَحَنْشٍ الْقَائِدَيْنِ اللَّذَيْنِ سَجَلَا
بِبَطُولَتَيْهِمَا صَفَحَاتٍ نَاصِعَاتٍ فِي سِفْرِ التَّارِيخِ الْأَنْدَلُسِيِّ، لَقَدْ كَانَتْ التَّوْرِيَّةُ بَاعِثًا عَلَى
الْمَفَاجَأَةِ وَالْإِثَارَةِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ مِمَّا أَكْسَبَ النَّصَّ جَمَالِيَّةً وَإِثَارَةً وَطَرَاةً.

٩١٢ المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣٠٧.

الباب السادس

ظواهر أسلوبية في الصورة الفنية في الرسائل الأندلسية

ويتكوّن من

الفصل الأول: ظواهر أسلوبية في اللغة

الفصل الثاني: ظواهر أسلوبية في البناء.

الفصل الأول

ظواهر أسلوبية في اللغة

توطئة

الأسلوبية مصدرٌ صناعيٌّ من الأسلوب، ويعودُ أصلُ هذه الكلمة إلى الجذر اللغويّ (سَلَبَ)، ويندرجُ تحتَ هذا الجذر معانٍ مُختلفةٌ لا يعنينا الخوضُ فيها بقدرِ ما يعنينا معرفةُ المعاني التي تتعلّقُ بكلمةِ (الأسلوب)، حيثُ نجدُ معانيَ عديدةً تدورُ حولَ هذه الكلمة مِنْهَا السَّطْرُ مِنَ التَّخِيلِ والطَّرِيقَ والفَنَّ والمَذْهَبَ^{٩١٣}.

والأسلوبية مِنَ المناهجِ الأدبيةِ التقديّةِ التي ظهرتْ حديثاً بفعلِ التّواصلِ معَ الغربِ والإطّلاعِ على عُلُومِهِ وآدَابِهِ، وَيَصْعُبُ تحديدُ مَفْهُومِ الأسلوبِ عندَ العَرَبِيِّينَ، لأنَّ طَبِيعَةَ الفَلَسَفَةِ العَرَبِيَّةِ سَاهَمَتْ فِي نُشُوءِ الاختِلَافِ فِي الموقِفِ التّعريفِيِّ للأسلوبِ والأسلوبيةِ، حَيْثُ نَجِدُ "أَنَّ البَاحِثِينَ قَدَّمُوا هُمْ أَنْفُسَهُمْ تَعْرِيفَاتٍ للأسلوبِ بِصُورَةٍ مُتَبَايِنَةٍ تَجَاوَزَتْ الثَّلَاثِينَ تَعْرِيفاً فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ"^{٩١٤}.

وَلَسْنَا فِي صَدَدِ الخَوْضِ فِي مَفْهُومِ الأسلوبيةِ بوصفها مَنَهَجاً أدبياً تَقْدِيّاً، أَو الدَّخُولِ فِي اتِّجَاهَاتِهِ وَمُسْتَوِيَّاتِهِ^{٩١٥}، لَأَنَّ هَذَا البَحْثَ لَمْ يَعْتَمِدْ أصلاً الأسلوبيةَ مَنَهَجَ بَحْثٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَلِأَنَّ المَجَالَ فِي هَذَا البَابِ لَا يَتَّسِعُ لِدِرَاسَةٍ تَطْبِيقِيَّةٍ تَتَّبِعُ هَذَا المَنَهَجَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

^{٩١٣} ابن منظور، لسان العرب، مادة سلب.

^{٩١٤} فضل، صلاح، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٥م).

^{٩١٥} ينظر: ربايعه، موسى، الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها (الكويت: دار الكندي، ط ١، ٢٠٠٣م). المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، بيروت، دار الكتاب الجديدة، ٢٠٠٦م. أبو العدوس، يوسف، الأسلوبية، الرؤية والتطبيق (عمان: دار المسيرة، ٢٠١٠م). المنصوري، أحمد المهدي، الظواهر الأسلوبية في شعر علي الرقيعي، رسالة دكتوراه (سوريا: جامعة حلب، ٢٠١٢م).

إِنَّ الذي نَقَصِدُهُ بِالْأُسْلُوبِ هُوَ الْمَعْنَى الذي أَرَادَهُ الْبَلَاغِيُّونَ الْقَدَامَى، حَيْثُ كَانَ اللَّفْظُ وَشَيْءٌ مِنَ الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيِّ الْحَدِيثِ مَوْجُودًا عِنْدَهُمْ، فَهَذَا عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ يُعَرِّفُ الْأُسْلُوبَ بِأَنَّهُ "الضَّرْبُ مِنَ النَّظْمِ وَالطَّرِيقُ فِيهِ"^{٩١٦}.

أَمَّا ابْنُ خُلْدُونِ فَيَرَى أَنَّ الْأُسْلُوبَ هُوَ "الْمَنَوَالُ الذي تُنْسَجُ فِيهِ التَّرَاكيبُ أَوْ الْقَالِبُ الذي تُفَرِّغُ فِيهِ"^{٩١٧}، وَبَنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ نَظَرَ الْعَرَبُ إِلَى الْأُسْلُوبِ مِنْ زَاوِيَةِ الْمَظْهَرِ الذي يَخْرُجُ فِيهِ (وَعَدَّوه الضَّرْبَ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الطَّرِيقَةَ أَوْ الْمَنَوَالَ أَوْ الْقَالِبَ"^{٩١٨} الذي يَخْرُجُ فِيهِ الْكَلَامُ.

وَمِنْ خِلَالِ تَتَبُّعِ الْأُسْلُوبِ الذي انْتَهَجَهُ الْكُتَّابُ الْأَنْدَلُسِيُّونَ فِي إِنْشَاءِ الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ فِي رِسَائِلِهِمْ تَسْتَوْقِفُ الْبَاحِثُ ظَوَاهِرَ لَافِتَةٍ لِلنَّظَرِ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهَا فِي اللُّغَةِ وَبَعْضُهَا الْآخَرُ يَتَعَلَّقُ فِي الْبِنَاءِ، وَمِنْ الظَّوَاهِرِ اللُّغَوِيَّةِ:

أولاً: السَّهُولَةُ.

مِنْ خِلَالِ اسْتِقْرَاءِ الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ نَلْحَظُ أَنَّ الْبَسَاطَةَ وَالسَّهُولَةَ وَالْوُضُوحَ كَانَتْ بِالْمَحْمَلِ سِمَاتٍ لِلُّغَةِ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرِّسَائِلِ، حَيْثُ إِنَّ طَبِيعَةَ الْمُجْتَمَعِ الْأَنْدَلُسِيِّ وَظُرُوفَهُ وَنَمَطَ عَيْشِهِ أُمُورٌ اسْتَدَعَتْ السَّهُولَةَ وَالْمِيلَ نَحْوَ الْأَلْفَازِ الْوَاضِحَةِ وَتَجَنُّبِ الْعَرَابَةِ وَالِابْتِعَادِ عَنِ التَّعْقِيدِ مِثْلَ "تَنَافُرِ الْحُرُوفِ وَبَشَاعَةِ اللَّفْظَةِ فِي التَّنْطِقِ وَبُعْدَهَا عَنِ الِاسْتِعْمَالِ الْمَأْلُوفِ وَالْعَرَابَةِ وَمُخَالَفَةِ الْقِيَاسِ وَالْكَرَاهَةِ فِي السَّجْعِ وَغَيْرِهَا"^{٩١٩}.

كَانَتْ الْبَسَاطَةُ مُتَفَاوِتَةً فِي مُسْتَوِيَاتِهَا، حَيْثُ نَجِدُهَا فِي بَعْضِ الرِّسَائِلِ مُفْرَطَةً، وَتَكَادُ تَقْتَرِبُ مِنَ اللُّغَةِ الْمُحْكِيَّةِ فِي تَعَامُلَاتِ الْعَامَّةِ مِنَ النَّاسِ، حَيْثُ لَا غَمُوضَ وَلَا تَكَلُّفَ، وَمِنْ ذَلِكَ رِسَائِلُ الشُّكَايَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْفَعُهَا الرَّعِيَّةُ إِلَى وُلاَةِ الْأَمْرِ، وَمِثَالُهَا رِسَالَةُ كُتِبَتْ إِلَى الْخَلِيفَةِ يُوسُفَ وَجَاءَ فِيهَا "إِنَّ أَخِي عَدَا عَلَيْهِ شَرِيكُهُ فَشَدَخَ فِي حَالِ نَوْمِهِ بِأَرْزِيَّةٍ رَأْسَهُ

^{٩١٦} الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٤٦٩. وينظر: حسين، نصر الدين إبراهيم، نظرية الأسلوب عند الإمام عبد القاهر الجرجاني (ماليزيا: منشورات الجامعة الإسلامية العالمية، ٢٠٠٥م).

^{٩١٧} ابن خلدون، مقدمته، ٥٧٠.

^{٩١٨} أبو العدوس، يوسف، الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، ٢٣.

^{٩١٩} الجرجاني، دلائل الإعجاز، ٤٦.

أَذْهَبَتْ حَيَاتَهُ وَأَفَاتَتْ نَفْسَهُ، فَتَصَايَحَ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَأَتَوْا مِنْ هُنَا وَهُنَالِكَ، فَوَجَدُوا أَخِي وَعَايُنُوهُ مُضْرَجًا فِي دَمِهِ، مُضْرَعًا بِيَدَيْهِ وَفَمِهِ، وَفَرَّ الْقَاتِلُ عِنْدَ ذَلِكَ بَيْنَ سَمْعِ الْأَرْضِ وَبَصَرِهَا، لَا يُعْرِفُ لَهُ مَكَانٌ فِي بَدْوِهَا وَلَا حَضَرِهَا، ثُمَّ رَجَعَ الْآنَ وَتَوَاعَدَنِي بِالْإِهْلَاكِ وَالْقَتْلِ، وَقَالَ: سَأَفْعَلُ بِهِ مَا فَعَلْتُ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْلِ^{٩٢٠}.

ومن الرسائل التي تُفَرِّطُ فِي الْبَسَاطَةِ رسالتان لابن عُمَيْرَةَ: الأولى إخوانية^{٩٢١} وجاء فيها "والأحوال قِبَلِي عَلَى مَا يَسِرُّكُمْ، جَانِي فِي الدَّارِ الْعَزِيزَةِ مَبْرُورٌ، وَحَظِّي مِنْ إِقْبَالِهَا مَوْفُورٌ، وَكَانَتْ لِي مَسَائِلُ بَعَثْتُ فِيهَا رَقَاصًا^{٩٢٢} مِنْ قِبَلِي، جَاءَنِي أَمْسٍ كِتَابُهُ بِأَنَّهَا قُضِيَتْ، وَأَنَّهُ بَهَا إِلَى الْوُصُولِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْأَوْلَادُ وَالْجَمَلَةُ فِي عَافِيَةٍ، وَأَبُو الْقَاسِمِ يُقْبَلُ يَدَيْكُمْ، وَيَشْتَأِقُ نَظْرَةَ إِلَيْكُمْ، وَأَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي الْعَاشِرِ مِنَ الشُّهُورِ، تَارَةً نَضُمُهُ إِلَيْنَا، وَتَارَةً يَدْبُ بَيْنَ يَدَيْنَا"^{٩٢٣}.

والثانية خَطَّهَا فِي تَعْزِيَةِ أَحَدِ الْوِزَرَاءِ بِوَفَاةِ أَخٍ لَهُ وَوَرَدَ فِيهَا مَا نَصَّهُ "وَلَا شَكَّ أَنَّ عِنْدَهُمْ مِنْ جَمِيلِ الْعَزَاءِ، وَالْمَعْرِفَةِ بِدَارِ الْفَنَاءِ، مَا يُغْنِي عَنْ تَعْزِيَةِ الْوَلِيِّ، لَكِنَّهَا عَادَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَسَبِيلٌ مَأْلُوفَةٌ، وَلَوْلَا مَرَضُ بَعْضِ الْأَوْلَادِ حَبَسَنِي، لَكُنْتُ مَكَانَ الْكِتَابِ، وَأَوْجَبْتُ مِنَ الْحُضُورِ مَا هُوَ حَرِيٌّ بِالْإِجَابِ، وَالسَّيِّدِ الْمَاجِدِ يَقْبَلُ الْاعْتِذَارَ، وَيَتَقَبَّلُ فِي حُسْنِ الْعَزَاءِ الصَّفْوَةِ الْأَخْيَارِ"^{٩٢٤}.

كَانَتْ السَّهُولَةُ بَادِيَةً فِي نُصُوصِ الرِّسَالِ السَّابِقَةِ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ الْمَسْتَوَى الثَّقَافِيِّ لِلْمُرْسِلِ^{٩٢٥}، كَمَا فِي الرِّسَالَةِ الْأُولَى أَوْ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ كَمَا فِي الرِّسَالَةِ الثَّانِيَةِ، كَذَلِكَ الْمَقَامُ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ الرِّسَالُ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ مَقَامًا الشُّكَايَةِ وَالتَّعْزِيَةِ^{٩٢٦} لِيُلائِمَا الْاعْتِنَاءَ بِالرِّسَالَةِ

^{٩٢٠} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٥٢٤.

^{٩٢١} لم يُعْرِفِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ بِالتَّحْدِيدِ، وَلَكِنْ يَدُو مِنْ الرِّسَالَةِ أَنَّ ابْنَ عُمَيْرَةَ أَرْسَلَهَا إِلَى قَرِيبٍ لَهُ أَوْ صَدِيقٍ مُقَرَّبٍ.

^{٩٢٢} الرِّقَاصُ: كَلِمَةٌ مَا تَزَالُ مُسْتَحْدَمَةً فِي اللَّهْجَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَمَعْنَاهَا سَاعِي الْبَرِيدِ.

^{٩٢٣} ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٨٨.

^{٩٢٤} المصدر السابق، ٢٠٤.

^{٩٢٥} وينسحب هذا الوصف على الرسائل الديوانية التي كان يرسلها الأوروبيون إلى الموحدين، ينظر رسائل حكومة بيشة إلى الخليفة يوسف في: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٦٣ - ١٦٥.

^{٩٢٦} ينظر رسائل الشكاية في: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٥٢٢ - ٥٢٦، ورسائل التعزية في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاري الأندلسي، ١٧٦، ابن المرباط، زواهر الفكر، ٩٨، ٢٠١، ٢٠٣.

أَوْ تَخَيَّرَ أَلْفَظِهَا أَوْ التَّفَنَّنَ فِي إِنْشَائِهَا، لِأَنَّ هَدَفَ الْمُرْسِلِ كَانَ إِيصَالُ فِكْرَتِهِ لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ بِالْأَفَظِ سَهْلَةٍ وَمُفْرَدَاتٍ وَاضِحَةٍ، وَلَرُبَّمَا كَانَ وُجُودُ أَلْفَظٍ جَزَلَةٍ صَارِفًا لِدِهْنِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَعَائِقًا عَنِ وُجُودِ الْفِكْرَةِ الَّتِي يُرِيدُ الْمُرْسِلُ إِيصَالَهَا إِلَيْهِ.

وَكَانَتْ أَلْفَظُ كَثِيرٍ مِنَ الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ تَجْمَعُ بَيْنَ السَّهُولَةِ وَالْجَزَالَةِ، وَالْمَقْصُودُ بِالْجَزَالَةِ أَنْ لَا تَكُونَ الْأَفَظُ وَحْشِيَّةً مُتَوَعِّرَةً، وَإِنَّمَا تَكُونَ مَتِينَةً وَعَذْبَةً فِي آنٍ وَاحِدٍ^{٩٢٧}، وَمِمَّا يُمَثِّلُ ذَلِكَ رِسَالَةُ كَتَبَهَا الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ بِنَفْسِهِ وَعَاتَبَ بِهَا جُنْدَهُ عَلَى سُقُوطِ أَحَدِ الْحُصُونِ بِيَدِ الْأَعْدَاءِ، وَجَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مَا نَصَّهِ "لَا جَرَمَ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِالْعَدُوِّ قَصَمَهُ اللَّهُ وَقَصَدِهِ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَطَاشَتْ قُلُوبُكُمْ خَوْرًا، وَعَادَ صَفُوكُمْ كَدْرًا، وَشَمِمْتُمْ رِيحَ الْمَوْتِ وَرِدَا وَصَدْرًا، وَظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ أُحِيطَ بِكُمْ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ، وَأَنَّ الْفَضَاءَ قَدْ غَصَّ بِالتِّفَافِ الْقِنَا وَاصْطِفَافِ الْمَقَانِبِ، وَرَأَيْتُمْ غَيْرَ شَيْءٍ فَحَسِبْتُمُوهُ طَلَاتِعَ الْكِتَابِ، تَبًّا لِهَمَمِكُمُ الْمُنْحَطَّةِ، وَشِيَمِكُمُ الرَّاضِيَةِ بِأَدُونِ خُطَّةٍ، أَحِينَ نُدِبْتُمْ لِحِمَايَةِ إِخْوَانِكُمْ، وَالذَّبِّ عَنْ كَلِمَةِ إِيْمَانِكُمْ نَسَقْتُمُ الْأَقْوَالَ وَهِيَ مَكْذُوبَةٌ، وَلَفَقْتُمُ الْأَعْدَارَ وَهِيَ بِالْبَاطِلِ مَشُوبَةٌ"^{٩٢٨}.

وَيَرْتَفِعُ مُسْتَوَى الْجَزَالَةِ وَالِاعْتِنَاءِ بِالرِّسَالَةِ وَالتَّفَنَّنِ فِي إِنْشَائِهَا مَعَ الْحِفَظِ عَلَى وَضُوحِ مُفْرَدَاتِهَا وَسَهُولَةِ أَلْفَظِهَا حِينَ يَكُونُ طَرَفًا الرِّسَالَةِ كَاتِبِينَ بَارِعِينَ فِي الْكِتَابَةِ، مُتَمَكِّنِينَ مِنْ فُنُونِهَا، وَكَأَنَّ الْمُرْسِلَ يُرِيدُ تَبْيَانَ مَقْدَرَتِهِ الْكِتَابِيَّةِ، وَعَرْضَ مَا فِي حَافِظَتِهِ مِنْ أَلْفَظٍ جَزَلَةٍ وَتَرَكَيبٍ فَخْمَةٍ وَمِمَّا يُمَثِّلُ ذَلِكَ الرِّسَالَتَانِ اللَّتَانِ تَبَادَلَهُمَا ابْنُ الْأَبَّارِ وَابْنُ عُمَيْرَةَ وَبَكِيًّا فِيهِمَا سُقُوطٌ بِلَنَسِيَّةٍ، لَقَدْ فَاضَتْ الرِّسَالَتَانِ بِالْأَلْفَظِ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ الْجَزَالَةِ وَالْوَضُوحِ، وَقَدْ جَاءَ فِي رِسَالَةِ ابْنِ الْأَبَّارِ قَوْلُهُ: "يَا اللَّهُ مِنْ جَلَاءٍ لَيْسَ بِهِ يَدَانِ، وَتَنَاءٍ قَلَمًا يُسْفِرُ عَنْ تَدَانِ، وَعَدَدَ الْجَدِّ الْعَاثِرُ لِقَاءَهُ فَأَنْجَزَ، وَرَأَمَ الْجِلْدُ الصَّابِرُ انْقِضَاءَهُ فَأَعْجَزَ، هَؤُلَاءِ الْإِخْوَانُ مُكْثَتُهُمْ لَا يُمْتَعُ بِهِ أَوَانٌ، وَبَيْنَهُمْ كَبَبَتُ الْأَرْضُ أَلْوَانٌ، بَيْنَ هَائِمٍ بِالسُّرَى، وَنَائِمٍ فِي الثَّرَى، مِنْ كُلِّ صِنْدِيدٍ بَطْلٌ، أَوْ مِنْطِيقٍ غَيْرِ ذِي خَطَأٍ وَلَا خَطَلٍ، قَامَتْ عَلَيْهِ التَّوَادِبُ، لَمَّا قَعَدَتْ التَّوَائِبُ، وَهَجَمَتْ بِيَوْتِهَا لِمَنْعَاهُ الْجَمَاحُ وَالذَّوَائِبُ، وَأَمَّا الْأَوْطَانُ الْحَبِّبُ عَهْدُهَا بِحُكْمِ الشَّبَابِ، الْمَشَبَّبُ فِيهَا بِمَحَاسِنِ الْأَحْبَابِ، فَقَدْ انْتَضَمَهَا الْإِنْتِشَارُ وَالِاصْطِلَامُ، حِينَ

^{٩٢٧} ينظر جزالة الألفاظ في: ابن الأثير، المثل السائر، ١: ٢٦٨.

^{٩٢٨} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٦٦.

وَقَعَتْ أَنْسُرُهَا الطَّائِرَةُ، وَطُلَعَتْ أَنْحُسُهَا الغَائِرَةُ، فَغَلَبَ عَلَى الْجَذَلِ الحَزَنُ، وَذَهَبَ مَعَ الْمَسْكَنِ السَّكَنُ^{٩٢٩}.

وجاء في رسالة ابن عُميرة التي أَجَابَ بِهَا عَلَى رِسَالَةِ ابْنِ الْأَبَّارِ مَا نَصَّهُ "أَيُّهَا الْأَخُ الَّذِي دُهِشَ نَاطِرِي لِكِتَابِهِ، بَعْدَ أَنْ أَدْهَشَ خَاطِرِي مِنْ إِغْبَابِهِ، وَسَرَّنِي مِنْ بَشْرِهِ بِمَاضٍ، بَعْدَ أَنْ سَاءَنِي مِنْ جِهَتِهِ إِعْرَاضٍ، جَرَتْ عَلَى ذِكْرِهِ الصَّلَّةُ فَقَوِّمَ قَدْحَ نَبْعَتِهَا، وَرَوَّى أَكْنَافَ تِلْعَتِهَا.... فَفِي كُلِّ جَانِبٍ عَوِيلٌ وَزَفْرَةٌ، وَبِكُلِّ صَدْرٍ غَلِيلٌ وَحَسْرَةٌ، وَلِكُلِّ عَيْنٍ عِبْرَةٌ، لَا تَرْفَأُ مِنْ أَجْلِهَا عِبْرَةٌ، دَاءٌ خَامَرٌ بِلَادَنَا حَتَّى أَتَاهَا، وَمَا زَالَ بِهَا حَتَّى سَجَى عَلَى مَوَاتَاهَا، وَشَجَا لِيَوْمِهَا الْأَطْوَلَ كَهُلُهَا وَفَنَاهَا.... فَوَصَفُكُمْ عَلَى الْحَادِثَةِ فِيهَا أَتَى، وَفِي ضَمَانِ الْقُدْرَةِ الْإِنْتِصَافُ مِنْ عَدُوِّ عَثَا وَعَتَا، وَإِنَّا لَنَرْجُوهَا كَرَّةً تَفْكُ الْبِلَادَ مِنْ أَسْرِهَا، وَتَجْبِرُهَا بَعْدَ كَسْرِهَا"^{٩٣٠}.

كَانَ الطَّابِعُ الْعَامُّ الَّذِي يَتَّسِمُ بِهِ الْأَدَبُ الْأَنْدَلُسِيُّ بِشِقْيِهِ الشَّعْرُ وَالتَّثَرُّ يَتِمُّثَلُ فِي الْوُضُوحِ وَالْبَسَاطَةِ وَالسَّهُولَةِ وَالِابْتِعَادِ عَنِ التَّكَلُّفِ وَالْعُلُوِّ وَالْغَرَابَةِ، وَيَسْرِي هَذَا الطَّابِعُ عَلَى الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الَّتِي خُطِّتْ فِي عَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ، وَلَكِنْ يُوجَدُ اسْتِثْنَاءٌ لِهَذَا الطَّابِعِ الْعَامِّ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِلَّةِ النَّمَاذِجِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ إِلَّا إِنَّهَا لَا فِتْنَةَ لِلنَّظَرِ.

اتَّصَفَتْ بَعْضُ الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ بِالتَّكَلُّفِ، وَكَانَ التَّكَلُّفُ فِيهَا مُشْتَتًّا لِذِهْنِ الْمُتَلَقِّي، وَعَائِقًا عَنْ فَهْمِ الْفِكْرَةِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الرِّسَالَةُ، وَنَجِدُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ رِسَائِلِ الْفَارَازِيِّ وَمِنْهَا رِسَالَةُ أَنْشَاهَا وَكُتِبَ فِيهَا فِي مَعْرَضٍ حَدِيثُهُ عَنْ غَوَاصٍ يَسْتَخْرِجُ اللَّالِيَّ مِنَ الْبَحْرِ مَا نَصَّهُ "فَالْفَاهُ وَدِينُ الْعَشِيِّ قَدْ رَجَحَ، وَغُرَابُ الْغُرُوبِ قَدْ سَنَحَ، وَطَرَفُ النِّجَمِ إِلَى حَمْلِ الْغَزَالَةِ قَدْ طَمَحَ، فَرَكِبَهُ عَجَلًا، وَأَرَاغَ مَطْلَبَهُ مُسْتَعَجِلًا، وَمَا زَالَ يَحِلُّ وَيَعْقِدُ، وَيَرُومُ الْوِجْدَانَ فَيَفْقِدُ، إِلَى أَنْ تَجْهَمَ وَجْهُ الشَّمْسِ بِالنَّوَى، وَبَقَلَ عَارِضُ الظَّلَامِ فِي حَدِّ الضُّوْءِ، فَلَمَّا عَايَنَ دَوَائِرَ السُّفُنِ إِلَى مَرْكَزِ الشَّطِّ تَفْقِلُ، وَأَبْوَابُ الْبَحْرِ بَيْنَ السَّمَاءِ تُقْفَلُ، وَرَأَى الشَّمْسَ إِلَى الْأُفُقِ الْغَرْبِيِّ تَأَرَّزَ، وَأَلْوِيَةَ اللَّيْلِ فِي كُلِّ مَرْقَبَةٍ تَرَكَّزَ، ضَمَّ مَرَسَاهُ، وَذَمَّ

^{٩٢٩} المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٧.

^{٩٣٠} المصدر السابق، ٤: ٤٩١ - ٤٩٥.

مَمْسَاهُ، وَعَزَمَ عَلَى الْعَوْدَةِ، وَقَدْ أَلْقَى بِيَدِ الْخَبِيَّةِ زِمَامَهُ، وَرَأَى غَنِيمَةً غَيَّبَتْهُ تِلْكَ السَّلَامَةُ، فَانْسَ وَقَدْ وَلَّى، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الْأَسَفُ وَاسْتَوْلَى^{٩٣١}.

كَانَ التَّكْلُفُ فِي رِسَالَةِ الْفَازَاذِيِّ بَادِيًّا فِي الْبِنَاءِ وَصِيَاغَةِ النَّصِّ، وَنَجِدُ أَيْضًا تَكْلُفًا آخَرَ يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ، وَمِنْ ذَلِكَ التَّكْلُفُ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ خَطِّهَا ابْنُ عُمَيْرَةَ لِصَدِيقِهِ أَبِي الْحَسَنِ الرَّعِينِيِّ وَابْنِ الْجَنَانِ وَتَعَمَّدَ فِيهَا التَّزَامَ حَرْفِ التَّوْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا^{٩٣٢}، وَجَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ "وَإِنَّمَا الصَّنَاعَةُ لِنَاطِمِي جُمَانِهَا، وَمُتَنَاوَلِي عَنَانِهَا، الَّذِينَ يُنَوِّعَانِ الْإِنْشَاءَ، وَيَضَعَانِ أَمَكِنَةَ النَّقْبِ الْهَنَاءِ، نَهَضًا نَحْوَ الْمُنْتَهَى، وَنَبْذًا بِفَتْنِ النَّهْيِ، وَمَنْ كَالَأَسْنَى شَأْنًا، الْأَدْنَى مِنْهَا مَكَانًا، نَوْءٌ هَتَّانَ، وَثَوْرٌ فَتَّانَ، وَحُسْنٌ يُقَارِنُهُ إِحْسَانٌ، نِعَمَ النَّائِي قِرْنٌ وَقَرِينٌ، وَمَنْهَلٌ مَعِينٌ، وَحِطَّانٌ: دُنْيَا وَدِينٌ، جَنَى جَنْتَيْهِمَا دَانَ، وَسَنَا نَيْرِيهِمَا لِلْعُيُونِ ثَانَ، إِنَّ نَظْمًا أَنْسِيَا فِنْدَ زَمَانٍ، وَنَابَعَةً بَنِي ذِيانٍ، وَابْنَ الْحُسَيْنِ عِنْدَ ابْنِ حَمْدَانَ، وَابْنَ الْقَيْنِ وَنَصِيهَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَإِنْ نَشَرَا فَمَنْ سَاكِنُ أَرْجَاءِ، وَنَائِبُ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِبَغْدَادٍ، وَأَصْنَافٌ كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَكَانَ..... فَهَنِيئًا لِهَذَيْنِ الْعَلَمَيْنِ صِنَاعَةُ بَيَانِيَّةٍ، وَنَصَاعَةُ نَيْسَانِيَّةٍ، وَتَنَاوُلٌ لِفُنُونِ الْإِتْقَانِ، نَزَّهَا مَنْصِبُهُمَا عَنِ الدَّنَسِ، وَزَيْنَا بِمَحَاسِنِهِمَا جَانِبِي الْأَنْدَلُسِ، فَلِجَانِبِيهَا ابْنُ الْجَنَانِ السَّنِّي، وَلِلثَّانِي نَادِرَةُ الزَّمَنِ الرَّعِينِي، فَتَجَنَّبَتْهُمَا نَوَائِبُ الزَّمَانِ، وَكَانَتْ عَنْهُمَا عُيُونُ الْحَدَثَانِ، وَاسْتَنْفَتَهُمَا نِعَمُ الْمَنَانِ، وَنَخْتِمُ بِتَحِيَّتَيْنِ عَبَقَتَيْنِ عَيْنَتَيْنِ غَدَقَتَيْنِ طَيِّبَتَيْنِ صَيَّبَتَيْنِ تَنْتَابُ فَنَاءَهُمَا مَنَزَلًا، وَتَنَمُّ بِنَادِيهِمَا عَنَبَرًا وَمَنْدَلًا"^{٩٣٣}.

وَمِنْ التَّكْلُفِ اللَّفْظِيِّ أَيْضًا اسْقَاطُ حَرْفٍ مِنْ كُلِّ لَفْظَةٍ مِنَ أَلْفَاظِ الرِّسَالَةِ، وَتُمَثِّلُ ذَلِكَ رِسَالَةُ كَتَبَهَا ابْنُ الْجَنَانِ^{٩٣٤} وَأَشَادَ فِيهَا بِصَدِيقِهِ ابْنَ الْمُرَابِطِ، وَقَدْ تَعَمَّدَ الْكَاتِبُ اسْقَاطَ حَرْفِ الْأَلْفِ مِنْ كُلِّ كَلِمَاتِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ "وَلِي لَهْجٌ بِذِكْرِكَ، وَمَنْهَجٌ مُتَّضِعٌ فِي شُكْرِكَ، وَصِدْقٌ فِي خُلَّتِكَ، وَسَبْقٌ فِي حَلَبَةِ تَجَلَّتِكَ، وَعِلْمٌ بِسُمو رُبَّتِكَ،

^{٩٣١} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠١.

^{٩٣٢} ونجد مثل ذلك رسالتين الأولى لابن الجنان والثانية لأبي الحسن الرعيني وقد التزم الكاتبان بحرف العين في كل كلمة من كلمات رسالتهما، ينظر إليهما في: المراكشي، الذيل والتكملة، ٥: ٣٢٨ - ٣٣٠.

^{٩٣٣} المراكشي، الذيل والتكملة، ٥: ٣٤٧.

^{٩٣٤} ونجد مثل ذلك خطبة لابن الجنان أسقط حرف الألف من كل كلمة من كلماتها، ينظر إليها في: ابن المرابط، زواهر الفكر، ٣١، وقصيدة له التزم بكلمة واحدة في صدر كل بيت من أبياتها، ينظر إليها: المصدر السابق: ٤٤.

وَرَفْعَةَ مَنْصِبِكَ، وَكَرَمَ مَنْسَبِكَ، وَفَضْلَ مَذْهَبِكَ، وَحُسْنَ طَرَفِكَ، وَيُمْنِ نَقِيبَتِكَ، وَتُبْلِ ضَرِيبتِكَ، وَجَوْدَ يَمِينِكَ، وَشُمُوحَ عَرِينِكَ، وَعُلُوَّ هِمَّتِكَ، وَوَفَى ذِمَّتِكَ، وَحِفْظَكَ لِحُرْمَةِ دَخِيلِكَ، وَرَعِيكَ لِوُصْلَةِ خَلِيلِكَ، وَكَوْنَكَ وَحِيدَ عَصْرِكَ، فِي تَتْمِيمِكَ لِكُلِّ مَكْرَمَةٍ وَتَكْمِيلِكَ، وَلِصِحَّةِ مُعْتَقَدِي فِي مَجْدِكَ، وَقُوَّةِ مُعْتَمِدِي عَلَى فَضِيلَةِ قَصْدِكَ، تَوَسَّلْتُ إِلَيْكَ فِي مَبْلَغِ مَكْتُوبِي وَمُؤَدِّيهِ، وَتَوَصَّلْتُ بِهِ لِعَرَضِي فِي حَمْدٍ يَرْتَجِلُهُ لَكَ مَقُولُ شُكْرِي وَيَرْوِيهِ، فَجَمَعْتُ بَيْنَ مَقْصِدَيْنِ، وَقَضَيْتُ فَرْضَيْنِ مُتَعَيْنَيْنِ، حِينَ سَلَكَتُ مِنْ تَحْبِيرِ مَدْحِكَ مَسْلَكَ مِثْلِي مِنْ مُعْتَمِدِيكَ، وَدَلَّلْتُ عَلَى مُتَّسَعِ طَوْلِكَ مَنْ يُؤْمَلِكُ لِتَفْرِيجِ ضَيْقَتِهِ وَيَرْتَجِيكَ.....بَقِيَتْ ثُلُوِي كُلِّ مِنْةٍ جَزِيلَةٍ، وَتُحَلَّى بِحُلَى مَجْدِكَ كُلِّ مَنْقَبَةٍ جَلِيلَةٍ، وَتَتَقَدَّمُ فَتُؤَخَّرُ كُلُّ صَدْرٍ مُقَدَّمٍ، وَتُزِيلُهُ فَيَصِيرُ كَصَدْرِ حُرُوفٍ لَمْ يُلَفْظْ بِهِ وَلَمْ يُتَكَلَّمْ، وَتَحْيِيَّةٌ حَفِيَّةٌ، كَرِيْمَةٌ طَيِّبَةٌ، تَعْتَمِدُ مَجْلِسَكَ، وَرَحْمَةٌ مُنْهَلَةٌ، وَبَرَكَةٌ صَيِّبَةٌ" ٩٣٥.

لَا يَخْفَى التَّكَلُّفُ فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ "وَالْتَّكَلُّفُ يَقَعُ إِمَّا بِتَوَعُّرِ الْمَلَاظِمِ أَوْ ضَعْفِ تَطَالُبِ الْكَلِمِ، أَوْ بَزِيَادَةِ مَا لَا يُحْتَاجُ، أَوْ نَقْصِ مَا يُحْتَاجُ، وَإِمَّا بِتَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ، وَإِمَّا بِقَلْبٍ وَإِمَّا بِعَدَلٍ عَنِ صَيِّغَةٍ هِيَ أَحَقُّ بِالْمَوْضِعِ، وَإِمَّا بِإِبْدَالِ كَلِمَةٍ مَكَانَ كَلِمَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا فِي الْكَلَامِ" ٩٣٦، وَيدْخُلُ ضِمْنَ التَّكَلُّفِ الْمُقْصُودُ فِي هَذَا السِّيَاقِ التَّصْنُّعُ فِي الصِّيَاغَةِ وَإِسْقَاطُ حَرْفٍ أَوْ التِّزَامُ حَرْفٍ آخَرَ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ النَّصِّ.

وَمِمَّا يُنَاقِضُ الْبَسَاطَةَ وَالْوُضُوحَ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَجُودُ أَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ تَتَّصِفُ بِالْعَرَابَةِ وَالتَّوَعُّرِ عَلَى غِرَارِ الْقَرْهَبِ ٩٣٧ وَالْمَخْشَلَبِ ٩٣٨ وَحَيْهَلٍ ٩٣٩ وَطُحَارٍ ٩٤٠، حَيْثُ اقْتَضَى وَجُودُ مِثْلِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ الْبَحْثَ عَنْهَا وَمَعْرِفَةَ مَعَانِيهَا لِتَيَسُّرِ الْقَارِئِ مِنْ فَهْمِ الرِّسَالَةِ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ أَفْكَارٍ وَمَعَانٍ.

٩٣٥ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٥٠ - ٥١.

٩٣٦ القرطاجي، منهاج البلغاء، ٢٢٣.

٩٣٧ ينظر: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٩.

٩٣٨ ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤٢٠.

٩٣٩ ينظر: ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٨٤.

٩٤٠ ينظر: المصدر السابق، ١٩٤.

ومّا يُناقِضُ البَسَاطَةَ والوضوحَ أيضاً وجودُ ذِكرٍ في بعضِ الرِّسائلِ لأعلامِ أدبيّةٍ أو تاريخيّةٍ تَتَطَلَّبُ أنْ يَكُونَ ذا مُستوى عالٍ من الثَّقَافَةِ حتّى يَتِمَكَّنَ من فَهْمِ النّصِّ ومَعْرِفَةِ دَلَالَةِ الأعلامِ المذكورين فيه، ومن ذلك ما وَرَدَ في رسالتين: الأولى لابنِ عُميرة أنّنى فيها على تَفَوُّقِ ابنِ الجَنّانِ في نَظْمِ الشَّعرِ وجاءَ فيها "وطريقةٌ مُنذُ ظَهَرَتْ لِلْعَيَانِ، بَهَرَتْ أَهْلَ الْبَيَانِ، فَخَوَارُ الْخَوَارِزْمِيِّ وَاضِحٌ، وَهَذَيَانُ الْهَمْدَانِيِّ فَاضِحٌ، وَحَرِيرُ الْحَرِيرِيِّ صُوفٌ، وَبَسْتَانُ الْبُسْتِيِّ بَانْقَطَاعُ الْجَنَى مَوْصُوفٌ، فَأَمَّا صَنَعَةُ الْمُعَرِّي فَكَلَمَاءُ الْأَجَنِّ مَعَ الرَّيِّ، تَمَجُّهُ الْأَفْوَاهُ مَجّاً، وَلَا تَجِدُ لَجَوَازِ اسْتِعْمَالِهِ مُحْتَجّاً"^{٩٤١}.

وأما الرِّسالةُ الثَّانيةُ فكانتْ جَوَابِيَّةً أَشَارَ فِيهَا كَاتِبُهَا ابْنُ الْجَنّانِ إِلَى الْعُمُوضِ وَالْمَعْمَى اللَّذَيْنِ اكْتَنَفَا رِسَالَةً أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ ابْنُ عُميرة، وجاءَ في تلكِ الرِّسالةِ ما نَصَّهُ "أَمْسِ اسْتَسْقِي مِنْ سَحَابِهِ فَلَا يَسْقِينِي، وَأَسْتَشْفِي بِأَسْمَائِهِ فَلَا يَشْفِينِي، وَالْيَوْمَ يُحَلِّني مَحَلّاً أُنُوشِرُوانَ، وَيَشْكُو مِنِّي شَكْوَى الزَّيْدِيَّةِ مِنْ بَنِي مَرْوان...فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الْمُتَّبَعَةُ، وَالشَّرِيعَةُ الْمُبْتَدَعَةُ؟ أَيْظُنُّ أَنَّ مُعَمَّاهُ لَا يَنْفَكُ، وَأَنَّهُ لَا يَنْحَلِّي هَذَا الشَّكَّ؟"^{٩٤٢}.

ثانياً: الإطناب.

يَعُودُ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ لِلْإِطْنَابِ إِلَى الْأَصْلِ (طَنَبَ) وَهَذَا الْأَصْلُ "يَدُلُّ عَلَى ثَبَاتِ الشَّيْءِ وَتَمَكُّنِهِ فِي اسْتِطَالَةٍ"^{٩٤٣}، وَيَنْدَرُجُ تَحْتَهُ كَلِمَاتٌ لَهَا ذَاتُ الدَّلَالَةِ، فَالطَّنْبُ أَوْ الطَّنْبُ هُوَ حَبْلُ الْخَبَاءِ وَالسَّرَادِقِ وَنَحْوَهُمَا، وَالْإِطْنَابُ الطَّوَالُ مِنْ حِبَالِ الْأَخْبِيَةِ، وَأَطْنَابُ الشَّمْسِ أَشْعَةُ تَمْتَدُّ كَأَنَّهَا الْقُضْبُ، وَأَطْنَبْتُ الْإِبِلَ إِذَا تَبَعَ بَعْضُهَا بَعْضاً فِي السَّيْرِ، وَأَطْنَبْتُ الرِّيحُ إِذَا اشْتَدَّتْ فِي غُبَارٍ، وَأَطْنَبَ فِي الْكَلَامِ إِذَا بَالَغَ فِيهِ وَأَبْعَدَ، وَالْإِطْنَابُ الْمَبَالِغَةُ فِي مَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ^{٩٤٤}.

^{٩٤١}المصدر السابق، ٢١٤. وينظر أيضاً: المقرئ، نفح الطيب، ٣: ٣٠٧.

^{٩٤٢}المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤١٧.

^{٩٤٣}ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة طنب.

^{٩٤٤}ابن منظور، لسان العرب، مادة طنب.

ولا يَتَعَدُّ المعنى الاصطِلَاحِيَّ عن المعنى اللغويِّ، فالإطنابُ في عُرْفِ اللغويين هو "زيادةُ اللفظِ عن المعنى لفائدة"^{٩٤٥}، وثمة فارقٌ بين الإطنابِ والتّطويلِ، فالإطنابُ هو تأديةُ المعنى بِعِبَارَةٍ زائدةٍ عن مُتَعَارَفِ أوصافِ البُلغاءِ لفائدةٍ تُقويه وتؤكدُ معناه^{٩٤٦}، أمّا التّطويلُ "فيأتي لِغَيْرِ فائدةٍ.... وأمّا القِسْمُ الذي هو غيرُ مُفيد فهو الذي يأتي في الكلامِ توكيداً له، وَيَجِيءُ في اللفظِ والمعنى ولكنَّ المقصودَ منه غيرُ مُفيد"^{٩٤٧}.

وخلاصةُ القولِ إنّ التّرَدَادَ^{٩٤٨} أو التّكرارَ^{٩٤٩} إذا كانَ لفائدة كانَ إطناباً مُستَحَبّاً لأنَّ "الإطنابَ على سائرِ أحواله بلاغة"^{٩٥٠}، وإذا كانَ لِغَيْرِ فائدةٍ كانَ تطويلاً مُستَكْرَهاً لأنَّ "التّطويلَ بعضُهُ عِيٌّ وَرَكَاكَةٌ"^{٩٥١}، و"الإطنابُ عَكْسُ الإيجازِ، وَلَهُ مَوْضِعٌ، فَيُخَاطَبُ بِهِ الْخَوَاصُّ وَالْعَوَامُّ"^{٩٥٢}.

تَبْدُو ظاهرةُ الإطنابِ جَلِيَّةً في مُعْظَمِ الرِّسَائِلِ الأندلسيَّةِ على اختلافِ أنواعِها، حيثُ مَالَ الكُتَّابُ الأندلسيُّونَ إلى بَسْطِ الكلامِ وتَفْصِيلِ القولِ في رِسَائِلِهِمْ، وَمِنْ الرِّسَائِلِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا الإطنابُ رسالةُ الشَّقْنَدِيِّ الَّتِي خَطَّهَا في تَفْصِيلِ الأندلس^{٩٥٣} وقد أَرَادَ الشَّقْنَدِيُّ مِنْ رِسَالَتِهِ أَنْ يُدَلِّلَ عَلَى أَنَّ الأندلسَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَى بَرِّ العُدُوَّةِ فِي كُلِّ مَجَالٍ،

^{٩٤٥} ابن الأثير، المثل السائر، ١: ١٠٩.

^{٩٤٦} الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة، ٢٢٨.

^{٩٤٧} ابن الأثير الحلبي، نجم الدين إسماعيل بن أحمد بن سعيد الشافعي المعروف بابن الأثير (ت ٦٩٩هـ)، جواهر الكثر، تحقيق: محمد زغلول سلام (القاهرة، منشأة المعارف، د.ت)، ٢٥٦ - ٢٥٧.

^{٩٤٨} استعمل الجاحظ هذا المصطلح للدلالة على الكلام الزائد وقال في ذلك (وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضرهم من العوام والخواص) الجاحظ، البيان والتبيين، ١: ١٠٥.

^{٩٤٩} استعمل ابن رشيقي القيرواني هذا المصطلح وبين المواضع التي يحسن فيها التكرار والمواضع التي يقبح فيها. ينظر: ابن رشيقي، العمدة، ٢: ٧٣.

^{٩٥٠} ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (٦٩١ - ٧٥١هـ)، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (مصر: مطبعة محمد أمين الخانجي وشركاه، ط ١، ١٣٢٧هـ)، ١١٠.

^{٩٥١} المصدر السابق، ١١٠.

^{٩٥٢} حسين، عبد القادر، فن البلاغة (بيروت: دار الكتب، ط ٢، ١٩٨٤م)، ٤٨٧.

^{٩٥٣} ينظر الرسالة في: المقرئ، نفع الطيب، ٣، ١٨٧ - ٢٢٢.

وللتمثيل على الإطناب في رسالته نَقْتَبِسُ ما كَتَبَهُ عن تَقَدُّمِ الأندلس في مَجَالِ الْعِلْمِ حيثُ جاءَ في رسالته ما نَصَّهُ "وإِنَّكَ إِن تَعَرَّضْتَ لِلْمَفَاضَلَةِ بِالْعُلَمَاءِ فَأَخْبِرْنِي: هل لَكُمْ في الفقه مثلُ عبد الملك بن حبيب الذي يُعْمَلُ بأقواله إلى الآن، ومثلُ أبي الوليد الباجي، ومثلُ أبي بكر بن العربي، ومثلُ أبي الوليد بن رُشْد الأَكْبَر، ومثلُ أبي الوليد بن رُشْد الأصغر؟ وهو ابنُ ابنِ الأَكْبَر، نُجُومُ الإسلام، وَمَصَابِيحُ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ عليه السَّلَام، وهل لَكُمْ في الحِفْظِ مِثْلُ أبي مُحَمَّد بن حَزَم الذي زَهَدَ في الوزارة والمال، وَمَالَ إلى رُتْبَةِ الْعِلْمِ، ورَأَاهَا فَوْقَ كُلِّ رُتْبَةٍ.... ومِثْلُ أبي عُمَر بن عبد البرِّ صاحبِ الاستذكارِ والتمهيد، ومِثْلُ أبي بَكْر بن الجَدِّ حَافِظِ الأندلس في هذه الدَّوْلَةِ، وهل لَكُمْ في حُفَاطِ اللُّغَةِ كَابِنِ سَيِّدِهِ صاحبِ كِتَابِ الْحَكَمِ وَكِتَابِ السَّمَاءِ وَالْعَالَمِ الذي إِنَّ أَعْمَى اللَّهِ بَصَرَهُ فَمَا أَعْمَى بَصِيرَتَهُ، وهل لَكُمْ في النَّحْوِ مِثْلُ أبي مُحَمَّد بن السَّيِّدِ وَنَصَانِيْفُهُ؟ ومِثْلُ ابنِ الطَّرَاوَةِ، ومِثْلُ أبي عَلِيٍّ الشُّلُوبِيْن الذي بَيْنَ أَظْهَرِنَا الْآنَ، وقد سَارَ في المَعَارِبِ والمَشَارِقِ ذِكْرُهُ"^{٩٥٤}.

إِنَّ الإطنابَ الذي تَنَاولْتَهُ بعضُ الدَّرَاسَاتِ الأدبيَّةِ الحديثةِ ليسَ بِمِصْطَلَحِهِ بل دَرَسْتَهُ تحتَ عُنْوانِ التَّكْرارِ^{٩٥٥} لم يَأْتِ في النُّصوصِ الأدبيَّةِ عِبْثًا ودُونِما هَدَفَ، بلْ جَاءَ مُؤَدِّيًّا غَرَضًا وَمُحَقِّقًا وَظَيفَةً، حيثُ "يُعَدُّ ظَاهِرَةً أَسْلُوبِيَّةً وَاضِحَةً، وهو نَوْعٌ مِنَ التَّنَوُّعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي غَالِبًا ما تَحْمِلُ دَلَالَاتٍ فَنِيَّةً تُؤَثِّرُ في المِستَمِعِ وتَجْذِبُ انتباهَهُ"^{٩٥٦}، وهذا ما تَحَقَّقَ في رِسَالَةِ الشَّقْنَدِيِّ، حيثُ انْجَذَبَ الانْتِبَاهُ إلى ذَلِكَ الإطنابِ الذي سَاقَهُ الْكَاتِبُ لِيُؤَثِّرَ في المِتلَقِي وَيُقْنِعَهُ بِأَحَقِّيَّةِ الأندلسِ في الصَّدَارَةِ وتَقَدُّمِهَا على بَرِّ العُدُوةِ.

وقد يَكُونُ لِلإطنابِ غَرَضٌ آخَرُ يَتِمَثَّلُ في المَبَالِغَةِ في التَّفْخِيمِ والتَّعْظِيمِ ولا سِيَّما في مُفَتِّحِ الرِّسَالِ الدِّيَوَانِيَّةِ، ومن ذَلِكَ الرِّسَالَةُ الجَوَابِيَّةُ الَّتِي أَرْسَلَهَا والي إِشْبِيلِيَّةِ لِلخَلِيفَةِ المَنْصُورِ وقد افْتَتَحَ الْوَالِي رِسَالَتَهُ بِقَوْلِهِ: "الْحَضْرَةُ الْإِمَامِيَّةُ، المَعْظَمَةُ المَقْدَسَةُ الْعَلِيَّةُ، حَضْرَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الْإِمَامِ الخَلِيفَةِ المَنْصُورِ النَّاصِرِ لِدينِ اللَّهِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ ابنِ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ الخَلِيفَةِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ ابنِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ وَصَلَّ اللَّهُ دَوَامَ نَصْرِهَا وَإِعْزَازِ أَمْرِهَا، عَبِيدُهَا

^{٩٥٤} المصدر السابق، ١٩٢.

^{٩٥٥} سبق أن استعمل ابن رشيق القيرواني هذا المصطلح ولكنه قصد فيه الإطناب والتطويل معا. ينظر: ابن رشيق،

العمدة، ٢: ٧٣.

^{٩٥٦} عبد المطلب، محمد، التكرار التمثيلي في قصيدة المدح عند حافظ، مجلة فصول، عدد ٢، ١٩٨٣م، ٤٧.

الشَّاكِرُونَ لِحَزِيلِ نِعْمَاتِهَا، الْمُتَقَلِّبُونَ فِي مَنِهَا الْجَمَّةِ وَآلَائِهَا، الطَّلِبَةُ الَّذِينَ بِإِشْبِيلِيَّةِ وَالْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِهَا، سَلَامٌ طَيِّبٌ كَرِيمٌ، مُبَارَكٌ عَمِيمٌ، عَلَى مَقَامِ الْحَضَرَةِ الْإِمَامِيَّةِ الْمُعْظَمَةِ الْمُقَدَّسَةِ الْعَلِيَّةِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتِهِ^{٩٥٧}.

وَكَانَ الْأَطْنَابُ يَتَجَلَّى أحياناً فِي الْجُمْلِ الدُّعَائِيَّةِ الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا الرِّسَالُ الدِّيَوَانِيَّةِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ مَحْشَرَةَ عَلَى لِسَانِ الْخَلِيفَةِ الْمَنْصُورِ وَجَاءَ فِيهَا "وَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - أَسْمَعَكُمْ اللَّهُ مِنْ بَشَرٍ هَذَا الْأَمْرِ الْعَزِيزِ مَا يُفْعِمُ أَرْجَاءَكُمْ طَيِّبِهِ، وَيَقُومُ بِأَكْنَفِكُمْ خَطِيئِهِ، وَيَتَمَهَّدُ لَكُمْ فِي ظِلَالِهِ غَضْرَ الْعَيْشِ الْأَرْغَدِ وَطَيِّبِهِ - مِنْ حَضَرَةِ إِشْبِيلِيَّةِ - حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى - وَكُنَّا - وَفَقَّكُمْ اللَّهُ - عَزَمْنَا فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ السَّعِيدَةِ عَلَى غُرُو الْكَافِرِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهِ، فَاسْتَنْفَرْنَا الْمُوَحِّدِينَ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ - وَإِخْوَانَهُمُ الْعَرَبَ - وَفَقَّهَهُمُ اللَّهُ - وَبَعْضَ الْقَبَائِلِ مِنَ الرَّعِيَّةِ - حَاطَهُمُ اللَّهُ - فَبَادَرَ كُلَّهُمْ بِنِيَّاتٍ صَادِقَةٍ، وَعَزَائِمٍ إِلَى اغْتِنَامِ الْأُجُورِ مُسَابِقَةً، وَضَمَائِرٍ لِكُلِّ مَشُوبٍ وَرَيْبٍ مُبَايَنَةٍ مُفَارِقَةٍ"^{٩٥٨}.

وَكَانَ الْإِطْنَابُ يَتَجَلَّى أَيْضاً فِي مُرَاحَةِ الْكَاتِبِ بَيْنَ اسْتِعْمَالِ الشَّعْرِ وَالتَّثْرِ فِي الرِّسَالَةِ الْوَاحِدَةِ وَهَذَا مَا سَنَأْتِي بِالْحَدِيثِ عَنْهُ مُفَصَّلاً فِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْبَابِ. كَمَا كَانَ الْإِطْنَابُ يَتَجَلَّى أَيْضاً فِي الرِّسَالِ الْوَصْفِيَّةِ، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِي رِسَالَةِ ابْنِ مُغَاوِرِ الشَّاطِطِيِّ الَّتِي وَصَفَ بِهَا رِحْلَتَهُ وَأَسْمَاها (ذِكْرُ الْمَرَاكِحِ)^{٩٥٩}، وَقَدْ نَاهَزَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ السَّبْعَ عَشْرَةَ صَفْحَةً "وَيُلَاحِظُ أَنَّ الْكَاتِبَ قَدْ أَطْنَبَ فِيهَا إِطْنَاباً شَدِيداً، وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَحَدَّثَ عَنْ عِشْرِينَ مَرَّحَلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُ يَسْطُ الْقَوْلَ فِي كُلِّ مَرَّحَلَةٍ، وَيُفَصِّلُ الْمَعَانِي، وَيَسْتَعِينُ بِالشَّعْرِ الَّذِي يُصَوِّرُ سِمَاتِ كُلِّ مَرَّحَلَةٍ"^{٩٦٠}.

وَفِي الرِّسَالِ الَّتِي تُخْبِرُ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ نَرَى الْإِطْنَابَ ظَاهِراً فِي ثَنَائِهَا، وَ"كُتِبَ الْفُتُوحُ لَيْسَ إِلَّا بَسْطُ الْكَلَامِ فِيهَا وَالْإِطْنَابُ فِي شُكْرِ اللَّهِ عَلَى الْفَتْحِ... وَنِسْبَةِ النَّصْرِ إِلَى

^{٩٥٧} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٠٨.

^{٩٥٨} بروفصال، رسائل موحدية، ٢١٩ - ٢٢٠.

^{٩٥٩} ينظر الرسالة في: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاططي، ١٦٧ - ١٨٣.

^{٩٦٠} الشناوي، علي الغريب، النشر الأندلسي في عصر الموحدين، ٢٧٢.

الله، ولا بأسَ بتحويلِ أمرِ العدو، ووصفِ جمعه وإقدامه، فإنَّ في تصغيرِ أمرِه تحقيراً للظفرِ به^{٩٦١}.

ومَّا جَاءَ فِي ذَلِكَ الرَّسَالَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ عِيَّاشٍ عَنِ الْأَمِيرِ يُوسُفَ قَبْلَ أَنْ تَوُورَ إِلَيْهِ مَقَالِيدُ الْخِلَافَةِ مُعَلِّمًا أَهْلَ غِرْنَاطَةَ بِالنَّصْرِ الَّذِي أَحْرَزَهُ عَلَى الْخَارِجِينَ وَقَدْ احْتَمَوْا بِجَبَلٍ حَصِينٍ، وَجَاءَ فِي تِلْكَ الرَّسَالَةِ قَوْلُهُ "وَكَانَ بَنُو نَالٍ وَبَنُو يَالٍ مِنْ قَبَائِلِ غَمَارَةِ الْمُخْتَصِمِينَ بِمَلَكَةِ الْجَبَلِ الْمَشْهُورِ بِالْمَنْعَةِ، الْمَعْرُوفِ بِجَبَلِ الْكُوكَبِ الَّذِي هُوَ أَشْهَرُهَا جَبَلًا، وَأَوْعَرُهَا مَرْقًى، قَدْ اسْتَحْكَمَ فِيهَا الْفَسَادُ، وَتَمَكَّنَ مِنْهُمْ الْارْتِدَادُ، وَاسْتَشْرَى ذَلِكَ فِيهِمْ بَعْوِيٌّ مِنْهُمْ يُعْرِفُ بِسَبْعِ بْنِ مُنْخِفَادٍ، أَشْرَبَ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ الْارْتِدَادُ قَلْبُهُ، ثِقَةً بِهَذَا الْجَبَلِ الصَّعْبِ الْمَوَالِجِ، الْمُبْهِمِ الْمَنَاهِجِ، الْمُسْتَغْلِقِ الْمُدَاخِلِ وَالْمَخَارِجِ، الَّذِي زَاخَمَ بِمَنْكِبِهِ، وَتَطَاوَلَ بِأَنْفِهِ، فَلَمَنْكَبِهِ الْعَمَمَ الَّذِي لَا يُفْرَعُ، وَلِأَنْفِهِ الشَّمَمَ الَّذِي لَا يُقْرَعُ وَلَا يُقْدَعُ"^{٩٦٢}.

وبعد أن يُطَنَّبَ الْكَاتِبُ فِي وَصْفِ الْجَبَلِ وَتَهْوِيلِ أَمْرِ مَنَاعَتِهِ وَحَصَانَتِهِ، يَأْتِي عَلَى الْغَنَائِمِ وَيُسْنِهُبُ فِي الْحَدِيثِ عَنْهَا لِيُظْهِرَ عِظَمَ الظَّفَرِ الَّذِي أَحْرَزَهُ الْمُوَحِّدُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ حَيْثُ جَاءَ فِي خَاتِمَةِ الرَّسَالَةِ مَا نَصَّهُ "وَالَّذِي نَفَّلَ اللَّهُ الْمُوَحِّدِينَ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ - مِنْ ضُرُوبِ الْمَغَانِمِ وَالْأَنْفَالِ، وَذَلِكَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، وَمِنَ الْغَنَمِ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَمِنَ السِّيِّ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَسِتْمِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَأَرْبَعُونَ، وَمِنَ الدُّوَابِّ سِتْمِائَةٍ وَسَبْعَةِ عَشْرَةٍ، وَهِيَ الْآنَ مُتَّصِلَةٌ مُتَّابِعَةٌ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَوْلَى أَوْلِيَائِهِ مِنَ الْخَيْرِ الْوَاسِعِ، وَالنَّصْرِ الْكَرِيمِ الْمُتَّابِعِ"^{٩٦٣}.

كَانَ الْمُوَحِّدُونَ مُدْرِكِينَ لِأَهْمِيَةِ الْجَانِبِ الْإِعْلَامِيِّ، وَكَانَ بَعْضُ كُتَّابِ الرِّسَالِ الدِّيَوَانِيَّةِ يَتَعَمَّدُونَ الْإِطْنَابَ وَالتَّطْوِيلَ مِنْ أَجْلِ تَرْسِيخِ مَضْمُونِ الرِّسَالَةِ فِي نُفُوسِ الْمُتَلَقِّينَ، وَمِنْ ثَمَّ بَثُّ مُحْتَوَاهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَكَانَ الْكُتَّابُ يُصْرِّحُونَ بِذَلِكَ فِي مُخْتَتَمِ رِسَائِلِهِمْ، فَهَذَا ابْنُ عِيَّاشٍ يَخْتَتِمُ رِسَالَتَهُ السَّابِقَةَ بِقَوْلِهِ: "وَعَرَفْنَاكُمْ بِذَلِكَ مَشْرُوحًا لِتَحْمِيدُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ وَتَأْخُذُوا بِحُظِّكُمْ مِنْهُ، وَتُعْطُوهُ حَقَّهُ مِنَ الْإِشَاعَةِ، وَتُؤَفُّوهُ وَاجِبَهُ مِنَ النَّشْرِ وَالْإِذَاعَةِ، فَقَدْ

^{٩٦١}الجلي، شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الجلي (ت ٧٢٥هـ)، حسن التوسل في صناعة التوسل، تحقيق: أكرم يوسف (بغداد: دار الرشيد للنشر، د.ت)، ٣٣٥.

^{٩٦٢}عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٠١ - ١٠٢.

^{٩٦٣}المصدر السابق، ١٠٥.

انْحَسَمَتْ بِهِ أَدْوَاءُ كَانَتْ فِي حَدِّ الْإِعْضَالِ، وَأُخْمِدَتْ نِيرَانُ كَانَتْ مِنَ الْفِتَنِ فِي اضْطِرَامٍ
وَاشْتِعَالٍ، وَسَتَكُونُ آيَاتُهَا مُنْبَهَةً وَعِبْرَتُهَا مُذَكِّرَةً، يَصْلُحُ بِهَا الْفَاسِدُ، وَيَسْتَقِيمُ بِهَا
الْمَائِلُ" ٩٦٤.

وكان بعضُ الكتّاب يميلون إلى الإطناب من أجل إظهار مهارتهم الفنية وعرض
ثروتهم الفكرية والثقافية وخاصةً عندما كانوا يُوجِّهون رسائلهم لمن يُضاهونهم في
المستوى الفكري والثقافي "ولا سيِّما أن الإطناب يقوم على بسط المعاني وتكرارها
بعبارات متعددة تهدف إلى تأكيد الفكرة وتوضيحها" ٩٦٥، ويظهر ذلك في رسالة كتبها
ابن عميرة لصديقه ابن الجنان وقد جاء في تلك الرسالة قوله "فحين كشفنا عن غيبه،
وتعرضنا لسببه، مدَّ يداً إلى جيبه، فأبرز من الرِّقاع ألواناً، وناول أجلها شأناً، فإذا أمامنا
قد تهدل أفناناً، وتبدل رنداً وباناً، وملاه ابن الجنان جناناً، والله ذره! فلقد أزال الأزل،
وأولى عطاءً جزيلاً بمنطقة الجزل، وكشف البأس، وأذهب عام عمواس، وأرسلها صحيفةً
مُستحقةً النهى، مُستحقةً أن تكون فوق السُّها، جمعت أجناس التجنيس، وقرنت الكُناس
بالخيس، فمن رقة في ألفاظها سهلة، وجزالة كأنها أعرابي في شملة" ٩٦٦.

وكان الكاتب الأندلسي يلجأ أحياناً إلى الإطناب من أجل حشد المعاني التي تخدم
موضوع رسالته، وتعيينه في تحقيق مأربه، ونجد ذلك في رسالة تشفع كتبها الفازازي
وجاء فيها "وَقُلَانُ صَحْبَتُهُ مُدَّةً، وَخَبِرْتُ مِنْهُ حُسْنَ أَدَبٍ وَصِدْقَ مَوَدَّةٍ، وَلَهُ رَغْبَةٌ أَنْ
تَكُونَ مِنْ أَكْدِ عُدَدِهِ، وَأَقْوَى الْأَسْبَابِ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِقَامَةِ أَوَدِهِ، وَأَنْتَ تَأْخُذُ مُحْسِنًا
بِيَدِهِ، وَتُعِينُهُ إِلَى مَا يَبْغِيهِ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى بَلَدِهِ وَوَلَدِهِ، جَعَلَكَ اللَّهُ مِنْ صَانِ مَالِهِ بِبَدْلِهِ،
وَتَوَسَّلَ بِالْمُؤَاسَاةِ بِفَضْلِهِ إِلَى جُودِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَلَا أَعْدَمَكَ إِسْدَاءَ مَعْرُوفٍ، وَإِجْزَالَ إِحْسَانٍ
إِلَى مُسْتَحَقٍّ لَهُ وَلِأَهْلِهِ" ٩٦٧.

٩٦٤ المصدر السابق، ١٠٥.

٩٦٥ القيسي، فايز، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري (عمان: دار البشير للنشر والتوزيع،
١٩٨٩م)، ٣٣٣.

٩٦٦ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٤.

٩٦٧ الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١١٢.

وَنَجِدُ الْأَطْنَابَ أَيْضًا فِي التَّشْبِيهَاتِ الْمُتَعَدَّةِ لِلْمَعْنَى الْوَاحِدِ وَالَّتِي كَثِيرًا مَا وُجِدَتْ فِي الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ مِنْ أَجْلِ حَشْدِ الْمَعَانِي وَإِبْرَازِ الْفِكْرَةِ^{٩٦٨}.

كَانَتْ سِمَةُ الْإِطْنَابِ تَظْهَرُ فِي مُعْظَمِ الرِّسَائِلِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَمَوَاضِعِهَا، وَكَانَ "حِرْصُ الْكُتَّابِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ عَلَى التَّنْوِيعِ بَيْنَ الشَّعْرِ وَالنَّثَرِ، وَالِاقْتِبَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، وَتَضْمِينِ رَسَائِلِهِمُ الْأَمْثَالَ وَالْحِكْمَ، وَحَلِّ الْمُنْظُومِ، قَدْ دَفَعَهُمْ إِلَى الْإِسْهَابِ وَالِإِطْنَابِ، لِأَنَّ عُنَاوِينَ هَذَا التَّرْصِيعِ تَتَطَلَّبُ التَّمْهِيدَ لَهَا بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمُنْثُورَةِ كَمَا تَتَطَلَّبُ التَّعْلِيقَ الْمُنَاسِبَ عَلَيْهَا"^{٩٦٩}.

وَلَكِنْ نَرَى مُقَابِلَ الرِّسَائِلِ الَّتِي اتَّصَفَتْ بِالْإِطْنَابِ قِلَّةً مِنَ الرِّسَائِلِ تَتَّسِمُ بِالِإِيجَازِ، وَمِنْ تِلْكَ الرِّسَائِلِ الْمَوْجِزَةِ رَسَائِلُ الشُّكَايَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْفَعُهَا الرَّعِيَّةُ إِلَى وُلاَةِ الْأَمْرِ حَيْثُ كَانَتْ بَعْضُ تِلْكَ الرِّسَائِلِ لَا تَزِيدُ عَنْ نِصْفِ صَفْحَةٍ^{٩٧٠}، وَكَذَلِكَ رَسَائِلُ التَّعْزِيَةِ^{٩٧١} وَالرِّسَائِلُ الْعَائِلِيَّةُ^{٩٧٢}.

وَقَدْ رَأَى الْكُلَاعِيُّ أَنَّ الرِّسَائِلَ الَّتِي تُرْسَلُ إِلَى الْحُكَّامِ تَكُونُ مُوجِزَةً لِأَنَّ "الِإِيجَازَ يُخَاطَبُ بِهِ أَهْلُ الرُّتَبِ الْعَالِيَةِ وَالْهَمَمِ السَّامِيَةِ، لِأَنَّ قِرَاءَةَ الْكُتُبِ كُفْلَةً، وَالْوَاجِبُ تَخْفِيفَ التَّكَلُّفِ عَنِ الْأَكَابِرِ وَالْمُلُوكِ"^{٩٧٣}، وَلَكِنْ إِذَا اسْتُنِيتِ رَسَائِلُ الشُّكَايَةِ الَّتِي كَانَتْ مُوجِزَةً، فَإِنَّ بَقِيَّةَ الرِّسَائِلِ الَّتِي خُوطِبَ بِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَكَابِرُ لَمْ تَتَّصِفْ بِصِفَةِ الْإِيجَازِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْكُلَاعِيُّ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ رَسَائِلٍ تَتَّسِمُ بِالِإِيجَازِ وَيَكَادُ يَخْتَفِي فِيهَا الْإِطْنَابُ إِلَّا أَنَّ تِلْكَ الرِّسَائِلَ كَانَتْ قَلِيلَةً، حَيْثُ كَانَ الْكَاتِبُ الْأَنْدَلُسِيُّ يُرَاعِي ظُرُوفَ كِتَابَةِ الرِّسَالَةِ وَمَوْضُوعِهَا، وَمُنَاسَبَةِ الْإِطْنَابِ وَالِإِيجَازِ فِيهَا لِمَقْتَضَى حَالِهَا "فَقَدْ يَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى الْإِيجَازِ

^{٩٦٨} ينظر: التشبيه في الفصل الأول من الباب الرابع من هذا البحث.

^{٩٦٩} خضير، حازم، النشر الأندلسي في عصر الطوائف والمراطين، ٣٧٧. واستمرت هذه السمة في عصر الموحدين.

^{٩٧٠} ينظر رسائل الشكاية في: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٥٢٢، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧.

^{٩٧١} ينظر رسالة التعزية في: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٠٤.

^{٩٧٢} ينظر الرسالة التي أرسلها ابن عميرة لأحد أقاربه في: المصدر السابق، ١٨٨.

^{٩٧٣} الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي (القرن السادس الهجري)، إحكام صناعة الكلام،

تحقيق: محمد رضوان الدايدة (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥م)، ٩٣.

في موضوعٍ مُعيّن يكونُ فيه أحوَجَ إلى الإطناب في مُناسَبَةٍ أُخرى، لأنَّ الجوّ العامّ الذي يُحيط بالكاتب، والظُّروف التي كُتِبَتْ فيها الرّسالة تتحكّم في الإطناب والإيجاز^{٩٧٤}.

^{٩٧٤}خياري، محمود محمد، رسائل موحّدية جمعاً وتحقيقاً ودراسة، أطروحة دكتوراه (الأردن: الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م)، ١٢٤.

الفصل الثاني

ظواهر أسلوبية في البناء

اعتنى الكتابُ الأندلسيون في عصر الموحّدين برِسائلهم، واهتمّوا في بنائها، وجعلوا لها طابعاً خاصاً يختلفُ عن طابع الرِّسائلِ المشرقية^{٩٧٥} بل يختلفُ عن طابع الرِّسائلِ الأندلسية التي كُتبت في عصورٍ سابقة لعصر الموحّدين^{٩٧٦}، حيثُ سلَّك الموحّدون مسلكاً خاصاً في كتابة الرِّسائل الديوانية، وتأثرت الأنواعُ الأخرى من الرِّسائل بهذا المسلك الذي سلَّكته الرِّسائل الديوانية.

وكما انجذبَ انتباهُ الباحث إلى ظواهر لغوية في الصورة الفنية في الرِّسائل الموحّدية، انجذبَ انتباهه أيضاً إلى ظواهر تتعلّق في بناء تلك الرِّسائل، وتجلّى الظواهر البنائية اللافتة للنظر في الرِّسائل الموحّدية في:

أولاً: هيكل الرسالة

يتكوّن هيكلُ الرسالة على اختلاف أنواعها من عناصر ثلاثة هي الافتتاح والعرض والخاتمة، وتحتوي هذه العناصر الرئيسية عناصر ثانوية أخرى، ويجدرُ تفصيلُ الحديث عن كلّ عنصرٍ من العناصر الرئيسية على حده:

^{٩٧٥} ينظر: الدروي، محمد، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة دكتوراه (الأردن: الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م). الغريب، سلامة، الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول، رسالة دكتوراه، (الأردن: جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٣م).

^{٩٧٦} ينظر: القيسي، فايز، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ٣١٥ وما بعدها. السوقي، صباح، فنّ الرسائل في الأندلس في عهد الخلافة الأموية، رسالة ماجستير (الأردن: جامعة اليرموك، ٢٠٠٣م).

الافتتاح

"جاءت الرسائل الموحدية على اختلاف موضوعاتها وأغراضها مُبتدئةً بالدُّعاء للمرسل إليه أو بالمنظوم أو بالدُّخول في الموضوع مباشرةً دون تمهيدٍ أو بتمهيدٍ يتراوح بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار تبعاً لاختلاف مقامات المرسل إليهم مع استخدام ألقاب تتناسب ومن يُكتب إليه أميراً كان أم وزيراً أم صديقاً"^{٩٧٧}، ولتوضيح هذا الوصف ونقده ينبغي التفصيل الآتي.

كان ميدان هذا البحث رسائلٌ مُوحّديةٌ بلغ عددها مئةً واثنين وسبعين رسالة، كان منها واحدةٌ وثلاثون رسالةً وصلتنا مَبْتُورَةً^{٩٧٨}، ولم تصلنا كاملة، ومَرَدُّ ذلك أنَّ جامعي الرسائل الأندلسية والمغربية "لم يكونوا يعنون كثيراً بالبناء الخارجي للرسالة، لأنهم استشهدوا بها كنماذج لفن الكتابة في فترة من الفترات، مؤلّين الخبر الوارد في الرسالة الأهمية الكبرى، دون الاهتمام ببناؤها الخارجي"^{٩٧٩}، لذا لم يتسن لنا الإطلاع على افتتاحياتها، أمّا ما تبقى من رسائل فقد اختلّفت افتتاحياتها وذلك بحسب نوع الرسالة وعرضها وطرفيها، ويمكن ملاحظة أنماط متعدّدة لافتتاحيات الرسائل^{٩٨٠} وكانت أكثرها شيوفاً تتمثل فيما يلي:

النمط الأول:

الافتتاح بالشعر، حيثُ افتتح الكتابُ بعضَ رسائلهم بالشعر، وكان الشعر يتراوح من مقطوعةٍ دون السبعة أبيات^{٩٨١} إلى قصيدةٍ كاملةٍ^{٩٨٢}، وربما اشتط الكاتبُ فاستهلَّ رسالته

^{٩٧٧} الكفارنة، محمد نازك، الثغر الأندلسي في ظل الموحدين، ٤٢.

^{٩٧٨} للتمثيل على الرسائل المبتورة ينظر: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٢٠، ٣٤٣. ابن المربط، زواهر الفكر، ٢١٢.

^{٩٧٩} خياري، محمود محمد، رسائل موحدية جمعاً وتحقيقاً ودراسة، ١٠٦.

^{٩٨٠} ينظر: ملحق ٥

^{٩٨١} ينظر الرسائل في: المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣٠٥، ٣: ١٤٥-١٤٦. ٤: ٤٩١. ٥: ٥٨.

^{٩٨٢} ينظر الرسائل في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٣٧، ١٣٠. المقرئ، نفح الطيب، ١:

بأكثر من قصيدة كما فعل الفازازي الذي افتتح رسالة له بقصيدتين ومقطوعة، وتكونت القصيدة التأنيّة الأولى من أربعة عشر بيتاً، والرأية الثانية من ثمان وعشرين بيتاً، أما المقطوعة السينية فتكونت من أبيات ثلاثة^{٩٨٣}، والملاحظ أن الرسائل التي افتتحت بالشعر كانت في معظمها إخوانية، ولا نجد إلا رسالة ديوانية واحدة افتتحت بالشعر وهي التي خطها صفوان بن إدريس عن والي مرسية إلى ملك قشتالة^{٩٨٤}.

النمط الثاني:

الافتتاح بذكر المرسل إليه ثم المرسل، أو بذكر المرسل ثم المرسل إليه، حيث افتتحت بعض الرسائل بذكر المرسل إليه ثم المرسل، وكان ذلك غالباً في الرسائل الديوانية التي ترفع من الأدنى إلى الأعلى رتبة، وكان المرسل يُطبّب في ذكر صفات المرسل إليه، ويخلع عليه الألقاب السلطانية الفخمة، ويسهب في الدعاء له، ومما يُمثّل ذلك رسالة رفعت إلى الخليفة، وقد استهلّت الرسالة التي أرسلها والي بلنسية أبو زيد وخطها عنه ابن عميرة بقوله: "الحضرة الإمامية العلية ناصرة الإيمان، ومجددة بهجة الزمان، القائمة بالعدل، الموصلة إلى رضاء الرحمن، الباسطة على البلاد والعباد ظلّ الأمان والأمان، حضرة سيدنا ومولانا الخليفة المرتضى أمير المؤمنين، أنجز الله تعالى له أفضل المواعد، وأنصهها لإعلاء كلمته بشدة الأيد وقوة الساعد، وتكفل لها بدوام الجدد الصاعد، وإخدام القدر المساعد، عبد مثابته العليا، ومؤمل دولتها المستحفظة نظام الدين والدنيا، المعتقد خدمتها وسيلة تفضي إلى نجاح الآمال وتفضي بعز الحيا، عبد الرحمن بن محمد، سلام الله تعالى الطيب المبارك وتحياته، تخصّ المقام الأشرف الأعلى ورحمة الله وبركاته"^{٩٨٥}.

وكان استهلال الرسالة بذكر المرسل إليه إشارة إلى احترامه وتوقيره، ولم يقتصر هذا التقليد على الرسائل الديوانية بل نجده في بعض الرسائل الإخوانية التي كانت تُرسل للعلماء والفقهاء ومن ذلك الرسالة التي كتبها الفازازي وافتتحها بقوله: "الفقيه العالم

^{٩٨٣} ينظر الرسالة في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٩٧ - ١٠٣.

^{٩٨٤} ينظر الرسالة في: عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٧٨.

^{٩٨٥} عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٦٣.

الأوحد، علّامة العلماء، وقُدوةُ الاتقياء، والعَضْبُ الذي لا يُعَارِضُ حَدَّه شَيْءٌ من الأشياء، أبو فلان ركن الدين وقُطْبُ الموحّدين، والشَّجِيّ المعْتَرِضُ في صُدُورِ الملحدّين، حَرَسَ اللهُ مُهْجَتَهُ وأعلى حُجَّتَهُ، وَنَهَجَ إلى دارِ السَّلامِ بِذِبِّهِ عن الإسلامِ مَحْجَتَهُ، كَتَبَ مُعْظَمُ قَدْرِهِ، الحَريصُ على الاقتداءِ بآثارِهِ، المُقدِّمُ لزيارته لولا تأخيرُ اعتذارِهِ فلان^{٩٨٦}.

أما الرِّسائِلُ التي كانت تُفْتَتَحُ بِذكرِ المرسلِ ثُمَّ ذَكَرَ المرسلُ إليه فَكَانَتْ تُرْسَلُ من الأعلى للأدنى، ومما يُمَثِّلُ تلكَ الرِّسائِلِ رسالةُ كَتَبَهَا ابنُ المرخى عن الخليفة واستهلَّها بِقوله: "مِنَ أميرِ المؤمنين - أيده اللهُ بِنصرِهِ، وأمدّه بِمَعُونَتِهِ - إلى الطَّلبةِ والمُوحِّدين والأشياخ والأعيان والكافةِ بِقرْطُبةَ - أدامَ اللهُ كرامَتَهُم بِتَقْوَاهِ، وعَرَّفَهُم عَوَارِفَ حُسْنَاهِ - سَلامٌ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته"^{٩٨٧}.

والملاحظُ أنَّ جُلَّ الرِّسائِلِ التي كانت تُفْتَتَحُ بِذكرِ المرسلِ كانت دِيوانِيَّةً، وكانت افتتاحياتُها مُختَصَرَةً إذا ما قُورِنَتْ بالافتتاحياتِ التي تَبْدَأُ بِذكرِ المرسلِ إليه، حيثُ لم تُحْشَدَ صفاتُ المرسلِ إليه ولم تُعَدَّدَ مَنَاقِبُهُ بالقَدَرِ الذي كانَ في الرِّسائِلِ التي تَبْدَأُ بِذكرِ المرسلِ إليه^{٩٨٨}.

وثَمَّةُ مَلاحَظَةٍ أُخرى في هذا النَّمطِ الافتتاحيِّ وهي أنَّ المذكورَ أولاً - سواءً كان مرسلًا أو مُرسَلًا إليه - كانَ الأعلى مكانَةً والأسمى رُتَبَةً، ولكنْ نَجِدُ خُرُوجًا عن هذه القَاعِدَةِ في بعضِ الحالاتِ، مِنْها تقدِيمُ رُتَبَةِ العِلْمِ على رُتَبَةِ الحُكْمِ، وَمِنْ ذلكَ ما جاء في مُفْتَتَحِ رسالةِ كَتَبَهَا أبو القاسِمِ البَلُويّ عن والي إشبيلية إلى أحدِ العُلَماءِ وافتتَحَها بِقوله: "الشَّيْخُ الأَجَلُّ الأعزُّ الأكرمُ الأسنى الولي الأثيرُ الأوْدُ الأخلصُ الأركى الأفضَلُ أبو سَعِيدِ بن الشَّيْخِ الأَجَلُّ أبي مُحَمَّدِ بن الشَّيْخِ الأَجَلِّ المرحوم أبي اسحاق - أدامَ اللهُ عزَّته، ووصلَ

^{٩٨٦} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاني الأندلسي، ٤٧.

^{٩٨٧} برفنصال، رسائل موحدية، ٩٩.

^{٩٨٨} ينظر نماذج من الرسائل التي افتتحت بذكر المرسل إليه في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاني الأندلسي، ١٠٩، ١١٢، ١٣٥. عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٦٧، ٣٢٤، ٣٥٠. وينظر نماذج أخرى من الرسائل التي افتتحت بذكر المرسل في: برفنصال، رسائل موحدية، ٩٥، ١٥٨، ٢١٨، ٢٢٨.

كرامته ورفعته - وليه في الله تعالى ومُحبّه فيه، المؤثّر له، الحفيّ به، إبراهيم بن سيّدنا أمير المؤمنين بن سيّدنا أمير المؤمنين، سلامٌ كريمٌ يخصّكم كثيراً ورحمةُ الله وبركاته^{٩٨٩}.
ومنها تقديم اسم المرسل على المرسل إليه إن كان الأخير غير مُسلم حتى لو كانت مكانته أعلى من مكانة المرسل، وكأنّ رتبة الإسلام كانت مُقدّمةً على رتبة الحكم، ومن ذلك ما ورد في مُفتتح رسالة كتبها إدريس بن صفوان عن والي مُرسية وأرسلها إلى ملك قشتالة وجاء في مُفتتحها ما نصّه "من عبد الرحمن بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيّد الله أمرهم - إلى أذفونش بن شنجة ملك قشتالة وطليطلة - وفقه الله وهداه وأراه وجهه رشده -"^{٩٩٠}.

النمط الثالث:

الافتتاح بالبسملة^{٩٩١}، حيث تُفتتح الرسالة بالبسملة ثم الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ومما يُمثل هذا النمط رسالة صدرت^{٩٩٢} عن والي غرناطة وكتب في مُفتتحها: "بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم، الحضرة السامية الإمامية حضرة سيّدنا ومولانا الإمام الأعدل، الخليفة الصالح المنصور بالله عزّ وجلّ، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعونته - مُلتزم أوامرهم العلية، المتبرك بمعاليهم السنية، الطائع السامع فيما يجب عليه من حقهم في كلّ ثنية، محمد بن أبي

^{٩٨٩}عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣١٦.

^{٩٩٠}المصدر السابق، ١٧٨. وينظر أيضاً الرسالة التي أرسلها والي إشبيلية إلى الوصي على عرش قشتالة في نفس المصدر، ٢٩١.

^{٩٩١}أول من افتتح كتابه بالبسملة سليمان بن داود - عليه السلام - وكانت العرب تقول في افتتاحيات كتبها وكلامها (باسمك اللهم) فجرى الأمر على ذلك في صدر الإسلام حتى نزلت (بسم الله مجريها ومرساها) فكتب الرسول - صلى الله عليه وسلم - (بسم الله) حتى نزلت (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) فكتب (بسم الله الرحمن) ثم نزلت (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) فصارت سنة إلى يومنا هذا. ابن السيّد البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيّد البطليوسي النحوي (٤٤٤ - ٥٢١هـ)، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا(القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١م)، ١: ١٩٩.

^{٩٩٢}كاتبها غير معروف.

إبراهيم، سَلامٌ على حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته^{٩٩٣}.

كما كانت رسائل البيعة^{٩٩٤} تُستهلّ بالبسملة، والصلاة على النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - ثُمَّ حَمْدُ الله والصلاة على النبي مرةً أخرى، ومما يمثل هذه الرسائل بيعة أهل غرناطة التي جَاءَ في مُفَتِّحِهَا "بسم الله الرحمن الرحيم، صَلَّى الله على محمد وآله وسلم، الحمد لله الذي جعل الإمامة عِصْمَةً لِلدِّينِ، وَمِنَّةً سَابِغَةً مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ، وَرَحْمَةً أَرَادَ اللهُ بِهَا هُدًى الْمُهْتَدِينَ وَقَوَامَ الْمُؤْمِنِينَ، نَظَّمَ بِهَا عَقْدَ الْأَنَامِ، وَتَمَّمَ بِارْتِبَاظِهِ عَقْدَ الْإِسْلَامِ، وَأَظْهَرَ بِالتَّزَامِهَا بَرَكَاتَةَ تَمَامِهَا وَانْتِظَامِهَا، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي ابْتَعَثَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَأَيَّدَهُ بِقُدْسِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَعَانَهُ عَلَى إِعْلَاءِ أَمْرِهِ وَكَلِمَتِهِ"^{٩٩٥}.

وكان هذا النمط من الافتتاحيات ظاهراً في الرسائل الديوانية ومنها رسائل البيعة، ويبدأ الكاتب بالبسملة "ويجبُ تقديمها في أول الكلام المقصود، من مكاتبة أو ولاية أو منشور أو إقطاع أو غير ذلك تبرّكاً بالابتداء لها وتيمناً بذكرها"^{٩٩٦}، ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ يَذْكُرُ طَرْفِي الرِّسَالَةِ مُرْتَبِينَ بِحَسَبِ مَا جَاءَ فِي النَّمَطِ الثَّانِي مِنْ أَمْطِ الْإِفْتِتَاحِ ثُمَّ حَمْدَ اللهِ وَإِعَادَةَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَالرَّضَى عَنْ الصَّحَابَةِ ثُمَّ الرَّضَى عَنْ الْخُلَفَاءِ الْمُوَحِّدِينَ وَالِدَّعَاءَ لَهُمْ، وَقَدْ يُؤَخَّرُ ذِكْرُ طَرْفِي الرِّسَالَةِ إِلَى مَا بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْحَمْدِ وَإِعَادَةِ الصَّلَاةِ وَالرَّضَى وَالِدَّعَاءَ.

وقد تأثر الأوروبيون إلى حدٍّ كبير بهذه النمط الافتتاحي، فافتتحوا رسائلهم الرسالة إلى الموحدين بالبسملة ثُمَّ الْحَمْدُ ثُمَّ ذِكْرُ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ ثُمَّ ذِكْرُ الْمُرْسِلِ، فَقَدْ جَاءَ فِي مُفَتِّحِ رِسَالَةٍ أَرْسَلُوهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ يُوسُفَ مَا نَصَّه "بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله حقَّ حمدِهِ، إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِمَامِ الْمُوَحِّدِينَ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْدَ اللهُ أَمْرَهُمْ

^{٩٩٣} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١٣. وينظر رسائل أخرى افتتحت بالبسملة: نفس المصدر ٧٣، ٨٩، ٩٨، ١٠٦، ٣٦٨. الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاني الأندلسي، ١٧٦.

^{٩٩٤} ينظر: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، بيعة أهل إشبيلية ١١١، بيعة أهل غرناطة ١١٢، بيعة أهل قرطبة ١٩١. وينظر: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، بيعة أهل شاطبة ١١٨.

^{٩٩٥} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١٢.

^{٩٩٦} القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢١٤.

وَأَعَزَّ نَصْرَهُمْ، مُعْظَمُونَ مَقَامَهُ وَمُلْتَزِمُونَ اعْطَايَهُ^{٩٩٧} أَبْلَدُهُ مُطْرَانٍ بَيْشَه وَكَرْسَقَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ وَقَنَاسَلَتَهَا وَقِمَامَسْتَهَا وَأَهْلَ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ فِيهَا، سَلَامٌ كَرِيمٌ حَفِيلٌ عَلَى الْحَضَرَةِ الْمَكْرَمَةِ وَرَحِمَتْ^{٩٩٨} اللَّهُ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ^{٩٩٩}.

والملاحظ في هذه الرسائل التي كانت تصدر عن الأوروبيين أن افتتاحياتها كانت مختصرة، وَخَلَتْ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا نُلَاحِظُ أَنَّ الْمُرْسَلَ إِلَيْهِ "أمير المؤمنين وإمام الموحدين أيد الله أمره وأعز نصره"^{١٠٠٠} ذَكَرَ مَرَّةً أُخْرَى بِشَكْلِ مُنْفَصِلٍ فِي الطَّرْفِ الْأَيْسَرِ مِنْ نِهَايَةِ الرِّسَالَةِ، وَلَمْ يُوجَدْ مِثْلُ ذَلِكَ إِلَّا فِي رِسَالَتِ الْأُورُوبِيِّينَ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مُتَّبَعًا عَنْدهُمْ حَتَّى يَظْهَرَ اسْمُ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ عَلَى وَجْهِ الرِّسَالَةِ عِنْدَ طَيْبِهَا، كَمَا نُلَاحِظُ أَنَّ لُغَةَ تِلْكَ الرِّسَالَتِ كَانَتْ رَكِيكَةً كَمَا أَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ أخطاءٍ إملائيةٍ أو نحويةٍ.

النمط الرابع:

الافتتاح بحمد الله، وَمِمَّا يُمَثِّلُ هَذَا النَّمطَ رِسَالَةٌ كَتَبَهَا ابْنُ الْجَنَانِ عَنْ ابْنِ هُودٍ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ وَجَاءَ فِي مُفْتَتِحِهَا قَوْلُهُ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ الدِّيَّانَ النَّبَوِيَّ الْعَزِيزَ الْمُسْتَنْصِرِيَّ بِخِصَائِصِ التَّكْرِيمِ وَالتَّفْضِيلِ، وَجَعَلَهُ مَصْعَدَ الْعُلَا، وَمَهَبَطَ الْمَلَأَ الْأَعْلَى، بِالْهُدَى وَالرَّحْمَةِ، وَالْحُكْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَالْبَيَانِ وَالتَّفْصِيلِ، وَآثَرَ مَقَامَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَلِيفَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِأَثَرِ جَدِّهِ الْعَبَّاسِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمَكَارِمِهِ الَّتِي أَهْلٌ بِهَا الْعِمَامُ، بِالْجَلِيلِ فَالْجَلِيلِ، وَرَفَعَ أَعْلَامَ دَعْوَتِهِ الْمُتَأَلِّقَةِ لِلنُّورِ، عَلَى أَعْلَى أَعْلَامِ الْعُلُوِّ وَالظُّهُورِ"^{١٠٠١}.

^{٩٩٧} كما جاءت في الأصل، ولعل المقصود بها أنهم ملتزمون بإعطائه ما أُثْفِقَ عليه.

^{٩٩٨} كما جاءت في الأصل.

^{٩٩٩} عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ١٦٥. وينظر رسالة أخرى: المصدر نفسه، ١٦٣.

^{١٠٠٠} وردت هذه العبارة في نهاية رسالتين أرسلهما الأوروبيون إلى الموحدين، المصدر السابق، ١٦٤، ١٦٦.

^{١٠٠١} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٢٠.

كانت رسالة ابن الجتن ديوانية، ونجد رسائل أخرى إخوانية استُهلّت بحمد الله^{١٠٠٢}، وكان الكاتب يذكرُ نعمَ الله وآلائه ثم يُصلى على النبي قبل الخُلوص إلى العَرَض الرئيس في الرسالة.

النمط الخامس:

الافتتاح بالسلام، حيثُ كانت تُفتَحُ بعضُ الرسائل بالسلام، ومما يُمثلُ هذا النمط رسالة كتبها الفازازي إلى عالم زاهدٍ وجاءَ في مُفتَحِها ما نصُّه "السلامُ الكريمُ العميم، والرحمةُ التي لا تبرح ولا تريم، والبركاتُ المتصلةُ الإمام، الدائمةُ التَّخيم على حَضرةِ البنيةِ الصالحة، والْحَمِّ الموجودِ فيه معنى الفاتحة، قُطبِ المجاهدين وعَلَمِ المشاهدين، والخيرِ الجامعِ علماً وعملاً بين الزُهد في الدنيا والرَّغبة في الدين، نَفَسَ الله للمسلمين عُمره، ونفعهم به، إذ لم يَبْقَ لهم غيرُه"^{١٠٠٣}.

كان هذا النمط الافتتاحي مُقتَصِراً على الرسائل الإخوانية، وكان يلي السلام في هذا النمط إشادة بالمرسل إليه وتعدادُ مناقبة قبل الإفضاء إلى ذكره والدعاء له.

النمط السادس:

الافتتاحُ بالدعاء، ومما يُمثلُ هذا النمط رسالتان مَوْجَزَتان خَطَّهما ابنُ عُميرة، جاءَ في فاتحة الأولى ما نصُّه "نخصُّكم أدامَ الله تعالى عزَّتكم، وحرَسَ مودَّتكم، تحية الإيثار والبر، والوداد الخالص المستقر، ورحمة الله وبركاته، من برشانة - كلاًها الله - والحالُ على ما يسرَّكم صحةً وعافية، ونعمةً من الله سُبْحانه سَابِغَةً ضَافِيَةً"^{١٠٠٤}.

وجاء في فاتحة الرسالة الثانية ما نصُّه "كتبته إليكم، أدامَ الله عزَّتكم، ووصلَ كرامتكم ومودَّتكم، من مُرسية - فتحها الله تعالى - عن وُدِّ كما علمتم حَقِيقَتَه، وبلوُثم

^{١٠٠٢} ينظر الرسائل في: المصدر السابق، ٩٤، ١٩٠، ٢٢٨.

^{١٠٠٣} الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٤٣. وينظر أيضاً رسائل افتتحت بالسلام: المصدر

نفسه، ١١، ٤٢، ٤٥، ٤٨. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٦٥.

^{١٠٠٤} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٢٠.

طَرِيقَتَهُ، وَحَالِي عَلَى مَا يُرْضِيكُمْ سَلَامَةً وَنِعْمَةً، وَكَفَايَةً وَعِصْمَةً، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ" ١٠٠٥.

وكان هذا التَّمَطُّ أيضاً مُقْتَصِراً على الرِّسَائِلِ الإِخْوَانِيَّةِ، وَكَانَ الْإِفْتِتَاحُ فِيهَا مُقْتَضِباً، وَلَمْ تَتِمَّ الْإِشَارَةُ فِيهِ إِلَى طَرَفِي الرِّسَالَةِ، لَكِنْ كَانَ فِي مُفْتَتِحِهَا ذِكْرٌ لِلْمَكَانِ الَّذِي صَدَرَتْ مِنْهُ.

التَّمَطُّ السَّابِعُ:

الافتتاحُ بِتَقْدِيمِ يَمَهِّدٍ لِمَوْضُوعِ الرِّسَالَةِ، وَيُفَضِّي إِلَيْهِ، وَمِمَّا يُمَثِّلُ هَذَا التَّمَطُّ الرِّسَالَةَ الَّتِي كَتَبَهَا صَفْوَانُ بْنُ إِدْرِيسٍ فِي الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ مُدُنِ الْأَنْدَلُسِ، وَقَدْ افْتَتَحَهَا الْكَاتِبُ بِقَوْلِهِ: "مَوْلَايَ، أَمَتَعَ اللَّهُ بِبِقَائِكَ الزَّمَانَ وَأَبْنَاءَهُ، كَمَا ضَمَّ عَلَى حُبِّكَ أَحْنَاءَهُمْ وَأَحْنَاءَهُ، وَوَصَلَ لَكَ مَا شِئْتَ مِنَ الْيَمَنِ وَالْأَمَانِ، كَمَا نَظَمَ قَلَانِدٌ فَخَرِكَ عَلَى لُبَّةِ الدَّهْرِ نَظْمَ الْجُمَانِ... وَلَمَّا تَخَاصَمْتُ فِيكَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ الْأَمْصَارِ، وَطَالَ بِهَا الْوَقُوفُ عَلَى حُبِّكَ وَالِاخْتِصَارُ، كُلُّهَا يُفَصِّحُ قَوْلًا، وَيَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ وَأَوْلَى، وَيُصِيخُ إِلَى إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ وَيُصَغِّي" ١٠٠٦.

وَالْمَلَاخِظُ أَنَّ جُلَّ الرِّسَائِلِ الْوَصْفِيَّةِ الَّتِي كَانَ الْوَصْفُ مَوْضُوعاً رَئِيساً فِيهَا كَانَتْ تَلْتَرِمُ بِهَذَا التَّمَطِّ، سِوَاءَ تِلْكَ الَّتِي كُتِبَتْ فِي مَعْرَاضِ الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ الْبِلَادِ ١٠٠٧، أَوْ فِي وَصْفِ الرِّحَالِ وَالْأَسْفَارِ ١٠٠٨، وَنَجِدُ بَعْضاً مِنَ الرِّسَائِلِ الْوَصْفِيَّةِ قَدْ حَدَثَ حَدُوثُ الرِّسَائِلِ الْإِخْوَانِيَّةِ فِي بَنَائِهَا عُمُوماً وَفِي مُفْتَتِحِهَا عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ ١٠٠٩.

اِفْتِتَاحِيَّاتٌ أُخْرَى:

١٠٠٥ المصدر السابق، ٢٢١. وينظر رسائل أخرى أفتتحت بالدعاء في المصدر نفسه، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٠. الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٧٠.

١٠٠٦ المقرئ، نفح الطيب، ١: ١٧٠ - ١٧١.

١٠٠٧ ينظر مفتتح رسالة الشقندي في: المقرئ، نفح الطيب، ٣: ١٨٧. ومفتتح رسالة ابن مغاور في: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٠٠. ومفتتح رسالة صفوان بن إدريس في: ابن شريفة، محمد، أديب الأندلس، ١٩٩.

١٠٠٨ ينظر مفتتح رسالة ابن مغاور الشاطبي في: ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ١٦٧. ومفتتح رسالة الارتحال والتعريس لصفوان بن إدريس في: ابن شريفة، محمد، أديب الأندلس، ١٧١.

١٠٠٩ ينظر مفتتح رسالة ابن عميرة في المفاخرة بشاطبة في: ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٩٦.

يُمكن القول أنَّ الأنماطَ المذكورةَ كانتْ تُمثِّلُ افتتاحياتِ مُعظَمِ الرِّسائلِ على اختلافِ أنواعِها، ولكنْ نَجِدُ رسائلَ كانتْ افتتاحياتُها مُختلفةً عن الأنماطِ السابقة، ومن ذلك رسالةُ كَتَبَها ابنُ الجَنَّانِ عن ابنِ هُودِ القائمِ بالدَّعوةِ العباسيَّةِ في الأندلسِ إلى الخليفةِ العباسيِّ وقد افْتُتِحَتْ تلكَ الرِّسالةُ بِآيَةٍ قُرْآنيَّةٍ حيثُ جاءَ في فاتحتها ﴿مُحَمَّدٌ حَمِيدٌ إِنَّهُ تَلَبَّيْتُ أَهْلَ عَلِيكُمْ وَبَرَكَتُهُ وَاللَّهُ رَحِيمٌ﴾^{١٠١٠} وسلامُ الله وتحيَّاته يَسِيرُ إليكم بما يُملي منه على المَلَأُ الأعلى بَريد، رِضوانُ الله وكراماته المنتظمةُ الإحسان، كما انتظَمَ بَلَبَّاتِ الحِسانِ فَرِيد^{١٠١١} واستمرَّ ابنُ الجَنَّانِ في تعدادِ مَنَاقِبِ الخليفةِ العباسيِّ والدُّعاءِ له بِإِسهابٍ^{١٠١٢} قَبْلَ أَنْ يُفْضِيَ إلى الغَرَضِ الرَّئيسِ في الرِّسالةِ وهو إِطْلَاعُ الخليفةِ على أوضاعِ الأندلسِ.

ونَجِدُ رسالةَ إخوانيَّةٍ لابنِ عُميرةٍ افتتحها بِتَحِيَّةٍ مَن يُخاطِبُهُ، حيثُ جاءَ في مُفْتَتِحِها ما نَصَّه "تَحِيَّةٌ كَرِيمَةٌ تَعْتَمِدُ الْأَخَ السَّيِّ مَقْصَدُهُ، الْكَرِيمَ غَيْبُهُ وَمَشْهُدُهُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ مِنْ مُرْسِيَّةٍ - جَبَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى - وَالْوُدُّ كَمَا خَبِرَ، وَالْإِخَاءُ كَعَهْدِهِ غَابَ أَوْ حَضَرَ"^{١٠١٣}.

كما نَجِدُ رسائلَ أُخرى خَلَّتْ مِنَ الْإِفْتِتَاحِ، وَبَدَأَتْ بِالْغَرَضِ الرَّئيسِ مُبَاشَرَةً، وَمِنْ ذَلِكَ رِسالةُ إخوانيَّةٍ مُوجِزةٌ كَتَبَها ابنُ عُميرةٍ واستهلَّها بِقَوْلِهِ: "صَدَرَتْ مُخاطَبَتِي مِنْ بُرْشَانَةٍ فِي كَذَا"^{١٠١٤}، وَالْبَارِحَةَ وَصَلْتُهَا مُعْزِرِبانِ الشَّمْسِ، وَقَدْ أَشْرَفْتُ^{١٠١٥} عَلَى الْيَأْسِ، وَأَشْفَقْتُ مِنْ فَنَاءِ الْجِلْدِ عَلَى حَيَاةِ النَّفْسِ"^{١٠١٦}.

^{١٠١٠}هود: آية ٧٣.

^{١٠١١}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٢٧.

^{١٠١٢}استغرقت افتتاحية الرسالة صفتين ونصف.

^{١٠١٣}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٩ - ٢٢٠. وينظر فاتحة رسالة أخرى في نفس المصدر، ٢٢٧.

^{١٠١٤}كما جاء في المصدر ولعله كان في هذا الموضع تاريخ الوصول.

^{١٠١٥}كما جاء في المصدر وأرجح أن يكون بضم التاء في الفعلين أشرفت وأشفقت.

^{١٠١٦}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٠٦، وينظر رسالة أخرى في المصدر نفسه، ٢٢٦.

ولا يُستبعد "إسقاطُ هذه المقدمات - على فرض وجودها - من قِبَلِ المؤلفين والمؤرخين للاختصار والإيجاز، وليتمكّنوا من إيراد أكبر قدر ممكن من الأمثلة والنماذج الثّرية للأديب الواحد وضمن موضوعاتٍ مختلفة" ^{١٠١٧}.

العَرَض

كانت الرسائل تُكتب من أجل تحقيق هدفٍ وأداءٍ غرض، وكان ذلك يتم في العَرَض الذي يحتل الجزء الأكبر من الرسالة، وثمة أمران في عروض الرسائل الموحدية يستحقان الدراسة وهما:

التَّخْلُص من ديباجة الافتتاح إلى العَرَض

كان التَّخْلُص من الافتتاح إلى العَرَض يختلف باختلاف نوع الرسالة، فقد التزم كتاب الرسائل الديوانية في الأعم الأغلب مسلكاً واحداً، فكان الكاتب ينتقل من ديباجة الافتتاح إلى العَرَض المقصود وذلك بتمهيد يتكوّن من مُقدمتين، حيث كانت المقدمة الأولى تبدأ بالبعدية ^{١٠١٨}، ثم حمّد الله والصلاة على النبي والرضا عن المهدي والدعاء لأمير المؤمنين، أمّا المقدمة الثانية فكانت تبدأ بكتابتنا أو كتب ^{١٠١٩}، ثم الدعاء للمرسل إليه ثم - في بعض الأحيان - تحديد المكان الذي صدرت منه الرسالة، وكان هذا التمهيد يشي بالعرَض المقصود سواءً كان ذلك في معرض الحمد والثناء على الله تعالى أم في معرض الدعاء

^{١٠١٧} أبو موسى، أحمد، النشر الفني في عصر الموحدين في الأندلس، ٣٢٦.

^{١٠١٨} المقصود بالبعدية قول: أمّا بعد، والأصل أن تُقال في الخطبة، ومعناها: مهما يكن من شيء بعد، وقد اختلف في أول من قالها، حيث قيل إنه داود - عليه السلام - وقيل سحبان وائل وقيل قس بن ساعدة وقيل غيرهم. ينظر: ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر السقلاي الكتاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ٢، ٤٠٤. ابن السيد البطليوسي، الافتضاب في شرح أدب الكتاب، ١: ١٩٩.

^{١٠١٩} كانت المقدمة الثانية تبدأ بصيغة الجمع إذا كانت الرسالة من الأعلى للأدنى على نحو كتابنا، كتبناه وفي الرسائل من الأدنى للأعلى كانت المقدمة تبدأ بكتب العبد أو العبيد.

للمرسِل أو المرسل إليه^{١٠٢٠}، وللتَّمثِيل على ذلك المسلك نَقَبَسُ مِنْ رِسَالَةٍ كَتَبَهَا ابْنُ مَحْشَرَةَ وافتتحها بقوله: "مِنَ الْأَمِيرِ يَعْقُوبَ بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَيْدَهُمُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ، وَأَمَدَّهُمْ بِمَعُونَتِهِ - إِلَى الطَّلَبَةِ وَالْمُوحِدِينَ وَالْأَشْيَاخَ وَالْأَعْيَانَ وَالْكَافَّةَ بِإِغْرَانَاةٍ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُمْ بِتَقْوَاهُ، وَعَرَفَهُمْ عَوَارِفَ نِعَمَاهُ وَرُحَمَاهُ - سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ"^{١٠٢١}.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْكَاتِبُ مِنَ الْإِفْتِتَاحِ إِلَى التَّمْهِيدِ لِلْعَرَضِ بِمُقَدِّمَةٍ أُولَى جَاءَ فِيهَا مَا نَصَّهُ "أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ وَنِعَمِهِ، وَنُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَفِظَ لِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ رِبَاطَ الْإِسْلَامِ وَنِظَامَهُ، وَأَحْيَا بِأَحْيَائِهِ رُفَاتِهِ وَرِمَامَهُ.... وَاسْتَحَفَّظَ أَمْرَهُ الْعَزِيزَ فِي الذَّائِبِينَ عَنْ حُرْمَاتِهِ، وَالنَّاهِضِينَ بِأَعْبَائِهِ وَأَمَانَتِهِ، مُلْقِيًا إِلَيْهِمْ مَقَالِيدَهُ وَزِمَامَهُ، وَمُظْهِرًا بِهِمْ مَنَاجِيحَ الْقَوِيْمَةِ وَأَحْكَامَهُ، وَجَعَلَ إِمَامَتَهُمُ الْحَمِيدَةَ، وَإِبَالَتَهُمُ الْمُبَارَكَةَ السَّعِيدَةَ، مَلَاذَ الدِّينِ وَقُومَاهُ، وَظُهُورَ الْحَقِّ وَانْتِظَامَهُ.... وَالرِّضَا عَنْ الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ، الْمَهْدِيِّ الْمَعْلُومِ، عَلَمَ الْهُدَى وَإِمَامَهُ، الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْهُدَايَةِ وَاعْتَامَهُ.... وَعَنْ صَاحِبِهِ وَخَلِيفَتِهِ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِ مِنَ الْإِنْتِهَاضِ بِأَمْرِ اللَّهِ مَقَامَهُ... وَالِدُعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا الْخَلِيفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ يَسْكُبُ السَّعْدُ غَمَامَهُ، وَيُجْزَلُ الْجَدُّ إِقْسَامَهُ"^{١٠٢٢}.

وَيَسْتَأْنِفُ الْكَاتِبُ التَّمْهِيدَ بِمُقَدِّمَةٍ ثَانِيَةٍ جَاءَ فِيهَا مَا نَصَّهُ "وَهَذَا كِتَابُنَا إِلَيْكُمْ - أَسْمَعُكُمْ اللَّهُ مِنْ بَشَائِرِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَزِيزِ مَا يَمَلَأُ قُلُوبَكُمْ ارْتِيَاخًا، وَيَعْمُرُ صُدُورَكُمْ انْشِرَاحًا، وَأَوْسَعَ أَرْجَاءَكُمْ وَأَكْنَفَكُمْ انْبِسَاطًا فِي ظِلِّ الْأَمْنَةِ وَانْفِسَاحًا - مِنْ حَضْرَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ وَنَحْنُ نَسْتَوْهَبُ اللَّهَ عَوْنًا عَلَى مَا قَلَّدْنَا مِنْ أَمَانَتِهِ، وَإِنْمَاضًا بِمَا حَمَلْنَا مِنْ نَصْرِ دِينِهِ وَحِمَايَتِهِ، وَإِنْجَادًا عَلَى مَا نَنْوِيهِ وَنَحَاوُلُهُ وَنَدَّأَبُ فِيهِ مِنْ حِفْظِ أَمْرِهِ وَرِعَايَتِهِ..."^{١٠٢٣}.

^{١٠٢٠} ولم يكن هذا بالأمر المستحدث حيث عرفه الكتاب من قبل، ويدلنا على ذلك ما نقله الكلاعي عن أبي الفتح عثمان بن جني (٣٢٢ - ٣٩٢هـ) حين قال: (وإذا كان المرسل حاذقاً أشار في تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله)، الكلاعي، إحصاء صنعة الكلام، ٦٦.

^{١٠٢١} بروفصال، رسائل موحدية، ١٥٨.

^{١٠٢٢} المصدر السابق، ١٥٨ - ١٥٩.

^{١٠٢٣} المصدر السابق، ١٦٠.

ثُمَّ يَأْتِي الْكَاتِبُ عَلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فِي الرَّسَالَةِ وَهُوَ إِعْلَامُ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ ببيعَةِ
الأمير يَعْقُوبَ بِوَلَايَةِ الْعَهْدِ "...وبايعوناً على مَا بُيِعَ بِهِ الْإِمَامُ الْمُعْصُومُ، الْمَهْدِيُّ الْمَعْلُومُ،
وْخَلِيفَتُهُ سَيِّدُنَا الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَسَيِّدُنَا الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بْنِ
سَيِّدُنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَيَّدَهُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ، وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ - مِنْ الْإِيمَانِ وَالْأَمَانَةِ وَالْعَدْلِ
وَالْعِبَادَةِ، وَالسَّمْعِ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالطَّاعَةِ..." ١٠٢٤.

وَلْتُمَثِّلِ آخَرَ عَلَى هَذَا الْمَسْلُوكِ نَقْتَبِسُ مِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى أَرْسَلَهَا الْوَالِي مُرْسِيَّةً إِلَى
أَهْلِ وَلَايَتِهِ، وَقَدْ افْتُتِحَتْ الرِّسَالَةُ الَّتِي لَمْ يُعْرَفْ كَاتِبُهَا بِمَا نَصَّه "مِنْ مُحَمَّدَ بْنِ سَيِّدُنَا أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدُنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَ أَمْرِهِمْ - إِلَى الطَّلَبَةِ وَالشُّيُوخِ وَالْأَعْيَانِ
وَالْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ مُرْسِيَّةٍ وَجِهَاتِهَا، اطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَوَاكِبَ الْفُتُوحِ نِيرَةِ الْإِشْرَاقِ، وَأَجْنَاهُمْ
ثَمَرَ الْبَشَائِرِ الْمَعْسُولَةِ حُلُوَ الْمَذَاقِ، وَهَزَّ أَعْطَافَهُمْ سُرُوراً مِنْ اهْتِزَازِ السُّمَرِ وَالْبَيْضِ الرَّقَاقِ،
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ" ١٠٢٥.

وَيَنْتَقِلُ الْكَاتِبُ مِنَ الْإِفْتِتَاحِ إِلَى الْمَقْدَمَةِ التَّمْهِيدِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي جَاءَ فِيهَا مَا نَصَّه "أَمَّا
بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ أَمْرَهُ عَالِيًّا، وَضَاعَفَ النَّصْرَ لَهُ مُتَتَابِعًا مُتَوَالِيًّا، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ تَحْتَ
ظِلَالِ السَّيُوفِ فَيَا بُشْرَى مَنْ كَانَ عَنِ الْإِسْلَامِ ذَابًّا وَلِحُوزَتِهِ حَامِيًّا، وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ
الْمُصْطَفَى الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِدِينِهِ الْحَنِيفِيِّ دَاعِيًّا، وَجَعَلَهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عِنْدَ تَكَاثُفِ الظُّلْمَةِ نُورًا
وَهَادِيًّا.... وَالرَّضَى عَنِ الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ، الْمَهْدِيِّ الْمَعْلُومِ، الَّذِي أَعْلَنَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ مُنَادِيًّا،
وَجَاهِدَ فِي اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ جِهَادِهِ لِيُعِزَّزَ كَلِمَةُ الْحَقِّ وَيُذْلَّ مَنْ كَالَ "...." ١٠٢٦ قَالِيًّا
وَشَانِيًّا.... وَمَوَالَاةِ الدَّعَاءِ لِسَيِّدُنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدُنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِعِزِّ نَصْرِ يَدْرِ صَبِيئِهِ
عَلَى أَكْنَافِ الْبَسِيطَةِ هَامِرًا هَامِيًّا، وَتَوَالِي فَتْحِ يَنْظُمٍ لَهُ آفَاقِ الْأَرْضِ مِنْهَا قَاصِيًّا أَوْ
دَانِيًّا" ١٠٢٧.

١٠٢٤ المصدر السابق، ١٦٢.

١٠٢٥ عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٦٨.

١٠٢٦ كلمة مطموسة في الأصل.

١٠٢٧ المصدر السابق، ١٦٨ - ١٦٩.

وَيَلِي هذه المقدمة التمهيدية مُقدِّمةٌ أخرى جاءَ فيها "فإنَّا كتبناه إليكم - كَتَبَ اللهُ لَكُمْ بِشَائِرَ تَنَاسُقٍ تَنَاسُقَ الْجُمَانِ، وَتَجَمُّعُ نَيْلِ الْأَمَانِ - وَكَوَاكِبُ النَّصْرِ الْعَزِيزِ تُشْرِقُ وَتُزْهِرُ، وَسُعُودُ التَّأْيِيدِ الْمُقْتَرِنِ بِالتَّأْيِيدِ تَعْتَلِي وَتُظْهِرُ..."^{١٠٢٨}.

ثمَّ ينتقلُ الكاتبُ من التمهيد إلى العَرَضِ المقصود وهو إعلامُ المرسل إليهم بالنصر الذي أَحْرَزَهُ المُوَحِّدُونَ "...وَسَارَ المُوَحِّدُونَ - أَعَزَّهُمُ اللهُ - بِجِدِّ عَازِمٍ، وَسَعْدٍ مُحَالِفٍ مُلَازِمٍ، يَقْطَعُونَ السَّبَاسِبَ والمَوَاسِي، وَيُسَدِّدُونَ إِلَى أَعْدَاءِ اللهِ المَرَامِي، وَيَدِسُّونَ لَهُمْ تَحْتَ الثَّرْبِ الدَّوَاهِي، حَتَّى احْتَلَوْا بِحَبُوحَةِ بِلَادِهِمْ، وَوَطَّئُوا عَلَى رَغَمِ الْكُفَرَةِ عَالِي شَرَفِهِمْ، وَمُنْخَفِضِ وَهَادِهِمْ، مِنْ أَرْضٍ طَالَ مَا بَاضَ الشَّيْطَانُ فِيهَا وَفَرَّخَ، وَمَذْ أَلْقَى كُلَّكُلِّهِ عَلَيْهَا مَا أَفْرَجَ عَنْهَا وَلَا أَفْرَخَ"^{١٠٢٩}.

بعد الاطلاع على التمهيد في الرّسالتين يَسْتَطِيعُ المتلقّي معرفةَ المعنى العامِّ للعَرَضِ المقصود قبل الاطلاع عليه، فقد جاءَ في تمهيدِ الرّسالةِ الأولى ما يَشِيءُ بالبيعة، وجاءَ في تمهيدِ الثانيةِ ما يَشِيءُ بالجهاد وإحرازِ النصر، وقد سَلَكَتْ مُعْظَمُ الرّسائلِ الدِّيوانيةِ هذا المسلكَ، وَنَجِدُ ذَلِكَ فِي جميعِ الرّسائلِ المُوَحِّديةِ التي جَمَعَهَا بروفنصال، وفي مُعْظَمِ الرّسائلِ التي جَمَعَهَا أحمدُ عزَاوِي، ولم يَخْرُجْ عن هذا التَّقْلِيدِ فِي مجموعِهِ إِلَّا رِسَالَتَانِ قَلِيلَتَانِ مِنْ تِلْكَ الرّسائلِ التي أُرْسِلَتِ مِنَ الْأَعْلَى لِلأَدْنَى، كَمَا نَجِدُ ذَلِكَ فِي رِسَالَتِ الْفَازَاوِيِّ التي كَتَبَهَا عَنْ خُلَفَاءِ المُوَحِّدِينَ وَأَمْرَائِهِمْ^{١٠٣٠}.

وقد فَطِنَ المراكشيُّ إِلَى هذا المسلكِ فِي الْكِتَابَةِ حِينَ قَالَ: "وَلَمْ يَكُتُبْ لَهُمْ مُنْذُ قَامَ أَمْرُهُمْ مَنْ عَرَفَ طَرِيقَتَهُمْ وَصَبَّ فِي قَالِبِهِمْ وَجَرَى عَلَى مَهْبَعِهِمْ وَأَصَابَ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ كَأَيِّ عَبْدِ اللهِ بْنِ عِيَّاشٍ هَذَا، فَإِنَّ الْقَوْمَ لَهُمْ طَرِيقَةٌ تُخَالِفُ طَرِيقَةَ الْكُتَّابِ، ثُمَّ جَرَى الْكُتَّابُ بَعْدَهُ عَلَى أَسْلُوبِهِ، وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ لَمَّا رَأَوْا مِنْ اسْتِحْسَانِهِمْ لِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ"^{١٠٣١}.

والْحَقِيقَةُ أَنَّ المراكشيَّ قَدْ جَانَبَ الصَّوَابَ عِنْدَمَا زَعَمَ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنِ عِيَّاشٍ كَانَ رَائِدَ هَذَا الْمَسْلَكِ، حَيْثُ نَجِدُ كُتَّابًا سَبَقُوا ابْنَ عِيَّاشٍ فِي انْتِهَاجِ هَذَا التَّقْلِيدِ، مِنْهُمْ أَبُو

^{١٠٢٨} المصدر السابق، ١٦٩.

^{١٠٢٩} المصدر السابق، ١٧٠.

^{١٠٣٠} ينظر الرّسائل في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٣٥ وما بعدها.

^{١٠٣١} المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ٣٣٩.

جعفر بن عطية الذي كتب للخليفة الموحد الأول عبد المؤمن من مراكش عدة رسائل صدرت من المغرب، وكان في معظمها يلتزم بهذا التقليد، وكانت أقدم رسالة مؤرخة أنشأها قد صدرت "في التاسع من ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة" ١٠٣٢، ومنهم أيضاً ابن محشرة الذي التزم بهذا التقليد في جميع رسائله التي اطلعنا عليها سواء تلك التي صدرت من المغرب أم من الأندلس، وكانت أقدم رسائله والتي اقتبسنا منها سابقاً قد أرخت "في السابع من جمادي الأولى عام ثمانين وخمسمائة" ١٠٣٣، أما أبو عبد الله بن عياش فقد استكتبه السلطان بالمغرب في سنة ست وثمانين وخمسمائة فنال دنيا عريضة ١٠٣٤، وكانت أقدم رسالة مؤرخة اطلعنا عليها قد صدرت من إشبيلية "في التاسع من شهر رمضان المعظم سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة" ١٠٣٥ وكتبها عن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وهو الخليفة الموحد الثالث، ولعل المراكشي أراد أبا جعفر بن عطية الذي وضع بدايات هذا التقليد الكتابي، أو ابن محشرة الذي التزم فيه في جميع رسائله ولكن التبس عليه الأمر وذكر ابن عياش.

كان هذا المسلك متبعاً في معظم الرسائل الديوانية حتى في تلك الرسائل التي كان يرسلها الأوروبيون للموحدين ١٠٣٦، وحتى في رسائل الخارجين عن الدولة الموحدية، حيث خرجوا عن دولتهم ولكنهم لم يخرجوا عن مسلكهم في الكتابة حيث التزموا في الرسائل التي صدرت عنهم ١٠٣٧، وكان الخروج القليل عن هذا المسلك ينحصر في رسائل قليلة منها بعض رسائل البيعة ١٠٣٨، ورسائل الشكاية التي كانت ترفعها العامة لأولياء الأمر ١٠٣٩، حيث كانت هذه الرسائل تُقضي إلى الغرض المقصود بعد البعدية مباشرة.

١٠٣٢ بروفنصال، رسائل موحدية، ١٠.

١٠٣٣ المصدر السابق، ١٦٣.

١٠٣٤ ابن الأبار، التكملة، قسم ٢، رقم الترجمة ٩٥٢.

١٠٣٥ بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٤١.

١٠٣٦ ينظر رسالتين لهم في: عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٦٣، ١٦٥.

١٠٣٧ ينظر: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٦٥ رسالة صدرت عن عزيز بن خطاب، ٨٢ رسالة صدرت عن ابن هود، ١٦٦ رسالة أرسلت إليه.

١٠٣٨ ينظر رسائل البيعة من إشبيلية وقرطبة في: عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١١، ١١٢، ١٩١.

١٠٣٩ ينظر خمس رسائل شكاية في: عزوي، أحمد، رسائل موحدية، ٥٢١ وما بعدها.

أما الرسائل الإخوانية والوصفية فلم تلتزم تقليداً واحداً في التخلص إلى الغرض المقصود "لأن كاتب الإخوانيات يمتاز عن غيره من الكتاب بحرية تجعله غير مُقيد مثل كاتب الديوانيات" ١٠٤٠.

كانت بعض الرسائل الإخوانية تُفضي إلى الغرض مباشرة ودون مقدمة افتتاحية، ومن تلك رسالة إخوانية كتبها ابن عُميرة مُوصياً برجلٍ قَدِمَ من العراق وقد جاء في مُفتتحها قوله: "أيها الأخ الذي ملكته قيادي، وأسكنته فؤادي، عهدي بك تعتام الآداب النقية، وتشتاق للطائف المشرقية، وتُصِفُ فترى أن في سيلنا جفاء، وفي مغربنا جفاء، وأن المحاسن نبتت أرض ما بها ولدنا، وزرعٍ وادٍ ليس مما عهدنا، وقد أتانا الله بحجة تقطع الحُجج، وتُسكتُ المهج، وهو الشريف الأجل، السيد المبارك نجم الدين بن مُهذَّب الدين نجلُ الذرية المختارة، ونجمُ الذرية السيّارة..." ١٠٤١.

وقد تأثرت بعض الرسائل الإخوانية بالمسلك الذي انتهجته الرسائل الديوانية، فكان التخلص إلى الغرض يلي البعديّة، ومن تلك الرسائل رسالة الشقندي في تفضيل الأندلس، حيث انتقل من الافتتاح إلى الغرض بقوله: "أما بعد، فإنه حرّك مني ساكناً، وملاً مني فارغاً، فخرجتُ عن سجيّتي في الإغضاء، مُكرّهاً إلى الحميّة والإباء، مُنازعٌ في فضل الأندلس أراد أن يُخرق الإجماع، ويأتي بما لا تقبله النواظر والأسماع" ١٠٤٢.

كما بدأت بعض الرسائل الإخوانية بمقدمة تمهيدية تُحاكي تلك التي وُجدت في الرسائل الديوانية ومنها رسالة لابن عُميرة افتتحها بقوله: "كتبته إليكم - أدام الله عزّتكم، ووصلَ كرامتكم ومودّتكم، من مُرسيّة عن وُدٍّ كما علّمتم حقيقته، وبلوتم طريقتَه، وحالي على ما يُرضيكم سلامةً ونعمة، وكفايةً وعِصمة، والحمدُ لله على ذلك" ١٠٤٣.

وقد تأثرت الرسائل السابقتان وغيرهما من الرسائل إلى حدٍّ ما بمسلك الرسائل الديوانية، حيثُ كان التأثير في الأولى بالبعديّة، أمّا في الثانية فكان التأثير في المقدمة التمهيدية التي بدأت في الفعل كَتَبَ وفي تحديد مكان الصدور، ولكن لا نجد رسالة

١٠٤٠ اختيارى، محمود محمد، رسائل موحّدية جمعاً وتحقيقاً ودراسة، ١٠٨.

١٠٤١ المقرئ، نفح الطيب، ٣: ١٤٦.

١٠٤٢ المصدر السابق، ٣: ١٨٧.

١٠٤٣ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٢١.

إخوانيّة أو وصفيّة واحدة التزم كاتبها التزاماً دقيقاً بمسلك الرسائل الديوانيّة فبدأً بتمهيدٍ يتكوّن من مُقدّمتين تُفضيَان إلى العَرَضِ المقصود.

الجملة المعترضة

الاعتراضُ هو كلامٌ لا محلّ له من الإعراب، يُؤتى به أثناء الكلام أو بين كلامين مُتصلين معنًى لفائدة^{١٠٤٤}، أمّا الجملةُ المعترضةُ فهي "التي تقع بين شيئين مُتطالبين كالتّي تقع بين المبتدأ والخبر، أو بين ما أصله المبتدأ وما أصله الخبر، أو بين الفعل ومعموله، أو بين الموصوف وصفته، أو بين المعطوف والمعطوف عليه، أو بين الشرط وجوابه، أو بين القسم والمقسوم عليه، أو بين جملتين مُستقلتين بينهما علاقةٌ سببيّة أو تفسيريّة أو بيان^{١٠٤٥}".

وُجدت الجملةُ المعترضةُ في الرسائل على اختلاف أنواعها وأغراضها سواءً أكان ذلك في الرسائل المشرقيّة أم المغربيّة^{١٠٤٦}، وقد كثرت في الرسائل الموحديّة حتّى غدت ظاهرةً تدعو للانتباه والدراسة، حيث توزعت على عناصر الرسالة الثلاثة ولكن كان وجودها الأكبر في العَرَض، وذلك لأنّ العَرَضَ أكبرُ عناصرِ الرسالة من ناحية، ولأنّه الميدان الذي يُعرَضُ فيه العَرَضُ المقصود من ناحيةٍ أخرى، ويمكن من خلالِ رَصْدِ تلك الجملة ومتابعتها تبيانُ الأغراضِ البلاغيّة التي فرّضت حضورها.

نَحَتُ الجُمْلُ المعترضةُ في الرسائل الموحديّة منحين اثنين، تَمَثَّلَ الأولُ في تَعْظِيمِ الله - جَلَّ جَلَالُهُ - وتنزيهه - سبحانه وتعالى - وفي التَّصْلِيَةِ على النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعلى الأنبياء - عليهم السّلام - وفي التَّرضية عن الصّحابة - رضي الله عنهم - وهذا المنحى كان تقليدياً في كتابة الرسائل منذُ صدرِ الإسلام، وزاد الكتابُ الموحّدون في الرسائل الديوانيّة التّرضية عن ابن ثومرت الذي عدّوه إماماً معصوماً ومهدياً معلوماً^{١٠٤٧}.

^{١٠٤٤} ينظر ما قيل في الاعتراض في: العسكري، الصناعتين، ٣١٢. السكاكي، وقد سماه الحشو وأدخله في باب

المحسنات المعنوية، مفتاح العلوم، ٤٢٨. ابن الأثير، المثل السائر، ٢: ١٧٢.

^{١٠٤٥} قبّابة، فخر الدين، إعراب الجُمْل وأشباه الجُمْل (حلب: دار الأصمعي، ١٩٧٢م)، ٦٥ - ٦٦.

^{١٠٤٦} ينظر الحديث عن الجملة المعترضة والدعائية في: الكلاعي، إحكام صناعة الكلام، ٨١ - ٨٧.

^{١٠٤٧} كما جاء في معظم رسائلهم الديوانية.

أما المنحى الثاني فتمثّل في الدُّعاء، حيثُ كَثُرَت الجمل الدُّعائية في ثنايا الرِّسائل الموحدية، ومنها "تلك العبارات المتضمنة دُعاءً بدوام العزِّ والسَّعادة وامتدادِ السُّلطان وطُولِ الأجل، وازديادِ القُوَّة، وما إلى هذا من المعاني العديدة"^{١٠٤٨} وتكثرُ مثلُ هذه العبارات في الرِّسائل الديوانية بحيثُ لا نجدُ رسالةً واحدةً من تلك التي جمَعها بروفنصال وأحمد عزاوي تخلو من هذه العبارات، إضافةً إلى وجودها بكثرة في الرِّسائل التي وردت في المصادِر الأخرى.

كان في الجمل الدُّعائية دعاءٌ للأمير، وكان الدُّعاء يصدرُ أحياناً بصيغة الجمع كما جاء في رسالة أهلِ غرناطة "لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين - جدّد الله لهم السُّعود، وأمدّ لأمرهم العزيز التأييد الكريم والخلود - ... جدّدنا الآن من بيعة سيدنا أمير المؤمنين - أدامَ الله تأييدهم - ..."^{١٠٤٩}، وفي أحيانٍ أخرى يصدرُ بصيغة المفرد كما جاء في رسالة والي إشبيلية إلى الخليفة المنصور "سيدهم ومولاهم - خلّد الله ملكه - ..."^{١٠٥٠}، وكانت معاني الدُّعاء تتراوحُ بين السَّعادة والتأييد والنصر وخلودِ المُلْك.

أمّا في الرِّسائل التي يُذكرُ فيها الحُكّامُ غيرُ المسلمين فكانت معاني الدُّعاء تتراوح بين الدُّعاء لهم بالخير والدُّعاء عليهم بالشرّ وذلك بحسبِ موضوعِ الرسالة أو علاقةِ الموحدّين مع أولئك الحُكّام، فهذا والي إشبيلية يدعُو للوصي على عرش قشتالة "القُومط الزعيم اربل بن القُومط ثونه - وفّقهُ الله وأرشدّه - ..."^{١٠٥١}، أمّا الملكُ الذي سبّقه (ألفونسو الثامن) فقد دعا عليه الخليفة المنصور باللعنة حيثُ جاء في الرسالة التي خطّها عنه أبو عبد الله بن عيّاش قوله: "... فإنّ الله - سبحانه - لما كسَرَ طاغية الرُّوم الكسرة التي أعزّت الحنيفة، وأذلت النصرانية، وفَتَحَ من معاقله الآشبة ما فَتَحَ، ومنَحَ عباده من أنفاله وأسلايه ما منَحَ، أجفل - لعنه الله - إلى قشتالة - فَتَحَهَا الله - إجحالَ الظَّليم..."^{١٠٥٢}.

^{١٠٤٨} حضر، حازم، النشر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ٣٦٣.

^{١٠٤٩} عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١١٢.

^{١٠٥٠} المصدر السابق، ٢٠٩.

^{١٠٥١} المصدر السابق، ٢٩١، وقد صدرت الرسالة سنة ٦١٨هـ.

^{١٠٥٢} بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٣٠، وقد صدرت الرسالة سنة ٥٩٢هـ.

كَمَا كَانَ فِي تِلْكَ الْجُمْلِ دُعَاءٌ لِلرَّعِيَّةِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي رِسَالَةٍ "مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ وَأَعْمَالِهَا مِنَ الطَّلَبَةِ وَالْمُوَحِّدِينَ وَالْعَرَبِ وَالْأَجْنَادِ وَالْوُجُوهِ مِنَ الْأَشْيَاخِ وَالْأَعْيَانِ وَالْقَوَادِ وَالْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ مِنَ الرَّعِيَّةِ مِنْ حَاضِرٍ مِنْهُمْ وَمِنْ بَادٍ - وَفَقَّهَهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً - ...^{١٠٥٣} ودُعَاءٌ لِقَادَةِ الْجِهَادِ "قَوَادِ هَذِهِ الْجِهَاتِ - أَنْجَدَهُمُ اللَّهُ - ...^{١٠٥٤} وكانت معاني الدعاء للرعية والقواد تتراوح بين التوفيق والصلاح والثبات والتجدة والتصر.

كَانَتْ بَعْضُ الْجُمْلِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ دُعَاءً لِلْحُكَّامِ الْمُوَحِّدِينَ أَوْ لِلرَّعِيَّةِ تَبْدَأُ بِعِبَارَةِ كَتَبَ اللَّهُ، وَقَدْ كَثُرَتْ مِثْلُ تِلْكَ الْجُمْلِ وَخَاصَّةً فِي الرِّسَائِلِ الدِّيَوَانِيَّةِ، وَمِنْ أَمْثَلِهَا مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ الْإِسْبِيلِيَّةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا "فَكَتَبَ عَبْدُ الْحَضَرَةِ الْإِمَامِيَّةِ الْعَالِيَةِ - كَتَبَ اللَّهُ لَهَا سُعُوداً مُتَضَاعِفَةً مُتَنَاصِرَةً، وَعِزَّةً لَا تَزَالُ الْأَفْهَامُ عَنْهَا قَاصِرَةً، مِنْ إِسْبِيلِيَّةٍ - حَرَسَهَا اللَّهُ - ...^{١٠٥٥}، وَقَدْ لَاحِظَ الْقَلَقْشَنْدِيُّ أَنَّ هَذَا الْإِبْتِدَاءَ فِي الْجُمْلِ الدُّعَائِيَّةِ قَدْ انْفَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَنْ نُظَرَائِهِمُ الْمَشَارِقَةِ^{١٠٥٦}.

أَمَّا الدُّعَاءُ لِلْمُدُنِ وَالْبِلَادِ فَكَانَتْ مَضَامِينُهُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ وَضْعِ تِلْكَ الْمُدُنِ وَالْبِلَادِ، فَإِذَا كَانَتْ تَحْتَ حُكْمِ الْمُوَحِّدِينَ كَانَ الدُّعَاءُ لَهَا بِالْحِفْظِ وَالْحِرَاسَةِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ الْخَلِيفَةِ يُوسُفَ وَالَّتِي كَتَبَهَا عَنْهُ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ زَيْدِ الْإِسْبِيلِيِّ مِنْ "حَضَرَةِ إِسْبِيلِيَّةٍ - حَرَسَهَا اللَّهُ - ..^{١٠٥٧}، أَمَّا إِذَا كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ بِيَدِ الْأَعْدَاءِ فَكَانَ الدُّعَاءُ لَهَا بِالْإِعَادَةِ وَالْفَتْحِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي رِسَالَةِ لِلْخَلِيفَةِ الْمَنْصُورِ وَكَتَبَهَا عَنْهُ ابْنُ مَحْشَرَةَ وَجَاءَ فِيهَا "...وَقَصَدُوا مَزْرَعَةَ شَنْتَرِينَ - فَتَحَهَا اللَّهُ - فَانْتَسَفَوْا زُرُوعَهَا، وَاسْتَأْصَلُوا

^{١٠٥٣} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٩٤.

^{١٠٥٤} المصدر السابق، ٢٥٨.

^{١٠٥٥} المصدر السابق، ٢٦٧، ينظر بعض الرسائل الأخرى التي استهلكت الجمل الدعائية فيها بكتب في المصدر نفسه، ١٣٠، ١٣٢، ٢٦١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٢، ٣١٦، ٣٢٤، ٣٥١.

^{١٠٥٦} القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٣٠.

^{١٠٥٧} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٤١.

بالأخذ والتدمير جميعها...^{١٠٥٨}، ومن ذلك أيضاً ما كتبه عزيز بن خطّاب "...وذلك قبل تحرك أمير المسلمين إلى بلنسية - أعادها الله تعالى للإسلام - ...^{١٠٥٩}.

كما وجدتُ الجُمْلُ الدُعائية في الرسائل الإخوانية، وكان الدعاء فيها مُشابهاً للدعاء في الرسائل الديوانية في صيغته ومعانيه، ومن ذلك التشابه الدعاء للمُدن كما نجد ذلك في رسالتين لابن عُميرة ذَكَرَ في الأولى "...مُرسية - جَبَرها الله -^{١٠٦٠} وذَكَرَ في الثانية "...شاطِبة - فَتَحَها الله -^{١٠٦١}.

كما نجدُ في الرسائل الإخوانية دعاءً للمرسل إليه كما في رسالة لابن عُميرة جاء فيها "وقد وَصَلَ - وَصَلَ اللهُ سَعادَتَكم - كتابُكم الأثيرُ المبرور...^{١٠٦٢}، أو في رسالة للفازازي وَرَدَ فيها "كُتِبَته - كُتِبَني اللهُ وإياك مِّنْ أَسعدَ مَماتِهِ ومحياءهِ، ولم يَرَجُ لمَهَمَّاتِ دينِهِ ودُنياءِهِ إلاَّ إِيَّاه - وأنا أَحمَدُ إِيَّكَ اللهُ الذي لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ...^{١٠٦٣}.

وقد تُطوّلُ الجُمْلَةُ الدُعائية ويؤدي طولُها إلى اضطرابٍ في الرِّبطِ بينَ ما جاءَ قبلها وما أتى بعدها وَمِنَ ذلكَ ما وَرَدَ في رسالة مُداعِبةٍ كتبها صَفوان بن إدريس حيثُ قالَ فيها: "ما زِلْتَ - أعزَّ اللهُ الوَزيزَ الحَسيبَ، ولا سَلَطَ عليه القَريبَ ولا النَسيبَ، وأقالَ مِن مَوقِفِ الجَزَعِ عَثَرَةَ قَدَمِهِ، ولا جَعَلَ لِلأَنيابِ العَوارِثَ سَبيلًا إلى أَدَمِهِ، ولا سَبَّبًا إلى إِرَاقَةِ دَمِهِ - أَسْمَعُ بِحَسَدِ القَريبِ للقَريب...^{١٠٦٤}.

وكانت معاني الجُمْلِ الدُعائية في رِسائِلِ المَناسباتِ الاجتماعيَّةِ تُناسِبُ المَقامَ ومن ذلكَ ما كُتِبَ به ابن عُميرة في رسالةٍ تَعيِزيةٍ جاءَ فيها "...وقد اختار اللهُ تَعَالى لِلماضي - رَحمةَ اللهِ عليه - حينَ أحياءِهِ في نِعمةِ الصُّحبةِ الكَريمة...^{١٠٦٥} ومن ذلكَ أيضاً ما كُتِبَ به

^{١٠٥٨}بروفنصال، رسائل موحدية، ٢٢٣.

^{١٠٥٩}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٦٤.

^{١٠٦٠}المصدر السابق، ٢٠٢.

^{١٠٦١}المصدر السابق، ٢٢٤.

^{١٠٦٢}المصدر السابق، ١٩٠.

^{١٠٦٣}الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ٥١.

^{١٠٦٤}ابن شريفة، محمد، أديب الأندلس أبو بحر التجيبي، ٢٣٨.

^{١٠٦٥}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢٠١.

ابن مُغاور الشَّاطِبيّ في تَهْنِئَةِ صَدِيقٍ لَهُ بِمَوْلودَةِ رُزْقَ بِهَا "فَاهَنْتُوا - أَعَزَّكُمْ اللَّهُ - بِنِعْمَةٍ
وَارِدَةٍ كَرِيمَةٍ زَائِدَةٍ..."^{١٠٦٦}.

لَا يُسْتَهَانُ بِأَهَمِّيَّةِ الْجُمْلِ الدُّعَائِيَّةِ الَّتِي تَعَرَّضُ النَّصُّ، فَهِيَ تُؤَثِّرُ عَلَى الْمَعْنَى، وَتُبْرِزُ
الْعَاطِفَةَ، لَذَا "يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي الدُّعَاءِ الْأَلْفَافَ الرَّائِقَةَ، وَالْمَعَانِي اللَّائِقَةَ،
وَيَتَوَخَّى مِنْ ذَلِكَ مَا يُنَاسِبُ الْحَالَ، وَيُشَاكِلُ الْمَعْنَى، وَيُؤَافِقُ الْمُخَاطَبَ"^{١٠٦٧}، وَقَدْ لَمَسْنَا فِي
مُعْظَمِ الْجُمْلِ الدُّعَائِيَّةِ الَّتِي اسْتَعْرَضْنَاهَا أَنَّ الْكِتَابَ قَدْ التَزَمُوا بِذَلِكَ، فَجَاءَتْ جُمْلُهُمْ
الدُّعَائِيَّةُ مُؤَثِّرَةً عَلَى الْمَعْنَى، مُعْبَّرَةً عَنِ الْعَاطِفَةِ، جَاذِبَةً لَانْتِبَاهِ الْمُتَلَقِّي.

كَثُرَتْ الْجُمْلُ الدُّعَائِيَّةُ فِي الرِّسَالِ الدِّيَوَانِيَّةِ وَالْإِخْوَانِيَّةِ، أَمَّا الرِّسَالُ الْوَصْفِيَّةُ فَتَكَادُ
تَخْلُو مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْجُمْلِ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ أَنَّ أَسْلُوبَ تِلْكَ الرِّسَالِ كَانَ يَمِيلُ إِلَى
الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّقْرِيرِ وَإِيرَادِ الْحَقَائِقِ، كَمَا إِنَّ الْخِطَابَ فِي مُعْظَمِهَا كَانَ مُوجَّهًا لِلْجَمِيعِ دُونَ
تَخْصِصِ شَخْصٍ بِذَاتِهِ، لَذَا لَمْ يَكُنْ الدُّعَاءُ لِيُحَقِّقَ غَرَضًا ذَا أَهَمِّيَّةٍ لَوْ وُجِدَ فِي تِلْكَ
الرِّسَالِ.

كَانَتْ جُلُّ الْجُمْلِ الْمُعْتَرِضَةِ تَدُورُ مَعَانِيهَا فِي مَنْحَى التَّنْزِيهِ وَالتَّصْلِيَةِ وَالتَّرْضِيَةِ وَفِي
مَنْحَى الدُّعَاءِ، وَفِي حَالَاتٍ قَلِيلَةٍ نَجِدُ أَنَّ مَعَانِي تِلْكَ الْجُمْلِ دَارَتْ فِي مَنَاحِي أُخْرَى وَأَدَّتْ
أَغْرَاضًا مُخْتَلِفَةً وَمِنْ ذَلِكَ الْمَدْحُ وَالْإِشَادَةُ كَمَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ لَمْ يُعْرِفْ كَاتِبُهَا جَاءَ فِيهَا
"...وَيَحْدُو بِنَفْسِي كُلِّ حِينٍ إِلَى حَرَمِ سِيَادَتِهِ الْأَمِينِ، لَوْ وَجَدْتُ - وَمُحَالٌّ أَنْ أَجِدَ -
أَذْكَى نَشْرًا، وَأَزْكَى بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ نُشْرًا..."^{١٠٦٨}، أَوْ كَمَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ أُخْرَى
كَتَبَهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْبَلُويّ وَجَاءَ فِيهَا "وَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ - أَكْرَمَ بِهِ مِنْ وَارِدٍ خَطِيرٍ
- تَلَقَّاهُ الْعَبْدُ بِوَاجِبِهِ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالشُّكْرِ..."^{١٠٦٩}.

وَمِنْ الْأَغْرَاضِ الْأُخْرَى الَّتِي قَلَّمَا أَذْهَبَ الْجُمْلُ الْمُعْتَرِضَةُ فِي الرِّسَالِ الْمُوَحَّدِيَّةِ بَيَانُ
الْحَالَ حَيْثُ جَاءَ فِي رِسَالَةٍ لِابْنِ الْجَنَانِ قَوْلُهُ: "وَكَانَ الْعَبْدُ مُتَعَبِّدًا مَعَهُ بِتِلْكَ الْعِبُودِيَّةِ

^{١٠٦٦} ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢١٣.

^{١٠٦٧} الكلاعي، إحكام صناعة الكلام، ٨٢.

^{١٠٦٨} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤١٦.

^{١٠٦٩} عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٣٢٦.

المفروضة... إلى أن اخترمته - وهو مطمئن في الحمى - كف الحمام، وأعمدت المنية منه بالرغم سيفاً ماضياً من سيوف الإمام^{١٠٧٠}، إضافة إلى تلك الجمل التي أشارت إلى مشيئة الله وإرادته ومنها ما جاء في رسالة لابن عميرة ورد فيها "...والمزار كُتِبَ - إن شاء الله تعالى - وهو تعالى يُدسّم علاءكم، ويحرُسُ أرجاءكم"^{١٠٧١}.

إن ورود الجمل المعترضة في سياق الرسائل الموحدية كان له ما يبرره، "ومن سنن العرب أن يعترض بين الكلام وتمامه كلام لا يكون إلّا مفيداً"^{١٠٧٢}، وهذا الكلام إذا كان موقعه مناسباً، ومعناه ملائماً للغرض، كان من مقتضيات الإنشاء ومتطلبات الأسلوب، ولم يكن زيادة يمكن الاستغناء عنها، لأن سقوطه من السياق يترتب عليه سقوط جزء أصيل من المعنى، وهذا الوصف ينساق على الجمل المعترضة التي وجدت في الرسائل الموحدية.

الخاتمة

قبل الخوض في الحديث عن خواتم الرسائل الموحدية التي وصلتنا ينبغي الإشارة إلى أن بعض تلك الرسائل لم تُختتم بخاتمة، ويعود السبب في ذلك إلى أن بعض الكتاب انتهوا من رسائلهم بنهاية مفتوحة دونما خاتمة، أو أن خواتم تلك الرسائل قد أسقطها المؤرخون والرواة الذين أوصلوا لنا الرسائل كما أسقطوا الافتتاح من بعضها وانتبهوا للغرض على اعتبار أنه الجزء الأهم من الرسالة، وقد تعذر على الباحث معرفة عدد الرسائل التي أسقطت خواتمها كما عرّف - من قبل - عدد الرسائل التي أسقطت افتتاحياتها، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الافتتاح كان أكثر أهمية من الخاتمة، ويظهر غيابها بشكل أكبر من غياب الخاتمة في الرسالة^{١٠٧٣}.

^{١٠٧٠} - ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٣٠ - ٤٣١.

^{١٠٧١} - المصدر السابق، ١٨٩.

^{١٠٧٢} - ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (٣١٢ - ٣٩٥ هـ)، الصاحي في فقه اللغة وسنن

العربي كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧ م)، ٢٠٩.

^{١٠٧٣} ينظر بعض الرسائل التي كانت دون خاتمة دون وجود إشارة تبين هل كانت الرسائل دون خاتمة من الأصل، أم أن الخاتمة كانت موجودة في أصل الرسالة وأسقطت: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٧،

كانت الخواتم في الرسائل الديوانية مُتشابهةً إلى حدٍّ كبير، وللتمثيل عليها تُوردُ خواتم ثلاث رسائل: الأولى كتبها ابنُ مَحْشَرَة عن الخليفة المنصور وجاءَ فيها "أدامَ اللهُ كرامتكم بتقواه، استدعت هذه الحالة التي عَرَفْتُم بها أن يُزادَ في الخطبة الزيادة التي اشتملَ عليها المدرج في طيّ هذا الكتاب، فضَعَوْها في موضعها مِنْه، واكتبوا بِنُسْخِهَا إلى جميع جهاتكم إن شاء الله، والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته، كُتِبَ في السَّابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسمائة" ١٠٧٤.

والرسالة الثانية كُتِبَتْ عن والي إشبيلية إلى الخليفة يُوسُف وجاءَ فيها "وللمقام الإمامي - أيده اللهُ - الفضلُ العَظيم، والطولُ العَميم، في الإمداد ببركة دُعائه الذي هو الموصِلُ إلى خير الدارين، والكفيلُ مِنْ اللهُ بنيلِ الحُسنيين، واللهُ يُدِمْ أيامه وينصرُ أعلامه، ويشكرُ إحسانه العَميم وإنعامه، ويمدُّه بموادِّ النصر والتمكين، والفتح المبين، بمنه ونُعماه، لا ربَّ سِواه، وسلامُ اللهِ الكريمِ العَميمِ الأحفلِ الأصفى على الحضرة الإمامية القدسية كثيراً أثيراً ورحمةُ اللهِ تعالى وبركاته، كُتِبَ في الموفى عشرين لصفَر سنة إحدى عشرة وستمائة" ١٠٧٥.

أمَّا الثالثة فقد كتبها ابنُ الجَنان إلى الخليفة العباسيَّ عن ابن هُود وجاءَ فيها "أبقى اللهُ ديوانَ النبوة الهاشمية، والإمامة العباسية، ملجأً للخلق والحقِّ ومستنداً، ورقى أعلامَ دعوتِهِ العلية، وخلافته المحمدية، بأعلى مراقي العزِّ الباقي مُظهِراً ومُصْعِداً... ومُعَادُ السَّلامِ الكريم، والتَّحِيَّةُ على الأبواب المقدسة النبوية، ورحمةُ اللهِ تعالى وبركاته، كُتِبَ في شهر ربيع الآخر عام أحدٍ وأربعين وستمائة" ١٠٧٦.

كانت مُعظَمُ خواتم الرسائل الديوانية تجري على النهج الذي اتَّبَعْتَهُ الخواتم الثلاث المذكورة، حيثُ وُجِدَ الدُّعاء للمرسل إليه في الخاتمة، وكان الدُّعاء مُوجِزاً في الرسائل التي تُرسلُ من الأعلى للأدنى، ومُسَهَّباً في الرسائل التي تُرْفَعُ من الأدنى للأعلى، كما وُجِدَ السَّلام في الخاتمة، ووُجِدَ التَّاريخُ الذي صَدَرَتْ فيه الرسالة، وكانت الرسائل تُورِّخُ

١٠٧٤ بروفنصال، رسائل موحدية، ١٦٣.

١٠٧٥ عزراوي، أحمد، رسائل موحدية، ٢٧٧.

١٠٧٦ ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٢٧.

بالشهور والسنوات القمرية في الرسائل التي تصدر عن الموحدين، أما التي كان يُرسلها الأوربيون للموحدين فكانت تُورخُ بالشهور والسنوات الشمسية ومن ذلك ما جاء في خاتمة رسالة أرسلوها إلى الخليفة يوسف وجاء فيها ما نصه "والله بعزته يُقي ما بيننا على ما يرضاه موصولاً، ولا يجعل للغير عليه سبيلاً، بمنه ويمنه وحوله وقوته، وسلام الله الأعم الأكرم على حضرة سيدنا الأعظم ورحمة الله تعالى وبركاته، وحسبنا الله ونعم الوكيل، كتب في أول شهر يوليو سنة ألف ومئة واثنين وثمانين لالتحام المسيح السيد" ١٠٧٧.

أما الرسائل الإخوانية فلم تلتزم نهجاً واحداً في خواتمها، فقد ختم بعضها بالشعر ١٠٧٨، وختم بعضها بالدعاء للمرسل إليه والسلام كما جاء في خاتمة رسالة أرسلها ابن مرج الكحل لصفوان بن إدريس وكتب في خاتمتها ما نصه "لا زلتم في ظل من العيش وارف، مُرتدين رداء المعارف، والسلام" ١٠٧٩.

وقد يزيد الكاتب على الدعاء والسلام ويذكر اسمه في معرض الخاتمة كما جاء في رسالة لابن الجنان كتب في خاتمتها: "والله تعالى يُجازي سيدي على جميل ما ينويه، ويُقيه للمعارف، والمجد المعلم المطارف، والسعد الموصول تليده بالطارف، بعزته، والسلام الكريم الأطيب الأزكى يخصه به معظم مكانه، وموقر شأنه، وشاكر فضله وعنايه، ابن الجنان، ورحمة الله وبركاته" ١٠٨٠.

كما ختمت بعض الرسائل الإخوانية بالتاريخ ومن تلك رسالة لابن الجنان كتب في خاتمتها ما نصه "والسلام الكريم العميم يخصكم به مصافيكم وخلكم ومكرمكم ومجلكم محمد بن الجنان ورحمة الله تعالى وبركاته، وخصوا عني بالسلام جميع الإخوان،

١٠٧٧ المصدر السابق، ١٦٦.

١٠٧٨ ينظر بعض الرسائل التي ختمت بالشعر في: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١١٣.

مؤلف مجهول. لباب الألباب، ٧١. المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣٠٨، ٣١٧.

١٠٧٩ المقرئ، نفح الطيب، ٥: ٥٨. وينظر خواتم مشاهة في: المصدر نفسه، ٤: ٤٩٦. الهرامة، عبد الحميد،

آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١١١، ١٣٠.

١٠٨٠ ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٦٣. وينظر خاتمة أخرى مثلها في: المقرئ، نفح الطيب، ٧: ٤١٧.

مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ، أَعْزَّمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَحَرَسَنَا وَإِيَّاهُمْ مِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ، وَكُتِبَ فِي مُنْسَلَخِ رَجَبِ ثَلَاثَةِ وَأَرْبَعِينَ وَسِتْمِائَةِ^{١٠٨١}.

وَرَبَّمَا خَتَمَ الْكَاتِبُ رِسَالَتَهُ بِخَاتَمٍ طَرِيفَةٍ كَتَلِكَ الَّتِي كَتَبَهَا ابْنُ عُمَيْرَةَ فِي خَاتَمَةِ رِسَالَةٍ لَهُ وَجَاءَ فِيهَا "وَقَدْ شَارَفَ الطَّرْسُ التَّفَادَ، وَلَيْسَ فِيهِ مَزِيدٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزِدَادَ، وَالْحَامِلُ قَدْ أَلَحَّ تَأْكِيدًا وَحَفْزًا، وَالْقَلَمُ قَدْ أَبْدَى سَامَةً وَعَجْزًا، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ، وَسَيَمْتَدُّ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - فِي الْقَوْلِ أَمَدٌ، وَالسَّلَامُ"^{١٠٨٢}.

أَمَّا الرِّسَائِلُ الوَصْفِيَّةُ فَلَمْ تَلْتَزِمَ أَيْضًا بِمَنْهَجٍ وَاحِدٍ، حَيْثُ كَانَتْ خَوَاتِمُهَا مُخْتَلِفَةً، فَمِنْهَا مَا خُتِمَ بِالْدُّعَاءِ وَالسَّلَامِ كَمَا جَاءَ فِي خَاتَمَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي كَتَبَهَا صَفْوَانُ بْنُ إِدْرِيسٍ فِي الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ مُدْنِ الْأَنْدَلُسِ حَيْثُ كُتِبَ فِيهَا "أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوقِدَ مِنْ تَوْفِيقِكَ مَا خَمَدَ، وَيُسِيلَ مِنْ تَسْدِيدِكَ مَا جَمَدَ، وَلَا يُطِيلُ عَلَيْكَ فِي الْجَهَالَةِ الْأَمَدَ... ثُمَّ السَّلَامُ الَّذِي يَتَأَنَّقُ عَبْقًا وَنَشْرًا، وَيَتَأَلَّقُ رَوْنَقًا وَبِشْرًا، عَلَى حَضْرَتِهِمُ الْعَلِيَّةِ، مَطَالِعِ أَنْوَارِهِمُ الْبَهِيَّةِ، وَرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتِهِ"^{١٠٨٣}.

وَمِنْهَا مَا خُتِمَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا وَرَدَ فِي خَاتِمَةِ رِسَالَةِ الشَّقَنْدِيِّ الَّتِي أَنْشَأَهَا فِي تَفْضِيلِ الْأَنْدَلُسِ عَلَى بَرِّ الْعُدُوَّةِ وَجَاءَ فِيهَا "فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ مِنَ الْمَغْرِبِ هَذِهِ الشُّمُوسَ، وَجَعَلَهَا بَيْنَ جَمِيعِ أَهْلِهِ بِمَنْزِلَةِ الرَّؤُوسِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ صَفْوَةِ الْعَرَبِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً مُتَّصِلَةً إِلَى غَايَةِ الْحَقِّ"^{١٠٨٤}.

بعد هذا الاستعراض لأجزاء الرسالة ينبغي الإشارة إلى أمر جدير بالإشارة وهو أن جُلَّ الرِّسَائِلِ الَّتِي تَمَّتْ دِرَاسَتُهَا تَتَصَفُّ بِصِفَةِ التَّمَاسُكِ النَّصِيِّ، وَهِيَ صِفَةُ فُطْنٍ إِلَيْهَا الْبَلَاغِيُونَ الْقَدَامِيُّ، فَهَذَا الْجَاحِظُ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَجُودِ الشَّعْرِ الَّذِي "أَفْرَغَ إِفْرَاغًا وَاحِدًا، وَسُبَّكَ سَبْكًَا وَاحِدًا... وَكَذَلِكَ حُرُوفُ الْكَلَامِ وَأَجْزَاءُ الْبَيْتِ مِنَ الشَّعْرِ تَرَاهَا

^{١٠٨١} ابن المرباط، زواهر الفكر، ٥١٦.

^{١٠٨٢} المصدر السابق، ٢١٠.

^{١٠٨٣} المقرئ، نفح الطيب، ١: ١٧٥.

^{١٠٨٤} المصدر السابق، ٣: ٢٢٢.

متفقة...حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد"١٠٨٥.

وليست الروابط النحوية واللغوية كافية لإحداث ذلك التماسك النصي وإنما تتطلب جوانب دلالية تساعد المتلقي على ملء فراغات النص وثغراته حتى يستقبل المعنى على الوجه الأكمل^{١٠٨٦}، لذا فإن المتلقي الذي عاش العصر وعاش ظروفه وأحواله تتحقق لديه صفة التماسك النصي في الرسائل أكثر من المتلقين الذين اطلعوا عليها في عصور أخرى. وبمناى عن الظروف والأحوال التي سادت وقت إنشائها، وذلك لأن المتلقي المعاش تتحقق لديه خاصيتا الاتساق اللغوي والإنسجام الدلالي.

ثانياً: المزاوجة بين النثر والشعر في الرسالة الواحدة

واكب الشعرُ النثرَ منذ العصر الجاهليّ وحتى عصرنا الحاضر، وسبق أن خاض العلماء والنقاد بقضية المفاضلة بين المنظوم والمنثور، وكانت لهم بها آراءٌ مختلفة، وإذا ابتعدنا عن الخوض في هذه القضية، والتزمنا الحياد فيها، نجد أنفسنا مُنجذبين للرأي الحديث الذي يقول: "إن الموضوعات هي التي تُحدّد نوع الصياغة، فليس ينبغي أن يُفترض أن الشعر صالح لكل موضوع، ولا أن النثر صالح لكل موضوع، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر"^{١٠٨٧}، ونلمسُ صحة هذا القول عندما نرى بعض الكتاب ينفكون من إنشاء النثر وينظمون أبياتاً أو قصائد يُفرغون فيها ما يجولُ في نفوسهم من عواطف وأفكارٍ إن رأوا أن الشعر أصلح من النثر في التعبير عن الموضوع الذي يطرقونه ثم يعودون بعد ذلك إلى إنشاء النثر في الرسالة الواحدة^{١٠٨٨}.

كما أن الخطاب النثري يختلف عن الخطاب الشعري، وقد بين ابن الأثير ذلك عندما قال: "إن طريق الإحسان في منثور الكلام يُخالف طريق الإحسان في منظومه، لأن

١٠٨٥ الجاحظ، البيان والتبيين، ١: ٦٧.

١٠٨٦ ينظر: بحيري، سعد، علم لغة النص (القاهرة، الشركة المصرية للنشر، ١٩٩٥م)، ١٤٦.

١٠٨٧ مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٥م)، ١: ٢٧.

١٠٨٨ ومن ذلك قصيدة طويلة في الحنين إلى مسقط الرأس تخللت قصيدة لابن عميرة، ينظر إليها في: المقرئ، نفح الطيب، ٤: ٤٩٣.

الترسل هو ما وَضَحَ معناه، وأعطاك سَمَاعَه في أولِ وهلة، وأفخرُ الشعر ما غَمُضَ، فلم يُعطِكَ غَرَضَه إلى بعدِ مِطْلَعِه مِنْهُ^{١٠٨٩}.

كَانَ النَّثْرُ هُوَ الْغَالِبُ فِي الرِّسَائِلِ الْمُوَحَّدِيَّةِ، وَلَكِنْ كَانَ لِلشَّعْرِ حُضُورٌ كَبِيرٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الرِّسَائِلِ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ الْحُضُورُ عَلَى صُورَتَيْنِ هُمَا:

إيراد الشعر منظوماً في متن الرسالة

لَمْ يَكُنِ التَّدَاخُلُ بَيْنَ الشَّعْرِ وَالنَّثَرِ فِي النَّصِّ الْوَاحِدِ جَدِيداً اسْتَحْدَثَهُ الْأَنْدَلِسِيُّونَ، بَلْ هُوَ عَرِيقٌ يَعُودُ فِي عِرَاقَتِهِ إِلَى الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَالْعَصُورِ الَّتِي تَبِعَتْهُ، حَيْثُ نَجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي وَصَلَتْنا مِنْ تِلْكَ الْعُصُورِ تَدَاخُلًا كَبِيرًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْفَتَنِ فِي النَّصِّ الْوَاحِدِ^{١٠٩٠}.

وُجِدَ الشَّعْرُ الْمَنْظُومُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الرِّسَائِلِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ وَجُودُهُ عَلَى عُضْوٍ مِنْ عُنَاصِرِ الرِّسَالَةِ الثَّلَاثَةِ، حَيْثُ وُجِدَ فِي الْإِفْتِتَاحِ وَفِي الْعَرَضِ وَفِي الْخَاتَمَةِ، وَكَانَ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ بَيْتٍ وَاحِدٍ إِلَى قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ، وَقَدْ كَانَ إِيْرَادُ الشَّعْرِ فِي مُتُونِ الرِّسَائِلِ مُسْتَحْسَنًا فِي نَظَرِ الْكُتَّابِ الَّذِينَ كَانُوا يُشِيدُونَ بِذَلِكَ، وَمِنْ أَمْثَلَةٍ إِشَادَتِهِمْ أَنَّ ابْنَ عُمَيْرَةَ كَتَبَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مُجَابِئًا إِيَّاهُ عَلَى رِسَالَةٍ وَصَلَتْهُ مِنْهُ، حَيْثُ جَاءَ فِي رِسَالَةِ ابْنِ عُمَيْرَةَ مَا نَصَّهُ "مَرْحَبًا بِالسَّحَاءَةِ، وَمَا أَعَارَتْ أَفْقِي مِنْ الْإِضَاءَةِ، وَرَدَتْ تَسَحَّرُ النُّهَى، وَتَسَحَبُ ذِيلاً عَلَى السُّهَى... أَذَرَيْتَ، أَيَّ بَرِي بَرَيْتَ؟ وَبَأَيِّ قَمَرٍ اهْتَدَيْتَ، لَيْلَةَ سَرَيْتَ؟ افْتَتَحْتَ بِأَيِّاتِكَ الْحِسَانَ، وَنَظَمْتَهَا نَظْمَ الْجُمَانَ، فَعَوَّذْتَ سَيِّئَهَا بِالسَّبْعِ^{١٠٩١}، وَعَرَفْتَ مِنْهَا بَرَاعَةَ ذَلِكَ الطَّبْعِ، ثُمَّ نَثَرْتَ عَلَى الْقِرْطَاسِ مِنْ شَذُورِ الْمُنْثُورِ، بَلْ مِنْ جَوَاهِرِ الثُّحُورِ، مَا اسْتَوْقَفَ النَّظَّارَ، وَبَهَرَجَ اللَّجِينَ وَالنَّضَارَ... وَجِئْتَ بِالرَّائِيَةِ تَرَوْقُ أَرْبَعَتُهَا، وَتَخْرُسُ بِهَا قَعَقَعَةُ

^{١٠٨٩} ابن الأثير، المثل السائر، ٤: ٦ - ٧.

^{١٠٩٠} ينظر النصوص الواردة في: أحمد زكي، صفوت، **جمهرة خطب العرب** (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٢ م). والمؤلف نفسه، **جمهرة رسائل العرب** (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٧ م).

^{١٠٩١} سبتها: إشارة إلى الأبيات الست التي افتتحت بها الرسالة، والسبع: كناية عن سورة الفاتحة.

الأشعار وجعجعتُها، فأدّت من حُسْنِها ما يَسُرُّ، واجتمع لمن رَوَى القِطْعَتَيْنِ ما نُظِمَ فيها وهو الدُّرُّ^{١٠٩٢}.

من خلال النَّصِّ السَّابِقِ نَلْحَظُ إعْجَابَ ابنِ عُمَيْرَةَ بِرِسَالَةِ صَدِيقِهِ الَّتِي افْتَتَحَهَا بِأَبْيَاتٍ شَعْرِيَّةٍ سِتَّةَ، وَتَحَلَّلْتُهَا مَقْطُوعَةً رَائِيَّةً مِنْ أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ، وَكَانَتْ الْمَقْطُوعَتَانِ مِنْ نَظْمِ الْكَاتِبِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَحْفُوظِهِ.

كَانَ الْكُتَّابُ يُورِدُونَ فِي مُتُونِ رِسَائِلِهِمْ نَوَعِينَ مِنَ الشَّعْرِ الْمَنْظُومِ، حَيْثُ كَانُوا يُورِدُونَ شِعْرًا مِنْ نَظْمِهِمْ، وَشِعْرًا آخَرَ مِنْ نَظْمِ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ أَشَارَ الْكَلَاعِيُّ إِلَى ذَلِكَ حِينَ قَالَ: "كَانَ الْمَجِيدُ كَثِيرًا مَا يُضَمِّنُ فِي رِسَائِلِهِ أَشْعَارَهُ وَأَشْعَارَ غَيْرِهِ"^{١٠٩٣}، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ يَدْخُلُ إِيرَادُ الشَّعْرِ الْمَنْظُومِ فِي مَوْضُوعِ النَّصِّ الْمُبَاشِرِ الَّذِي جَرَى الْحَدِيثُ عَنْهُ فِي الْبَابِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ.

أَمَّا الشَّعْرُ الَّذِي كَانَ مِنْ نَظْمِ الْكُتَّابِ أَنْفُسِهِمْ فَكَانَ الْأَكْثَرُ، حَيْثُ كَانَتْ أَشْعَارُهُمُ الَّتِي تَوَزَّعَتْ فِي رِسَائِلِهِمْ تَطُولُ لِتَبْلُغَ مَقْطُوعَاتٍ أَوْ قَصَائِدَ طَوِيلَةً، وَقَدْ يُطِيلُ الْكَاتِبُ فَيَنْظُمُ أَكْثَرَ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي ثَنَائِهَا رِسَالَتَهُ^{١٠٩٤}، فِي حِينَ أَنَّ أَشْعَارَ غَيْرِهِمْ الَّتِي ضَمَّنَهَا فِي رِسَائِلِهِمْ كَانَتْ أَبْيَاتًا مُتَنَازِلَةً مُتَفَرِّقَةً.

كَانَتْ الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي نَظَّمَ الْكُتَّابُ فِيهَا شِعْرًا يَصْلُحُ لَهَا النَّظْمُ أَكْثَرَ مِنَ النَّثْرِ، وَلَا سِيَّما تِلْكَ الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ عَوَاطِفِ الْكُتَّابِ وَمَشَاعِرِهِمْ، وَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي الْمَدْحِ وَفِي الرِّثَاءِ وَفِي الْحَنِينِ وَفِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْحُزَنِ الَّذِي اكْتَنَفَهُمْ عَلَى ضِيَاعِ بِلَادِهِمْ وَسُقُوطِهَا بِيَدِ الْأَعْدَاءِ، وَقَدْ أَجَادُوا فِي النَّظْمِ إِجَادَتَهُمْ فِي النَّثْرِ، فَهَذَا ابْنُ عُمَيْرَةَ يَخْتِمُ رِسَالَةً لَهُ بِمَقْطُوعَةٍ شَعْرِيَّةٍ يَقُولُ فِيهَا:

زِدْنَا عَلَى النَّائِينَ عَنْ أوطَانِهِم وَإِنْ اشْتَرَكْنَا فِي الصَّبَابَةِ وَالْجَوَى
إِنَّا وَجَدْنَاهُمْ قَدْ اسْتَسْقَوْا لَهَا مِنْ بَعْدِ أَنْ شَطَّتْ بِهِمَ عَنْهَا النَّوَى

^{١٠٩٢} المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣٠٦.

^{١٠٩٣} الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ٧٢.

^{١٠٩٤} ينظر رسالة للفازاري افتتحها بقصيدة، ونظم في عرضها قصيدة، واحتتمها بقصيدة: الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازاري الأندلسي، ١٣٠ - ١٣٢.

وَيَصْدُنَا عَنْ ذَاكَ فِي أَوْطَانِنَا مَعَ حُبِّهَا الشَّرْكَ الَّذِي فِيهَا ثَوَى
حَسَنَاءُ طَاعَتُهَا اسْتَقَامَتْ بَعْدَنَا لِعَدُونِنَا، أَفِيَسْتَقِيمُ لَهَا الْهَوَى؟

وقد عَقَّبَ المقرِّي على هذه الخاتمة بقوله: "مَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ فِي مَعْنَاهَا، الْعَالِيَةِ فِي مَبْنَاهَا، فَإِنَّ فِيهَا إِشَارَةً إِلَى اسْتِيلَاءِ النَّصَارَى - دَمَرَهُمُ اللَّهُ - عَلَى تِلْكَ الدِّيَارِ، وَثُبُوتِ قَدَمِهِمْ فِيهَا عَلَى طَبَقٍ مَا حَصَلَ لَهُمْ فِيهِ مِنْ اخْتِيَارٍ، مَعَ إِدْمَاجِ حُبِّهِ الَّذِي لَا يُشَكُّ فِيهِ وَلَا يُرْتَابُ، وَاشْتِمَالِهَا عَلَى الْحَاسِنِ الَّتِي هِيَ بُغْيَةُ الرَّائِدِ وَنُجْعَةُ الْمُتَنَابِ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ، وَإِذَا نَفَذَ سَهْمُ الْمُقْدُورِ فَلَا عِتَابٌ" ١٠٩٥.

ولم يَنْفَرِدِ المقرِّي بِالْإِشَادَةِ بِشَعْرِ الْكُتَّابِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ، بَلْ نَجِدُ غَيْرَهُ مِمَّنْ أَثْنَى عَلَى نَظْمِهِمْ وَأَشَادَ بِشَعْرِهِمْ، حَيْثُ "كَانَ كِبَارُ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ هُمْ أَنْفُسُهُمْ كِبَارَ شُعْرَائِهَا الْمُرُوقِينَ" ١٠٩٦، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ حِكْرًا عَلَى الْأَنْدَلُسِيِّينَ، وَلَمْ يَأْلَفْهَا الْمَشَارِقَةُ، حَيْثُ ذَهَبَ الْجَاحِظُ إِلَى أَنَّ "اللِّسَانَ الْبَلِغَ وَالشَّعْرَ الْجَيِّدَ لَا يَكَادَانِ يَجْتَمِعَانِ فِي وَاحِدٍ، وَأَعْسَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَجْتَمَعَ بَلَاغَةُ الشَّعْرِ وَبَلَاغَةُ الْقَلَمِ" ١٠٩٧.

وَأَمَّا الشَّعْرُ الَّذِي كَانَ مِنْ نَظْمِ شَاعِرٍ غَيْرِ الْكَاتِبِ فَكَانَ أَبْيَاتًا مُتَفَرِّقَاتٍ، وَلَمْ نَجِدْ فِي مُتُونِ الرِّسَائِلِ مَقْطُوعَةً أَوْ قَصِيدَةً وَاحِدَةً مَنْقُولَةً عَنْ شَاعِرٍ آخَرَ، كَمَا كَانَ الْحَالُ فِي الْمَقْطُوعَاتِ وَالْقَصَائِدِ الَّتِي نَظَّمَهَا الْكُتَّابُ أَنْفُسُهُمْ وَضَمَّنُوهَا رِسَائِلَهُمْ، وَكَانَ مَعْظَمُ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ نَقَلَ عَنْهُمْ الْكُتَّابُ مَشَارِقَةً، وَكَانَ الْمُتَنَبِّي فِي مُقَدِّمَتِهِمْ ١٠٩٨، حَيْثُ نَقَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ شِعْرَهُ، وَضَمَّنُوهُ رِسَائِلَهُمْ، وَمِنْهُمْ ابْنُ الْجُنَّانِ الَّذِي كَتَبَ رِسَالَةً عَنْ ابْنِ هُودٍ

١٠٩٥ المقرِّي، نفح الطيب، ١: ٣١٠.

١٠٩٦ الشُّكْعَةُ، مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م)، ٥٦٩.

١٠٩٧ الجاحظ، البيان والتبيين، ١: ٢٤٣. وفي موضع آخر مثل الجاحظ على عبد الحميد الكاتب وابن المقفع (مع بلاغة أقوالهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما يُذَكَّرُ مثله، وقيل لابن المقفع في ذلك فقال: الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه) المصدر نفسه، ١: ٢٠٨.

١٠٩٨ كان المتنبّي من أكثر الشعراء المشاركة تأثيراً في الأدب الأندلسي بشقيه الشعر والنثر. ينظر دراسة: ميدان، أيمن محمد، تأثير المتنبّي في الأدب الأندلسي، مجموعة لسان العرب الإلكترونية

<http://www.lisanarabi.com/vb/showthread.php?t=1938>

حيث نُقِلَ البحث عن مجلة علمية محكمة لم يتسنَ للباحث الاطلاع عليها، كما كان ابن تومرت نفسه يتمثل بشعر المتنبّي في مناسبات كثيرة. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥: ٥٤ - ٥٥.

إلى الخليفة العباسي مبرراً مهادنته لأعدائه، وقد جاء في تلك الرسالة ما نصّه
"...فبالضرورة عُوهدَ عدوّ في الدّين لا تُرجى منه مُخالصةٌ ولا ودٌّ،

ومن نكّد الدنيا على المرء أن يرى عدوّاً له ما من صدّاقته بُدّ^{١٠٩٩}
والله تعالى يعلم أن العبد لو وجدَ عن ذلك مَحيصاً، أو عَلِمَ نَجاةً للمسلمين بِغيرِ
هذا الوجه أو تَخليصاً، لِمَا رَضِيَ من مُسالمةِ العدوِّ بِخُطّةِ الخَسَفِ، وَلِمَا قَنَعَ من واحدِ
التّوحيدِ بِمُصَابرةِ الألفِ"^{١١٠٠}.

كما نجدُ شعراً لشعراءِ أندلسيين ومن تلك الأشعار ما أوردَه الشّقنديّ في رسالته
التي يُفَاخِرُ فيها بِجزيرةِ الأندلس، ومما كَتَبَه في تلك الرّسالة مُتحدّثاً عن يوسف بن تاشفين
وذاكِراً بَيتين للشّاعر ابن زيدون "ولمّا انصرفَ عن المعتمدِ إلى حَضرةِ مُلكه كَتَبَ له
المعتمدُ رسالةً فيها:

بِنتُم وبَنّا فما ابتَلتُ جَوَانِحُنّا شَوْقاً إليكم ولا حَفَّتْ مَاقِينَا
حَالَتُ لِفَقْدِكُم أَيامُنَا فَغَدَتُ سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لِيَالِينَا^{١١٠١}.

فلَمّا قُرئَ عليه هذانِ البيتانِ قالَ للقارئ: يَطْلُبُ مِنّا جَواري سُوداً وَبِيضاً، قال: لا
يا مَولانا، ما أَرادَ إلّا لَيْلَه كانَ بِقُربِ أميرِ المسلمين نَهَاراً لأنّ لِيالي السّرورِ بِيضٌ، فَعادَ
نَهارُه بِبُعْدِه لَيْلاً، لأنّ أَيامَ الحُزنِ لِيالي سُود، فقال: واللهِ جَيِّدٌ..."^{١١٠٢}.

في الأعمّ الأغلب كان الكُتّابُ يُضَمّنونَ رسائلهم أبياتاً كاملةً من نَظْمٍ غيرهم،
ولكن في بعضِ الحالات كان الكاتبُ يورِدُ شَطراً من بيت، ومن ذلك ما جاء في رسالة
لصفوان بن إدريس وذكرَ فيها صَدَرَ البَيْتِ المشهُورِ للحُطَيْئةِ

مَنْ يَفْعَلُ الخَيْرَ لا يَعدَمُ جَوازيه لا يَذهبُ العُرفُ بينَ اللهِ والنّاسِ^{١١٠٣}

^{١٠٩٩}المتنبي، ديوانه، ٢: ٣٨٢.

^{١١٠٠}ابن المرباط، زواهر الفكر، ٤٣٤. وهذه الرسالة من الرسائل الديوانية القليلة التي تضمنت الشعر، وينظر رسائل
أخرى وردت فيها أبيات للمتنبي في المصدر نفسه: ٥٩، ١٦٧، ١٧١، ٤٢٠.

^{١١٠١}ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي (٣٩٤-٥٤٦٣)، ديوانه، تحقيق، كرم
البستاني(بيروت: دار صادر، ١٩٧٥م)، ١٠.

^{١١٠٢}المقري، نفح الطيب، ٣: ١٩١.

"...وَمَنْ أَسْرَ سِرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا، وَمَنْ طَوَى حُسْنَ نِيَّةٍ خَتَمَ اللَّهُ لَهُ بِالْجَمِيلِ إِعَادَتَهَا وَإِبْدَاءَهَا، وَمَنْ قَدَّمَ صَالِحًا فَلَا بُدَّ أَنْ يُوَازِيَهُ، وَمَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعْدُمُ جَوَازِيَهُ" ١١٠٤.

ثمة أمور ثلاثة ينبغي الإشارة إليها في هذا الصدد، الأمر الأول: هو أن الرسائل التي وردت فيها الأشعار كانت في معظمها إخوانية أو وصفية، أما الديوانية فقلما نجد في ثناياها شعراً، وهذا العرف ليس جديداً على الرسائل الأندلسية، وإنما كان متعارفاً عليه في المشرق، وقد نوّه الجاحظ لذلك عندما قال عن الشعر: "ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء" ١١٠٥.

وأشار القلقشندي إلى التمثل بالشعر في الرسائل الديوانية فقال: "إن الملوك والخلفاء إذا كتبوا إلى من ضاهاهم في أبهة الملك، وقاربهم في علو المرتبة، فإنه لا يمانع التمثل بأبيات فيها تطريز للنثر والنظم" ١١٠٦، ولكن لم يُعثر في الرسائل التي تناولها البحث ما يُعزز رأي القلقشندي.

والأمر الثاني: هو ما ذهب إليه الكلاعي عندما تحدث عن تضمين الكاتب الأشعار في رسالته حيث قال: "فَكَانَ إِذَا ضَمَّنَ أَشْعَارَهُ يُوَافِقُ بَيْنَ قَافِيَتِهَا وَبَيْنَ السَّجْعِ الَّذِي قَبْلُهَا، لِيُعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّ الشَّعْرَ لَهُ، وَكَانَ إِذَا ضَمَّنَ أَشْعَارَ غَيْرِهِ خَالَفَ بَيْنَ السَّجْعِ وَالْقَافِيَةِ، وَهَذَا حَسَنٌ يَجِبُ أَنْ يَمْتَثِلَهُ مَنْ أَرَادَ إِحْكَامَ صَنْعَةِ الْكَلَامِ" ١١٠٧.

ومن خلال دراسة الرسائل وتتبّع الشعر الوارد فيها لم يُعثر على شواهد كافية لإثبات رأي الكلاعي، ففي معظم الحالات لم يُوافق الكاتب بين القافية وبين السجع سواء كان الشعر الوارد في رسالته من نظمه أم منقولاً عن غيره، وفي الحالات القليلة ١١٠٨ التي وُجد فيها التوافق بين القافية والسجع لم يكن لمعيار الكلاعي وجود، حيث جاء الشعر

١١٠٣ الخطيئة، أبو بكر جرول بن أوس بن مالك العبسي (ت ٤٥هـ)، ديوانه، تحقيق: نعمان طه (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٧م)، ٥٣.

١١٠٤ المقرئ، نفح الطيب، ١: ١٧٠. وينظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه: ١: ١٧٤. ٧: ٤١٨.

١١٠٥ الجاحظ، البيان والتبيين، ١: ١١٨.

١١٠٦ القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢٩٢.

١١٠٧ الكلاعي، إحكام صناعة الكلام، ٧٢.

١١٠٨ ومنها رسالة ابن الجنان التي اقتبسنا منها سابقاً.

منقولاً عن شاعر آخر ولم يكن من نظم الكاتب نفسه، ولعلّ الكلاعيّ قد أراد أن يُرسي قاعدةً جديدةً تكون من قواعد كتابة الرسائل وتضمن الشعر فيها ولكنّ قاعدته تلك لم تر الثور ولم يُعمل بها.

أما الأمر الثالث: فهو المبرر الذي ساقه بعض الباحثين لكثرة ورود الأشعار في النثر الأندلسيّ ولا سيّما في الرسائل، حيث علّلوا ذلك برغبة الكتاب الأندلسيّين "في إبراز فنونهم وتفوّقهم على نظرائهم الكتاب المشارقة"^{١١٠٩} أو "محاولتهم إظهار تفوّقهم على أقرانهم من المشارقة"^{١١١٠}.

والظاهر من هذه المبرر أنّ الكتاب الأندلسيّين كانوا يُعانون من هاجس التفوّق المشرقيّ عليهم، وكان هذا الهاجس هو الدافع الذي يحفّزهم للإبداع، حتّى يصلّوا إلى مرتبة المشاركة ويتخلّصوا من الشعور بالدونية أمامهم.

إنّ في هذا الوصف كثيراً من التجني على الكتاب الأندلسيّين، فلم يكن يدور في خلدِهم مُجارة المشاركة أو إظهار التفوّق عليهم، بدليل أنّ معظم رسائلهم أُرسِلت إلى أطراف في الأندلس أو في المغرب، وقلّما نجد رسائل لهم أُرسِلت إلى أطراف في المشرق^{١١١}، لذا لم يكن يخطر ببال الكتاب الأندلسيّين بأنّ رسائلهم ستصل المشرق وسيقوم المشاركة بالموازنة بينها وبين رسائلهم، ثمّ إنّ الرسائل الأندلسيّة قد حوت أشعاراً مُشرقيّة كثيرة، ولو كان الكتاب يهدفون إلى إظهار التفوّق الأندلسيّ أو المغربيّ لاكتفوا بإيراد أشعار أندلسيّة أو مغربيّة، إضافةً إلى ذلك فإنّ الموقف الذي خُطت فيه بعض الرسائل كتلك التي أحبرت بالهزائم أو بكت البلاد الضائعة أو طلبت النجدة والعوث كان موقفاً لا يحتمل أن يخضع الكاتب لهاجس التفوّق المشرقيّ، أو أن يسعى لإظهار براعته وتفوّقه أمام الكتاب المشارقة، حيث كانت خطورة الموقف وتأثيره أكبر من ذلك.

^{١١٠٩} الكفارنة، محمد نازك، النثر الأندلسي في ظل الموحدين، ٤٧.

^{١١١٠} الشناوي، محمد الغريب، النثر الأندلسي في عصر الموحدين، ٢٦٤.

^{١١١١} ومنها رسالة ابن الجنان التي كتبها عن ابن هود إلى الخليفة العباسي واقتبسنا منها سابقاً.

ليس من الإنصاف النَّظَرُ إلى الأدبِ الأندلسيِّ وكأنَّه تابعٌ ومقلِّدٌ للأدبِ المشرقيِّ^{١١٢} ودوَّنه في الرُّتبة "لأنَّ فكرةَ التَّقْلِيدِ لا يَنْبَغِي أن تَنْسَحَبَ على الآثارِ الأندلسيَّةِ لتُغَطِّي بِظِلِّهَا الثَّقِيلِ كُلَّ جُهدٍ وَنِتَاجٍ مَهْمَا كانَ فِيهِ مِنْ ذُوقٍ وَطَبْعٍ وَجَمالٍ"^{١١٣}، فالأدبُ الأندلسيُّ ليسَ مُنْفَصِلاً عن الأدبِ المشرقيِّ، بل هو أدبٌ أمةٌ واحدة، ومن الطَّبيعيِّ أن يتأثَّرَ الأدبُ اللاحقُ بالأدبِ السَّابِقِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عن المَكَانِ الَّذِي كانَ فِيهِ إنْشَاؤُهُ، وهذا ما حَصَلَ في الرِّسائِلِ الأندلسيَّةِ عامَّةً، وفي تلكَ التي خُطَّتْ في عَصْرِ الموحِّدين بِشَكْلِ خاصٍّ.

إنَّ المزاوجةَ بين الشَّعرِ والنَّثرِ في الرِّسالةِ الواحدةِ كانَ لها دواعٍ وأسبابٌ، منها "حِرْصُ الكُتَّابِ الأندلسيِّينَ على إظهارِ تفوُّقِهِمْ في فَنِّي المنظُومِ والمنثُورِ، ومن دواعيها أيضاً محاولةُ جَلْبِ انتباهِ القارئِ ودَفْعِ السَّامِ عنه كُلِّما شَعَرَ أنَّ النَّثَرَ طَالَ سرُّهُ"^{١١٤}، إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ حالَ الخطَّابِ في بعضِ الرِّسائِلِ كانَ يستدعي اللُّجُوءَ إلى الشَّعرِ وذلكَ "لِقُدْرَةِ الشَّعرِ على تَكثيفِ العاطِفةِ وتركيزِها، فهو خُلاصةُ الانفعالِ، وتعبيرٌ عن الإحساسِ الصَّادِقِ الَّذِي يَتَلاشَى في بعضِ جَوَانِبِ النَّثْرِ"^{١١٥}.

إيراد الشَّعرِ محلَّولاً في مَتَنِ الرِّسالةِ

لم يَكْتَفِ الكُتَّابُ بإيرادِ الشَّعرِ منظوماً في رسائلهم، بل لجأ بعضهم إلى الشَّعرِ المنظُومِ، وأفادوا من معانيه، ونثروه في مُتُونِ رسائلهم، وهذه الظَّاهِرةُ - التي سَبَقَ لِلْبَاحِثِ أنْ أنشَأَ دِرَاسةً تناولتْ مَوْضوعَهَا - اصطُلِحَ على تَسميتها بِحَلِّ الشَّعرِ أو حَلِّ المنظُومِ أو حَلِّ

^{١١٢} نظر كثير من الباحثين هذه النَّظرة، وراحوا كُلِّما رَأَوْا تَشابُهاً بين نَصِّ مِشرقيٍّ ونَصِّ مِغربيٍّ إلى القولِ بأنَّ المِغربيَّ مقلِّدٌ للمِشرقيِّ وتابِعٌ لهُ، ومن أمثلة ذلك ما زَعَمَهُ أحمدُ ضيفُ بأنَّ رسالةَ التَّوابعِ والزَّوابعِ لابنِ شَهِيدٍ كانت تَقْلِيداً لرسالةِ الغُفرانِ لأبي العلاءِ المِعرِّيِّ، وقد كانَ لِكُيِّ مِباركٍ نِظَرَةٌ مِغايِرةٌ، حيثُ دَلَّلَ بِأدَلِّةٍ منطَقيَّةٍ أنَّ رسالةَ ابنِ شَهِيدٍ كانت أَسبقَ من رسالةِ المِعرِّيِّ، وأنَّ اللاحقَ قد تَأَثَّرَ بالسَّابِقِ. ينظر: ضيف، أحمد، بلاغة العرب في الأندلس (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٤٢م)، ٤٨. مِبارك، زكي، النثر الفِني في القرونِ الرَّابِعِ المِجرِي، ١: ٢٥٩.

^{١١٣} أبو موسى، أحمد، النثر الفِني في عَصْرِ الموحِّدين في الأندلس، ٣٤٩.

^{١١٤} المصدر السابق، ٣٢٩.

^{١١٥} القيسي، فايز، أدب الرِّسائِلِ في الأندلس في القرونِ الخامِيسِ المِجرِي، ٣٢٧.

مَعْقُودُ الْكَلَامِ، وهي ظاهرةٌ ليست طَارِئَةً عَلَى النَّثْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ بَلْ هِيَ مَعْرُوفَةٌ مَأْلُوفَةٌ، وَتَمْتَدُّ جُذُورُهَا بَعِيداً فِي التَّرَاثِ الْأَدَبِيِّ الْعَرَبِيِّ، وَلَوْ تَتَبَعْنَا جُذُورَ الْمِصْطَلَحِ لَوَجَدْنَا أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ الْكَاتِبَ (ت ٥١٣٢هـ) ^{١١١٦} الَّذِي ابْتَدَعَ نَهْجاً جَدِيداً فِي الْكِتَابَةِ كَانَ "أَوَّلَ مَنْ حَلَّ مَعْقُودَ الْكَلَامِ" ^{١١١٧}، وَوَرَدَ الْمِصْطَلَحُ ذَاتُهُ فِي جَوَابِ الْعَتَابِيِّ ^{١١١٨} (ت ٥٢٢٠هـ) عِنْدَمَا سُئِلَ عَنِ سَبَبِ بِلَاغَتِهِ، فَقَالَ: (بِحُلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ، فَالشَّعْرُ رِسَائِلُ مَعْقُودَةٌ، وَالرِّسَائِلُ شِعْرٌ مُحْلُولٌ) ^{١١١٩} وَتَطَرَّقَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ (ت ٣٩٥هـ) إِلَى (حَلِّ الْمَنْظُومِ وَنَظْمِ الْمُحْلُولِ) فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنِ السَّرَفَاتِ الْأَدَبِيَّةِ ^{١١٢٠}، كَمَا أَنْشَأَ ابْنُ الْأَثِيرِ (ت ٦٣٧هـ) الَّذِي كَانَ مُعَاصِراً لِلْمُوحِّدِينَ كِتَاباً سَمَّاهُ (الْوَشْيُ الْمَرْقُومُ فِي حَلِّ الْمَنْظُومِ).

إِنَّ حَلَّ الشَّعْرِ الْمَنْظُومِ وَإِدْخَالَهِ فِي نَسِيجِ النَّصِّ الثَّرِيِّ يُعَدُّ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَحْسَنَةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا الْكَاتِبُ الْبَارِعُ الْمُتَمَكِّنُ مِنْ فُنُونِ الْكِتَابَةِ، وَقَدْ أَشَارَ الثَّعَالِبِيُّ إِلَى ذَلِكَ عِنْدَمَا قَالَ:

أَلَا إِنَّ حَلَّ الشَّعْرِ زِينَةٌ كَاتِبٍ وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَحِلُّ فَيَعْقِدُ ^{١١٢١}

^{١١١٦} هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن يحيى العامري، نشأ في الأنبار، واتصل بخلفاء بني أمية، وإصبح من أشهر الكتاب في أواخر عصر الدولة الأموية، توفي سنة ١٣٢هـ. ينظر: الأعلام، ٣: ٢٨٩. ابن شاعر، صلاح الدين محمد بن شاعر بن أحمد بن شاعر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٣م)، ١: ٢٤٨.

^{١١١٧} ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: سعيد الريان (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ط ٢، ١٩٥٣م)، ٤: ٢١٩.

^{١١١٨} هو كلثوم بن عمر العتابي التغلبي من أحفاد عمرو بن كلثوم، شاعر وكاتب احتص بهارون الرشيد والبرامكة، توفي سنة ٢٢٠هـ. ينظر: الزركلي، الأعلام، ٥: ٢٣١.

^{١١١٩} ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٣هـ)، عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦م)، ٧٨.

^{١١٢٠} العسكري، الصناعتين، ١٩٨، ٢١٦.

^{١١٢١} الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (٣٥٠ - ٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر، تحقيق: مفيد قمحية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٣م)، ١: ١٨٥.

وقد كانَ الكُتَّابُ الأندلسيُّونَ مِمَّنْ مَلَكَوا زِمَامَ الكِتَابَةِ، وألَمُّوا بفنونها، فَكَانُوا بَارِعِينَ فِي حَلِّ الشَّعْرِ وتَضَمِينِهِ رَسَائِلَهُمْ، فَكَانَ التَّنَاصُّ غَيْرُ المَبَاشِيرِ بَيْنَ النَّصِّينَ الشَّعْرِيِّ وَالتَّثْرِيِّ مُوَفَّقًا وَمُحَقَّقًا الهَدَفَ الَّذِي ارْتَجَاهُ الكَاتِبُ مِنْهُ.

كَثُرَ وِرْوُدُ الشَّعْرِ مَحْلُولًا فِي مُتَوْنِ الرِّسَائِلِ الأندلسيَّةِ الموحَّديَّةِ، وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا صَفْوَانُ بْنُ إِدْرِيسَ عَنِ الأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ إِلَى مَلِكِ قِشْتَالَةَ وَجَاءَ فِيهَا: "فِيَا لِلنَّاسِ العَجَبُ العُجَابُ، هَذِهِ غَايَةُ التَّوَكُّلِ الَّذِي لَيْسَ بِمَنْقَشِيعٍ وَلَا مُنْجَابٍ، أَجَلَ فَإِنَّكَ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مِنَ الْإِمْتِنَانِ وَالْإِنْعَامِ كَيْلُ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا الْإِفْكُ جَاءَ بِزَوْرِهِ وَمَيْنِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَصُمَّنَا بِدَرْنِهِ وَشَيْنِهِ... فَلَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَصَلَبْنَا رَسُولَكَ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ، وَلَأَرَيْنَاكَ فِيهِ بَطْشَةَ أَبِي الْأَشْبَالِ بِالسَّخْلِ، وَلَكِنْ إِنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ عُذَّنَا لَهَا، وَنَالَهَا مِنَ التَّلْعَلِ مَا يَحِلُّ عُقْدَهَا إِذَا نَالَهَا"^{١١٢٢}.

فِي هَذَا النَّصِّ الْمُقْتَبَسِ مِنَ الرِّسَالَةِ نُلَاحِظُ الكَاتِبَ قَدْ حَلَّ بَيْتَيْنِ: الأولَ لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّاكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلُ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ^{١١٢٣}
وَالثَّانِي لِشَاعِرٍ آخَرَ:

إِنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ عُذَّنَا لَهَا وَكَأَنَّ التَّلْعَلُ لَهَا حَاضِرَةٌ^{١١٢٤}.

وَمِنْ الشَّعْرِ الْمَحْلُولِ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ لَابِنِ صَقْلَابِ، حَيْثُ قَالَ فِيهَا مَادِحًا: (مَا مِنْهُمْ إِلَّا أَخُو كَرَمٍ، وَحَامِلُ سَيْفٍ أَوْ قَلَمٍ، وَعَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارٌ"^{١١٢٥}).

وَقَدْ حَلَّ الكَاتِبُ فِي هَذَا النَّصِّ بَيْتَ الْخَنَسَاءِ:
وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِ الْمُهْدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^{١١٢٦}.

^{١١٢٢} ابن شريفة، محمد، أديب الأندلس أبو بحر التجيبي، ٢٠٣-٢٠٥.

^{١١٢٣} ابن ثابت، أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤هـ)، ديوانه، تحقيق: وليد عرفات (بيروت: دار صادر، ١٩٧٤م)، ١: ٢٠٢.

^{١١٢٤} ينسب البيت للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، ينظر اليوسي، أبو علي نور الدين الحسن بن مسعود اليوسي (١٠٤٠-١١٠٢هـ)، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: قصي الحسين (بيروت: دار الهلال، ٢٠٠٣م)، ١: ١٢٧.

^{١١٢٥} حيارى، محمود محمد، رسائل موحدية جمعا وتحقيقا ودراسة، ١١٩.

ومّا جاء من حلّ الشعر ما جاء في رسالة للفازازي كتب في ثناياها ما نصّه "غذّته
المملكة بلبانها، وأطلعت السيادة في أركانها، فكسّاه معاطف ريميّة روميّة، تستخشين الخزّ
حين تلمسه وتستهنّ الخزّ وهي تلبسه" ١١٢٧.

نظر الفازازي إلى المتنبّي الذي كان له تأثير كبير في الكتاب الأندلسيين وحلّ قوله:
يستخشين الخزّ حين يلمسه وكان يُبرى بظفره القلم ١١٢٨
ومن أمثلة حلّ الشعر المنظوم ما جاء في رسالتين خطّهما ابن عُميرة، كتب في
الأولى في سياق الإشادة والمدح ما نصّه "وكذلك الكرام يرون عليهم حقاً، ويتوقون من
لم يكن من الكبير موقى، ولعهدي به وظلّ الثروة بارد، وشيطان الشيبية مارد، وبشره في
الملّات يرفّ، وقدمه إلى الحاجات تخفّ... يُقسّم جسمه في جُسوم، ويقوم بالحقوق غير
ملول ولا ملوم، تلك المكارم لا قعبان، وما تستوي البدنة المهيضة مع غيرها في
القربان" ١١٢٩.

في هذا النصّ المقتبس من رسالة ابن عُميرة نراه قد استحضّر بيتين من الشعر
وحلّهما، وأفاد من معانيهما بشكلٍ بارع أدخل فيه الشعر المحلول في نسيج الكلام المنشور،
وكان البيت الأول لعروة بن الورد:
أقسّم جسمي في جُسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد ١١٣٠
أمّا الثاني فكان لأمية بن أبي الصلت:
تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيّبا بماء فعاداً بعد أبوالا ١١٣١

١١٢٦ الخنساء، تناصر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو الشريد (ت ٢٤هـ)، ديوانها، تحقيق: أنور أبو سويلم
(الأردن: دار عمار، ١٩٨٨م)، ٣٨٦.

١١٢٧ الهرامة، عبد الحميد، آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، ١٠٠.

١١٢٨ الواحدي، شرح ديوان المتنبّي، ٢: ٦٤.

١١٢٩ المقرئ، نفح الطيب، ١: ٣١٨.

١١٣٠ ابن الورد، عروة بن الورد بن زيد العيسى (ت نحو ٣٠ ق. هـ)، ديوانه، تحقيق: كرم بستانى (بيروت: مكتبة
صادر، ١٩٥٣م)، ٢٩.

١١٣١ ابن سلام، أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي (١٥٠ - ٢٣٢هـ)، طبقات فحول الشعراء،
شرح: محمود شاكر (القاهرة: مكتبة المدني، د.ت)، ٢٦٢. وينسب البيت أيضاً للتابعة الجعدي.

وَكَتَبَ فِي الثَّانِيَةِ مَا نَصُّهُ "...وَأَنَّ الشِّتَاءَ كَانَ فِي ابْتِدَائِهِ، وَالْعَيْمُ سَاحِبٌ لِرِدَائِهِ، سَاكِبٌ فَضْلَ أُنْدَائِهِ، وَالْمَكَارَهُ فِي طَيِّهَا النَّعْمُ الْجِسَامُ، وَالنُّفُوسُ الْكِبَارُ تَتَعَبُ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ" ١١٣٢.

وَفِي هَذَا النَّصِّ نَظَرَ الْكَاتِبُ إِلَى قَوْلِ الْمُتَنَبِّي:

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ ١١٣٣.

كَانَتْ هَذِهِ أَمْثَلَةً قَلِيلَةً مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا الشَّعْرُ مَحْلُولًا، حَيْثُ كَانَتْ ظَاهِرَةً حَلُّ الشَّعْرِ وَاسِعَةً الْإِنْتِشَارِ فِي الرِّسَالِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ١١٣٤، وَكَمَا اسْتَوْفَقْنَا أُمُورًا لَافِتَةً عِنْدَ تَتَبُّعِ الشَّعْرِ الْمَنْظُومِ فِي الرِّسَالِ، تَسْتَوْفِقُنَا أَيْضًا أُمُورٌ أُخْرَى لَفَتَتْ الْإِنْتِبَاهَ عِنْدَ تَتَبُّعِ الشَّعْرِ الْمَحْلُولِ الْوَاردِ فِي مُتُونِ الرِّسَالِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الْمُوَحَّدَةِ.

أَمَّا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ فَيَتَعَلَّقُ بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِهِ السَّابِقِ الذِّكْرُ "الوشى المرقوم فِي حَلِّ الْمَنْظُومِ" ١١٣٥، حَيْثُ جَعَلَ حَلُّ الشَّعْرِ طَرِيقًا ثَلَاثًا: حَلُّ الشَّعْرِ بِلَفْظِهِ، حَيْثُ يُنْثَرُ الشَّعْرُ بِالْفَظِ دُونَ التَّقْيِيدِ بِالْوِزْنِ الْعَرُوضِيِّ أَوْ الْقَافِيَةِ، وَبَيَّنَ ابْنُ الْأَثِيرِ أَنَّ هَذَا لَا فَضِيلَةَ فِيهِ، وَهُوَ كَمَنْ هَدَمَ بِنَاءً قَائِمًا، وَأَنْشَأَ مِنْ آلَاتِهِ بِنَاءً جَدِيدًا، فَيَجِيءُ الْبِنَاءُ الْجَدِيدُ مَخْلُوقَ الْبِنَاءِ لَا مَحَالَةَ ١١٣٦، وَحَلُّ الشَّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ، وَفِيهِ لَا يُعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَخَذَ الْكَاتِبُ، وَلَوْ عُلِمَ لَكَانَ فِي مَوْضِعِ الْإِسْتِحْسَانِ لَا فِي مَوْضِعِ الْإِسْتِهْجَانِ ١١٣٧، وَتَوَسَّطُ ذَلِكَ حَلُّ الشَّعْرِ بِبَعْضِ لَفْظِهِ، حَيْثُ يُنْثَرُ الشَّعْرُ وَيُقَادُ مِنْ مَعَانِيهِ وَيُضْمَنُ فِي سِيَاقِ النَّصِّ النَّثْرِيِّ، وَكَانَتِ الطَّرِيقَةُ الْأَخِيرَةُ هِيَ الشَّائِعَةُ، حَيْثُ حَلَّ الْكُتَّابُ الْأَنْدَلُسِيُّونَ الشَّعْرَ وَأَبَقُوا عَلَى

١١٣٢ القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٩٦.

١١٣٣ الواحدي، شرح ديوان المتنبّي، ١: ١٩٢.

١١٣٤ ينظر بعض الرسائل الأخرى التي ورد فيها الشعر محلولا في: عزاوي، أحمد، رسائل موحدية، ١٧١، ١٨١. ابن شريفة، محمد، ابن مغاور الشاطبي، ٢٢٢. ابن شريفة، محمد، أديب الأندلس أبو بحر التجيبي، ١٨٣، ٢٢٧، ٢٥٢، ٢٥٧. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٥٥، ٥٩، ١٦١، ١٧١، ٢٠١، ٢١٧. ابن شريفة، محمد، أبو المطرف أحمد بن عميرة، ٢١٥. مؤلف مجهول، لباب الألباب، ٩٣.

١١٣٥ ينظر: ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن الأثير (٥٥٨ - ٦٣٧هـ)، الوشي المرقوم فِي حَلِّ الْمَنْظُومِ، تحقيق: جميل أنيس سعيد (بغداد: مطبوعات الجمع العلمي العراقي، ١٩٨٩م).

١١٣٦ ابن الأثير، الوشي المرقوم، ١٦٧.

١١٣٧ المصدر السابق، ١٨٥.

بعض ألفاظه، بحيث لا يحتاج المتتبع لكبير عناء حتى يعرف الأصل الذي أخذ منه الكتاب، وحلّوه وضمّنوه رسائلهم.

والأمر الثاني يتعلّق بنوع الرسائل التي وردَ فيها الشعرُ المحلول، حيثُ لوحظَ أنَّ الرسائلَ بأنواعها الثلاث الإخوانيّة والوصفيّة والديوانيّة قد وردَ فيها شعراً محلولاً، وهذا مُعَايَرٌ لما تَمَّت الإشارةُ إليه في إيراد الشعر المنظوم في سياقِ الرسائلِ الديوانيّة، حيثُ كان الشعرُ المنظوم قليلَ الوجود في تلكَ الرسائل^{١١٣٨}، أمّا الشعرُ المحلول فقد كَثُرَ ورودُه فيها كما كَثُرَ في غيرها.

أمّا الأمرُ الثالثُ فهو أنَّ الشعرَ الذي حلّه الكتابُ كان جميعه لشعراءَ مشاركةٍ جاهليين^{١١٣٩} وإسلاميين^{١١٤٠}، ولم نجدْ شعراً محلولاً لشعراءَ أندلسيين أو مغاربة، ولعلَّ السببَ في ذلك يعودُ إلى أنَّ "ذكرَ الشعرِ ضمنَ النثر لشعراءَ مشاركةٍ يجعلُ للنصِّ الثريِّ قيمةً في نظرِ الأندلسيين"^{١١٤١}.

نتائج البحث

بعد هذا المشوار من الدراسة يجدرُ بالباحث أن يقفَ وينظرَ في أهمِّ النتائج التي توصّل إليها في هذا البحث، ويُقدّمها مُجمَلةً على النحو التالي:

أولاً: اعتماداً على الموروث الأدبيّ الأندلسيّ الذي وصلنا من العصر الموحّديّ نلحظُ أنَّ النتاجَ الثريّ قد فاق النتاجَ الشعريّ، وكانت الرسائلُ أكثرَ الفنونِ الثريّة

^{١١٣٨} كانت الرسائل الديوانية التي ورد فيها شعرا منظوما قليلة، ولم تتعدّ بضع رسائل، ينظر إليها في: عزاي، أحمد، رسائل موحدية، ٩٠، ٣٦٧. ابن المرباط، زواهر الفكر، ١٦٢، ١٦٧.

^{١١٣٩} ينظر: المقرئ، نفح الطيب، ٢: ٣٦٣ وفيها حلُّ شعرا لإمرئ القيس. عزاي، أحمد، ١٨١ وهي رسالة ديوانية وفيها حلُّ شعرا للناطقة الديباني. ابن المرباط، زواهر الفكر، ٢١٧ وفيها حلُّ شعرا لزهير بن أبي سلمى.

^{١١٤٠} ينظر: ابن المرباط، زواهر الفكر، ٥٥، وفيها حلُّ لشعر نصيب، ٢١٤ وفيها حلُّ لشعر أبي العلاء المعري. وغير ذلك كثير.

^{١١٤١} حضر، حازم، النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرباطين، ٣٧٥.

انتشاراً، حيث كتبها كُتَّابٌ تَفُوقَ جُلُهم في فَنِّي الكتابة والشعر، وهذا ما لم يكن مألوفاً في المشرق، كما أنَّ الرِّسائل الأندلسيَّة وَاكبت العصر الموحديّ منذ بداياته وحتى نهاياته، وتضمَّنت موضوعاتٍ مختلفةً ومضامينَ شتى، وبناءً على ذلك فإنَّ الرِّسائل الأندلسيَّة التي خُطَّت في العصر الموحديّ تُعْتَبَرُ شاهِدَ صِدْقٍ على ذلك العصر، ومَصَدراً موثوقاً من مَصَادِرِ دراسة الأدب والتَّاريخ.

ثانياً: مفهومُ الصُّورة الفنِّية من أكثر المفاهيم الأدبيَّة انتشاراً وأكثرها غُمُوضاً في آنٍ واحدٍ، وقد اقتَحَمَ البحثُ هذا المفهوم، وبيَّن أسبابَ غُمُوضه، واستعرض الآراء المختلفة فيه، ثمَّ خَلَصَ إلى تَبْنِي رأيٍ واضحٍ من تلك الآراء ليكونَ مَدخَلاً للدراسة، وبحسب ذلك المفهوم المتبنَّى تمَّ تَتَبُّعُ مراحل تكوين الصُّورة الفنِّية من بداياتها حتى خروجها مكتملةً مستويَّة.

ثالثاً: بيَّنَ البحثُ أهمَّ الموارد التي استقى منها الكُتَّاب مادَّة الصُّورة الفنِّية في رسائلهم، وتنوَّعت تلك المواردُ بينَ مَصَادِرَ ثقافيَّة ومادِّيَّة وبين أنماطٍ حِسِّيَّة، وكان الكاتبُ الأندلسيُّ ذا ثقافةٍ عريضة، مُلمّاً بالمصادر، حيث استطاعَ توظيفها وتسخيرها مُعَمِّداً في ذلك على التَّنَاصُّ المباشِر حيناً وعلى التَّنَاصُّ غير المباشِر حيناً آخر، أمَّا الأنماطُ الحِسِّيَّة فقد لجأ إليها الكاتبُ لِيُعَبِّرَ عن دلالاتها، واستطاعَ الكاتبُ من خلال توظيف المَصَادِر والأنماط أن يحشد المعاني ويكثفها ويكسبها جمالاً وتأثيراً.

رابعاً: دَرَسَ البحثُ الفنون البيانيَّة والبديعيَّة البارزة التي حوتها الصُّورة الفنِّية في الرِّسائل حيثُ لم تَخُلْ رسالةٌ واحدةٌ من تلك الفنون، وبيَّن أثر استخدام تلك الفنون على المعاني والتَّأثير في المتلقي.

خامساً: اعتنى الكاتبُ الأندلسيُّ عنايةً كبيرةً في إنشاء الصُّورة الفنِّية في رسائله، وكان بناءُ الصُّورة الفنِّية يختلفُ باختلافِ نوع الرسالة ومضمونها، ففي الرِّسائل الديوانية التزم الكُتَّابُ بأساليبَ محدَّدة في البناء، وقد تَتَبَّعَ البحثُ تلك الأساليب في عناصر الرسالة الثلاثة: المقدِّمة والعَرَضُ والخاتمة، وبيَّن أنماطها.

أمَّا في الرِّسائل الإخوانيَّة والوصفيَّة فلم يُقَيَّدَ الكُتَّابُ بأنفسهم بأساليبَ معيَّنة في البناء، فجاء بناءُ تلك الرِّسائل مختلفاً من رسالةٍ لأخرى.

سادساً: امتازت الصُّورة الفنّية في الرِّسائل بالجمع بين الشَّعر والنَّثر، وكان اللجوءُ للشَّعر يتفاوتُ بحسب نوع الرِّسالة، حيثُ كَثُرَ في الرِّسائل الإخوانية والوصفية وقلَّ في الرِّسائل الديوانية، وقد وَرَدَ الشَّعر مَعْقُوداً أو محلولاً.

أمّا الشَّعر المعقود فكان أحياناً من نَظْمِ الكاتب نفسه، وفي هذه الحالة يطولُ ليلغَ قصيدةً كاملةً أو أكثر في الرِّسالة الواحدة، وكان في أحيانٍ أخرى منقولاً عن شاعرٍ آخر، وفي هذه الحالة كان الكاتب يُورِدُ بيتاً واحداً أو بيتين.

وأمّا الشَّعر المحلول فقد وَرَدَ بكثرة، وكان الكاتب يَعْمَدُ إلى حَلِّ أبياتٍ مشهورة في ثنايا رسالته، وكان الشَّعرُ المحلول لشعراء مشاركة كان لهم تأثيرٌ كبيرٌ في الأندلسيين وخاصة المتنبّي، ولم يُلحَظْ وجودُ شعرٍ محلولٍ في الرِّسائل الأندلسية لشاعرٍ أندلسي.

سابعاً: اتَّسمت الصُّورة الفنّية في الرِّسائل الأندلسية بشكلٍ عامٍّ بالبساطة والوضوح، ولكنَّ تلك السِّمة لم تكن مُطلَقة، حيثُ نجدُ بعضَ الرِّسائل التي حَوَتْ تكلفاً وغموضاً، ومنها تلك الرِّسائل التي أرسلت من كاتبٍ إلى كاتبٍ آخر حيثُ كان كاتبُ الرِّسالة يتعمَّدُ إظهارَ مقدّراته وبراعته في الكتابة وذلك باستخدام ألفاظٍ معجميةٍ أو بتقيد نفسه بما لا يلزمُ كالترام حرفٍ في كلِّ كلمة من كلمات الرِّسالة أو اسقاط حرفٍ منها. ثامناً: كان النَّثر المغربيّ امتداداً للنَّثر المشرقيّ، فكلاهما أدبٌ لأمةٍ واحدة وإن اختلفت بيئاتها، وكان من الطَّبيعيّ وجودُ اختلافاتٍ طفيفةٍ بينها البحث بين النَّثرين في هاتين البيئتين.

تاسعاً: تقدِّمُ توصيات ومقترحات قد يفيدُ منها الباحثون في الدِّراسات الأدبية والتَّاريخية في المستقبل، وخاصة فيما يتعلَّقُ بأدب الشَّطر المغربيّ وتاريخه.

التوصيات

لا يَسَعُ الباحث قبلَ أن يَحْتَم هذا البحث إلّا أن يُقدِّم توصياتٍ ومقترحاتٍ يرى أنّها قد تفيّد الباحثين في الدّراسات الأدبيّة والتّاريخيّة، ومن تلك التوصيات:

أولاً: إنّ الأدب المغربيّ يُشكّل جزءاً مهمّاً وأصيلاً من التّراث العربيّ الإسلاميّ، ولكنّ ذلك الأدب لم يَحْظَ بالاهتمام الذي يَسْتَحِق، ولم يُقْبَل الباحثون على دراسته إقبالهم على دراسة الأدب المشرقيّ، وذلك على الرّغم من وجود نَفائسٍ مغربيّةٍ كثيرةٍ حَوّت قضايا كثيرةً بحاجةٍ إلى البحث من أجل الكشف عنها، وتجليّةٍ ما غاب فيها، ومن هذا المنطلق يُوصي الباحث بتوجيه الأنظار نحو دراسة الأدب المغربيّ بعامّة ونحو دراسة الثّر بشكل خاصّ.

ثانياً: ما يزال الكثير من النّصوص الشّعريّة والثّريّة المغربيّة مخطوطاً وغير مطبوع، وهذا الأمرُ يشكّل عائقاً أمام الاطلاع على فحوى تلك النّصوص، لذا يُوصي الباحث بالتّوجه نحو الكنوز المخطوطة المدفونة في خزائن المخطوطات في بلاد المغرب وفي مصر وفي أوروبا وذلك من أجل دراستها وتحقيقها وطباعتها وتمكين الباحثين من الاطلاع عليها، وسوف تَكشِفُ تلك المخطوطات كثيراً من الحقائق المتعلّقة في المجالين الأدبيّ والتّاريخيّ.

ثالثاً: إذا كانت حقائقُ كثيرةٌ غائبةٌ في بطون المخطوطات، فإنّ حقائقَ أخرى في المصادر الأوروبيّة ما تزال غائبةً عن الباحث العربيّ، ولأهميّة تلك المصادر فإنّ الباحث يُوصي بالإطلاع على تلك المصادر التي تعرّضت للوجود الإسلاميّ في شبه الجزيرة الأندلسيّة، أو تعرّضت للعلاقة بين الأوروبيين والمغاربة، والاستمرار في التّهج الذي بدّاه محمّد عبد الله عنان حيث كان يروي الوقائع من منظور المصادِر العربيّة، ثمّ من منظور المصادر الأوروبيّة، ويوازن — بنظر المؤرّخ النّاقِد — بين الرّوايتين، ويوافق بينهما، أو يُرَجِّح إحداها على الأخرى، ومّا لا شكّ فيه أنّ هذا التّهج يُضفي على الدّراسة التّاريخيّة مصداقيّة وثقّة.

رابعاً: كُثِرَت الرِّسَالُ فِي الْأَدَبِ الْمَغْرِبِيِّ وَخَاصَّةً فِي عَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ، وَتَطَرَّقَتْ إِلَى مَوْضُوعَاتٍ وَمُضَامِينَ فِي مَخْتَلَفِ الْمَجَالَاتِ، وَمِنْ هُنَا يُوصِي الْبَاحِثُ بِالاهْتِمَامِ بِالرِّسَالِ وَعِظَمِهَا مَصْدَرًا مَهْمًا وَمَوْثِقًا مِنْ مَصَادِرِ دِرَاسَةِ التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ.

خامساً: إِنَّ ضَبَائِيَّةَ مِصْطَلَحِ (الصُّورَةُ الْفَنِّيَّةِ) قَدْ أَوْقَعَ الْبَاحِثِينَ فِي دَائِرَةِ الْاضْطِرَابِ وَالْحَيْرَةِ، بِحَيْثُ لَا نَجِدُ مَفْهُومًا مُحَدَّدًا مُتَّفَقًا عَلَيْهِ لِدَلَالَةِ الْمِصْطَلَحِ، وَتَلَافِيًا مِنْ الْوُقُوعِ فِي تِلْكَ الدَّائِرَةِ يُوصِي الْبَاحِثُ بِتَحْدِيدِ مَفْهُومٍ وَاضِحٍ لِدَلَالَةِ الْمِصْطَلَحِ لِيَتَّفِقَ الْبَاحِثُونَ فِي الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ عَلَى الْجَوَانِبِ الَّتِي يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَبْحَثُوا فِيهَا وَيُرَكِّزُوا عَلَيْهَا، وَلَا يَتَأَتَّى الْإِتِّفَاقُ عَلَى مَفْهُومٍ وَاحِدٍ نَابِعٍ مِنَ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ إِلَّا إِذَا قَامَتِ هَيْئَةُ اعْتِبَارِيَّةٌ كَمَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - بِتَحْدِيدِ ذَلِكَ الْمَفْهُومِ وَكَشْرِهِ.

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

إبراهيم، زكريا. (١٩٧٧م). مشكلة الفن، القاهرة: دار مصر للطباعة.

ابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصري. (١٣٨٣هـ). تحرير التحرير، تحقيق حنفي محمدشرف، القاهرة: المطبعة الأميرية.

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي. (١٩٧٢م). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

ابن إدريس، أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي. (١٩٧٠م). زاد المسافر وغرة مُحيا الأدب السافر، بيروت: دار الرائد العربي.

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار القضاعي البلسني. (١٩٦١م). إعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشر، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية.

ابن الأبار. (د.ت). التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عزت الحسيني، مصر: مطبعة السعادة.

ابن الأبار. (١٩٦٣م). الحلة السيرة، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة: الشركة العربية.

ابن الأبار. (د.ت). المقتضب من تحفة القادِم، اختيار وتقييد: إبراهيم بن محمد البلفيقي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري.

ابن الأثير الجزري. أبو الفتح ضياء الدين نصر بن محمد بن محمد بن الأثير الجزري. (١٩٥٩م). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدرى طبانة، القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

ابن الأثير الجزري.(١٩٨٩م). الوشي المرقوم في حل المنظوم، تحقيق: جميل أنيس سعيد، بغداد: مطبوعات الجمع العلمي العراقي.

ابن الأثير الحلبي، نجم الدين إسماعيل بن أحمد بن سعيد الشافعي المعروف بابن الأثير.(د.ت). جواهرالكتر، تحقيق: محمد زغلول سلام، القاهرة، منشأة المعارف.

ابن الجنان، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الجنان الأنصاري الأندلسي.(١٤١٠هـ—١٩٩١م). ديوانه، جمع وتحقيق وتقديم: منجد مصطفى بهجت، العراق: جامعة الموصل.

ابن الجهم، أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر.(١٩٩٦م). ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، بيروت: دار صادر، ط٣.

ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب.(١٣٩٣هـ—١٩٧٤م). الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي.

ابن الخطيب.(١٩٥٧م). أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، لبنان: دار المكشوف، ط٢.

ابن الخطيب.(١٣٩٣هـ—١٩٧٤م). الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي.

ابن السيد البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي.(١٩٨١م). الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك بن القطان الكتامي.(١٩٩٠م). نظم الجمان، تحقيق: محمود علي مكي، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

ابن المرباط، أبو العلاء محمد بن علي بن المرباط المرادي. (١٩٩٣م). **زواهر الفكر وجواهر الفقر**، تحقيق: حسن فليفل، أطروحة دكتوراه، إسبانيا: جامعة غرناطة، كلية الفلسفة والآداب.

ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بن المتوكل العباسي. (١٩٨٢م). **البدیع**، تحقيق: أغناطيوس كراتشقوفسكي، بيروت: دار المسيرة.

ابن الورد، عروة بن الورد بن زيد العبسي. (١٩٥٣م). **ديوانه**، تحقيق: كرم بستاني، بيروت: مكتبة صادر.

ابن ثابت، أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري. (١٩٧٤م). **ديوانه**، تحقيق: وليد عرفات، بيروت: دار صادر.

ابن ثابت، حسان. (٢٠٠٣م). **ديوانه**، بيروت: دار الفكر اللبناني.

ابن جبیر، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبیر الكناني الأندلسي. (١٩٥٩م). **رحلة ابن جبیر**، بيروت: دار صادر.

ابن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي. (١٩٦٣م). **نقد الشعر**، تحقيق: كمال مصطفى، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٢.

ابن حجة الحموي، أبو بكر تقي الدين علي بن عبد الله الحموي. (١٩٨٧م). **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تحقيق: عصام شعيثو، بيروت: مكتبة الهلال، ط ١.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الكناني الشافعي. (١٩٩٥م). **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حجر العسقلاني. (د.ت). **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن باز، بيروت: دار المعرفة.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. (٢٠٠٣م). التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حمديس، أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الصقلي. (١٩٦٠م). ديوانه، تحقيق، إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي. (١٩٩٠م). ديوانه، شرح: يوسف فرحات، بيروت: دار الجليل.

ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي. (١٩٦١م). تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ابن خلّكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلّكان الأربلي. (١٩٧١م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار الثقافة.

ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي بن محمد بن دحية الكلبي الأندلسي. (د.ت). المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرون، بيروت: دار العلم للجميع.

ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمّد بن رشد. (١٩٧٣م). تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار الثقافة.

ابن رشد. (١٩٩٤م). رسائل ابن رشد الفلسفية، رسالة النفس، بيروت: دار الفكر اللبناني.

ابن رشيق القيرواني. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. (١٩٦٤م). **العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط ٣.

ابن رشيق القيرواني. (١٩٩٥م). **العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده**، بيروت: دار الجليل.

ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي. (١٩٧٥م). **ديوانه**، تحقيق، كرم البستاني، بيروت: دار صادر.

ابن زيدون. (١٩٥٧م). **ديوانه ورسائله**، تحقيق: علي عبد العظيم، القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

ابن سعيد المغربي. (١٩٥٩م). **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: المطابع الأميرية.

ابن سعيد، أبو الحسن نور الدين علي بن موسى بن سعيد المغربي. (١٩٨٧م). **المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب**، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف.

ابن سلام، أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي. (د.ت). **طبقات فحول الشعراء**، شرح: محمود شاكر، القاهرة: مكتبة المدني.

ابن شاكر، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد بن شاكر. (١٩٧٣م). **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

ابن شريفة، محمد. (١٩٨٠م). **ابن مغاور الشاطبي، حياته وآثاره**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الحديثة، ط ١.

ابن شريفة، محمد. (١٩٦٦م). **أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره**، الرباط، المركز الجامعي للبحث العلمي.

ابن شريفة، محمد. (١٩٩٩م). أبو بحر التجيبي، عمر قصير وعطاء جزيل، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الحديثة، ط ١.

ابن شريفة، محمد. (٢٠٠٦م). تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب، المغرب: وزارة الثقافة.

ابن صاحب الصلّة، أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلّة. (١٩٨٧م). تاريخ المنّ بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا الحسيني العلوي. (٢٠٠٥م). عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الساتر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢.

ابن طباطبا. (١٩٥٦م). عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.

ابن طفيل، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل. (١٩٩٣م). رسالة حي بن يقظان، تقديم: علي بوملحم، بيروت: دار الهلال.

ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي. (١٩٧٣م). الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلّة، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ط ١.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه. (١٩٥٣م). العقد الفريد، تحقيق: سعيد العريان، القاهرة: مطبعة الاستقامة، ط ٢.

ابن عثمان المقدسي، أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسيّ الدمشقيّ. (٢٠٠٢م). الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلّاحية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن عذارى، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عذارى المراكشي. (١٩٨٣م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة.

ابن عربي، أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن عربي. (٢٠٠١م). رسائل ابن عربي، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عسكر، أبو عبد الله محمد بن علي بن الخضر بن عسكر الغساني. (١٩٩٩م). أعلام مالقة، بمشاركة أبي بكر بن خميس، تحقيق: عبد الله المرباط، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

ابن فارس القزويني. (١٩٩٧م). الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني. (١٩٩٩م). مقاييس اللغة، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. (١٩٨١م). تأويل مشكل القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٣.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي. (١٣٢٧هـ). كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مصر: مطبعة محمد أمين الخانجي وشركاه، ط ١.

ابن قيم الجوزية. (٢٠٠٢م). زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق: حمدي آل نوفل، القاهرة: مكتبة المورد.

ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل عمر بن كثير القرشي الدمشقي. (١٩٦٩م). تفسير القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، ط ٣.

ابن كثير.(١٩٨٣م). البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف.

ابن كيسان، أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان.(١٩٩٩م). شرح معلقة امرئ القيس، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، عمان: دار البشير.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور.(١٩٩٠م). لسان العرب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣.

ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن هشام بن أيوب الحميري.(١٩٨٤م). تهذيب سيرة ابن هشام، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١٠.

ابن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب.(١٩٦٩م). البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حنفي محمد شرف، القاهرة: مكتبة الشباب.

أبو إصبع، صالح.(١٩٧٩م). الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١.

أبو الرضا، سعد.(١٤٢١هـ). الأدب الإسلامي بين الشك والمضمون، السعودية: المجموعة المتحدة، ط ١.

أبو الرضا، سعد.(١٩٨٧م). في البنية والدلالة - رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، الإسكندرية: منشأة دار المعارف.

أبو العدوس، يوسف.(٢٠١٠م). الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، عمان: دار المسيرة.

أبو علي، نبيل.(١٩٩٣م). نقد النشر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أبو موسى، أحمد.(١٩٩٠م). النشر الفني في عصر الموحدين في الأندلس، أطروحة دكتوراه، سوريا: جامعة تشرين.

أحمد زكي، صفوت.(١٩٦٢م). **جمهرة خطب العرب**، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢.

أحمد زكي، صفوت.(١٩٣٧م). **جمهرة رسائل العرب**، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

أرسطو طاليس.(١٩٤٩م). **كتاب النفس**، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

أرسطو طاليس.(١٩٦٧م). **فن الشعر**، ترجمة محمد شكري عياد، القاهرة: دار الكتاب العربي.

إسماعيل، عزّ الدين.(١٩٧٤م). **الأسس الجمالية في النقد العربي**، القاهرة: دار الفكر العربي.

إسماعيل، عزّ الدين.(١٩٦٣م). **التفسير النفسي للأدب**، القاهرة: دار المعارف.

إسماعيل، عزت سيد.(١٩٨٢م). **علم النفس الفيزيولوجي**، الكويت: وكالة المطبوعات، ط١.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي الأصفهاني.(د.ت). **الأغاني**، بيروت، دار الكتب، مؤسسة جمال للطباعة.

آل ياسين، جعفر.(١٩٨٣م). **فيلسوفان رائدان - الكندي والفارابي**، بيروت: الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢.

الألوسي، حكمت علي.(١٩٦٧م). **الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين**، القاهرة: مكتبة الخانجي.

أنيس، إبراهيم وآخرون.(١٩٨٧م). **المعجم الوسيط**، بيروت: دار الأمواج، ط٢.

- بحيري، سعد، (١٩٩٥م). علم لغة النص، القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر، ط ١
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري. (٥١٣١٣). صحيح البخاري، بيروت: دار الجليل، الطبعة السلطانية.
- البرقوقي، عبد الرحمن. (١٩٣٢م). شرح التلخيص، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٢.
- بركات، وائل. (١٩٩٦م). مفهومات في بنية النص، دمشق: دار نصر.
- بروفنصال، لافي. (١٩٤١م). مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، الرباط: المطبعة الاقتصادية.
- البطل، علي. (١٩٨٢م). الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري: دراسة في أصولها وتطورها، بيروت: دار الأندلس.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري. (١٩٥٨م). فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، السودان: الخرطوم.
- بكري، عطا. (١٩٦٧م). دراسات في الشعر العربي، بغداد: مطبعة الإرشاد.
- بلية، بغداد أحمد. (٢٠٠٥م). النظم الصوتي في القرآن الكريم وترجمته، الجزائر: دار الغرب للنشر.
- بهجت، منجد مصطفى، السليقي، علاء الدين. (٢٠١٣م). معجم مصطلحات نظرية الأدب، كوالالمبور: دار التجديد للطباعة والنشر، ط ٣.
- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيذق. (١٩٧١م). أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

التباب، ناجي.(٢٠٠٤م). وظيفة الأمثال والحكم في النثر الفني القديم، القيروان: دار سمر.

تطاوي، عبد الله، (١٩٩٧م). الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، القاهرة: دار الثقافة.

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني.(د.ت). مختصر المعاني، القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح.

التّهانوي، محمد بن علي بن محمد التّهانوي. (١٩٩٤م). كشف اصطلاحات الفنون، طهران: مطبعة تهران.

توات، الطاهر.(٢٠١٠م). أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط ٢.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري.(١٩٨٣م). يتيمة الدهر، تحقيق: مفيد قمحية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١.

الجابري، محمد عابد.(١٩٩٧م). بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، بيروت: مركز الوحدة العربية، ط ٥.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني الملقّب بالجاحظ.(١٩٣٢م). البيان والتبيين، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط ٢.

الجاحظ.(د.ت). الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي.

الجارم، علي، وأمين، مصطفى.(د.ت). البلاغة الواضحة، مصر: دار المعارف.

جبور، عبد النور.(١٩٨٤م). المعجم الأدبي، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٢.

الجبوري، جمعة حسين.(٢٠١٢م). المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، بغداد: دار الصادق الثقافية.

الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني.(د.ت). الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد إبراهيم وعلي البجاوي، بيروت: دار القلم.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني.(١٩٩١م). أسرار البلاغة، شرح: محمد عبد العزيز خفاجي، بيروت: دار الجيل.

الجرجاني، أبو بكر.(١٩٩٢م). دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ط٣.

جرير، أبو حرزة جرير بن عطية بن حذيفة الكلبي التميمي.(د.ت). ديوانه، بيروت، دار صادر.

الجعافرة، محمد.(٢٠٠٣م). التناص والتلقي، عمان: دار الكندي، ط١.

الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ.(١٩٩٠م). الصحاح في اللغة، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤.

الحجي، عبد الرحمن علي.(١٩٨٧م). التاريخ الإسلامي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دمشق: دار القلم.

حسن، محمود السيّد.(٢٠٠١م). التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

حسين، طه.(د.ت). حديث الأربعاء، مصر: دار المعارف.

حسين، عبد القادر.(١٩٨٤م). فنّ البلاغة، بيروت: دار الكتب، ط٢.

حسين، محمد الخضر.(١٩٢٢م). الخيال في الشعر العربي، دمشق: المكتبة العربية، ط١.

حسين، نصر الدين إبراهيم.(٢٠٠٥م). نظرية الأسلوب عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ماليزيا: منشورات الجامعة الإسلامية العالمية.

الخطيئة، أبو بكر جرول بن أوس بن مالك العبسي.(١٩٨٧م). ديوانه، تحقيق: نعمان طه، القاهرة: مكتبة الخانجي.

الحلي، أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم الحلي.(١٩٣٥م).إنسان العيون في سيرة النبي المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، القاهرة: المطبعة الأزهرية.

الحلي، شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلي.(د.ت). حسن التوسّل في صناعة التوسّل، تحقيق: أكرم يوسف، بغداد: دار الرشيد للنشر،

حليفي، شعيب.(٢٠٠٣م). الرحلة في الأدب العربي، الدار البيضاء: دار القرويين، ط ٢.

الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي.(١٩٨٦م). معجم البلدان، بيروت: دار صادر.

حياري، محمود.(١٩٩٦م). رسائل موحدية جمعاً وتحقيقاً ودراسة، أطروحة دكتوراه، الأردن: الجامعة الأردنية.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح.(١٩٨٣م).نظرية التصوير الفني عند سيّد قطب، عمان: مطبعة حطين، ط ١.

الخالدي، عبد الرحيم.(٢٠١٠م). توظيف المثل في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه، السودان: جامعة الخرطوم.

خريوش، حسين يوسف.(١٩٨٢م). أدب الفكاهة الأندلسي، الأردن: مطبوعات جامعة اليرموك.

حضر، حازم.(١٩٨١م). النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.

خفاجي، محمد عبد المنعم.(١٩٨٦م). الشعر الجاهلي، بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

خليل، إبراهيم.(٢٠٠٧م). النقد الأدبي من المحاكاة إلى التفكيك، بيروت: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو الشريد.(١٩٨٨م). ديوانها، تحقيق: أنور أبو سويلم، الأردن: دار عمار.

خياري، محمود محمد.(١٩٩٦م). رسائل موحدية جمعاً وتحقيقاً ودراسة، أطروحة دكتوراه، الأردن: الجامعة الأردنية.

الدروي، محمد.(١٩٩٦م). الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، أطروحة دكتوراه، الأردن: الجامعة الأردنية.

دعدور، أشرف.(١٩٩٤م). الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلبي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.

دهمان، أحمد علي.(١٩٨٦م). الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجاً وتطبيقاً، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط ١.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي.(١٩٩٣م). سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الإرنأؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٩.

الرازي، محمد بن عمر بن الحسن البكري المعروف بفخر الدين الرازي.(١٩٨٥م). نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق، بكرى شيخ أمين، بيروت: دار العلم للملايين.

الرباعي، عبد القادر.(١٩٩٥م). الصورة الفنية في النقد الشعري: دراسة في النظرية والتطبيق، إربد: مكتبة الكتاني،

الرباعي، عبد القادر. (١٩٩٩م). الصورة الفنية في شعر أبي تمام، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ربابعة، موسى. (٢٠٠٣م). الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها، الكويت: دار الكندي، ط ١.

رضا، جهاد. (١٩٩٢م). التصوير الفني في شعر العميان حتى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه، سوريا: جامعة حلب.

رقب، شفيق محمد. (١٩٨٤م). شعر الجهاد في عصر الموحدين، عمّان: مكتبة الأقصى.

الرمّانيّ، أبو الحسن علي بن عيسى الرمّانيّ. (١٩٦٨م). ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، القاهرة: دار المعارف، ط ٢.

ريتشاردز. (١٩٦٣م). مبادئ النقد الأدبي، ترجمة: مصطفى بدوي، القاهرة: مطبعة مصر.

الزبيديّ، مرتضى بن محمد بن محمد الحسينيّ الزبيديّ. (١٩٨٩م). إتحاف السادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدين، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط ١.

الزركلي، خير الدين. (٢٠٠٢م). الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٥.

الرّعبي، أحمد. (٢٠٠٠م). التّناس نظريّاً وتطبيقاتاً، عمّان: مؤسسة عمّون للنشر، ط ٢.

الزّمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزّمخشري. (د.ت). الكشف عن حقائق التّزويل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحقيق: محمد العدوي، بيروت: دار المعرفة.

الزّوزني، أبو عبد الله حسين بن أحمد الزّوزني. (١٩٨٠م). شرح معلقة زهير بن أبي سلمى، القاهرة: مكتبة الآداب.

السَّكَّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السَّكَّاكي. (٢٠٠٠م). مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١.

سلامة، إبراهيم. (١٩٥٢م). تيارات أدبية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

السَّلمى، رشود بن محمّد. (١٤١٦هـ — ١٩٩٦م). أدب الرسائل في الأندلس من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراه، السَّعودية: الجامعة الإسلامية.

السوقي، صباح. (٢٠٠٣م). فنّ الرسائل في الأندلس في عهد الخلافة الأموية، رسالة ماجستير، الأردن: جامعة اليرموك.

سيوييه، أبو بشر عمرو بن عثمان. (د.ت). الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار القلم.

سيسالم، عصام سالم. (١٩٨٤م). جزر الأندلس المنسية، التاريخ الإسلامي لجزر البليار ٨٩ - ٦٨٥هـ، بيروت: دار العلم للملايين.

السَّيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيرى السَّيوطي. (١٩٨٥م). المزهري في علوم اللغة، تحقيق: محمد جاد المولى وعلي الجاوي، بيروت: دار الجيل.

السَّيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيرى السَّيوطي. (د.ت). شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، تعليق: أحمد الدمنهوري، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

السَّيوطي. (١٩٢٥م). الإتقان في علوم القرآن، القاهرة: المطبعة الأزهرية، ط ٢.

السَّيوفي، مصطفى. (١٩٨٥م). ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس عشر، بيروت: عالم الكتب.

الشايب، أحمد. (١٩٦٠م). في أصول النقد الأدبي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الشكعة، مصطفى. (١٩٧٩م). الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت: دار العلم للملايين.

الشّلي، محمود محمد. (١٩٨١م). الصورة الفنية في شعر المتنبي، أطروحة دكتوراه، مصر: جامعة الأزهر.

الشّناوي، محمّد الغريب. (٢٠٠٠م). النشر الأندلسي في عصر الموحدين، القاهرة، مكتبة الآداب.

الشّنتريني، أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني. (١٩٧٨م). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار الثقافة.

الشّنقيطي، أحمد الأمين. (د.ت). شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، بيروت: دار الأندلس.

الصّاغاني، رضي الدين الحسن بن محمد العدوي الصاغاني. (١٩٨٧م). العُباب الزاخر واللباب الفَاخر، تحقيق: خير محمد حسن، بغداد: المجمع العلمي العراقي.

الصّبّان، أبو العرفان محمد بن علي الصّبّان المصري. (٢٠٠٥م). الرّسالة البيانية، بيروت: دار الكتب العلمية.

الصّحناوي، هدى. (١٩٩٧م). الإبداع الاستعاري في الشعر، الشعر السوري نموذجاً، دمشق: دار بترا.

ضيف، أحمد. (١٩٤٢م). بلاغة العرب في الأندلس، القاهرة: مطبعة مصر.

ضيف، شوقي. (١٩٩٧م). تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، القاهرة: دار المعارف، ط ٢٤.

ضيف، شوقي. (١٩٦٢م). في النقد الأدبي، مصر: دار المعارف.

طبانة، بدوي.(١٤٠٥هـ-١٩٨٤م). التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، بيروت: دار الثقافة.

طبانة، بدوي.(١٤١٨هـ-١٩٩٧م). معجم البلاغة العربية، بيروت: دار ابن حزم، ط ٤.

الطّبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير الطّبريّ.(١٩٨٧م). تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار الكتب العلمية.

طرفه، أبو عمرو طرفه بن العبد بن سفيان بن سعد.(١٩٨٠م). ديوانه، بيروت: دار صادر.

عابدين، عبد المجيد.(١٩٨٩م). الأمثال في النثر العربي القديم، الاسكندرية: دار المعارف.

العالم، محمود أمين.(١٩٥٥م). في الثقافة المصرية، بيروت: دار الفكر الجديد، ط ١.

عبّاس، إحسان.(١٩٨٧م). فن الشعر، عمّان: دار الشروق.

عبد البديع، لطفي.(١٩٧٠م). التركيب اللغوي للأدب، القاهرة: النهضة المصرية.

عبد الرحمن، نصرت.(١٩٧٦م). الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، عمان: مكتبة الأقصى.

عبد الرحمن، نصرت.(٢٠١١م). في النقد الأدبي الحديث، عمّان: جهينة للنشر والتوزيع.

عبد العزيز عتيق.(١٩٧٢م). في النقد الأدبي، بيروت: دار النهضة.

عبد المجيد، عبد العزيز.(١٩٥٤م). ابن الأَبّار، حياته وكتبه، المغرب: المطبعة الحسنية، ط ١.

عبد الوهاب، شكري.(١٩٨٥م). الإضاءة المسرحية، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

عبيد، رجاء.(١٩٧٩م). دراسة في لغة الشعر: رؤية نقدية، الاسكندرية: منشأة المعارف.

عبيد، كلود.(٢٠١٢م). جمالية الصورة في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط ١.

عتيق، عبد العزيز.(١٩٧٦م). الأدب العربي في الأندلس، بيروت: دار النهضة، ط ٢.

عزام، محمد.(١٤٢٢هـ — ٢٠٠١م). التناص في الشعر، مجلة الموقف الأدبي، دمشق: عدد ٣٦٨.

عزاوي، أحمد.(د.ت). رسائل موحدية، المغرب: جامعة ابن طفيل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص ووثائق ٢.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري.(١٩٨٣م). الفروق في اللغة، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط ٥.

العسكري، أبو هلال.(١٩٧٤م). كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قمحية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢.

العسكري، أبو هلال.(١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م). جمهرة الأمثال، تحقيق: أحمد عبد السلام، بيروت: دار الكتب العلمية.

العشماوي، محمد زكي.(١٩٨٠م). فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، بيروت: دار النهضة العربية.

عصفور، جابر.(١٩٩٢م). الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، بيروت: المركز الثقافي العربي.

العقباني، منال سالم.(٢٠٠٨م). النثر الفني الأندلسي في عصر الخلافة الأموية، أطروحة دكتوراه، الأردن: الجامعة الأردنية.

العقيل، سعاد.(٢٠٠٠م). المعارضات الشعرية في الأندلس في عصر الموحدين، رسالة ماجستير، الأردن: الجامعة الأردنية.

العلوي، يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني.(٢٠٠٢م). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت: المكتبة العصرية.

عمر، أحمد مختار.(١٩٨٢م). اللغة واللون، الكويت: دار البحوث العلمية.

العمرى، زينب.(١٩٨٩م). اللون في الشعر العربي القديم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١.

عنان، محمد عبد الله.(٢٠٠٢م). دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، مطبعة الخانجي، ط ٢: ١٩٩٠م، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

عنترة، عنترة بن شداد العبسي.(١٩٦٨م). ديوانه، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت، دار المعرفة، ط ١،

عيسى، فوزي سعد.(د.ت). الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، الإسكندرية: منشأة المعارف.

الغباري، عوض.(٢٠٠٣م). دراسات في أدب مصر الإسلامية، القاهرة: دار الثقافة العربية، ط ١.

الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني.(١٩٦٩م). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، بيروت: منشورات لجنة التأليف والترجمة.

الغرناطي، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الغرناطي الأندلسي.(٢٠٠٣م). تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: عمر عبد الله، القاهرة: نكتة الثقافة الدينية، ط ١.

الغريب، سلامة. (٢٠٠٣م). الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول، أطروحة دكتوراه، الأردن: جامعة مؤتة.

غطّاس، كرم. (١٩٤٩م). الرمزية والأدب العربي الحديث، بيروت: دار الكشف للنشر والتوزيع.

الغنيم، إبراهيم بن عبد الرحمن. (١٤١٦هـ). الصورة الفنية بالشعر العربي مثال ونقد، الرياض: الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط ١.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي. (د.ت). العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، القاهرة: مكتبة الهلال.

فضل، صلاح. (١٩٨٥م). علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي. (١٩٣٤م). القاموس المحيط، القاهرة: المطبعة الحسينية.

الفيفي، عبد الله بن أحمد المغامري. (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م). الصورة البصرية في شعر العميان كلية الآداب، السعودية: منشورات جامعة الملك سعود.

قاسم، قاسم عبده، الشعر والتاريخ. (١٩٨٣م). مجلة فصول، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد ٢.

قاسم، محمود. (١٩٦٩م). الخيال في مذهب محي الدين بن عربي، القاهرة: معهد الدراسات والبحوث العربية.

قباوة، فخر الدين. (١٩٧٢م). إعراب الجُمْل وأشباه الجُمْل، حلب: دار الأصمعي.

قرش، عبد القادر. (١٩٩٣م). الصورة الفنية في الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه، الجزائر: جامعة الجزائر.

القرطاجي، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن القرطاجي. (١٩٦٦م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم: محمد الحبيب بن خوجه، تونس.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي. (١٣٢٣هـ). الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام البخاري، الرياض: دار عالم الكتب.

قريبز، محمد. (١٩٨٦م). الشعر الصوفي بالأندلس في عصر المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير، سوريا: جامعة حلب.

القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني. (١٩٧٥م). الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق: عبد المنعم الخفاجي، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

قزيجة، رياض. (١٩٩٨م). الفكاهة في الأدب الأندلسي، صيدا: المكتبة العصرية.

القطّ، عبد القادر. (١٩٨٦م). الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: مكتبة الشباب.

القلقشنديّ، أبو العباس أحمد بن علي الفزاريّ القلقشنديّ. (١٣٣٣هـ - ١٩١٥م). صُبْح الأعرشى في صناعة الإنشاء، القاهرة: المطبعة الأميرية.

القيسي، فايز. (١٩٨٩م). أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، عمان: دار البشير للنشر والتوزيع.

كرم، يوسف. (١٩٥٩م). الطبيعة وما بعد الطبيعة، القاهرة: دار المعارف.

كريستفيا، جوليا. (١٩٩١م). علم النصّ، ترجمة: فريد الزاهي، المغرب: دار توبقال للنشر.

الكساسبة، رضا عبد الغني. (١٩٩٤م). أساليب النثر في عصر الموحدين وارتباطها بواقعهم الحضاري، رسالة ماجستير، لبنان: جامعة القديس يوسف.

الكفارنة، محمد نازك. (٢٠٠٠م). النشر الأندلسي في ظل الموحدين، أطروحة دكتوراه، مصر: جامعة عين شمس.

الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي. (١٩٨٥م). إحكام صناعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت: عالم الكتب.

كوهن، جان. (١٩٩٥م). اللغة العليا، ترجمة أحمد درويش، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

لاشين، عبد الفتاح. (١٩٩٩م). البديع في ضوء أساليب القرآن، القاهرة: دار الفكر العربي.

لويس، سي دي. (١٩٨٢م). الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي وآخرون، بغداد: دار الرشيد.

مبارك، زكي. (١٩٧٥م). النشر الفني في القرن الرابع الهجري، بيروت: دار الجليل.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي. (١٩٣٠م). الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: إبراهيم أبو الفضل، القاهرة: المكتبة العلمية.

المتنبى، أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى. (٢٠٠١م). ديوانه، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، بيروت: دار الكتاب العربي.

محمد، الولي. (١٩٩٠م). الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١.

المراكشي، محي الدين بن عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي. (د.ت). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: خليل عمران، بيروت: دار الكتب العلمية.

المرصفي، حسين. (د.ت). الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، مصر: مطبعة المدارس العربية.

- المسدي، عبد السلام. (٢٠٠٦م). الأسلوبية والأسلوب، بيروت، دار الكتاب الجديدة.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. (٢٠٠٥م). مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت: دار المعرفة.
- مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري. (د.ت). صحيح مسلم، استنبول: دار الدعوة.
- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي. (٢٠٠٠م). اللزوميات، ديوان ما لا يلزم، تحقيق: عمر الطباع، بيروت: دار الأرقم.
- مفتاح، محمد. (١٩٨٥م). تحليل الخطاب الشعري - استراتيجية التناص، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١.
- المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن يحيى المقري التلمساني. (١٩٦٨م). نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.
- المليحي، حلمي. (٢٠٠٠م). علم النفس المعاصر، بيروت: دار النهضة العربية.
- المنصوري، أحمد المهدي. (٢٠١٢م). الظواهر الأسلوبية في شعر علي الرقيعي، رسالة دكتوراه، سوريا: جامعة حلب.
- مؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الثامن الهجري. (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبد القادر زمامه، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة.
- مؤلف مجهول. (١٩٨٥م). الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد عبد الحميد، الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
- مؤلف مجهول، لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب، تحقيق: حسن فليفل، فلسطين: جامعة الخليل، نسخة رقمية جاهزة للطباعة أفاد منها الباحث بعد موافقة المحقق).

ميدان، أيمن محمد، تأثير المتنبي في الأدب الأندلسي، مجموعة لسان العرب الالكترونية.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني. (١٩٦١م). مجمع الأمثال، بيروت: مكتبة دار الحياة.

الميداني، عبد الرحمن. (١٩٩٦م). البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقها، دمشق: دار القلم.

النابعة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني. (٢٠٠٤م). ديوانه، شرح: عباس عبد الساتر، بيروت: دار الكتب العلمية.

الناصر، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري السلاوي. (٢٠٠١م). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء: منشورات وزارة الثقافة والاتصال المغربية.

ناصر، مصطفى. (١٩٨٤م). الصورة الأدبية، بيروت: دار الأندلس، ط٣.

نافع، عبد الفتاح صالح. (١٩٨٣م). الصورة في شعر بشار بن برد، عمان: دار الفكر.

نصر، عاطف جودة. (١٩٨٤م). الخيال مفهوماته ووظائفه، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

نعّاس، وليد شاكر. (١٩٩٧م). دراسة سيميائية في شعر أبي تمام، أطروحة دكتوراه، العراق: جامعة بغداد.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري. (١٩٧٦م). نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

الهاشمي، أحمد. (١٩٦٥م). جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، القاهرة: المكتبة التجارية، ط٢٦.

الهاشمي، أحمد. (١٩٩٩م). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، بیروت: مؤسسة المعارف.

الهرامة، عبد الحمید. (١٤١٢هـ - ١٩٩١م). آثار أبي زيد الفازاني الأندلسي، بیروت: دار قتيبة للنشر والتوزيع، ط ١.

الهروط، بلال سالم. (٢٠٠٨م). صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة دكتوراه، الأردن: جامعة مؤتة.

هلال، أحمد هندراوي. (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م). المجاز المرسل في لسان العرب، مصر: طنطا، د.ن، ط ١.

هلال، محمد غنيمي. (١٩٦٤م). النقد الأدبي الحديث: مصادره الأولى - تطوره - فلسفاته الجمالية - مذهب، القاهرة: دار مطابع الشعب.

الواحدی، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدی. (د.ت). شرح ديوان المتنبي، بیروت: دار القلم.

الورقي، السعيد. (١٩٨٣م). لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، القاهرة: دار المعارف، ط ٢.

وهاي، عبد الرحيم. (٢٠٠٥م). حضور الشعر في مباحث الفلاسفة المسلمين حول النفس، فكر ونقد، مجلة محكمة، المغرب: عدد ٦٧.

وهبة، مجدي. (١٩٧٤م). معجم مصطلحات الأدب، بیروت: مكتبة لبنان.

اليافي، نعيم. (د.ت). تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

اليافي، نعيم. (١٩٨٢م). مقدمة لدراسة الصورة الفنية، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحمويّ. (١٤٠٠هـ). معجم البلدان، بيروت: دار الفكر، ط ٣.

الياقوت، عبد الله بن عثمان. (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م). أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، رسالة دكتوراه، السعودية: جامعة أمّ القرى.

اليوسي، أبو علي نور الدين الحسن بن مسعود اليوسي. (٢٠٠٣م). زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: قصي الحسين، بيروت: دار الهلال.

الملاحق

ملحق ١: المراحل التاريخية المتعاقبة على الأندلس.

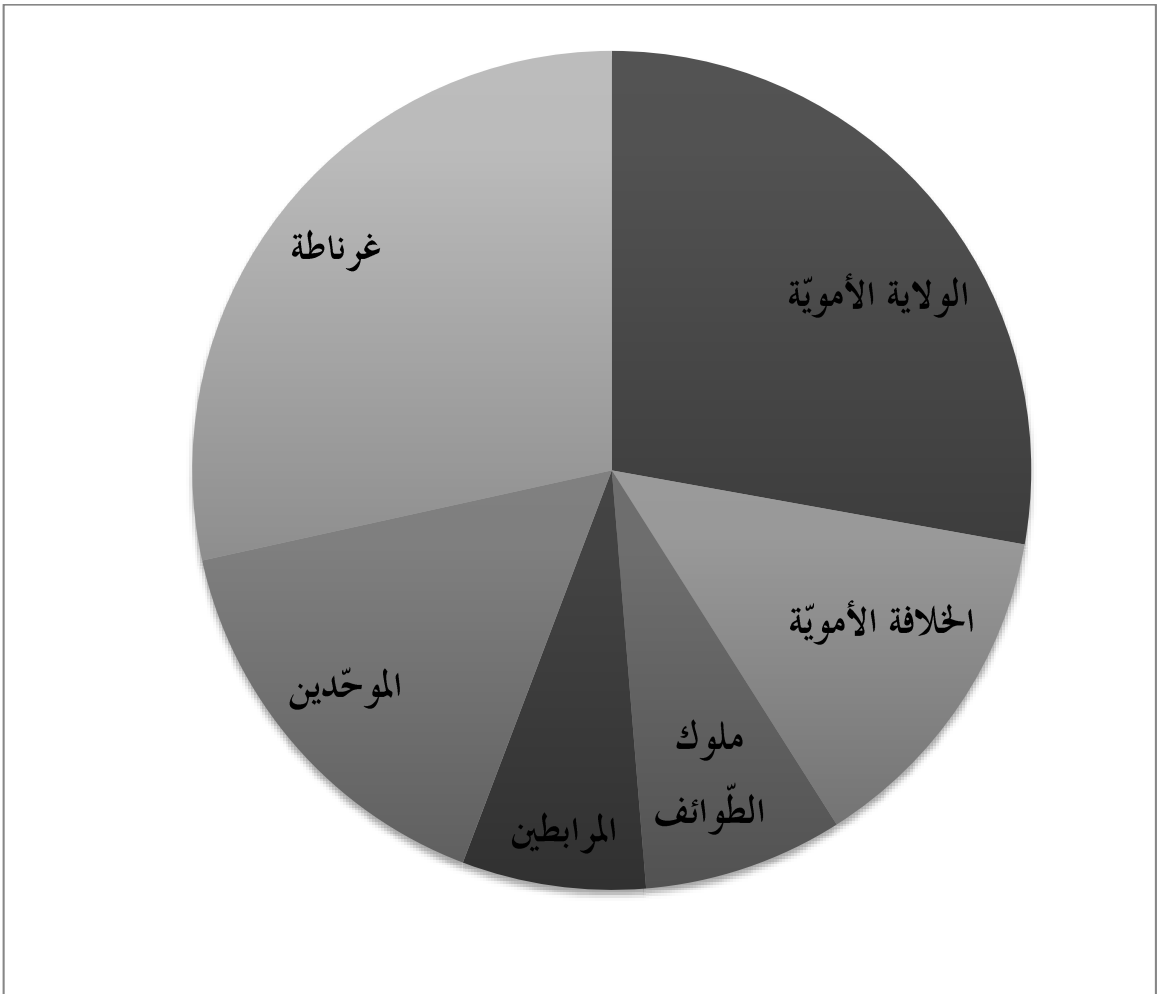
ملحق ٢: حكم الدولة الموحدية.

ملحق ٣: كتاب الرسائل الأندلسية.

ملحق ٤: موضوعات الرسائل الأندلسية.

ملحق ٥: أنماط افتتاح الرسائل الأندلسية.

ملحق ١: المراحل التاريخية المتعاقبة على الأندلس ٩٢ - ٨٩٧ هـ



- الولاية الأموية: ٩٢ - ٣١٦ هـ
- الخلافة الأموية: ٣١٦ - ٤٢٢ هـ
- ملوك الطوائف: ٤٢٢ - ٤٨٤ هـ
- المرابطين: ٤٨٤ - ٥٤١ هـ
- الموحدين: ٥٤١ - ٦٦٨ هـ
- غرناطة: ٦٦٨ - ٨٩٧ هـ.

ملحق ٢: حكام الدولة الموحدية

الرقم	الحاكم	مدّة حكمه
١	عبد المؤمن بن علي الكومي	٥٢٤ - ١١٤٢ ٥٥٨
٢	يوسف بن عبد المؤمن	٥٥٨ - ٥٨٠
٣	يعقوب بن يوسف (المنصور بالله)	٥٨٠ - ٥٩٥
٤	محمد بن يعقوب (الناصر لدين الله)	٥٩٥ - ٦١٠
٥	يوسف بن محمد الناصر (المستنصر)	٦١١ - ٦٢٠
٦	عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن	٦٢٠ - ٦٢١
٧	عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل)	٦٢١ - ٦٢٤
٨	يحيى بن محمد الناصر (المعتصم)	٦٢٤ - ٦٢٧
٩	إدريس بن يعقوب المنصور (المأمون)	٦٢٧ - ٦٢٩
١٠	عبد الواحد بن إدريس المأمون (الرّشيد)	٦٢٩ - ٦٤٠
١١	علي بن إدريس المأمون (السعيد)	٦٤٠ - ٦٤٦
١٢	عمر بن إبراهيم بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن (المرتضى)	٦٤٦ - ٦٦٥
١٣	إدريس بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن (الواثق بالله)	٦٦٥ - ٦٦٨.

^{١١٤٢} تولى إمارة الموحدين بعد وفاة محمد بن تومرت سنة ٥٢٤هـ وكانت الدولة المرابطية قائمة في ذلك الوقت، حيث حلت الدولة الموحدية محلها بعدما دخل الموحدون مراكش وقتلوا آخر أمراءها إبراهيم بن تاشفين سنة ٥٤١هـ.

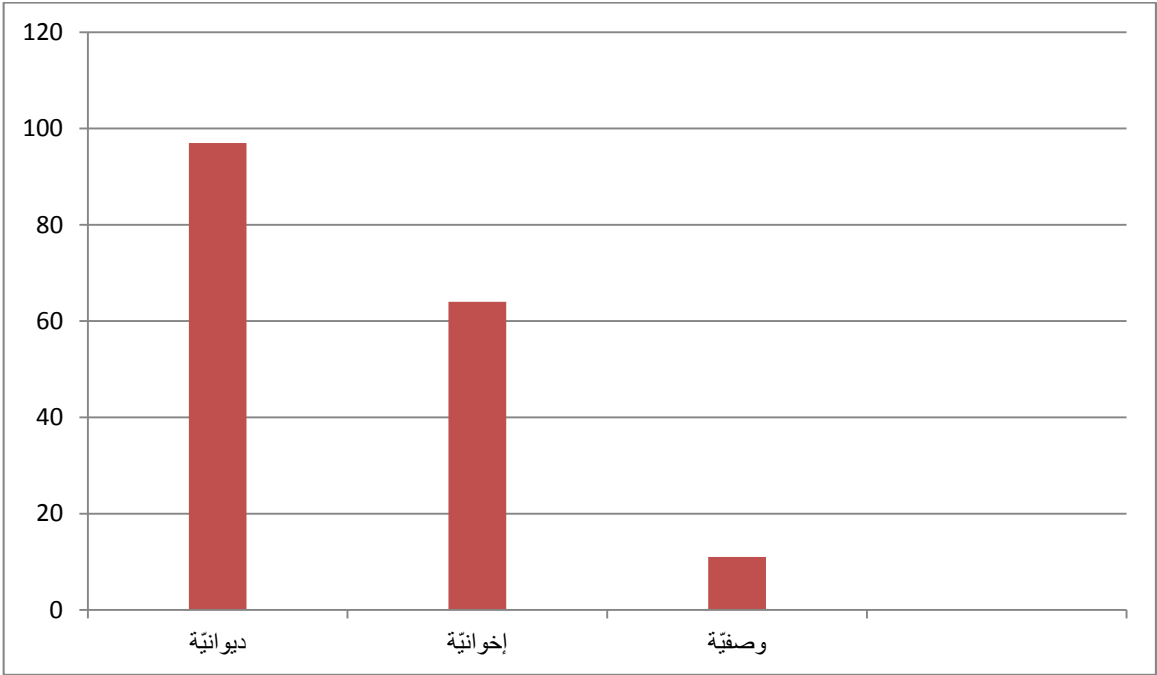
ملحق ٣: كتاب الرسائل الأندلسية

الكتاب	سنة وفاته	عدد رسائله	
ابن عميرة	٦٨٥	٤٠	١
الفازازي	حوالي ٦٢٧	٢٣	٢
ابن الجنان	حوالي ٦٤٦	١٥	٣
ابن مغاور الشاطبي	٥٨٧	١٢	٤
أبو عبد الله بن عيَّاش	حوالي ٦١٨	١٠	٥
صفوان بن إدريس	٥٩٨	١٠	٦
سعيد بن حكم	٦٨٠	٥	٧
ابن الأتبار	٦٥٨	٤	٨
أبو الحسن بن عيَّاش	٥٦٨	٤	٩
أبو القاسم البلوي	٦٥٧	٤	١٠
ابن محشرة	٥٩٨	٤	١١
ابن المرخي	٥٨٤	٣	١٢
إدريس المأمون	٦٢٩	٣	١٣
ابن جبير	٦١٤	٢	١٤
أبو الحسن الإشبيلي	٥٧٢	٢	١٥
ابن سعيد	٦٨٥	١	١٦
ابن صقلاب	٦١٩	١	١٧
ابن مرج الكحل	٦٣٤	١	١٨
الشَّقْنَدِيّ	٦٢٩	١	١٩
عزير بن خطّاب	٦٣٦	١	٢٠

٢١	ابن مصادق ^{١١٤٣}		١
٢٢	أحمد بن محمد		١
٢٣	كتاب مجهولون		٢٤

^{١١٤٣} لم يُعثر على ترجمة لابن مصادق ولأحمد بن محمد، وقد وُجِدَ لكل واحدٍ منهما رسالةٌ ديوانية.

ملحق ٤: الرسائل الأندلسية بحسب النوع



نوع الرسائل	عدد	نسبتها المئوية
ديوانية	٩٧	٥٦,٤
إخوانية ^{١٤٤}	٦٤	٣٧,٢
وصفية	١١	٦,٤

^{١٤٤} بما فيها الرسائل الإخوانية التي تحوي وصفا.

ملحق ٥: أنماط افتتاح الرّسائل

الافتتاح	عدد الرسائل	النسبة المئويّة	
الافتتاح بذكر المرسل أو المرسل إليه	٤٩	٢٨.٥	١
الافتتاح بالشعر	٣٥	٢٠.٣	٢
الافتتاح مبتور	٣١	١٨	٣
الافتتاح بالبسملة	١٨	١٠.٥	٤
الافتتاح بالدعاء	٩	٥.٢	٥
الافتتاح بالسلام	٩	٥.٢	٦
الافتتاح بحمد الله	٨	٤.٦	٧
الافتتاح بتقديم يمهّد لموضوع الرسالة	٦	٣.٥	٨
الافتتاح بآية قرآنية كريمة	٤	٢.٣	٩
الافتتاح بالتحية	٣	١.٧	١٠

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنيّة الكريمة
- فهرس الأحاديث النبويّة الشريفة
- فهرس الأشعار
- فهرس الأمثال

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الرقم	الآية الكريمة	السورة	رقم الآية	الصفحة
١	﴿لَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَى النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ مِنْ يُخْرِجُهُمْ أَمْثَلُ الَّذِينَ وَلِيَ اللَّهُ ظُلُمَاتٍ إِلَى النُّورِ مِنْ يُخْرِجُهُمْ أَطْنُفُوتُ أُولِيَاءُ وَهُمْ كَفَرُوا وَأَوْ خَلِدُونَ فِيهَا هُمْ النَّارُ أَصْحَابُ وَلِيَّكَ﴾	البقرة	٢٥٧	١٥٨
٢	﴿هُمْ أَسْوَدَتِ الَّذِينَ فَأَمَّا وَجُوهُهُ تَسْوَدُّ وَجُوهُهُ تَبْيَضُّ يَوْمَ نَكُنْتُمْ بِمَا الْعَذَابُ فَذُقُوا إِيْمَانِكُمْ بَعْدَ أَكْفَرْتُمْ وَجُوهُهُ اللَّهُ رَحْمَةً فِي وَجُوهُهُهُمْ أَبْيَضَتِ الَّذِينَ وَأَمَّا ﴿١٦١﴾ تَكْفُرُوا خَلِدُونَ فِيهَا هُمْ﴾	آل عمران	١٠٦- ١٠٧	١٦٠
٣	﴿لِلْمُتَّقِينَ وَمَوْعِظَةٌ وَهُدًى لِلنَّاسِ بَيَانٌ هَذَا﴾	آل عمران	١٣٨	١٧٤
٤	﴿لِلتَّقْوَى أَقْرَبُ هُوَ أَعْدِلُوا﴾	المائدة	٨	١٩٩
٥	﴿النَّاسُ قَتَلَ فَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ فِي فَسَادٍ أَوْ نَفْسٍ يَغْيَرُ نَفْسًا قَتَلَ مَنْ جَمِيعًا النَّاسُ أَحْيَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا هَا وَمِنْ جَمِيعًا﴾	المائدة	٣٢	١٢٥
٦	﴿يُوقِنُونَ لِقَوْمٍ حُكْمًا اللَّهُ مِنْ أَحْسَنُ وَمَنْ﴾	المائدة	٥٠	١٩٩
٧	﴿كُمُ ذِكْرًا بِالْحَقِّ لَا إِلَهَ حَرَّمَ أَلَّتِي النَّفْسُ تَقْتُلُوا وَلَا تَعْقِلُونَ لَعَلَّكُمْ بِهِ وَصَدَّ﴾	الأنعام	١٥١	١٢٥
٨	﴿هَدَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَدَمَ بَنِي مِنْ رَبُّكَ أَخَذُوا إِذْ	الأعراف	١٧٢	٦١

			بِرَبِّكُمْ أَلسْتُمْ أَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ وَاشْتِ. ﴿٥٠﴾	
٢٤٠	٧٣	هود	﴿٥١﴾ مُحَمَّدٌ حَمِيدٌ إِنَّهُ رَ الْبَيْتِ أَهْلٌ عَلَيْكُمْ وَرَكَّتُهُ وَاللَّهُ رَحْمَتُ ﴿٥٢﴾	٩
٤٢	١	إبراهيم	﴿٥٣﴾ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ مِنَ النَّاسِ لَتُخْرِجَ. ﴿٥٤﴾	١٠
٤٣	٢٩	الإسراء	﴿٥٥﴾ عُنُقِكَ إِلَى مَغْلُولَةٍ يَدُكَ تَجْعَلُ وَلَا. ﴿٥٦﴾	١١
٥٩	٦٦	طه	﴿٥٧﴾ تَسْعَى أَنَّهُا سَحَرِهِمْ مِنْ إِلَيْهِ تُمُخِّلُ. ﴿٥٨﴾	١٢
١٦٢	١٠٢	طه	﴿٥٩﴾ رُزْقًا يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمِينَ وَنَحْشُرُ الصُّورِ فِي يَوْمِ يَنْفَخُ يَوْمَ. ﴿٦٠﴾	١٣
٤٦	٦٧	الزمر	﴿٦١﴾ وَالْأَرْضِ مَطْوِيَّتٍ وَالسَّمَوَاتِ الْقَيْمَةِ يَوْمَ قَبَضْتُهُ رَجْمِيًا ﴿٦٢﴾ بِيَمِينِهِ. ﴿٦٣﴾	١٤
١٧١	٦٩	الأنبياء	﴿٦٤﴾ (إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ وَسَلَامًا بَرْدًا كُونِي يَنَابُزُ قُلْنَا).	١٥
٤٠	٨	الانفطار	﴿٦٥﴾ رَكْبَكَ شَاءَ مَا صُورَةٌ أَيْ فِي. ﴿٦٦﴾	١٦

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الرقم	الحديث الشريف	مصدر الحديث	الصفحة
١	إِنَّ الْأَرْضَ لَتَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَكِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرِيَكُمْ تَعْظِيمَ حُرْمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.	سنن ابن ماجه	١٢٩
٢	إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ.	صحيح مسلم	١٢٧
٣	إِنِّي مِمَّنْ مَسَّكَ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَتُقَاجِمُونَ فِيهَا تَقَاحُمَ الْفَرَاشِ وَالْجَنَادِبِ.	صحيح مسلم	١٢٨
٤	حُرْمَةُ مَالِ الْمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ.	صحيح مسلم	١٢٧
٥	لَا تَسْأَلُ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكِلْتَا إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا.	صحيح مسلم	١٢٨
٦	لَيْسَ الْمُسْكِينُ مَنْ تَرَدَّدَ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، قَالُوا: فَمَا الْمُسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يَغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا.	صحيح مسلم	١٢٨

فهرس الأشعار

الرقم	البيت	الشاعر	البحر	الصفحة
١	إذا ذهب العتاب فليس ودّ ويبقى الودّ ما بقي العتاب	شاعر مجهول	الوافر	١١٠
٢	فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا	جرير	الوافر	٢٢
٣	كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه	بشار بن برد	الطويل	٣٢
٤	لبستم في مآتمكم بياضا فجئتم منه في زي غريب	شاعر مجهول	الوافر	١٥٦
٥	زدنا على النائن عن أوطانهم وإن اشتركنا بالصباية والجوى	أحمد بن عميرة	الكامل	٢٥٨
٦	ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بدّ	المتنبي	الطويل	٢٥٩
٧	أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد	عروة بن الورد	الطويل	٢٦٦
٨	ألا إن حلّ الشعر زينة كاتب ولكن منهم من يحلّ فيعقد	الثعالي	الطويل	٢٦٤
٩	وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند	طرفة بن العبد	الطويل	١١٢
١٠	وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار	الخنساء	البسيط	٢٦٥
١١	عصيت هوى نفسي صغيرا فعندما رمتني الليالي بالمشيب والكبر	أبو الحسن بن عيّاش	الطويل	٨٤

١٢	إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة	الفضل بن عبّاس	السريع	٢٦٥
١٣	من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس	الحطيئة	البسيط	٢٦٠
١٤	أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا	ابن الأبار	البسيط	٨٢
١٥	نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقنا	ابن زيدون	البسيط	٦٣
١٦	وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا	حسان بن ثابت	البسيط	٦٠
١٧	كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي	امرؤ القيس	الطويل	٣٢
١٨	تلك المكارم لا قعبان من لبن شيئا بماء فعادا بعد أبوالا	أمية بن أبي الصلت	البسيط	٢٦٦
١٩	وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فقل	المتنبي	البسيط	١١٦
٢٠	أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم	المتنبي	الطويل	٦٣
٢١	وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام	المتنبي	المديد	٢٦٦
٢٢	لعمرك إن إلّك من قریش كإل السقب من رأل النعام	حسان بن ثابت	الوافر	٢٦٥
٢٣	ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي	عنتره	الكامل	٦٣
٢٤	يستخشن الخز حين يلمسه	المتنبي	المنسرح	٢٦٦

			وكان يرى بظفره القلم	
٣٢	السريع	شاعر مجهول	الحمد لله بلغنا المنى لا حد في الخمر ولا في الغنا	٢٥
٢٦٠	البسيط	ابن زيدون	بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا	٢٦

فهرس الأمثال

الرقم	المثل	الصفحة
١	أشرد (أحمق، أجبين، أعدى) من نعمة وركب فلان جناح نعمة.	١٤٢
٢	أطري فيائك ناعلة	١٣٥
٣	أنفك منك وإن كان أجدع.	١٣٦
٤	تحت الرغوة اللبن الصريح.	١٣٥
٥	زاحم بعود أو دغ.	١٣٦
٦	ششنة أعرفها من أخزم.	١٣٦
٧	طال الأمد على لبد.	١٣٦
٨	عش رجبا تر عجباً.	١٣٤
٩	فسا بينهم الظربان .	١٣٤
١٠	لأمر ما جدع قصير أنفه.	١٣٦
١١	مطرة نيسان تُحيي الأرض والإنسان (تحيي كل عرق فان).	١٥٣
١٢	يسر حسواً في ارتغاء.	١٣٦